

عالم المعرفة

اللغة والهوية

قومية - إثنية - دينية

تأليف: جون جوزيف
ترجمة: د. عبدالنور خراقي

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923-1990

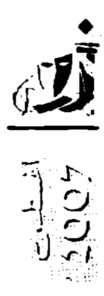
342

اللغة والهوية

قومية - إثنية - دينية

تأليف: جون جوزيف

ترجمة: د. عبدالنور خراقي



العنوان الأصلي للكتاب

Language and Identity

National, Ethnic, Religious

by

John E. Joseph

Palgrave Macmillan,new york,2004

طبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

رجب ١٤٢٨ - أغسطس ٢٠٠٧

1

مقدمة

هوية الهوية

إن هويتك، بكل بساطة، هي ماهيتك. وإذا سألك شخص ما: «من أنت؟»، فسينتظر منك أن تذكر اسمك ردا على سؤاله. وتقوم بهذا على نحو مباشر لا لبس فيه ولا مراء، اللهم إلا إذا كنت تعاني الأنوميا anomia (*) وهو شكل من فقدان الذاكرة الذي يؤدي بك إلى نسيان هويتك الخاصة، أو أن الظروف لا تسمح لك بأن تبوح بهويتك، حتى لا تعرض نفسك للخطر. الحالة الأولى نادرة جدا، ولكن بخصوص الثانية، فالمرء يتساءل: متى كان يطلب أي شخص منك، في واقع الأمر، الإفصاح عن هويتك، سوى في ظروف تشي بالخطر؟ ففي أسوأ حال، يطلب منك الشرطي أو حراس الحدود تقديم أوراق

«إن الهويات التي نشكلها بالنسبة إلى أنفسنا والهويات التي نشكلها بالنسبة إلى الآخرين، لا تبدو كأنها مختلفة من حيث النوع - فالهوية هي الهوية - وإنما الذي يتغير هو الوضعية التي نمنحها لهم»

المؤلف

(*) يتعلق الأمر هنا باللامعيارية على المستوى النفسي. وقد وظف هذا المفهوم في العلوم الاجتماعية من قبل دوركهايم في كتابه «تقسيم العمل في المجتمع» (١٨٩٣) ليدل على وجود حالة من غياب المعايير أو ضعفها تمس النسق القيمي بين مجموعة أو أكثر داخل المجتمع. ولمزيد من الإيضاحات انظر كتاب «الهوية، أزمة الحداثة والوعي التقليدي» (٢٠٠٤) للكاتب حليم بركات، رياض الريس للكتب والنشر: بيروت، لبنان [المترجم].

إثبات هويتك تحت تهديد السلاح. ولكن يجب أن تدرك أنه حتى إن كان يتحدث إليك شخص ما بطريقة ودية في حانة من الحانات. فأنت تحسب على الغرباء، ولو أن هذا لا يغيظ، على الأقل، بشكل كبير. أو لعل الشخص الذي يسأل «من أنت؟» يعرف اسمك سلفا. ولعلك كنت الشخص الذي ينظر في المرآة. ومن الواضح هنا أن ثمة شكلا عميقا من الهوية يجري البحث عنه. من أنت «حقا»؟ من أنت في «دخيلة النفس»؟ إنها أسئلة يصعب الآن الإجابة عنها بسهولة، لأن التعرف على المرء في «دخيلة نفسه» أو في عمق كنهه أمر لا يمكن وصفه ولا التعبير عنه بشكل تام.

وربما كان الناس الذين نحسب أننا نفهم هويتهم بشكل تام للغاية هم الشخصيات الأدبية العظيمة مثل: ليرس Lears وإيما بوفاري Emma Bovary، وهاري بوتر Harri Potter، الأقرب إلى الواقع. وقد تمكن مؤلفوهم من وصف شيء أكثر روعة من الجوهر الباطني لإنسان حقيقي. وباستخدامهم اللغة بمفردها، فقد خلق هؤلاء المؤلفون أشخاصا يجد القراء فيهم صدى لكينونتهم الباطنية الخاصة - أي أشخاصا، من ناحية ما، أكثر واقعية من أي فرد حقيقي. ولأنهم تحديدا لغويون من حيث التركيب، أمكن معرفتهم أكثر من غيرهم.

وعليه، يوجد مظهران أساسيان لهوية شخص ما: أولهما اسمه الذي يميزه عن غيره من الناس، وثانيهما ذلك الشيء غير الملموس والأكثر تعقيدا وعمقا الذي يشكل، في الحقيقة، ماهية المرء، والذي لا نملك كلمة دقيقة تصفه. فالروح، بالنسبة إلى العديد من الناس، مثقلة بدلالات دينية تصرف الانتباه عن معناها الجوهري. أما الأنا (الذات أو الشعور)، فهي مثقلة، وعلى نحو مشابه، بشحنة فرويدية. والذات الباطنية عابقة بعلم النفس الشعبي الذي ظهر أخيرا، كما أن للهوية معنى إضافيا له علاقة «بحالة المطابقة»، والهوية الشخصية نفسها يعتريها التباس بين اسم المرء، الذي يؤدي وظيفة «إشارية» (deictic function) في تعريف فرد ما، واسم شيء آخر قد نحسب أنه معنى لاسم المرء، الذي يؤدي الوظيفة «الدلالية» التي تخبرنا بماهية هذا الفرد حقا. وثمة مصطلحات أخرى طرحت، سنناقش لاحقا. ولكن لاحظ، أن ما نحن بصدد محاولة تفسيره بشكل دقيق هنا، هو هوية «الهوية». وهذا من المفارقة بمكان، لأنه عندما نُعرف الكلمة (تماما مثلما هي الحال بالنسبة إلى الاسم)، آنذاك تصبح هويتها أحد معانيها.

ما دور اللغة؟

تصور، إذا أمكن لك ذلك، مجموعة من الغرباء في انتظار سيارة أجرة في محطة للسيارات، ومرت سيارة خالية من الركاب بالقرب منهم من دون توقف، فتلا ذلك السلوك التعليقات التالية:

ا ـ أمر مهين.

ب ـ قل إذن! (.I say)

ت ـ لتذهب إلى الجحيم!

فمن المرجح جدا أنه تشكل في ذهنك طبيعة كل من (أ)، و(ب)، و(ت). وربما أمكنك الآن أن تخبرني عن كيف يرتدون ملابسهم، وعن خلفية كل واحد منهم، وعن عملهم، وعن الأشياء التي يحبونها، وعما إذا كنت تحبهم أو لا. فأنا أقدم بانتظام لمجموعات من الطلبة حوارات قصيرة من هذا القبيل وأطلب منهم أن يصفوا المتكلمين المشاركين فيها. فتعجب لمدى قدرتهم على استنتاج الكثير انطلاقا من خطوط ملتوية قليلة في صفحة. هذا كل ما يستغرقه تشكيل شخص بكامله في أذهاننا، ويكون الاستنتاج أكثر فاعلية عندما تمثل الخطوط الملتوية شيئا قاله هذا الشخص.

إن مدى توافق هذه الاستنتاجات مع الهوية «الحقيقية» لكل من (أ)، و(ب)، و(ت) ليست هي النقطة المهمة في الموضوع. وقد لا تكون هناك هوية «حقيقية» ـ ربما قمت أنا بخلقهم، وسواء كان فهمي لهويتهم له أي مستند خاص، يبقى ذلك موضع نقاش. ويتجلى الشيء المهم في قوة قدرتنا الغريزية على تشكيل هويات تقوم على هذا المدخل الأدنى. فمن الواضح، إذا استمعنا إلى الحوار كما جاء في كلام الأفراد الثلاثة، فستتأثر تأويلاتنا لهوياتهم بأصواتهم، ولهجاتهم، وسمات أخرى تتعلق بكيفية كلامهم. وإذا ما شاهدنا الحوار على شريط الفيديو، فستتأثر تأويلاتنا أيضا بمظهرهم، مثلا إذا كان (س) يرتدي بذلة السافيل رو (Savile Row)الفاخرة، مقابل بذلات الجيش القديم التي تأتي من متجر خيري، فإن (س) المرأة ستقيّم بشكل يختلف عن (س) إذا كان رجلا.

وعليه، فإنه ليس من الصحيح أن نجزم القول إن اللغة تحدد كلية كيفية تصورنا لشخص ما. ولكن طريقة كلامهم بمعزل عن طريقة مايقولونه تلعب دورا أساسيا جدا. وإن اتصالنا بالناس، في عدد كبير من الحالات، لغوي

بحث، يجري عبر الهاتف، أو الإنترنت، والرسالة، أو عبر قراءتهم بوصفهم شخصيات في كتاب، إلى غير ذلك. وتحت هذه الظروف، يبدو أننا قادرون على تفحصهم، وعلى معرفة ماهيتهم حقا - معرفة تلك الهوية «الخفية» مرة أخرى - بشكل مرض أكثر مما لو اكتفينا برؤيتهم ولم يحصل بيننا أي اتصال لغوي. إن المظاهر تخدع كما جاء في المثل.

وأكثر من هذا، إن طريقة تشكيلنا الدقيق لهويات شعب آخر هو مهم في حد ذاته. إننا نقوم بعملية رأب الصدع بين الشاهد اللغوي الضئيل وشواهد أخرى متاحة لنا. وإن الشخص الذي نشكله برمته، باستعمالنا معرفة قد يكون قدر منها فطريا فينا بشكل وراثي (من المستحيل معرفته في هذه المرحلة)، ولكن القدر الأكبر منها تراكم تكون على مدى حياة حافلة بتجارب اكتسبناها من خلال الاحتكاك المستمر بالناس، فنضع «فرضيات» حول طبيعتهم و«نختبر» هذه الفرضيات في معاملاتنا معهم. ولدى كل إنسان هذا التراكم من المعرفة، ويسخره في كل لقاء اجتماعي. إنه شيء فريد من نوعه يشبه تجربة حياتنا الخاصة، وعندما نسخره في تشكيل هوية شخص آخر، فإننا بذلك نشكل شيئا يشمل ماهيتنا بالقدر نفسه على الأقل، ويشمل في الغالب قدرا أكبر من ماهيتهم.

وقد بدأت بهذه الظاهرة الفردية للغة والهوية، لأنها، وكما هي الحال بالنسبة إلى الاسم الذي يمتلكه المرء، جزء من التجربة اليومية لكل شخص. وهناك ظواهر أخرى عديدة تمتد إلى دور اللغة في تأسيس هويات قومية والحفاظ عليها. ولكنها مرتبطة كلها بهذا المستوى الأساسي جدا من التجربة الفردية. وهي، في الواقع، استمدت وجودها منه بطرق معقدة، التي سيخصص قدر كبير من هذا الكتاب لوصفها.

نماذج أساسية من الهوية

لقد رأينا إلى حد الآن ثلاثة أزواج بارزة من انواع فرعية للهوية الشخصية:

- أحدها لأناس حقيقيين، والآخر لشخصيات خيالية.
- أحدها لأنفسنا، والآخر للآخرين.
- أحدها للأفراد، والآخر للمجموعات.

وعلى الرغم من وجود اختلافات واضحة في كل حالة، فليس من الواضح أن كل هذه الاختلافات أساسية جدا حتى نطلب تأسيس ست فئات تحليلية منفصلة. فليس من السهل جدا، في الواقع، التمييز بين الهويات الحقيقية وأفراد خياليين. وعندما يتعلق الأمر بموضوع ترجمة حياة شخص ما، يصبح من الصعب القول ما إن كنا نتعامل مع شخصية حقيقية أو شخصية اعتبارية خيالية؛ إذ ينتحل الأفراد الحقيقيون، في بعض الأحيان، هويات «زائفة» (فمشكل «سرقة الهوية» في تصاعد)، وفي أكثر من مناسبة يسيئون تمثيل سماتهم الخاصة، وهذا واضح مثلا عندما يدرجون أنشطة وقت فراغهم في نسخة ما من سيرتهم الذاتية. وسواء كان ذلك عن قصد أم لم يكن فلا يستطيع أحد، على وجه اليقين، معرفته باستثناء الشخص المعني بالأمر، ومع ذلك فهو ليس واضحا دائما. وبالتالي، إن القصد من قول الحقيقة أو خلق خيال ليس مهما، هذا إن وجد، في التمييز بين أنواع الهوية. وقد اقترحت علاوة على ذلك، أن الشخصيات الخيالية يمكن أن تبدو أكثر «واقعية» من الناس «الحقيقيين»، لأن هوياتهم محصورة ومحددة تماما. وربما أيضا كانت الرغبة الحديثة لأن يكون هناك إحساس واضح بالذات، هي نتيجة للشعور بمعرفة شخصية في رواية أو فيلم على نحو تام، في حين يجد المرء ذاته غير مرتبة وضبابية وأن معرفته بها غير مكتملة.

وقد حظيت هوية الذات، ولفترة طويلة، بدور مميز في البحث المتعلق بالهوية. وسنفحص بعض الأسباب الكامنة وراء ذلك، ونتساءل عن ضرورة استمرار هذا الامتياز بشدة. وفي هذه النقطة بالذات، يكفي أن نقول إن الهويات التي نشكلها بالنسبة لأنفسنا والهويات التي نشكلها بالنسبة للآخرين، لا تبدو كأنها مختلفة من حيث النوع - فالهوية هي الهوية - وإنما الذي يتغير هو الوضعية التي نمنحها لهم، وهذا فرق كبير جدا. وذلك باعتراف الجميع.

إن الفرق بين الهوية الفردية وهوية جماعة ما - سواء كانت أمة أو مدينة، عرقا أو إثنية، جنوسة أو توجها جنسيا، ديانة أو طائفة، مدرسة أو ناديا، شركة أو مهنة، أو هوية تلك المجموعة الأكثر غموضا المتمثلة في الطبقة الاجتماعية (والقائمة طويلة) - هو في معظمه فرق حقيقي من نوعه. وهويات المجموعة (أو «الجماعة») والهويات الفردية تعمل بشكل مميز جدا على

المستوى الإشاري أو الاسمي، بما أن هويات المجموعة، مثل «أمريكي» أو «أنثى» لا تشكل ما نعتبره بشكل طبيعي أسماء. فاسم العلم هو كلمة مثل «جوزيف»، كان له معنى في لغة ما (في هذه الحالة، العبرية)، ولكنه الآن تسامى إلى الوظيفة الإشارية للدلالة على أفراد خصوصيين. وسنرى، على الرغم من ذلك، أن درجة هذا التسامي تتفاوت كثيرا من ثقافة إلى أخرى.

وفي المقابل، فإن «أمريكي» هو مصطلح ذو معنى قائم بشكل صريح، لا يشير فقط إلى بعض الأشخاص، بل يعبر عن شيء يتصل بهم، أكثر دلالة من مجرد مسألة أن «جون» هو اسم اختاره أبواه له. ومع ذلك، يعتبرالفرق بين الهوية الفردية وهوية المجموعة أكثر تعقيدا على هذا المستوى الدلالي. وتتكون هويتك الشخصية «الباطنية» جزئيا من الهويات المختلفة للمجموعة التي تعلن عن حقك فيها، وإن كنت تعتقد من دون شك أن لديك جزءا يتجاوز مجموع هذه الأجزاء.

واعتبار أن مصطلح «اسم» لاينطبق دائما على هويات المجموعة بشكل جيد، لذا فإن الضرورة تدعو إلى إيجاد شيء أوضح وأشمل. وبهذا، سأقترح استخدام مصطلح الدال signifier، لأنه على الرغم من أننا لم نلجأ إلى مصطلح مستوحى من الآداب حيث يمكن لكلمة عادية أن تقوم بالمهمة، إلا أنه في هذه الحالة، يعتبر النموذج الذي ينطبق عليه هذا المصطلح أنيقا من حيث الشكل على نحو أسمى. ويقدم إطارا بسيطا لفهم كيفية ظهور الهوية إلى حيز الوجود. إنه نموذج العلامة اللغوية كما ابتكرت من قبل فرديناند دي سوسير (١٨٥٧-١٩١٣)، وتتألف من تزامن دال (نمط صوتي، وهي «كلمة» بالمعنى المعتاد) ومدلول signified مفهوم، معنى «الكلمة» بالمعنى المعتاد. ففي الفصل الخامس، سأجادل في أن الهوية القومية - «الإيطالية» مثلا - تبدأ بكونها دالا لمدلول يوجد كرغبة فقط في بداية الأمر. وبدافع كاف، يمكن لأولئك الذين يحملون هذه الرغبة أن يتقاسموها مع جمهور ناقد داخل الأمة المفترضة. وعندما يحدث هذا، يصبح المدلول، «الشعب الإيطالي»، حقيقيا (أي حقيقيا مثله مثل اي مدلول كان، مع اعتبار أنها تصورات أو فئات بدلا من كونها أشياء مادية واقعية).

وتبدو هويات الجماعة أكثر تجريدا من هويات الفرد، باعتبار أن «الأمريكانية» Americaness لا توجد بمعزل عن الأمريكيين الذين يمتلكونها، إلا كتصور مجرد. ومع ذلك، فإن مركبات من هذه التجريدات هي ما تتشكل

منه هوياتنا الفردية الخاصة. وعلاوة على هذا، كثيرا ما تجد هوية الجماعة مظهرها الأكثر «واقعية» في فرد رمزي مستقل. إن هويات الجماعة التي نتقاسمها تغذي إحساسنا الفردي بماهيتنا، ولكن يمكن لها أيضا أن تكتمه. كما يمكن ترسيخ الهوية الفردية جزئيا حسب المنزلة في علاقتها بالآخرين الذين ينتمون إلى هوية المجموعة نفسها.

إن هذا التوتر المتبادل بين الهويات الفردية والجماعية يعطي التصور العام للهوية قوته. ويكون قد حدد إطار هذا الكتاب على نطاق واسع. وما يعتبر بالخصوص مهما بشأن الهوية لشخصية أدبية ناجحة هو تجسيدها لهوية الجماعة - المرأة العصرية، الشخص الذي أوقع في شرك القيد الاجتماعي - في شكل فرد يبدو معقولا. وفي الواقع، يمكن أن نعتبر حياة بطل حقيقي او بطلة أو زعيم أو نجم على أنهم يقومون بالشيء نفسه تماما، مجسدين في شكل خالص بالخصوص، قيمة مشتركة أو قيمة يطمح إليها على نطاق واسع. ويصف مصطلح «الرمز الجنسي» (sex symbol)، بصراحة، الطبيعة الرمزية لأولئك الذين تنطبق عليهم.

وأخيرا، يعني هذا أن الفرق بين الهوية الفردية والهوية الجماعية غير واضح تماما كما يبدو في الأول. ولكنه مع ذلك قوي وأساسي لفهم الظاهرة في مجملها بشكل جيد، لتدرك كيف يتبدد هذا الفرق في نهاية المطاف. وما يتناغم مع أهدافنا، إذن، هو أن الهويات الفردية والجماعية تتألف من نوعين أساسيين يمكن تحليلهما، كل على حدة، إلى مظهر إشاري ودلالي.

بناء وتعددية

تدعو الحاجة في هذه المقدمة إلى تناول بعض السمات في المعالجة المعاصرة للهوية، لأنه مهما كان الاهتمام بها محدودا، إلى حد ما، من قبل المختصين، فمن الممكن لهذه السمات أن تكون مفاجئة ومثيرة للجدل بالنسبة إلى أولئك الذين توصلوا إليها للمرة الأولى. فالأولى تتمثل في افتراض أن هوياتنا، سواء كانت فردية أو جماعية، ليست «وقائع طبيعية»، تختص بنا، ولكنها أشياء نشكلها، تخيلات، في الواقع.

وليس من السهل أن يقبل بهذا شخص ما يظن أن هويته الشخصية قابعة في روح، أو على الأقل في حس لذات مستقرة خلال فترة حياته كلها. وليس واضحا ان هويتي كإنسان، وكأمريكي، وكقوقازي ليست «وقائع طبيعية»،

تخنص بي، قابعة حسبما يبدو في هيئتي الجسدية، ومسألة مكان مسقط رأسي ومسقط رأس والدي، ولون بشرتي. فإذا حاولت أن أدعي أنني امرأة صينية سوداء، فسيعتبر ذلك خيالا لأن هويتي الحقيقية هي هوية رجل أمريكي أبيض. وحتى إن خضعت لعمليات لتغيير جنسي ولوني، وأصبحت مواطنا صينيا، فسأصبح مع ذلك شخصا يجمع كل هذه الأشياء أو المكونات. فعلى الرغم من ذلك كله، لن يشكلوا هويتي الحقيقية.

ومن ناحية أخرى، إن مسألة كوني «قوقازيا»، تتوقف على خيارات أخرى. فإذا كان أحد هذه الخيارات أن أكون «ساميا» Semitic، فربما كانت هذه هي هويتي، وبما أن أجدادي من جهة الأب كانوا من سكان لبنان الأصليين الناطقين بالعربية، وسواء كانت تتحدر سلالتنا السامية من أصول فينيقية أو عربية (والتي سنناقش سياساتها في الفصل الثامن)، فهي مكتوبة على جبيني بشكل واضح، الأمر الذي أكدته أسئلة عدد هائل من الناس الذين كانوا طوال مسيرة حياتي يظنونني يهوديا. ولكن سلالة أمي تتحدر كلية من أصول أوروبية، المسماة «بالقوقازية» (والتي تعكس رأيا قديم العهد لتاريخ أنثروبولوجي). فعندما تدعو الحاجة إلى إدراج عرقي في استمارة أبحث عن الخانة التي تشير إلى قوقازي فأحزها، بما أن العرق السامي نادرا ما يكون مدرجا في قائمة الاختيارات، إذ يصنف ظاهريا تحت قوقازي لغايات رسمية. ولو أنه عندما يخصص حيز لـ«آخر» Other، أختار هذا وأملأ فيه كلمة «هجين» hybrid. إن أمريكانيتي (Americanness) تعتبر أيضا مقبولة من حيث الظاهر. فلقد ولدت في ميتشيغن واحتفظت بولائي الكبير لدولتي ومدينتي، ولكني كنت دائما أشعر أن بقية المناطق الأمريكية تعد غريبة بالنسبة إلي. لم أعش في أمريكا لمدة تزيد على عشر سنوات، وحين ألتقي بأمريكيين، تأخذهم الدهشة عندما يدركون أنني أمريكي لدى سماعهم استخدامي كلمة Hello بقدر كبير عند التحية، في حين أن البريطانيين يدركون مباشرة أنني أمريكي (أو ربما كندي). وبالتأكيد، أنا أمريكي من حيث المولد، ولكن مجموع التوقعات السلوكية التي تقع خارج هذه الحقيقة - معنى «أمريكي» - يختلف بين الثقافتين الأمريكية والبريطانية، وإن إدراكي الحسي لسلوكي يمزج تلك التوقعات في حالة، ويحققها في الحالة الأخرى.

إن هذا يبقي على ذكوريتي، وهي قضية لا أهتم بإثارتها، على الرغم من أني لا أريد أن أفكر في أني على صلة بالجانب الأنثوي. ومع ذلك، فربما كانت الهوية الجنسية هي التي يمكن أن يكون الناس مستعدين لتقبل إمكان بنائها، وإن كان ذلك فقط بسبب أن التهجين الجنوسي gender crossing، والعملية الجراحية لتغيير الجنس صارت أمرا مقبولا اجتماعيا في الفترة الأخيرة. وإن الأفراد المخنثين لا يحظون فقط بدعاية إعلامية منتظمة فيها تعاطف ملحوظ من خلال محادثات تلفزيونية، بل أيضا وعلى الأقل في بريطانيا، تدفع الهيئة الصحية الوطنية تكاليف التغيير الجنسي، إذا ما اعتبره الطبيب ضروريا بالنسبة إلى صحة المرء النفسية. وإن صدق أولئك الذين ينقلون حقيقة شعورهم «بالوقوع في شرك جسد امرأة» طوال حياتهم، أمر ثابت ويقيني. والسؤال الذي يهمنا هنا هو كالتالي: هل إن مسألة إمكان تمييز الهوية الجنسية عن الهيئة الجسدية تتضمن أن كل الهوية الجنسية جرى تشكيلها؟ أو هل إن هذه الحالات المرضية التي تتضمن «عادة» تلك الهوية الجنسية تحدد بيولوجيًا؟ في الحقيقة، يصر كثير من المخنثين على أن ذاتهم الباطنية الحقيقية، أو جنسهم السيكولوجي بالمقارنة مع جنسهم المادي (خلقي)، لم يكن شيئا من اختيارهم أو من تشكيلهم، بل فرض عليهم بيولوجيًا.

وكثيرا ما تتخذ فكرة تشكل الهويات على أنها تصور مابعد حداثي، ولكن هذا مجرد نتيجة لمعرفة تاريخية مفتقرة. فقد ظهرت هذه الفكرة التالية، في كتاب نشر منذ ما يزيد على خمسة وسبعين عاما مضت حيث يقول صاحبها: «إن ذاتي الحقيقية، المستقلة بشكل متفرد جدا من حيث المظهر، هي [...] تشكيل اجتماعي على نطاق واسع» (سماتس Smuts، ١٩٢٧، ص: ٢٥٤). ولم يكن المتحدث هذا فيلسوفا في برجه العاجي، ناهيك عن أن يكون مابعد حداثي. وإنما هو جان كريستيان سماتس (١٨٧٠-١٩٥٠)، اللواء والوزير الأول الجنوب إفريقي، الذي لعب دورا رئيسا في تنظيم عصبة الأمم، وخليفتها الأمم المتحدة، (وقد كتب كتابه «الشمولية والنشوء» Holism and Evolution خلال فترة تنحيه عن السلطة).

ولم يعتبر سماتس الذات تشكلا أو بناء اجتماعيا على نطاق واسع فقط، وإنما اعتبرها أيضا بناء يقوم على اللغة.

«لم يكن ممكنا أبدا ان أعرف نفسي وان اكون مدركا لهويتي الفردية المنفصلة، إذا لم أصبح مدركا لآخرين مثلي: إن الشعور بالذوات الأخرى ضروري للشعور بالذات أو الوعي بالذات. وبناء عليه، للفرد أصل اجتماعي في التجربة. وليس هذا وحسب، بل أكثر من ذلك، إن استخدامي للأداة الاجتماعية بشكل صرف للغة هو ما يجعلني أتعالى عن التجربة الآنية البسيطة والانغماس في تيار تجربتي. فاللغة تمنح الأسماء لمواد من تجربتي، ومن ثم، فهي أولا منعزلة، عبر اللغة، عن الجزء الأساسي من تجربتي ومجردة منه». (المرجع السابق نفسه) [١].

وسيُكشف عن عدد من الأشياء في عرض سماتس في الصفحات التي تلي. ولكن الفكرة الأولى التي أود الإشارة إليها، مع ذلك، هو أنه في الوقت الذي يرى فيه سماتس أن الهوية الفردية تتشكل اجتماعيا ولغويا، يفترض، على الرغم من ذلك، أن «هويتي الفردية المنفصلة» فريدة ومتماسكة. واريد ان يكون هذا صحيحا، لأنه إذا كانت ذاتي الباطنية متشظية لسبب ما، فالأمر لن يكون سهلا. سأكون عاجزا عن تحديد ماهيتي «بالضبط» ـ ربما ساكون، في واقع الأمر، في تلك الحالة المرضية المعروفة بانفصام الشخصية.

ومع ذلك، هناك على الأقل اتجاهان فيهما لكل واحد منا هويات متعددة من دون شك. أما الاتجاه الأول، فيمثل الحقيقة الكلية universal. التي تفيد بأن للأفراد أدوارا مختلفة تتعلق بالآخرين ـ طفل، صديق، زوجة، والدين، أستاذ، زميل، رئيس، وما إلى ذلك ـ ومن هذه الناحية، تتغير هويتنا وفقا للسياق الذي يحدده الشخص الذي بيننا. وان هويتي التي نصفها سام، والتي تساعد الناس على أن يميزوني، انطلاقا من شكلي، بوصفي غربيا في أوروبا الغربية، تتنفي عندما اكون في لبنان، حيث يعلق الناس أحيانا على سماتي الأوروبية الغربية الغريبة جدا.

وأما الاتجاه الثاني الذي تكون فيه الهوية متعددة تتعلق «بوعي سماتس للذوات الأخرى». فمن الواضح أنني لا استطيع أن أكون واعيا «بذات» أي شخص آخر. فأنا لا أعرف مكنونك من الداخل. وكل ما أستطيع فعله هو تشكيل وصف خاص بي لك بناء على ملاحظتي، ولآخرين، ومكيفا كل هذا وفق قالب شعوري بذاتي المتفردة الخاصة. وكل شخص يعرفك أو ببساطة له علاقة بك، يفعل الشيء ذاته. وبالتالي، توجد أوصاف «لك» بقدرما يوجد

أناس تقطن فضاءهم الذهني. وقد يجادل المرء في أن وصفك الخاص بك هو الوحيد الذي يمثل حقيقتك، ولكن مع ذلك، لا أحد بإمكانه معرفة ذلك الوصف سواك. كل شخص يمضي قدما في تصوره كأن وصفهم لك هو صحيح بالنسبة إليهم.

ولدينا الكثير مما نقوله في مجرى هذا الكتاب حول «ذخائر» الهويات التي يحتفظ بها كل واحد منا لنفسه، والتي يحتفظ repertoires بها آخرون لنا، وحول المدى الذي نستطيع من خلاله الإيمان بوحدة أساسية ومركز ممتاز بالنسبة إلى تمثلاتنا الذاتية self-presentations الخاصة. فالفرضية العملية تقضي بأهمية كل هذه التمثلات، مادام هناك إمكان تأكيد على دورها المهم في تفاعلاتنا مع الغير وأنها جزء من كيفية تفكيرنا في أنفسنا وفي من هم حولنا.

مصطلحات أخرى استخدمت في البحث الراهن

إن مصطلح «هوية» لا يحظى أبدا بقبول عام في البحث الأدبي الراهن في هذا الموضوع. فهذه إيفانيتش Ivanic (١٩٩٨، ص: ١٠-١١) تشير إلى أنه على الرغم من أن الهوية هي «الكلمة العادية التي ترمز إلى معنى ماهية الناس»، «فإن مشكلتها أنها لا تحمل معها تضمينات بشكل أوتوماتيكي لبناء وتقييد اجتماعيين». وقد قدمت فحصا مفيدا لكيفية الحديث عن «الهوية» التي «تبرز» هذه التضمينات، بما فيها:

- الذات والشخص، لقد ميز بعض الأنثروبولوجيين بين هذين المصطلحين، ووجد هذا الفرق مثلا في أعمال كل من بيسنير Besnier (١٩٩١ - ١٩٩٥) وستريت Street(١٩٩٣)، إذ تعتبر «ذاتي» self الماهية التي أشعر أنها تمثلني عاطفيا وانفعاليا»، في حين «شخص» person تشير إلى الهوية التي أعكس بالنسبة إلى الآخرين في أدواري المحددة اجتماعيا.
- روح الشعب/الجماعة ethos، وهو مصطلح استعمل في النظرية البلاغية وتبناه تشيري Cherry على سبيل المثال (١٩٨٨) لتعني «الميزات الشخصية التي يعزوها قارئ ما إلى مؤلف ما بناء على دليل في النص» (إيفانيتش Ivanic، ١٩٩٨،

ص: ٩٠؛ انظر كذلك القسم المتعلق بـ«الشخصية أو القناع» أدناه). واستعمل فيركلاو Fairclough (١٩٩٢) روح الشعب بوصفه مصطلحا عاما يدل على هوية الشخص، التي تُصور وتشكل رؤية العالم world view والممارسات الاجتماعية.

- الشخصية أو القناع persona، وهو مصطلح كان يعني في الأصل «قناع»، وقد كان هذا مهما في نقاشات اللغة والهوية، على الأقل، منذ عمل أورفين غوفمان Erving Goffman (١٩٢٢ -٨٢، انظر غوفمان، ١٩٥٦)، ليدل على الذات التي يمكسها المرء أو يظهر خصائصها في التفاعلات اليومية. وقد قارن تشيري (١٩٨٨) الشخصية/القناع كذات موضوعية (بشكل أساسي، كذات لها دور اجتماعي، مثل «الأم» في تأويل إيفانيتش) التي نخلقها كي نضع أنفسنا داخل سياق أولئك الذين من حولنا، مقابل روح الشعب/الجماعة، وهي الذات التي تتألف من صفاتنا الداخلية الخاصة بنا.

- الفاعل/الذات [، موضع الفاعل/الذات subject position والتموضعات positionings، وهذه كلها مصطلحات مشتقة من أعمال البنيويين الفرنسيين لويس ألتوسر Louis Althusser (١٩١٨-٩٠)، ميشال فوكو Michel Foucault (١٩٢٦)، وبيير بورديو Pierre Bourdieu (١٩٣٠-٢٠٠٢) ومن أثروا فيهم ممن تعتبر الذات بالنسبة إليهم نتيجة لـ«الخطاب» والمجال الاجتماعي الذي تتموضع فيه (انظر الفصل الرابع، ص: ٧٣). وبما أن البنيوية ترجع بأصولها إلى علم اللغة (انظر جوزيف، ٢٠٠١)، فإن هذه المصطلحات قد تبدو مفيدة بشكل خاص لفحص اللغة والهوية. ولكن تماشيا مع تعليقاتي السابقة على التعددية والاستشهاد المنقول عن سماتس، تلاحظ إيفانيتش أن المصطلح الفريد «موقع الفاعل/الذات» بشكل خاص «مضلل، بما أنه يقترح موضعا مكتملا واحدا يخضع إليه فرد ما. بدلا من من أبعاد متنوعة يمكن للشخص أن يتموضع فيها في آن واحد. (إيفانيتش، ١٩٩٨، ص: ١٠).

- الذاتية subjectivity، الذاتيات subjectivities، والتموضعات positionings، وإمكانات نحو الفردية selfhood، هذه مصطلحات إيفانيتش المفضلة التي ترى أنها تحمل تضمينا يفيد أن «الهوية تتشكل اجتماعيا، وأن ليس للناس الخيار في اكتساب أي هوية يريدونها، وإنما يضيفون معنى من التعددية، والهجنة hybridity، والمرونة» (المرجع السابق نفسه).

- تعرف identify / تعريف identification، لقد أصبح مؤخرا من الرائج تحاشي مصطلح «هوية»، واستخدام في المقابل فعل «تعرف على هوية شخص ما» identify واسمه المؤسم nominalisation (*) التعرف على الهوية، على أساس أن هذين المصطلحين يشيران إلى عملية دائمة وليست «حالة ثابتة» (المرجع السابق نفسه، ص: ١١). وفي عملي (جوزيف، ٢٠٠٢ a)، نبهت إلى تقليد قديم يتعلق بإعادة تصور اسم «لغة» بطريقة نؤكد من خلالها سماتها الدلالية بوصفها اسما «دائما» process noun، مما يجعلها شبيهة بفعل من حيث المعنى، ومن ثم لبست النموذج الأصلي للأسماء. وقد غذى المحاولات الرامية إلى استبدال مصطلح «هوية» الدافع نفسه.

ومع ذلك، وعلى الرغم من كل هذه المشاكل القائمة على نطاق واسع المتعلقة بمصطلح «هوية»، فقد استخدمتها إيفانيتش مرتين وليس مرة واحدة فحسب في عنوان كتابها - والشيء الجميل فيها حقا أنها «الكلمة العادية التي ترمز إلى معنى ماهية الناس». فهي المعيار الأساسي التي يجب اتباعه في اختيار كل المصطلحات. صحيح أن الهوية «لا تحمل معها تضمينات بشكل أوتوماتيكي لبناء وتقييد اجتماعيين»، وبالتالي يمكن لتبليغات تستخدم هذه الكلمة أن تنتزع من سياقها ويساء قراءتها كما لو أنها تتضمن أن الهوية مسألة متأصلة ومتكاملة. ولكن على اللغويين على اختلاف مشاريعهم أن يدركوا أن الحقيقة الأكثر أساسية حول اللغة: هي انعدام نجاح أي محاولة في توحيد تأويلها واحتوائها، ولن يكون في مقدور أي محاولة تحقيق ذلك.

(*) ومن أجل الاستزادة، أود هنا أن أشير إلى أن الاسمية nominalism مذهب فلسفي يفيد أن المدلول أو المفهوم المجرد ليس إلا اسما مرافقا لصورة فردية [المترجم].

فكل من البدائل المقترحة لمصطلح «هوية» رهين بسوء تأويلاتها الخاصة. وأكثر من هذا، فهي بانحرافها عن الاستخدام العادي، تؤسس لمفردات اصطلاحية jargon، تعتبر هي ذاتها عائقا في الفهم. وإن استخدام المفردات اصطلاحية، يعتبره معظم الناس شيئا طموحا - باستثناء أولئك الذين تقوم هويتهم المهنية على استخدام هذه المفردات الاصطلاحية أو التخصيصية. وبما أن هذه إحدى القضايا التي سيستكشفها هذا الكتاب، فإنني أخشى خطر التعميم، إذا ما مضيت قدما في عملية خلق لغة اصطلاحية في الوقت الذي يوجد فيه بديل واضح متاح. وبالتالي فانا افضل استخدام كلمة هوية.

الهوية باعتبارها ظاهرة لغوية

يظن سماتس أن اللغة ولّدت الهوية على النحو التالي. أولا، تجرد اللغة عالم التجربة إلى كلمات. والالتقاء باللغة يجعلنا نتعالى عن التجربة الآنية البسيطة والانغماس في تيار التجربة. وهذا يمكننا من تشكيل تصور للذات بدلا من أن نكون مجرد ذوات. ويعود هذا التقليد إلى الفيلسوف الفرنسي إيتيان بونوت Etienne Bonnot المعاصر للقرن الثامن عشر، وأبوت أوف كوندياك Abbot of Condillac (١٧١٤-٨٠). الذي حدد جذور العقل البشري في التحول من العلامات الطبيعية natural signs (مثلا، عندما يدل الدخان على النار، أو الصراخ على الألم) إلى علامات اللغة الاصطناعية، التي تجبر الناس على تحليل التجربة الإنسانية بدلا من اتخاذها وحدة كاملة مركبة (انظر الفصل الثالث، ص: ٧١). ومع ذلك، خلال العشرينيات، لما كان سماتس يكتب، كان جون بياجيه (١٨٩٦-١٩٨٠) قد بدأ في اقناع الجماعة المهتمة بعلم النفس بأن التطور الفكري يحدث بمعزل عن اللغة (انظر الفصل الرابع، ص: ١٢٥). ولعل هذا يساعد على تفسير السبب وراء عدم تقديم سماتس بشكل مباشر مقاربة بنائية اجتماعية للهوية.

ولكن بياجيه لم يسوّ القضية إلى الأبد. فمن الصعب رؤية استمرار مقدار الدور التي تلعبه اللغة في الإدراك. ومن المرجح أن تبقى كذلك لفترة طويلة مقبلة. ولا يهتم الكتاب الحالي بهذه القضية مباشرة. فهو يحاول أن يفحص المظاهر اللغوية للهوية، وتأثيرات الهوية على اللغة، بينما يبقى محايدا بشأن

المسائل «الأكثر عمقا» المتعلقة بالوعي أو العمليات الإدراكية. ولا يمكن هنا تقديم دليل أو التوصل إلى نتائج واعدة تلقي ضوءا موضوعيا مشرقا على تلك المسائل إلا إذا قمنا بذلك.

وبما أن الكتاب يهتم بكيفية تفاعل هويات الفرد والجماعة بوظائف اللغة الممكن رؤيتها بشكل مباشر في حياة الناس، فلا بد من أن يستمد مسوغاته من التجربة المشتركة الممكن رؤيتها، بدلا من أن يستمدها من الاستبطان (*) introspection الفلسفي. وإني أظن كما سبقني إلى ذلك أسلافي من مدرسة التفكير السليم الاسكتلندية Scottish Common Sense أن تفسيرات اللغة يجب أن يكون لها أساس في التجربة المشتركة. إذا ما ارادت فعلا أن تكون تفسيرات حقيقية للتجربة المشتركة. ومن هنا، فإن رأيي أن نبدأ في فهمنا للهوية اللغوية بما هو استعمال مشترك، وهو ما أعتبره المعنى الرئيسي للهوية: الاسم.

إن هذه الحقيقة هي وحدها الكفيلة بأن توضح أن الهوية مسألة لغوية في جذورها، ولكنها ليست واضحة جدا كما قد يتوقع المرء - خاصة بالنسبة إلى اللغويين. إن دراسة الأسماء قد همشت لفترة طويلة داخل علم اللغة، لينحصر الاهتمام بها في مجال فرعي يدعى «التسميات» onomastics، الذي نادرا ما يُدرس ولا يتمتع الا بالقليل من اعتراف مؤسساتي. ومع ذلك، تعتبر الأسماء النص الرئيسي للهوية الشخصية، بحيث تشغل مكانا متميزا داخل اللغة (انظر كذلك الفصل السابع، ص: ١٧٦). وإنها ليست مجرد نصوص تنشأ عن نحو اللغة بالطريقة ذاتها التي تقوم بها نصوص أخرى. فهناك جزء خاص من النحو مخصص للأسماء، مما يعني أنها تدخل مباشرة ضمن ما كان يراه اللغويون تقليديا اهتماما يقع في دائرة تخصصهم. وإن إحدى التأثيرات البعيدة المدى للتحقيق في اللغة والهوية هو ضرورة أن تدمج الاسماء، بشكل تام اكثر، في الغاية الأنثروبولوجية لعلم اللغة، بالمستوى نفسه الذي تدمج به مصطلحات القرابة، والخطاب المؤدب او رغبات الآخرين والظواهر الأخرى التي تشفر encoded فيها الثقافة بشكل مباشر في نسق اللغة.

(*) تستخدم كلمة استبطان في البحوث التي تهتم بعلم النفس، وهي بيانات يحصل عليها الباحث من خلال ملاحظته الدقيقة للذات [المترجم].

وإذ أعرف الهوية من حيث الأسماء أو الدلالات signifiers من ناحية، ومعانيها المرتبطة بها أو مدلولاتها signifieds من الناحية الأخرى (ص: ٣٢ أعلاه)، فأنا أؤكد أن ظاهرة الهوية في عمومها يمكن أن تفهم باعتبارها ظاهرة لغوية. وفوق هذا، يشير جزء أساسي مؤثر من البحث في مجالات متعددة لعلم اللغة الاجتماعي، وعلم النفس الاجتماعي، وعلم الإنسان الاجتماعي واللغوي، إلى الأهمية المركزية للارتباط الحاصل بين اللغة والهوية. وإن البحث في اتجاهات اللغة language attitudes (انظر الفصل الرابع، ص: ١٠٥) قد بينت باتساق كيف نشكل تصورات بشكل سريع عن هويات بعضنا بعضا بناء على طريقتنا في الكلام. وأما البحث في المواءمة اللغوية accommodation أو «نظرية المواءمة في الاتصال» Communication Accommodation Theory كما يفضل بعض علماء النفس الاجتماعيين تسميته (إن توالد نظرياتهم كان أحد سمات هويتهم المهنية الخاصة بهم)، فقد أظهرت كيف أن الطريقة التي نتحدث من خلالها رهينة جزئيا بالناس الذين نتحدث إليهم (الفصل الرابع، ص: ١٠٨). وقد شرحت دراسات تتعلق بتطور اللغات القومية علاقتها المعقدة بالهويات القومية (الفصل الخامس)، كما بينت أعمال تهتم باللغات المعيارية standard languages ومستويات اللغة - أي بأفكار تتصل بطرق استخدام اللغة بشكل سليم أو غير سليم - كيف أن هذه الأفكار نشأت عبر علاقتها بالهوية القومية، واستمرت في لعب دور مهم جدا في حياة الأفراد، وذلك بتشكيل تسلسلات هرمية ذات قواعد استعمال ترتكز على الطبقة الاجتماعية والتربية التي يصدر الناس حكما علينا من خلالها (الفصلان الرابع والخامس). وأخيرا، شهدت السنوات الأخيرة الكثير من البحث حول مفاهيم «لغة ما» بصفة عامة، وحول كيفية تشكلها انطلاقا من آراء المتكلمين المتعلقة بماهيتهم (الفصلان الخامس والتاسع).

وفي الواقع، سأجادل في إحدى الحالات، في أن مؤلفا بارزا قد بالغ في الدور التأسيسي للغات القومية في تشكيل الهويات القومية.

وأنا أشير هنا إلى بينيديكت أندرسون Benedict Anderson وكتابه المؤثر بحق والمعنون «الجماعات الافتراضية» Imagined commonities (١٩٩١). ومع ذلك، فالمشكل لايكمن في أن ارتباط الهوية باللغة ذاته قد

حظي بأهمية بالغة. بل إنه يكمن في التعامل مع طريق ذات اتجاهين كما لو كان طريقا واحدة: إن أندرسون سخر كل اهتمامه لمعالجة الكيفية التي يجري بها تشكيل اللغات القومية للهويات القومية، ولم يهتم أبدا بكيف تشكل الهويات القومية اللغات القومية، وهو ما تقوم به في الواقع بشكل عميق.

وفي مقال نشر في العام ١٩٨٠ لعالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو، والذي سيحوره ضمن فصل من كتاب نشر له العام ١٩٨٢، يبحث بصراحة في طبيعة الهويات «الإقليمية»، و«الإثنية». ويوضح النقطة المهمة التي تفيد بأنه على الرغم من أنها تأصل لما يعتبر في الحقيقة تقسيمات عشوائية بين الناس، وهي من هذا المنطلق «غير حقيقية»، فمسألة أنها موجودة، (حالما توسس)، باعتبارها تمثلات ذهنية تعني أنها حقيقية كما لو كان لها أساس في كل شيء «طبيعي»:

«إن المرء يستطيع فهم الشكل الخاص للصراع الدائر حول التصنيفات التي أنشأها الصراع القائم بشأن تعريف الهوية «الإقليمية» أو «الإثنية»، فقط إذا تجاوز التعارض [...] الحاصل بين التمثل والحقيقة، وإذا ضمّن هذه الحقيقة حقيقة التمثل، أو بشكل أدق، الصراع حول التمثلات [...].

وإن الصراعات حول الهوية الإثنية أو الإقليمية - وبتعبير آخر حول الخصائص (مياسم أو شعارات) التي ترتبط بالأصل عبر الموطن الأصلي وعلاماته المرتبطة الدائمة، كالنبرة accent - هي حالة خاصة من الصراعات المختلفة حول التصنيفات، صراعات حول احتكار السلطة لجعل الناس يرون ويعتقدون، ولإقناعهم أن يعرفوا ويدركوا، ولفرض التعريف الشرعي لتقسيمات العالم الاجتماعي، وبذلك تشكيل المجموعات وحلها...» (بورديو، ١٩٩١، ص: ٢٢١).

وفي الواقع، فإن وجهة النظر هذه يتبناها كتابنا هذا، مع تأكيد إضافي على وظيفة الأسماء، والألقاب، وأشكال أخرى لغوية لتصنيف ممزوج بنص في تشكيل المجموعات وحلها على غرار ما وصفه بورديو.

وفي النهاية، آمل أن أكون قد بينت أن اللغة والهوية منفصلان في نهاية المطاف - ومرة أخرى، بشكل مستقل عن أي اعتبارات «للشعور» consciousness. كما آمل ان ما من شخص يقرأ هذا الكتاب، إلا وسيفكر مليا في هويته اللغوية، كما كنت أفعل بشدة بالغة خلال الأعوام القليلة الماضية من اشتغالي على هذا الكتاب. وإن التفكير في اللغة والهوية يستلزم تحسين فهمنا لماهيتنا، في أعيننا وفي أعين الآخرين، وبناء على ذلك، يجب أن يعمق فهمنا للتفاعل الاجتماعي. وكل واحد منا، إذن، ملتزم باللغة ضمن مشروع مستمر مدى الحياة لتشكيل ماهيتنا، وماهية كل شخص نلتقي به، أو نسمع مجرد منطوقاته utterances أو نقرأها.



2

الهوية اللغوية ووظائف اللغة وتطورها

الهوية والوظائف التقليدية للغة

لقد عرف اللغويون والفلاسفة الغايات الأساسية للغة تقليديا من خلال أحد البعدين التاليين أو من خلالهما معا:

● التواصل مع الغير، إذ يستحيل على بني البشر العيش في عزلة؛

● تمثل representation الكون لأنفسنا في عقولنا ـ تعلم تصنيف الأشياء باستخدام الكلمات التي توفرها لنا لغتنا.

يقول سقراط في محاورة كراتيلوس Cratylus لأفلاطون، إن غاية الكلمات تمييز الأشياء بعضها عن بعض، وتلقين بعضنا بعضا هذه الأشياء. فتمييز الأشياء بعضها عن بعض يقصد به التمثل. أما تلقين أحدنا الآخر هذه الأشياء فيعني التواصل، حيث يعرّف ما يُنقل، عن طريق المصادفة، بالتمثل. لقد أوضح سقراط أن

- إن فن التمثل يجد فضاءه في ما لم تتفوه به الكلمة المكتوبة»

المؤلف

التواصل أمر هزيل جدا ومبتذل، في حين اعتبر التمثل ذا صلة حميمية بالأشكال المثالية Ideal Forms للأشياء كما هي موجودة في عالم المثل (انظر جوزيف ٢٠٠٠ أ).

ومنذ أن كتب أفلاطون الحوار قبل ألفين وثلاثمائة عام، واللغويون والفلاسفة متمسكون أساسا بالرؤية نفسها. فالتواصل يعتبر أمرا مسلما به على نطاق واسع، وافتُرض أن العمل المهم الذي يجب الاضطلاع به في شأن اللغة هو فهم وظيفتها باعتبارها نظاما تمثليا. ولكن ثمة استثناءات جديرة بالذكر تتضمن الأرقام المفحوصة في الفصل الثالث، ومحاولات في الفلسفة تزعمها لودفيغ فيتجينشتاين Ludwig Wittgenstein (١٨٨٩-١٩٥١) لتحليل وظيفة اللغة باعتبارها نظاما تمثليا، إلى أن اهتدى أخيرا إلى استحالة فصل التمثل عن التواصل، واستنتج أن اللغة شيء لا يزيد ولا ينقص عن الاستعمال الذي سخرت من أجله.

أين هي الهوية اللغوية من هذا التفرع الثنائي التقليدي إذن؟ إن قضية ارتباط عملية الهوية اللغوية ارتباطا وثيقا بالتفاعل اللغوي بين الناس يجعل منها، على ما يبدو، نوعا متفرعا من التواصل. غير أن الهويات الجماعية تشكل فئات من دون أدنى شك ، وهي طرق تفهم من خلالها علاقة الناس فيما بينهم. ويمكن أن ينطبق الأمر نفسه على الهويات الفردية التي تمثل، على الأقل جزئيا، أدوار هذه الانتماءات الجماعية.. وهذا فيما يبدو، هو الذي يؤهل الهوية لأن تكون أحد فروع التمثل.

والهوية اللغوية في واقع الأمر فئة لا توضع بجلاء الانقسام الثنائي بين الوظيفتين التقليديتين للغة. وإذا رغبنا، أمكن لنا تفكيك الهوية إلى عناصر أساسية يقبل كل منها أن يصنف بحسب كونه تواصلا أوتمثلا، بما في ذلك التمثل الذاتي self-representationولكنها نوع من التمثل المرتبط على نحو فريد جدا بالتواصل، حتى أن المرء ليتساءل عن مقدار الخدمة التي تؤديها لدى تزينها بتمثل من أنواع أخرى. أما فيما يخص نوع التواصل المتضمن في الهوية اللغوية، فقد لا يكون فريدا، ولكن النوع الذي يرتبط به خاص، وسيناقش في القسم التالي.

أما وظيفة اللغة الأخرى المدركة تقليديا في الثقافة الغربية، فتتعلق بالتعبير أو الانفعال expression، حيث تكمن الأشياء المعبر عنها في المشاعر، والعواطف، والانفعالات التي عادة ما تصدر عن فرد أو أحيانا عن إثنية

برمتها، أوعن جنوسة، أو عن تجميع grouping آخر. إن اللغويين والفلاسفة يتجنبون في الغالب القبول بإيلاء التعبير أهمية قصوى، باعتباره وظيفة لغوية، إلا فيما اتصل منه بأصل اللغة في شكله البدائي جدا، وذلك قبل أن تدرك قيمتها في التواصل والتمثل. وترتبط العواطف والانفعالات ارتباطا مباشرا بالجسد، وتتعارض مع العملية العقلانية للذهن الذي يعتبر أساس التمثل والتواصل.

ويُنظر إلى التعبير عن العواطف على أنه مساو للغة الحيوان، مما يمنحه مصداقية ضمن إطار تطوري حديث. وبالفعل، خصص تشارلز داروِن (١٩٠٨-٨٢) ذاته كتابا حول: «التعبير عن العواطف عند البشر والحيوانات». ويدخل ذلك ضمن سياق نقاش حامي الوطيس شمل لغويين مرموقين خلال تلك الحقبة من الزمن عن طبيعة اللغة الأساسية وعلاقتها بالعقل (انظر الفصل ٣، رقم الصفحات: ٧٤-٥). ولكن تصوره باعتباره وظيفة عقلانية قبلية دفع به طويلا إلى أن يكون خارجا عن الصورة ضمن تقليد فلسفي ركز على التفكير العقلاني. ونتيجة لذلك، وفي العصور الحديثة، لم يكن الاهتمام بالوظيفة التعبيرية أوالانفعالية للغة الإنسان المعاصر جزءا من علم اللغة أو فلسفة اللغة، وإنما جزءا من علم الجمال، الذي يشمل النقد الأدبي ذا التوجه الجمالي. وبصيغة مختلفة، كان جزءا من بعض أشكال علم النفس الذي يحوي التحليل النفسي، بالإضافة إلى تلك المجالات المتعلقة بفن الخطابة الذي يهتم باستجلاب العواطف على حساب العقل، ويشمل ذلك الدعاية ومثيلتها التجارية المتجسدة في الإعلان.

وتهتم هذه الأبعاد الجمالية من التعبير أحيانا بالعواطف المطلقة للإنسان أو بمشاعر ثقافية خاصة. ولكن اهتمامها الأعمق مرتبط بتصور الذات الفردية، ومن ثم بالهوية. وهناك نزعة عارمة من أجل مَوقَعَة ماهية الشخص - أي ذاته غير الموضوعية في مشاعره الشخصية. وعلى الرغم من أن لغويين وفلاسفة لغة كثيرين لم يكونوا ليتجادلوا حول هذا الرأي، فإنهم أخيرا تحاشوا قضية أن العواطف تشكل ميدانا معاديا للعقلانية، بحيث لا يمكنها أن تخضَع لسؤال العقلانية. إن هذا الموقف عموما قد تغير كثيرا خلال العقد ونصف العقد الأخير في العلوم الإنسانية كلها. غير أن علم اللغة، وهو فرع معرفي محافظ، ظل بطيئا في معانقة هذا التغيير.

الهوية والوظيفتان الوجدانية phatic والأدائية(*) performative

توجد وظيفتان أخريان للغة أقل تقليدية، أدركهما اللغويون على نحو واسع في القرن العشرين، ولو أنه في الأصل لم تُقترحا من داخل علم اللغة. ففي العام ١٩٢٣، ظهر كتاب «معنى المعنى»، ذو التأثير الكبير. وقد كان أحد الملحقين أكثر تأثيرا من النص الرئيسي لأوغدين ورتشاردز Ogden and Richards ويتعلق الأمر بـ«مشكل المعنى في اللغات البدائية» الذي ألفه برونيسلو مالينوفسكي Bronislaw Malinowski (١٨٨٤-١٩٤٢) ، ذو الأصل البولوني والمحاضر في الأنثروبولوجيا الاجتماعية بكلية لندن للعلوم الاقتصادية. حيث يجادل في أن المعنى غير متأصل في الكلمات أو القضايا propositions، بل يتوقف على ما اصطلح عليه بـ«السياق» context of situation والسياق الذي غالبا ما نعده - تقليديا - معنى للمنطوقات، هو ليس معناها الفعلي تماما. وعلى العكس من ذلك، فإن حقيقة التحدث إلى شخص ما، باعتباره فعلا اجتماعيا social act، يمكن أن يكون «معنى» الحدث الكلامي speech event، وأما المحتوى القضوي propositional content المتبادل فهو غير متصل بالموضوع. وهذا ما يدعى بالوظيفة الوجدانية phatic للغة. ومن بين الأمثلة المألوفة على ذلك نذكر «الكلام المحدود» small talk الذي نتبادله مع الأجانب والمعارف الجدد. وأما الوظيفة الثانية التقليدية منها، فتتصل بالتعليقات التي تهم حالة الجو.

«إن محض عبارة التأدب، المستعملة بين القبائل البدائية بالقدر نفسه الذي تستعمل به داخل غرفة الأضياف الأوروبية drawing room، تؤدي وظيفة تكاد معاني كلماتها لا ترتبط بها تماما. فالاستفسار عن الصحة، والتعليقات حول حالة الجو، وكذا التأكيدات الواضحة إلى حد أقصى لحالة بعض الأشياء. كل هذا يتداول ليس بغرض الإخبار، ولا بغرض خلق رابط عمل بين الناس في هذه الحالة، ويقينا ليس من أجل التعبير عن أي فكر. وأظن أنه قد يكون من الخطأ القول إن هذه الكلمات تسخر قصد ترسيخ إحساس مشترك. [...] فما هو سبب وجود تعبير [كذا - sic] إذن هذه العبارات مثل «كيف حالك؟»، و«ها أنت!»، و«من أين أنت؟»، و«الجو لطيف اليوم»، تسخر كلها في مجتمع أو آخر باعتبارها شكلا من أشكال التحية أو التقارب؟ (مالينوفسكي: ١٩٢٣، ص: ٤٧٦-٧).

(*) يجوز أيضا استعمال تعبير «الوظيفة الإنشائية» الذي يقابل «الوظيفة الخبرية» [المترجم].

لقد اقترح مالينوفسكي مصطلح المشاركة الوجدانيةphatic communion لمثل هذه المنطوقات utterances وعرفه بأنه «نوع من الكلام تخلق فيه روابط التوحيد عبر كلمات بسيطة متبادلة» (ص: ٤٧٨ المرجع السابق نفسه). وعلى الرغم من قوله إن الشعور المتبادل جزء من كلام الناس المتحضرين والبدائيين على حد سواء، فهو يظن أنه يشكل النموذج البدائي الأصلي للغة الإنسان. وإن زعمه أنه «في حالات الاحتكاك الخالص بالناس وعند القيل والقال، نستعمل اللغة ذاتها التي يستعملها البدائيون» (ص: ٤٧٩ المرجع السابق نفسه)، قد أتى مفاجئا للقراء آنذاك. بل حتى أولئك الذين يعتبرون أن هذا الزعم يحمل في طياته الدعوة الحداثية إلى العودة إلى العهد البدائي قد يكونون أكثر قبولا لفكرة أن «نسيج الكلمات المترابط الذي يوحد طاقم الباخرة في مناخ سيئ، والمصاحبات اللفظية لجماعة من الجنود في أثناء العمل، تشبه أساسا الاستعمالات البدائية لكلام الإنسان في أثناء العمل» (المرجع السابق نفسه). قد يكون لهذا معنى حدسي، على الأقل، بالنسبة إلى أولئك الذين خاضوا تجربة هذه المحادثة واستطاعوا أن يستنتجوا ما سكت عنه مالينوفسكي في أعماله التي تركها، بحيث تمت السيطرة عليه بواسطة عبارات تجديفية لا معنى عقلاني لها البتة. ولكن هذا ينسحب على اللغة التي «نستعملها».

إن رأي مالينوفسكي ينسجم مع الرأي التقليدي الذي نوقش سلفا. إذ إنه يساوي بين التعبير وبين العاطفة، ويحصر ميدان العقل في المحتوى القضوي. ومن ثم، فإن مالينوفسكي يصر على الآتي:

> «هل تستعمل الكلمات في المشاركة الوجدانية لإيصال المعنى في المقام الأول، ذلك المعنى الذي يعتبر رمزيا ملكا لها ؟ بالتأكيد لا. إنها تنجز وظيفة اجتماعية، وهذا هو هدفها المبدئي، ولكنها ليست نتيجة التفكير العقلاني ولا هي بالضرورة مما يوقظ تفكير المستمع. ومرة أخرى، قد نقول هنا إن اللغة ليس من وظيفتها نقل الفكر» (المرجع السابق نفسه، ص: ٤٧٨).

غير أن هذه الجمل الثلاث تصرفنا عن جوهر الموضوع: لماذا يجب أن يحصر «المعنى» في ما ينتمي «رمزيا» للمنطوقات؟ أليس المعنى الوجداني رمزيا، مثل ما قد يقال تماما عن المعاني المعجمية للكلمات؟ ثانيا، أي فرق

سيكون إن سبق المنطوقات الوجدانية تفكير عقلاني أو أعقبها؟ لا توجد أي طريقة على وجه التحديد توضح أن هذه المنطوقات لا يتبعها هذا التفكير لدى المرء - ولكن إذا كنت أنت من يطرح السؤال، فإنك ستفكر فيه بشكل واضح. ثالثا، ما الغرض الذي يجب أن تتضمنه عبارة «نقل الفكر»؟ يبدو أنه مرتبط ارتباطا مباشرا بالملاحظات السابقة حول التفكير العقلاني. ولكن حتى إن وجد مثل هذا التفكير، فإنه لن يكون قادرا على تشكيل نقل الفكر. وإذا كان مالينوفسكي يقصد بأن للغة غير الوجدانية وظيفة نقل الفكر فعلا، فإن هذا سيثير الطرح المتقادم الذي يقول بانعدام القدرة على تحديد ما إن كان سيحصل «نقل للفكر» حقا، ما دمنا لا نملك وسيلة الوصول المباشر إلى ذهن أي شخص فنطلع عليه، باستثناء أذهاننا. ولكن أهم من ذلك، لقد أخفق مالينوفسكي في إدراك أن اللغة نفسها تستطيع بمحتوييها العقلاني والقضوي أن تنجز، في وقت واحد، وظائف مماثلة لتلك التي تنجزها منطوقات وجدانية.

ولقد خلق القدر الكبير من العناية الذي حظي به ملحق مالينوفسكي، وتأثير افكاره في الأنثروبولوجيين، خصوصا بعض اللغويين أصحاب الأفكار الحديثة المتطلعة إلى المستقبل من أمثال ج. ر. فيرث J. R. Firth ورومان جاكوبسن Roman Jakobson، تقدما حاسما في المعرفة وانكسارا في الوقت ذاته. فمن الآن فصاعدا، ستتم إعادة توجيه دراسة أحد فروع اللغة لتأخذ منحى وظيفيا بدلا من الوقوف عند الشكل form، حيث يتعين علينا تقييم الوظيفة تقييما تداوليا/ذرائعيا pragmatically عوض اعتماد التحليل التقليدي لمعنى الكلمات والمنطوقات التي تفهم من خلال محتواها القضوي. وخلال الثلاثينيات من القرن الماضي، لم يوجه التحليل الوظيفي على المستوى الوجداني فقط، ولكن وجه على مستوى جميع الاستعمالات اللغوية، على الرغم من محاولة مالينوفسكي فصل الأنواع «البدائية» عن «الفكرية» [1].

وقد عمل تأثيره على توسيع إدراك «الدلالات» في المنطوقات اللغوية بعيدا عن المحتوى القضوي. وإذ يفعل ذلك، فهو يترك الحدود، التي تفصل القضوي والعقلي من جهة عن الوجداني والعاطفي أو الاجتماعي من جهة أخرى، غير واضحة. لقد دمر الأولوية الخاصة للمعنى المقصود لدى المتكلم، وأعاد التركيز على الفعل الكلامي speech act باعتباره حدثا اجتماعيا يشترك فيه

على وجه التساوي شخصان على الأقل، وذلك بالمظاهر غير المقصودة من منطوقاتهم ذات المغزى الكامن تماما مثل تلك الصادرة (افتراضا) عن إرادتهم التي تكون، في بعض الأحيان، أكثر أهمية من حيث الدلالة. ومن الجدل القول إنه لا شيء كان أكثر حسما من هذا في فسح المجال لتحليل اللغة والهوية، بما أن قدرا كبيرا من إشاراتنا اللفظية الدالة على ماهيتنا يحدث دون المستوى القضوي.

لقد كان الفيلسوف ج. ل. أوستين (1911-60) J. L. Austin (انظر أوستين، ١٩٦٢ وجوزيف وآخرين، ٢٠٠١ : الفصل ٧) أول من عرَّف الوظيفة الأدائية. وعلى الرغم من أن بعض المنطوقات تشبه في الشكل منطوقات تستعمل لوصف «تمثيل» حالة من الحالات أو إبلاغ معلومة عنها، فهي في واقع الأمر لا تنجز أيا من هاتين الوظيفتين. إن فعل «سمّى» في عبارة «إني أسمي هذه السفينة الملكة إليزابيث» (مع كل ما يصاحب التلفظ بها، ساعة تدشينها، من تكسير لزجاجة الشامبانيا على مؤخرة السفينة) وفعل «راهن» في عبارة «أراهنك بستة سنتات على أن الجو سيكون ممطرا غدا» لا يدلان على شيء قد سبق حدوثه، وإنما التلفظ بتلك العبارات هو «الحدث» ذاته، أي تسمية السفينة وإجراءات الرهان. وكما عبر أوستين عن ذلك بقوله «من الواضح أن التلفظ بالجمل [...] لا يعني أنني أصف حال قيامي بالفعل، وأنا بصدد التحدث على هذا النحو، كما لا أريد أن أثبت قيامي بذلك الفعل: بل إن النطق بالجملة هو إنجازها» (أوستين: ١٩٦٢، ص: ٦).

لقد كان لبورديو تأثير بالغ الأهمية في الدراسات التي تتصل باللغة والهوية عبر تأكيده على أن مطالب الهوية هي في الحقيقة نوع من أنواع المنطوق الأدائي performative:

> «إن الخطاب الإقليمي regionalist هو خطاب أدائي يهدف إلى فرض تعريف جديد للحدود باعتباره تعريفا مشروعا، وإلى حث الناس على معرفة الإقليم وإدراكه، الذي حُدد، من ثم، كرد فعل على التعريف السائد، [...] الذي يلغي الاعتراف بالإقليم الجديد. عندما ينجح فعل التقسيم إلى فئات في الوصول إلى اعتراف أو عندما يمارس من قبل سلطة معترف بها، فهو يمارس سلطة معينة في حد ذاته: إنه يؤسس فئات

«إثنية» أو «إقليمية»، كفئات القرابة، حقيقة عبر استخدام سلطتي الإلهام والبناء اللتين تمارسان من خلال عملية التشيؤ في الخطاب objectification in discourse».

لقد أصبح مفهوم الهوية بوصفه «خطابا أدائيا» قويا في الأعوام القليلة الماضية، يتجاوز حتى الفئات «الإثنية» و«الإقليمية» التي طبق عليها بورديو هذا المفهوم أصلا. وفي أواخر التسعينيات، أصبح من المألوف الجزم بأن الهويات الجماعية عموما، سواء كانت قومية أو جنسية، أو متعلقة بالأجيال، أوما شئت، هي مطالب جرى التعبير عنها عبر الأداء ويتحقق وجود هوية ما بمقتضى مطالبة الناس بها.

هل تشكل الهوية وظيفة متميزة للغة؟

قد يكون ثمة سبب ملح وراء اعتبار الهوية وظيفة ثالثة أساسية ومتميزة للغة. وعلينا الآن أن نكون مترددين بشأن فصل الروابط عندما توجد على نحو جزئي. فالتمثل الذاتي لهوية شخص ما هو المركز المنظم والمشكِّل لتمثلاته للعالم. وعلى نحو مماثل، وعند تبادل الآراء، فإن تأويلنا لما يقال ويكتب لنا يشكل وينظم من خلال قراءتنا هوية أولئك الذين نتحاور معهم.

وسواء قلنا في الواقع، إن الهوية أساسية بالنسبة إلى الغايتين التقليديتين للغة، أو إنها تشكل غاية ثالثة تنضوي تحتها الغايتان الأخريان، فذلك لايغير من الأمر شيئا.

إن الذي يهم هو أن ندرك أنه إذا اختُزل استعمال الناس للغة بطريقة تحليلية في كيفية تشكيل المعنى وتمثيله في صوت، أو في كيفية إيصاله من شخص إلى آخر، أو حتى فيهما معا، فإن ثمة شيئًا حيويا قد استُخلص: إنهم الناس أنفسهم. إنهم حاضرون دوما في ما يقولون وفي الفهم الذي يبنونه على ما يقوله غيرهم. إن هويتهم تتأصل في صوتهم ويكون ذلك ملفوظا، أومكتوبا، أوموقعا signed

وفي اليوم الذي كنت أكتب فيه هذه الصفحة، عثرت بالمصادفة على هذه الفقرة من كتاب «المنزل الكئيب» Bleak House لمؤلفه ديكنز (١٨٥٢_٥٣)، حيث كان يوجد في هذا المنزل أم معوزة تجلس باكية وهي تمسك رضيعها الذي سرعان ما وافته المنية:

«دخلت امرأة قبيحة مهرولة، ترتدي ثيابا رثة، بينما كنت ألقي نظرة خاطفة عليهم. فأتت مباشرة إلى الأم، ثم قالت: «جيني! جيني!» عندما واستها، وذرفت عيناها بالبكاء. لم تكن ترغب في أي جمال. إنني أقول واستها، ولكن كلماتها لم تكن سوى «جيني! جيني!». وكل ما بقي كان في النغمة tone التي قالت من خلالها هذه الكلمات (الفصل ٨)».

وفي اليوم نفسه، قرأت في جريدة الصنداي تايمز (٢١ يوليو ٢٠٠٢) لمحة قصيرة عن الموسيقي بروس سبرينغستين Bruce Springsteen، حيث تقول:

«إن الرسالة السياسية الأكثر قوة التي استوعبها كانت في العام ١٩٥٦ عندما شاهد إلفيس بريسلي على شاشة التلفزيون في برنامج إد سولفان Ed Sullivan لقد تذكر أنها كانت رسالة التحرر».

«لقد سمعتها في صوت إلفيس. وكان لهذا الصوت معان متضمنة. إنها تحكي قصة أمريكا السرية».

وفي المقال نفسه، يرسم المؤرخ سايمون شاما Simon Schama رابطا مباشرا بين الوعيين: القديم والحديث بهذه المسألة عندما استهل مقاله الذي يتناول فيه فن الخطابة الحديث ـ مبرزا صورة إمنيم Eminem، مغني الراب الشهير، وتأملات شاما له، مستشهدا بمقولة كتبها شيشرون Cicero:

«لاشيء أشد مماثلة لمشاعرنا الطبيعية من إيقاعات أصواتنا. إنها تثيرنا وتؤججنا، تهدئنا وتسكّننا، وغالبا ما تقودنا إلى الفرح والترح»..

إنني لا أظن أن عثوري على هذه التعبيرات في اليوم ذاته كان ـ بالخصوص ـ من قبيل المصادفة. إنها تطوقنا من كل جانب، وقد لاحظتها لأن موضوعها بالضبط شد انتباهي. لا أحد من هؤلاء الثلاثة يحمل تماما الرؤية نفسها في شأن «الصوت». إن الأول والثالث ـ أي ديكنز عبر الراوية السيدة ألان وود كورت Allan Woodcourt و(الآنسة إيستير سامرسون Esther Summerson، وشيشرون عبر شاما ـ يفترضان أن ما يفيده الصوت ضمنا هو العاطفة: المواساة، والحب، والهدوء، والابتهاج، والحزن، إلى غير ذلك). وهذا يتماشى حقيقة مع الرأي الكلاسيكي الذي يعترف بتقاسم المهام. إذ إن العقل متأصل في المحتوى القضوي للغة مع دخول العاطفة في الصوت حتى النخاع.

إن التركيز على المحتوى القضوي هو في الواقع جزء من وجهة نظر أوسع تقول بأفضلية الاهتمام بالعقل وحسب، وأما العاطفة فهي جزء أساسي من طبيعتنا الحيوانية، توجب علينا التغلب عليها.

ولكن بروس سبرينغستين من خلال كاتب تلك اللمحة القصيرة عن شخصية هذا الأخير) يلمح إلى شيء آخر. إن ما سمعه في صوت إلفيس يعتبر أقوى رسالة سياسية في حياته. إنها رسالة التحرر التي دلت عليها طريقة إلفيس في الغناء. أما قضية أن المصورين، الذين يشتغلون على برنامج إد سوليفان، أمروا في العام ١٩٥٦ بعدم إظهار فخذيه وهو يديرهما بشكل هدام، في الوقت الذي يرتدي فيه بدلة وربطة عنق محافظتين تماما، وأنه لا يزين جسمه بخرزات معدنية، وأن تسريحة شعره معقولة، وأنه غنى غناء لطيفا جدا يخلو من الأذى، فتعني أن الشروط كانت بالفعل مثل تلك التجارب المضبوطة التي تفحص فرضية سبرينغستين، إذ من الصعب إنكار صحتها.

إن «التحرر»، كما استعمل في هذا السياق، هو شعور وانفعال، ولكنه أيضا رسالة، بل الأهم من هذا، أنه رسالة سياسية. ومن الصعب أن نتصور رسالة ذات مضمون سياسي لا يمكن لها أن تُفسر تفسيرا «معقولا» وأن تصاغ في شكل قضية ـ وفي هذه الحالة، شيئا ما مثل «المجتمع الذي نعيش فيه. فعلى رغم كل ما يدعيه من وقف نفسه للحرية، باعتبارها تحررا شخصيا أو تحررا من المضطهدين التقليديين، هو في واقع الأمر يحد من تحررنا ويضطهدنا إلى مدى أكثر مما نطيق». إن إلفيس أدى هذه الرسالة بالثورة على القيم المسلم بها، التي تشكل الأداء الجيد في الأغنية الشعبية. ولم يؤدها، في الواقع، بمفرده. فالفتيات المراهقات الصارخات كن يرددن معه لازمة chorus من الأغنية، وائتلافهن هو الذي خلق القوة المقنعة لهذه الرسالة. إن عرضا مفصلا للتمثل اللغوي قد يتضمن كيف أن هوية المتكلمين تبرز من خلالهم ويقرؤها غيرهم. لابد من الاعتراف بأن المتكلمين هم أنفسهم جزء لا يتجزأ من المعنى المعروض داخل التمثل. إن العرض الكامل للتواصل اللغوي يجب أن يبدأ، ليس بالرسالة، بل بالمتكلمين أنفسهم وقراءتهم بعضهم لبعض التي تحدد، تبادليا، تأملهم لما قيل. وكل هذا يأخذنا إلى ما وراء التصنيف البسيط، والمنطقي، والرياضي الذي عادة ما يفهم على أنه «التمثل».

وينطبق الأمر ذاته على «التواصل» الذي يبدأ ظهوره للعيان بمنزلة إفراط في تبسيط مقلق عندما تأتي قضايا الهوية في الصورة ـ باستثناء أي نزعة إلى الشك قد نضمرها بشأن قدرتنا على معرفة مدى حصول التواصل حسب المعنى الذي نفهمه عادة (انظر الملاحظات حول «نقل الفكر» ص: ١٩). لقد صرحت في ما مضى بفكرة لاتقبل جدالا منطقيا حول وضعية التواصل باعتباره وظيفة أساسية للغة مفادها «استحالة أن يعيش البشر في عزلة».

ولكننا مجرد نوع من بين أنواع المخلوقات العديدة غير القادرة على العيش في عزلة، وإن نوع التواصل المطلوب لضمان بقائنا لا يستلزم اللغة بالضرورة.

وإن النقاش الدائر حاليا حول مدى انتشار الإنجليزية، بوصفها لغة عالمية تجبر ضمنا لغات أخرى، واللغات «الصغيرة» المحلية والإقليمية خصوصا، على الانقراض، يضمر توترا بين قيمة اللغة العالمية، بوصفها وسيلة لتواصل شامل، وقيمة لغة محلية يعتبرها أصحابها خزانا لأشكال ثقافية من التمثل (انظر الفصل السابع، ص: ١٨١ ـ ١٩٢). ويميل اللغويون إلى الافتراض أن هذه القيمة الأخيرة هي وحدها التي تمتلك سندا شرعيا، ومرد ذلك جزئيا إلى ما تعنيه من هوية أصيلة لدى أولئك الذين يتحدثون بها. ومع ذلك، فإن الأمثلة المشينة التي يرغم فيها الناس على نحو مباشر على التخلي عن لغتهم، تشكل الاستثناء وليس القاعدة. وعادة ما كانت نتائجها تاريخيا تقوي عزمهم على التمسك بها وإن اقتصر هذا على مجالات خاصة (تعتبر الأساسية عندما يتعلق الأمر بالحفاظ على لغة من اللغات). وفي المقابل، يقوم معظم أولئك الذين تخلوا عن لغتهم التقليدية بهذا، بوصفه جزءا من بناء هوية ما لأنفسهم تكون مرتبطة ارتباطا وثيقا بتصور حداثي، في وقت تجاوز فيه التواصل أطراف قريتهم وبلدهم ليصل إلى العالم برمته.

إنه لمن الأهمية بمكان بالنسبة إلى اللغويين أن يفكروا في هذا النقاش انطلاقا من هوية الناس الذين يتخلون عن لغاتهم التقليدية لأن طريقتنا المألوفة في تصور النقاش ـ بوصفه نقاشا يدور حول نظام تمثلي «كبير» يعمل على تحطيم التنوع لمجموعة نظم تمثلية أخرى ـ تقتصر على المستوى الفلسفي حتى أهملنا تماما الواقع السياسي والاقتصادي للجماهير التي لديها القدرة وحدها في نهاية المطاف على الحسم في موضوع صيانة اللغات

المستخدمة. وإذا لم نأخذ بعين الاعتبار معنى هذه اللغات بالنسبة إليهم، فإننا لن نستطيع آنذاك أن نأمل في الحفاظ على أكثر من آثار متحفية من لغاتهم، وإن كان هذا جديرا بأن يصان.

إنني أذكر هذا، بوصفه المثال الأهم في الوقت الراهن، عن واقع عام حول تأثير إعادة تشكيل علم اللغة من منظور الهوية. وينقل سؤال الوظيفة الأساسية للغة برمته من الفضاء الفلسفي إلى الفضاء السياسي - أو بعبارة أدق - فهو يكسر الحد الفاصل بين ما هو فلسفي وبين ما هو سياسي، هذا الحد الذي طالما كافح علم اللغة التطبيقي للتمسك به. إلا أن هذا ينقل موضوع دراسته إلى عالم المجرد، ليقطع صلته بحياة البشر.

والخلاصة أن الفهم الكلاسيكي للغة يركز على المتكلمين، باعتبارهم فاعلين أقوياء، وباعتبارهم نسقا للمعرفة اللغوية التي تجيز لهم إنتاج وفهم منطوقات ذات معنى. ولكن البحث في هوية اللغة، واستمرار التقدم المعرفي الجوهري غير المسبوق بخصوص تصور مالينوفسكي المرتبط بالتواصل الوجداني، يأخذ جوانب «ذات معنى» في المنطوقات اللغوية ليوسعها إلى ماوراء محتواها القضوي.

إنه يهتم بكل تلك المميزات للمنطوقات التي يستعملها المستمع بهدف «قراءة» حقائق عن المتكلم، ويشمل ذلك الأصول الجغرافية والاجتماعية، والمستوى التعليمي، والجنوسة gender والجنسية sexuality، والذكاء، وما إن كان الشخص جديرا بالحب والثقة، وما إلى ذلك. وبالفعل، لقد تمت البرهنة بالإجماع مرارا وتكرارا على أن تأويل ثقة المتكلم انطلاقا من المحتوى غير القضوي non-propositional content للمنطوقات وثيق الصلة بشكل مباشر بتقييم المستمع «قيمة الصدق» للقضية ذاتها.

إن ما يعنيه هذا هو أنه كلما عزلنا اللغة عن متكلميها ومؤوليها وعن السياق الذي يتكلم فيه هؤلاء الناس ويؤولون فيه هذه اللغة، أخفقنا في أن نقترب أكثر من بعض جوانب حقيقتها الجوهرية. إننا نبتعد عنها أكثر في اتجاه تعميم قد يكون له استعمالاته (في حالة النحو البيداغوجي أو برنامج الحاسوب مثلا)، ولكن يمكن كذلك أن يأخذ شكلا من أشكال التجريد الخالص، فيكون استعماله الوحيد هو أن يعبد كالصنم تماما.

ولكن إذا لم يوضع الفرد الحقيقة فقط بكائن سام أو في عالم المثل الأفلاطوني، فحتى حقيقة أو «صدق» القضايا التي تدرس من قبل المناطقة تعتبر أقل واقعية من القرارات التي يتخذها الناس الواقعيون كل يوم حول مصداقية القضايا التي تطرح عليهم من قبل أناس آخرين واقعيين. وتتخذ تلك القرارات بالحكم على القضية والشخص الذي عبر عنها، بالطريقة ذاتها التي يتحدثون بها للتعبير عن حجتهم المتاحة.

لقد كان هدف علم اللغة الاجتماعي، وهو يتطور في غضون القرن العشرين والنصف الثاني منه خصوصا، فحص تلك المميزات داخل لغة من اللغات، إذ من خلالها يتسنى لنا قراءة الأصول الجغرافية والاجتماعية لشخص ما، بالإضافة إلى مستواه التعليمي، وإثنيته، وعمره، وجنوسته وجنسيته أي جميع مجالات الهويات المصنفة التي نعتمدها في تصنيف الأشخاص على نحو روتيني (ففي حالة العمر، يمكن الحديث عن تصنيفات بحسب العمر أو الأجيال). فأنا عندما أستقبل مكالمة من المكالمات من شخص أجنبي، أقرر خلال ثوان انطلاقا من غريزتي ما إن كان المتكلم رجلا أو امرأة، وأحدد أي أصل ينتمي إليه، وكم عمره تقريبا، وما نوع خلفيته.

إننا لا نتعامل مع هذه المعلومات بشكل حيادي. وإن نتيجة البحث الثابتة في «الاتجاهات اللغوية» language attitudes منذ الستينيات (انظر الفصل الرابع من صفحة رقم ٧٠ لمزيد من الإيضاح) تظهر قيامنا بالمزيد من الاستدلالات على أساس هذه المعلومات الأولية. فنقرر ما إذا كان الشخص ذكيا، ومحبوبا، ومعولا عليه، ومحط ثقة، وغير ذلك. إن المنهج الكلاسيكي المتبع في البحث في الاتجاهات اللغوية هو أن تعرض أشرطة سمعية لأشخاص يذكرون فيها أساسا الشيء نفسه بنبرات accents مختلفة، وفي بعض الأحيان لشخص واحد يتحدث بأكثر من نبرة واحدة. ولكي لا يدرك المفحوصون (المستمعون للشريط السمعي) أن الكلام الذي يردد صادر عن الشخص نفسه، تجرى عملية العرض في فترات متباعدة ويُطلب من المشاركين بعدها أن يصنفوا الأشخاص الذين استمعوا إليهم حسب ذكائهم ومميزات أخرى تم التطرق إليها سلفا.

وغالبا ماتكون النتائج مفاجئة. فعندما طُلب من المشاركين، ضمن اختبارات مستترة blindtests أن يصنفوا الأصوات المسجلة بحسب ما إذا كان المتكلم جديرا بالمحبة والثقة، اتضح أنهم منحوا أعلى العلامات للأشخاص الذين ينتمون

إلى شمال إنجلترا وجنوب اسكُتلندا، مع منح أفضلية لمصلحة الجهة الشرقية في كلتا الحالتين. والمفاجئ في الأمر أن يصدق هذا حتى على أناس في جنوب إنجلترا، إذ قد يتوقع منهم أن يمنحوا ثقة أكبر لأشخاص يتكلمون مثلهم تماما. وفي الوقت نفسه، يستمر الترابط العام للطريقتين «التعليمية» و«التثقيفية» في التخاطب مع الجنوب الشرقي لإنجلترا. إن الفجوة الموجودة بين «الثقافي» و«الجدير بالثقة» تعكس حذرا ثقافيا محددا، غير مسوغ دائما، وتفيد أن الناس الذين يعطون انطباعا حول تضلعهم اللغوي يعبرون كذلك عن رغبتهم في أن يتفوقوا في كل شيء وعلى كل أحد.

غير أن النقطة الأساسية، في السياق الراهن هي أننا جميعا نقوم بهذه القرارات تلقائيا إلى حد كبير حول الناس الذين نحتك بهم، اعتمادا، على لغتهم ـ وعلى هذا الأساس فمثلا إذا كان التواصل عبر الهاتف أو البريد الإلكتروني أو عبر أي شكل آخر من أشكال الكتابة. وعندما نقرر مدى جدارته بالثقة والاعتماد عليه، فإننا بصدد تقدير مدى استعدادنا لتقبل ما إن كان المحتوى القضوي لما ينقل إلينا يخضع لمبدأ الصدق أو الخطأ.

«الإفراط في القراءة»: الهوية وتطور اللغة

إن عرض تقرير مفصل عن تطور اللغة يستدعي منا البحث في الاستمراريات continuities الموجودة بين الجنس البشري والأنواع الأخرى من المخلوقات. غير أن هذا الطرح لم يكن ليحظى بدعم خطابات التوحيد والفلسفة الإنسانية. ففي الوقت الذي يصف فيه الخطاب الأول اللغة بأنها منّة إلهية خص الله بها الإنسان، يعتبرها الخطاب الثاني خاصية الإنسان المتفردة لترقى به إلى منزلة يكون الإله فيها قد استنفد كل أغراضه.

لقد انحصرت الخطابات الرائدة المتصلة باللغة في كون هذه الأخيرة أيضا أداة نقل للتمثل أو التواصل. ففي حالة التمثل، يرجع مفهوم استمرارية البناء العقلي ووظيفته بين بني البشر والحيوانات إلى أرسطو. ولكن (وإذا تركنا جانبا الشروط المتعددة التي قد تحتاج إلى تشكيل جزء من تفسير أكثر اكتمالا) نستطيع القول إن عمل رينيه ديكارت René Descartes جاء ليحدث القطيعة مع هذا المفهوم، ويدعو في المقابل إلى الإيمان بتفرد الإدراك المعرفي للبشر. إن تقليد الديكارتيين الجدد Neo-Cartesian في علم اللغة الحديث، الذي ارتبط

اسمه بتشومسكي خصوصا، يقر فقط باستمراريات هزيلة جدا بين لغة الإنسان وأنظمة الاتصال عند النحل، والطيور، والدلافين، والقردة، وغيرها. ولقد شكك الديكارتيون الجدد (بينكر Pinker ١٩٩٤ مثلا) [٢] بشكل لا يطاله أي لبس في صحة براهين دامغة سيقت باسم داروين مثل تلك التي قدمها تايلورTaylor ١٩٩٧، وليستيل Lestel ٢٠٠١ لدعم مفهوم الاستمرارية.

إن المقاربة البنيوية للغة بوصفها نسقا كاملا مستقلا بذاته، مجسدا من قبل تشومسكي في «عضو اللغة»، قد قلصت من إمكانات الوصول إلى تفسير تطوري للغة. ذلك بأن المسافة بين «نسق» اللغة عند القرد، و«نسق» اللغة لدى الإنسان تمثل هوة لا يمكن تضييقها. لكن هذه الأنساق لا تعدو أن تكون إسقاطات تحليلية، وإن المقارنة الحقيقية تقتضي منا الرجوع إلى السلوك الممكن ملاحظته والذي تمت من خلاله عملية الإسقاطات تلك. وتعتبر قياسات تشومسكي اللغة على الأجنحة أو الطيران غير موضوعية بتاتا. فلا بد لها أن تحصر اللغة في الكلام، وليس في الكتابة أو الرموز. إنها لا تأخذ بعين الاعتبار ثنائية اللغة أو تعددها multilingualism أو القدرة على اكتساب لغة ثانية. إن المطلوب منها أن تمحو كل تلك البنية الثقافية الضخمة القائمة على اللغة، والتي تتحدى أي تطابق مع الأعضاء المادية. فقبل كل شيء، فإن الأجنحة لا تأخذ تماما شكلا مختلفا داخل نوع species من الأنواع وفقاً للبيئة.

بيد أن القياس الذي يلائم الأجنحة فعلا يتمثل، إلى حد ما، في القدرة على التأويل، وعلى «قراءة» ملامح عالم تجربتنا الحسية. مادامت رموز شيء ما غير متاحة لحواسنا بكيفية مباشرة. إن نوع الرموز الذي أنا بصدد الإشارة إليه، هو ذلك الذي من خلاله مثلا نتنبأ وتتنبأ مخلوقات أخرى معنا برداءة الجو قبل حدوثه في واقع الحال، أو ما إذا كان لشخص أو مخلوق ما النية في إيذائنا أو لا.

إننا لو أخذنا اللغة من منظور تطوري، فسنحتاج إلى الاستفهام عن النظائر analogues المتعلقة بالسلوك اللغوي عند كائنات حية أخرى، خصوصا تلك التي تربطها بنا علاقة وطيدة جدا. إننا ندرك، طبعا، الا أحد من هذه الأنواع قد طور كلاما صوتيا ملفوظا بوضوح. مما أدى بلغويين كثر بمن فيهم تشومسكي ومدرسته إلى أن يجادلوا في عدم وجود أي رابط بين الإنسان وبين أي نوع آخر من الكائنات، وأن اللغة قد تفرد بها البشر، وهي تشكل «خطا فاصلا ضخما» بالمفهوم التطوري. وللتيقن، فإن حقيقة تمييزنا بالذات بين أنواع مختلفة تفهد

ضمنا أن لكل نوع مميزات فريدة خاصة به. وأن النزعة إلى التركيز على هذه التفردات، متحدة مع مقاومة راسخة تجاه الاعتراف بالصلات الموجودة بين البنيتين البشرية والحيوانية وسلوكهما، قد شكلت العقبات الكبرى للقبول التام بنظرية التطور ومضامينها منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى العصر الراهن.

وفي التسعينيات، ظهرت مدرسة جديدة لفكر يؤمن بمذهب التطور في اللغة. حيث وضعت الاعتبارات الاجتماعية في مرحلة مركزية، ليس باعتبارها بديلا عن التفسير البيولوجي، وإنما بوصفها ملازمة لعلم الأحياء. ففي كتاب «التهندم، وكلام الناس، وتطور اللغة» الذي نشر العام ١٩٩٦ لعالم النفس البريطاني روبن دينبار Robin Dunbar يموضع فيه أصل اللغة في حاجات الرئيسيات العليا إلى تشكيل أحلاف اجتماعية؛ يكون الهدف من ورائها التعامل مع التحديات التي تعترض سبيلها في بيئتها، بما في ذلك أفراد أقوياء من داخل أنواعها. وطبقا لما يقترحه عنوان كتابه، فإن المؤلف يظن أن الوظائف الأساسية للغة التي تتوخى غايات تطورية كانت وجدانية مع اعتبار كلام الناس - أي اللغة المتبادلة ذات المضمون الاجتماعي البحت قصد بلوغ غايات اجتماعية - مرادفا لتنظيف ومشط الفرو بالأظافر الذي تقوم به الرئيسيات فيما بينها كجزء أساسي في تشكيل الروابط الاجتماعية والحفاظ عليها.

> «يبدو أن التهندم يشكل الآلية الأساسية في توثيق روابط جماعات الرئيسيات. ولا ندري على وجه الدقة كيف يعمل ذلك، ولكن ماندركه هو أن تردده قد تنامى تقريبا بمقدار حجم الجماعة: يبدو أن الجماعات الكبرى في حاجة إلى أفراد يقضون وقتا أكبر للسهر على العلاقات فيما بينها».

و يتراوح معدل حجم الجماعة بين السعدان والشمبانزي بين خمسين وخمسة وخمسين عضوا «ويدفع هذا إلى الحد من مقدار الوقت الممكن تخصيصه للتهندم من دون التقيب بفداحة عن عناصر ادخار الوقت الأكثر أهمية إيكولوجيا، (مثل وقتي الإطعام و التنقل)» (المرجع السابق). وفي ظن دينبار، «كان لابد للإنسان البدائي من أن يواجه مأزقا رهيبا، تمثل، من ناحية، في الضغط الإيكولوجي القاسي الذي يعيق الزيادة في حجم الجماعة، ومن ناحية أخرى في ادخار الوقت الذي وضع حدا صارما جدا على حجم الجماعات الذي يمكنهم المحافظة عليه (المرجع السابق).

لقد جعلت اللغة من الزيادة في حجم الجماعة أمرا ممكنا من دون تضييع الوقت المطلوب لجمع القوت واصطياده أوالتفريط في التماسك الاجتماعي لمواجهة الضغوط على اختلاف أنواعها. وبما أنه في استطاعة اللغة أن توجَّه إلى أناس مختلفين في وقت واحد، ففي استطاعتنا أن نرفع من المعدل الذي نهندم به الآخرين. ولكن للغة، علاوة على ذلك، غاية مزدوجة ذات علاقة بالروابط. ويلاحظ دينبار أن الروابط الاجتماعية مسألة مخادعة، لأنك تلزم نفسك بعلاقة لاتضمن أن يبادلك شريكك فيها الشعور نفسه [...] إن القدرة على تقييم جدارة لحليف محتمل بالثقة قد أضحت من الأهمية بمكان في معركة الذكاء wits الأزلية (المرجع السابق، صفحة: ٧٨ ـ ٩). فاللغة من جهة، تخدم غايات الفرد الذي يبحث عن تشكيل حلف ما: «إنها تمكنك من الحديث كثيرا عن نفسك، أي عما تحبه وما تكرهه، وعن نوع شخصيتك. وإنها لتمكنك كذلك من نقل شيء ما، بطرق دقيقة ومتعددة، عن جدارتك بالثقة بوصفك حليفا أو صديقا». (المرجع السابق، ص: ٧٨).

ومن جهة أخرى، تُسخَّر للتودد إلى الفرد حال كونه حليفا محتملا.

«إن المعلومات الدقيقة التي تزودنا بها عند الحديث عن نفسك، وربما حتى طريقة ذكرها، قد تكون مهمة جدا في تمكين الأفراد من تقييمك كصديق مرغوب فيه. وسنتعرف على صنف من الناس يقولون أنواعا محددة من الأشياء، مدركين هل هم من الصنف الذي نوده أو نهجره هجرا مليا» [٢].

ويختم المؤلف كلامه بالقول إن «اللغة تبدو، من ثم، ملائمة على نحو مثالي وبطرق شتى لأن تكون شكلا رخيصا وذا فاعلية فائقة من أشكال التهندم. [...]وبكلمة واحدة، إنني أذهب إلى أن اللغة تطورت لإعطائنا فرصة القيل والقال». (المرجع السابق). وكما أوضح ديسالس Dessalles (٢٠٠٠)، فإن مضمون طرح دينبار هو أن وظيفة لغة الإنسان الأساسية سياسية.

إن ما ينبغي إضافته إلى تفسير دينبار هو ما اتخذه أمرا مسلما به، أي في القدرة التي عموما تتقاسمها أنواع الثديات فيما بينها، والتي لا تقتصر عليها في واقع الأمر تماما. ونطلق على هذا اسم «قابلية التأثر الترميزي» Semiotic receptivity، إذ يشير هذا ببساطة إلى أن الحيوانات لاتكتفي

بالاستجابة مباشرة لأشياء في بيئتها، كما تفعل النباتات. وإنما «تقرؤها» وتستجيب لتأويلاتها. فالحيوانات التي تقطن في الغابة مثلا، قد طورت قدرات عالية لتأويل أصوات تدل في بيئتها على دنو مفترسات أو فرائس. وإن لدى الحيوانات الأليفة المنزلية القدرة على تطوير قدرات متقنة لقراءة سلوكيات ومواقف البشر من حولها (والعكس صحيح). ولابد من قراءة الإشارات المتعلقة بقابلية التأثر الجنسي والرغبة فيه، وهنا يطفح سوء التأويل على السطح، ليطال الإنسان بأنظمته التواصلية المتطورة.

إن رسم الخط الفاصل بين الاستجابة المباشرة للمثيرات البيئية والاستجابة غير المباشرة التي تمنحها «القراءة» أمر بالغ الصعوبة. وتعزى تلك الصعوبة إلى احتمال عدم إدراكنا لهذه الاستجابات بالنسبة إلى أنواع أخرى، أو الاقتناع بأنها فعلا استجابات وليست مجرد حركات متطابقة، اللهم إلا إذا تكررت بانتظام حتى صارت عادة بالنسبة إلى الحيوانات ذات الصلة. إننا عندما نصف فعلا ما، سواء كان صادرا عن الإنسان أو الحيوان، بأنه اعتيادي، فإننا بصدد القول إن حدوثه لا ينطلق من محض إرادته، وإنما بمعزل عنها جزئيا على الأقل. إن مفهوم القراءة، من جهة أخرى، يتضمن وظيفة عقل ما في معالجة المعطيات الحسية وتحديد الكيفية التي تتم بها الاستجابة لها.

وقد بينت تجارب بافلوف الشهيرة المتعلقة بتدريب الكلاب، بغرض تطوير استجابات محتملة لأجراس وضجات اعتباطية أخرى، مدى قوة قدرتها على خلق عادات مستجيبة آليا إلى درجة يبدو فيها العقل مغيبا تماما: كلما رن الجرس، سال لعاب الكلب له. أهناك شيء وسيط يجري داخل دماغ الكلب بين الباعث الكهربائي لصوت الجرس الذي تم نقله انطلاقا من طبلة الأذن، والباعث الذي يدفع الغدد لإفراز اللعاب؟ من الواضح أن الكلب مر بمرحلة «التدريب»، حيث تبين خلالها بجلاء، وجود شيء وسيط تمثل في كون الكلب قد قدم له الطعام. عندما يثير الطعام اللعاب في الفم، فإننا لا نميل إلى الظن بأن هذا يشمل أي نوع من التأويل، وإنما هو مجرد استجابة ميكانيكية للغدد. إننا أنفسنا ندرك من دون وعي إفرازنا للعاب خلال فترة الأكل كل يوم، ومن غير العسير علينا أن نتصور وجود أنواع أخرى تتفوق علينا من حيث مستوى الوعي أو الإدراك. ومع ذلك حينما تعلم الكلب بالتدريج الربط ذهنيا بين الجرس والطعام، وبدأ يفرز اللعاب ولو من دون أن يقدَّم له طعام، بدا

ذلك وكأنه عملية دماغية معقدة نسبيا بصدد الحدوث. وقد يبدو استخدام فكرة المثير الاعتباطي، أي الجرس، بمنزلة مسوغ كاف للتفكير فيه من خلال «عقل» الكلب. ولكن مع ذلك، يجب القول إنه بمجرد أن تكون الاستجابة مشروطة، فإن الكلب ينجزها «بلا تعقل».

ويحتمل أن يقال الأمر ذاته عن الاستجابة التي لا يبدو أن الحيوان الفردي قد تعلمها من ذي قبل، وإنما كانت مقيدة وراثيا، أي أنه ورثها عن الأسلاف الذين أعطاهم الميل الطبيعي في إنجازها امتيازا تطوريا. إن الفرار والملاذ بمكان آمن استجابة لصوت مفترس قريب لمثال واضح على ذلك. فكلما كانت الاستجابة آلية أكثر، كانت عقولنا أقل كفاءة في تصور توسط هذه الاستجابة. وبطبيعة الحال، فإن العديد من الناس قد يرفضون أي مفهوم يتصل «بالعقل» الحيواني بوصفه مفهوما غير مقبول علميا. بل إن بعضهم يرفض مفهوم العقل جملة وتفصيلا، حتى عند البشر، بوصفه نموا التحاميا تجريديا غير ضروري، ذلك بأن وجوده غير قابل للإثبات الموضوعي. ولقد كان هذا مبدأ السلوكية behaviourism الأساسي، وإن كان معظم الناس لا يعدون أنفسهم سلوكيين، فهم مشتركون فيه. وليس هذا مجال دراسة إشكالية العقل عموما، وإنما هو فقط كيفية ارتباطه بالتشكيلات المشابهة لدى أنواع أخرى، هذا إذا كان يوجد عقل بشري ذو صلة باللغة أصلا.

و مرة أخرى، فالجواب في كل حالة: يصعب بأي شكل من أشكال اليقين ذكر ما مستوى بيان أو نوع العملية العقلية المشمولة. لكن هناك حالات، إذا سلمنا فيها بالقول إن بني البشر يقرؤون ويؤولون الأشياء في بيئتهم، فسنكون مضطرين إلى القول إن حيوانات أخرى تفعل الشيء ذاته أيضا. وللرجوع إلى النقطة المحورية، فإن تلك هي مظاهر سلوك الإنسان التأويلية ذات العمق التطوري. إنها لا تتعلق بما نقول، أي بالإشارات التي ننتجها، وإنما بما نستقبل ونؤول عبر حواسنا. إن ما يجعل الإنسان غير فريد يتمثل في كونه حيوانا «قارئا» و«مؤولا».

فعلى مستوى الفرد، كذلك، يبدأ اطلاع كل إنسان على المبادئ الأولى للغة بالتجربة السالبة المتعلقة بتعلم قراءة المشاهد والأصوات، إضافة إلى معطيات أخرى من حوله تتضمن قراءة للكيفية التي يثير بها بكاؤه وتجهمه «الخاليان من التعقل» ردود أفعال لدى أولياء أمره ويعتبر هذا أمرا سالبا إلى حدود

المرحلة التي يبدأ فيها الطفل إدارة الإشارات، ومن المحتمل إلى حدود مرحلة يستطيع أو يعجز فيها عن أن ينتج إشارة ما بمحض اختياره. وتعتبر تلك المرحلة أقل غموضا بالنسبة إلى الحيوانات، بما أننا غير قادرين على أن نسأل الأطفال عن مقاصدهم intentions فنحن إلى حد ما، نمتلك ـ فعلا ـ حدسا موثوقا به عن نوعنا أكثر من أي نوع آخر. لكن الفكرة الخاطئة التي تتبنى إسقاط مقاصد الإنسان البالغ على عقول الأطفال لا تختلف في الواقع في طبيعتها عن الأنثروبومورفية anthropomorphism. لقد كان البحث في اكتساب اللغة يركز دوما على الإنتاج عوض الفهم، ومرد ذلك إلى كون أن الإنتاج يمكن له أن يلاحظ بطريقة مباشرة، في حين أن الفهم لا يتم إلا بطريقة غير مباشرة ومع أطفال صغار لا يعول عليهم تماما. وما من شك أن مرد ذلك أيضا، وإلى حد ما، إلى الافتراض السائد أن السلوك الترميزي الأكثر خصوصية بالبشر، أي إنتاج الكلام المنطوق هو البداية الحقيقية للغة بدلا من أي مظهر آخر أعمق تطوريا.

فإذا رفضنا ذلك، واعتبرنا أن اللغة تنطلق بالضبط من هذا النوع العام من قابلية التأثر الترميزي والقراءة، فستتمخض تحولات في المنظور. إذ يمكن لنا ـ بداية ـ التفكير في أن للغة الإنسان غاية رئيسة عدا الغايتين اللتين تنتسب إليهما تقليديا، وهما غاية التواصل (وتنطلق من وجهة نظر المتكلم الذي يرغب في نقل مقصد من المقاصد إلى المستمعين) وغاية التمثل (المتصل بالكون، الذي تم تحليله إلى فئات منطقية، تحويها اللغة حسب راي بعض الفلاسفة)، على الأقل. وقبل أي من هاتين الغايتين، واللتين تغطيهما اللغة لاعتبارات عديدة. توجد هذه الأخيرة ضمن هذا المنظور العكسي، بهدف قراءة المتكلم.

إن علم اللغة الاجتماعي يهتم بكيفية قراءة الناس بعضهم لبعض من خلال معنيين: يتمثل المعنى الأول في كيفية تأويل المعاني المنطوقة، ولا يقف عند معاني الكلمات المؤمثلة idealised وقواعد علم النحو، كما وردت في القواميس وكتب النحو والصرف فقط، بل يبحث في معانيها انطلاقا من السياق الذي تحدده هوية المخاطِب والمخاطَب ونوع الحال situation الذي وردت فيه هذه الكلمات. أما المعنى الثاني، فينصب على كيفية قراءة الغير للمتكلمين أنفسهم انطلاقا من معانى الهويات الاجتماعية والشخصية التي يشكلها المستمعون عنهم بناء على مايقولون وعلى الكيفية التي يتم بها هذا

القول (وهذه عملية معقدة، بما أن معظم مخرجات المتكلمين تتشكل، إلى حد ما سلفا وفق الكيفية التي تتم بها «قراءتهم» لمستمعيهم. ارجع مثلا إلى الحوار الذي دار سابقا في هذا الكتاب بين أولئك الذين تركتهم السيارة واقفين في الطابور وقد مرت بالقرب منهم من دون توقف. فإذا قرأ المرء الحوار، فإنه سيستحضر المشهد في ذهنه، وإن سُئل، استطاع تقديم أوصاف مفصلة إلى حد بعيد عن المتكلمين. ومن دون استثناء، فإن «ب» و«ت» سيوصفان على أنهما مختلفان جدا من حيث الوضع الاجتماعي، والتربوي، والعمر، وربما الجنس. وأما «أ»، فسوف يوصف نظيرا ل «ب» أكثر من «ت». وعادة ما يستطيع القراء أن يعبروا بدقة، إن سئلوا، عن شعورهم تجاه هؤلاء الأشخاص الثلاثة الخياليين. والذين تم تصورهم على أساس بعض الخربشات التي ظهرت على صفحة ما. ويعتبر هذا بطريقة ما مثالا بارزا، بما أن «ت» قد تلقى كلمة محظورة taboo ذات تهجئة غير معيارية non-standard ولكن في واقع الحال، في كل يوم يأخذ كل واحد منا على عاتقه الشروع في هذه العملية، مرارا وتكرارا، من بناء قراءة الناس الذين نلتقي بهم مباشرة، أو نتواصل معهم عبر الهاتف، أو جهاز الراديو أو الشاشة، أو الكتابة، أو عبر الإنترنت بناء على لغتهم: أي بناء على مايقولون وعلى الكيفية التي يقولون بها ما يقولونه.

لقد تعلمنا من الأشياء التي يقوم عليها البحث في فهم اكتساب اللغة أن أول ما يتعلم الأطفال الاستجابة له في اللغة الملفوظة الموجهة إليهم ومن حولهم هو التنغيم intonation فيتعلمون قراءة عواطف المتكلم انطلاقا من أنماط الأصوات المتسقة melody، ودرجة الصوت volume، وطبقة الصوت pitch، والإيقاع، وتماثل الصوائت assonance والجناس الاستهلالي alliteration والقافية rhyme قبل فهمهم تماما معاني الكلمات والجمل. وهكذا، سيستجيب طفل ما بابتهاج لجملة: «اغرب عن وجهي أيها التافه الصغير»، إذا ما تم نطقها بنغمة رقيقة ومرحة، وسينفجر بكاء لدى سماعه جملة: «كيف حال قرة عين أبيه الصغير، إذا»، إذا ما نطقها صاحبها بصوت عال وخشن. فالمتكلمون يدركون ذلك حدسيا، من أجل هذا يميلون إلى استعمال لغة الأطفال baby talk، وإن الذي يصدق على الأطفال خلال هذه المرحلة يصدق كذلك عليهم عندما يصلون سن البلوغ. سيواصلون قراءة أنماط على اختلاف أنواعها والتفاعل معها انطلاقا من مضامين ما تحمله الكلمات

والجمل الموجهة إليهم. ومرة أخرى، سيواصل الناس الذين يوجهون إليهم الخطاب تكييف منطوقاتهم بكيفية منمطة حسب كيفية قدرتهم على فهم مخاطبيهم. وإن كشف الغطاء عن هذه الأنماط هو من عمل علم اللغة الاجتماعي.

إن لدى المتكلمين القدرة على قراءة طيف كبير جدا من أنماط اللغة يفوق حتى ماينتجونه هم أنفسهم. وينطبق هذا بوضوح على اللغات التي يعرفها المرء جيدا. ولكن يمكن لهذا الأخير أن يسمع لغة ما لايعرفها تماما، ومع ذلك يقرأ أشياء عن المتكلم، والمقام، بل وعن المعنى المحتمل أيضا. إن فكرة أن القدرة التأويلية تسبق القدرة الأدائية تعني أن معرفتنا باللغة هي في الحقيقة أوسع جدا مما يأمل تحليل مُخرجنا output إظهاره. ويرتبط هذا بالاستبصار الرئيسي وراء علم النحو التوليدي الذي يفيد بأن معرفتنا باللغة (أي الكفاية competence، كما ورد في نُسخ نظريتها المعدلة في مراحلها الأولى) أقوى مما يظهره أداؤنا. إنها حقيقة يفسرها علماء النحو التوليدي بفكرة أن معرفتنا باللغة لا يمكن لها أبدا أن تبني كليا على الكفاية المتواضعة التي نسمعها من حولنا، ولكن يجب أن تقوم أساسا على «نحو عمومي» universal grammar يتأسس داخل بنية الدماغ البشري، ويعمل على نحو مستقل انطلاقا من أي بنيات دماغية أخرى من الإدراك الحسي، والذكاء، ونحو ذلك. وعلى سبيل المثال، كيف يتسنى للناطقين بالإنجليزية إمكان التعرف على أن جملة: سأل جون رالف عما أعطت سو لماري، John asked Ralph what Sue gave Mary? تنسجم مع السؤال:

من الذي سأله جون عما أعطته سو لماري؟

Who did John ask what Sue gave Mary? ولا تنسجم مع الأسئلة التالية:

من الذي سأله جون رالف عما أعطى ماري؟ (الإجابة: سو)

Who did John ask Ralph what gave Mary? (answer: Sue) أو من الذي سأله جون رالف عما أعطت سو؟ (الإجابة: سو).

Whom did John ask Ralph what Sue gave? (answer: Sue)

لم يسبق لأي أحد أن تعلم أن أسئلة مثل هذه الأخيرة غير ممكنة التشكيل، ومع ذلك فإن المتكلمين على دراية كافية بها على الأقل عندما يتعلق الأمر بحالات بالغة الوضوح. وجواب عالم النحو التوليدي generativist على هذا الأمر يفيد بأن معرفتهم بمثل هذه الأسئلة تولد معهم بالضرورة. وإن أي شيء يعجز المرء عن تعلمه، لا بد له أن يُحدد

في النحو العمومي. ومرة أخرى، لا يعتبر هذا النحو عموميا إلا بالنسبة إلى بني البشر، ومن ثم يمثل خطا فاصلا كبيرا من مفهوم تطوري، وتحولا ضخما من مفهوم وراثي.

ولكن المنظور التطوري، المقترح هنا والذي يركز على ما تشترك فيه الأنواع، ينطلق من نزعته إلى القراءة والتأويل، أي من «قابلية التأثر الترميزي» الذي يعتبر بحق عموميا إلى حد بعيد. إنه يسلم بأمر ينكره علم النحو التوليدي بشدة، وهو غياب أي دليل مباشر على وجود نحو عمومي مزود بشبكة على شكل أسلاك كهربائية داخل الدماغ، أونسق لغوي نفسه في الدماغ منظم بهذا المستوى العالي من الدقة بمكنه من نعت الأشياء التي يصفها الناس «بالمنحطة». وأما بخصوص المعرفة الكبيرة للغة التي يمتلكها المتكلمون ولم يستطيعوا مع ذلك تعلمها بطريقة مباشرة، فإنها مقاربة تقبل بالدليل «المتنامي بوفرة» ما تراكم على امتداد العقدين المنصرمين من خلال المقاربات الحاسوبية للغة. إذ يظهر أن برامج الحاسوب الآلي، ذات البنية المبسطة على نحو غير محدود بالمقارنة مع الدماغ البشري أو حتى الحيواني، تمتلك قدرة قوية للغاية على إسقاط استنتاجات انطلاقا من كميات محدودة من المعطيات. وبعبارة أخرى، إنه من تمام المعقول أن تكون معرفة اللغة التي لم يتعلمها المتكلمون بطريقة مباشرة قد أسقطت مع ذلك بانتظام انطلاقا من الأشكال اللغوية التي تعرضوا لها. وستكون اكثر معقولية بكثير إذا ما اتبعنا بياجيه، عوض تشومسكي، وافترضنا أن أي بنيات دماغية ذات صلة بالإنتاج اللغوي غير مستقلة على الإطلاق، ولكنها تتداخل وتتفاعل مع بنيات ذات إدراك حسي وذكاء شاملين يشكلان مجتمعين ملكة التأويل.

إن علم اللغة الاجتماعي يقدم دليلا دامغا يتوافق مع هذا الطرح. وحيثما نظرنا، وجدنا الناس يفهمون اللغة ويستعملونها ليس بطريقة مستقلة، وإنما بمزج هذا الفهم والاستعمال اللغوي بقراءتهم للناس الذين يتحدثون أو يستمعون إليهم، وسياق الحال الذي يجدون أنفسهم فيه. والسؤال الذي ينشأ الآن: ما هي اللغة الواقعية real language؟ هل هي اللغة التي يقوم الناس العاديون بإعادة زخرفتها وتنظيفها في العالم؟ أم هي أفكار تجريدية استقرأ علماء اللغة ضرورة وجودها في عقولهم، واستحالة إدراكها بشكل مباشر. إن التوليديين يقولون إن النوع الوحيد الجدير بالمعرفة علميا يتجلى في النحو العمومي المطوق بما يشبه أسلاكا

كهربائية داخل الدماغ، بحيث لا يستطيع أحد إدراكه على نحو مباشر في كلام أو كتابة أي إنسان (أداء متواضع)، حتى وإن خضع ذلك لشروط مختبراتية. ولكن لابد لهذا النحو العمومي من أن يستنتج استنادا إلى قدرته على تفسير الأشياء، التي يمكن أو يستحيل قولها، بطريقة منتظمة. وفي المقابل، يقول عالم اللغة الاجتماعي إن اللغة الواقعية تتمثل في ما نسمع ونرى، وكل تحليلاتنا واستقراءاتنا تجريدات تصدر عنها. وإذ تعتبر هذه التحليلات والاستقراءات مجردة، فهي أقل واقعية. وبالطبع، فإن هذا جزء من جدال واسع قديم حول الواقعي الذي يميز المؤمن المتدين عن المادي، الذي أعطى ميلادا للانقسامات الطائفية والمذهبية السكولاستية المختلفة بين المتدينين أنفسهم. إن مواقفنا من «اللغة الواقعية» تعكس على الأرجح آراءنا العامة بهذا الشأن، ولو أنها قضية معقدة بما أن تشومسكي مثلا مؤهل لوصف النحو العمومي بأنه واقع مادي على الرغم من افتقاره الشامل إلى دليل يثبت ذلك. وبعبارة أخرى، فإن التوليدي ينظر إلى عالم اللغة الاجتماعي على أنه شخص معاد للمادية أوقع في شَرك ورطة ميتافيزيقية من تدبيره. ولكن يرى التوليدي نفسه أنه يكشف الغطاء عن البناء المادي لعقل الإنسان، في حين يهتم عالم اللغة الاجتماعي بجمع الفراشات.

إن المنظور السوسيولغوي التطوري، الذي أنا بصدد وصفه الآن، والذي يأخذ به كل علماء الاجتماع اللغويين على وجه الإطلاق، قادر على أن يساعدنا على إدراك مكمن المشكلات. إنه لاينطلق من تجريدات لا تمكن رؤيتها تحولت بصورة بيانية إلى جزء مادي من الدماغ، وإنما مما نستطيع رؤيته وسماعه بالقرب منا. إن هذا المنظور يقترح أن اللغة جزء من قدرة واسعة غير محددة النوع تعمل على تنظيم وقراءة وتأويل المعطيات الحسية في بيئتنا، وعلى الاستجابة إلى هذه التأويلات، وكذا التأثير في البيئة بما يملك المرء من حبوب معدة للطحن في طواحين تأويلية لدى الكائنات الأخرى. إنه من غير الواضح موضوعيا من أين تبدأ «اللغة» ضمن هذه القدرة الواسعة وأين تنتهي، ولو أن تقاليد ثقافية مختلفة (بما في ذلك تلك التي ندعوها «علم اللغة») قد قدمت تعريفات خاصة بها للغة هي جديرة بالاهتمام. ولنأخذ مرة أخرى تأويلنا للحوار القصير الذي دار حول سيارة الأجرة. ذلك بأن بعضا منه يتطلب دراية باللغة الإنجليزية كدرايته بمعنى لفظ «فاحش» outrageous مثلا. أو ربما ليس في هذه الحالة: يستطيع أن يتخيل المرء وهو

يشغل شريطا مسجلا للحوار على أناس لايعرفون أي شيء عن الإنجليزية، وإن قدرتهم على قراءة ما يعبر عنه المتكلمون تتم بدقة متناهية انطلاقا من المنطوقات التي تلفظ على مستوى الصوت، ومن قراءاتهم التي تنسجم وتلك التي لدى من لهم دراية بالإنجليزية. وإن عناصر أخرى، تتضمن ما يرشد قراءتنا للمتكلمين باعتبارهم أناسا، تشمل قطعا معقدة فوق العادة من معرفة ممزوجة السياق لا تشكل بوضوح جزءا من معرفة «الانجليزية» في حد ذاتها. وإن بعضا منها أشبه بما يحس به الكلب أو الحصان في الصوت منه «باللغة الإنجليزية» التي تصور على أنها مجموعة توافقات بين الكلمات والمعاني، بالإضافة إلى القواعد التي تركبها. ومع ذلك، فإن التأويلات التي يستطيع متحدث ما بالإنجليزية القيام بها لتلك المنطوقات، بواسطة جلب «اللغة الإنجليزية» إلى داخل ما أصبح الآن تفاعلا في غاية التعقيد مع هذه الأنساق التأويلية الأعمق من حيث التطور، قد بلغت مستويات من التفصيل لا يمكن لنا أن نتصورها في عقل نوع آخر.

ولكن ما المقصود «باللغة الإنجليزية» حسب هذا المنظور؟ إنها لا تعني كل ما يقدر عليه ناطقو الإنجليزية من تأويل لكلام وكتابة ناطقين آخرين بالإنجليزية، ولا حتى قدرتهم على إنتاج إشارات قابلة للتأويل، لأن هذه القدرات، وكما تمت الإشارة إلى ذلك سلفا، تتجاوز حتما حدود أي لغة كائنة ما كانت، بل تتجاوز حتى حدود لغة الإنسان. إذا كانت مهمة علم اللغة الاجتماعي الأولى هي فهم هذه القدرة التأويلية الواسعة، فإن مهمتها الثانية تتجلى في تفسير كيف لتقاليد تأويلية دقيقة أن تصبح أمورا متعارفا عليها ومتماسسة، ومنقولة من جيل إلى جيل داخل جماعات اجتماعية بشتى أنواعها، بما في ذلك التجميع grouping الذي نطلق عليه اسم الفصل الدراسي classroom. لقد كان هناك اتجاه قوي في الماضي، تحطم في الأعوام القليلة الماضية، يعتبر أن نظام الفصل الدراسي بمنزلة شيء «غير طبيعي» ومنفصل عن الحياة الاجتماعية العادية. ويعتبر علماء اللغة الاجتماعيين في الوقت الحاضر أكثر أهلية لكي يدركوا أن الفصل الدراسي تجميع اجتماعي كأي تجميعات أخرى، وأن التعليم والتعلم أنشطة اجتماعية ولغوية مثلها في ذلك مثل أي أنشطة أخرى. ومع ذلك، فإن المرء يصادف إشارات إلى معطيات لغة «طبيعية» هدفها إقصاء كل شيء ينتج داخل فصل دراسي ما على الأقل إذا كان يشمل المدرس. إن المرء ليستطيع تصور سياقات محددة يكون

هذا التمييز فيها مفيدا، ولو أن استعمال مصطلح «طبيعي» بمفهوم أن النوع الآخر من الخطاب، بطريقة أو بأخرى، «غير طبيعي» هو خال من المعنى. وعلى كل حال، فإن خطاب الفصل الدراسي عنصر حاسم في المهمة الثانية لعلم اللغة الاجتماعي، إذ يفسر كيفية تشكيل التقاليد التأويلية الدقيقة التي ندعوها «باللغات»، وكيفية الحفاظ عليها.

ومن ثم، فإننا نعتبر «اللغات» تقاليد ثقافية تشكلت من خصيصة عمومية وليست وحدة نحوية محددة ومستقلة لدى الدماغ الذي هو مجرد تخيل في أثناء هذه المرحلة. وإنما هي قدرة على تأويل إشارات يمكن رؤيتها عموما. إن أي لغة كانت، لا تمتلك تقليدا ثقافيا واحدا تمثله وحسب، وإنما تقاليد ثقافية مختلفة، تضم في أحيان كثيرة ما قد يكون دينيا وقانونيا، ومنها ما تشكل لغايات التدريس والتعلم، ومنها ما هو منطقي أو فلسفي، ومنها ما تشكل من قبل لغويين محدثين على اختلاف ميولهم النظرية. وقد تتشكل تقاليد مختلفة بالنسبة إلى «اللغة نفسها» في أماكن مختلفة. ومن وجهة نظر تاريخية، فإن العنصر الوحيد الأكثر قوة في خلق هذه التقاليد والحفاظ عليها كان دائما هو الذاكرة. على جميع المستويات انطلاقا من الفردي حتى الثقافي. ولم يكن واضحا قبل اختراع الكتابة أن من الممكن تمييز الذاكرة الفردية والثقافية. كان لابد على الأقل أن تستثمر الذاكرة الثقافية لدى بعض الأفراد وأن تستثمر قدرتهم على حفظ التقليد الشفوي عن ظهر قلب ونقله. لقد أجازت لنا الكتابة اختزان الذاكرة الثقافية بمعزل عن الكائنات الحية، مما جعل الذاكرتين الثقافية والتاريخية أكثر قوة في إطار مفهوم ما، ولكن أكثر ضعفا ضمن مفهوم آخر. بما أن الكتابة قد استوعبت هذا الجزء المحدود من اللغة. وإذا كانت الكتابة قد استوعبت اللغة بأكملها، فإننا سنتوقع مثلا تطابقا بين مختلف الممثلين من حيث قيامهم بدور هاملت Hamlet. إن فن الممثل يجد فضاءه في ما لم تتفوه به الكلمة المكتوبة، تماما مثل فن العازف على البيانو أو فن ضابط الإيقاع الذي لا يجد فضاءه في ضبط النغمات الموسيقية المطبوعة، ولكن في تأديته لكل ما أخفقوا في استيعابه.

ولكن إذا كانت اللغات تقاليد ثقافية، فكيف يمكن لنا تفسير وقائع اكتساب اللغة عند الطفل؟ إن الأطفال يمرون نسبيا في نموهم اللغوي عبر مراحل منتظمة بدءا من غمغمات babbling، ومنطوقات تتكون من كلمة واحدة، ثم من كلمتين، فمنطوقات تلغرافية. ويكون سير هذا النمو مختلفا لدى الأطفال إلى حد ما، ولكن مع ذلك يتم نسبيا خلال مراحل واضحة عبر اللغات.

ولم يعد هذا صعب التفسير في غياب النحو العمومي، بل بالعكس سيكون أكثر صعوبة لو اعتمدناه في تفسيرنا، مادمنا نستغني عن مفهوم تشومسكي صعب التصديق، حيث ينفي صلة وظائف اللغة بأي شيء آخر يدور في الدماغ. إن الأطفال كباقي صغار الحيوانات لم يولدوا ذوي قدرات مكتملة النضج من الإدراك المعرفي أوحتى الإدراك الحسي. إن هذه القدرات الدماغية العامة تتطور خلال الأعوام القليلة الأولى من الحياة: وإن لتعلم اللغة قسطا مهما في هذا التطور، ذلك أن الأطفال، ومن خلال الكلمات التي تلقنوها، يتعلمون تقليدا معينا حول كيفية رؤية الأشياء، وسماعها، وشمها، وتذوقها، والإحساس بها، وتصنيفها، وكذا تأويلها. وإذا كان الإدراك الحسي ماديا وعموميا على نحو صرف، فلا بد لنا أن نتوقع، مثلا، أن تميز كل لغات العالم، إلى حد ما، الألوان على نحو مشابه، في الوقت الذي تختلف فيه اللغات حقيقة على نطاق واسع في ما تميز وتسمي من ألوان.

إن اللغات، إذن، تقاليد ثقافية تبنى على أسس تشترك فيها أنواع كثيرة من الحيوانات، ويتعلق الأمر بالبنيات الدماغية والنزعات المادية للإدراك الحسي، والإدراك المعرفي، والقراءة، والتأويل، لتتفاعل كلها مجتمعة في ما بينها. يبدأ تعلم تقليد ثقافي معين في فترة تكون فيها قدرات الفرد الشاب في طور التشكيل فتؤطر هذه القدرات. إن التفاعلات معقدة جدا حتى أنه يستحيل على وجه الإطلاق إنتاج الحصيلة نفسها بدقة في فردين اثنين، أيا كانا. ومع ذلك، تظهر أنماط أناس يتفاعلون ويتقاسمون تجربة تعلم التقليد الثقافي. وتتضمن هذه الأنماط الديني، والاجتماعي الطبقي، والجيلي، والجنسي ومميزات أخرى مماثلة داخل لغة محددة يهتم بها علم اللغة الاجتماعي. إنها تتضمن أنماطا لا تكتسب داخل المنزل أو في باحة اللعب وحسب، بل كذلك في التعليم الرسمي لأنه، وفي نموذج آخر من الاختلاف عن النحو التوليدي، يجب علينا ألا نتخذ فكرة أن اكتساب الطفل للغة الأم أمر بديهي، بحيث يكتمل في سن الرابعة، وأن أي تحولات تطرأ فيما بعد شيء تافه. ومرة أخرى، فإن هذا يضفي طابعا مثاليا يعكس نزعة سياسية معينة ضد تأثيرات التعليم، ويتصدى، علاوة على ذلك، للتجربة المشتركة.

ومن الواضح جدا عدم قبولنا بتعامل علم اللغة الاجتماعي مع البقايا التافهة، غير المنتظمة من علم اللغة «الواقعي»، الذي يعالج بمفرده جوهر اللغة، أي قواعد النحو العقلية لدى المتكلم التي تم انتاجها بواسطة قدح زناد المتحولات في دالة،

الموجودة الآن على نحو أسلاك كهربائية داخل الدماغ عند المولد، وفي الواقع قبل المولد تماما، افتراضا في مرحلة أصبح فيها الجنين البشري متميزا عن جنين دجاجة ما. بل على العكس من ذلك تماما. إن موقفنا هو أنه لو كان يحق لأي صنف من علم اللغة أن يدعي واقعية أكبر من غيره، لكان الأولى علم اللغة الاجتماعي الذي يهتم بدراسة المسموع والمرئي، عوض الاستنتاجي والخيالي؛ وبدراسة المستمر تطوريا والقابل للحياة، وليس بدراسة من يرجو يائسا أن يكون دارون على خطأ. وإنه لعبر سلسلة من المصادفات التاريخية، ألا تدعى المقاربة التي نحن بصدد تبنيها هنا مجرد علم اللغة باختصار.

في عالم منطقي، قد يطلق على هذه المقاربة اسم علم اللغة، وكل ماتبقى فهو علم لغة نظري أو تأملي. إني لا أعارض هذه المقاربات الأخيرة، بل إنني أدرسها، وأعمل في إطارها أحيانا. إن الذي أرفضه يتمثل في كل رؤية لغوية تتبنى هذه المقاربة المختزلة التي تجعل من الصوامت vowels والحركات consonants أو قواعد علم اللغة التركيبي syntax أكثر «واقعية» من الناس الذين يتكلمون. إن حديث الناس هو موضوع هذا الكتاب.

إن «القراءة» بمفهوم تأويل الهوية تحقق المعايير لأجل أساس تطوري للغة. إنها تدعم كذلك التمثل والتواصل على حد سواء. وهذا يعود بنا إلى شيء مثل الموقف السلوكي (ككلاب بافلوف وحمام سكينر)، لكن دون اتخاذ قرار قبلي حول علاقة سلوك الحيوان «الفريزي» بالسلوك البشري. ومع ذلك، لو استجاب حيوانان اثنان من النوع نفسه بطريقة مختلفة للمثير ذاته، فحينئذ قد تكون «القراءة» وصفا مناسبا للعملية العقلانية المتضمنة.

وليس ثمة داع للتفكير في أن الحاجات التأويلية للإنسان البدائي كانت مختلفة عن حاجات الإنسان العصري، أوحاجات النوع الحيواني، أوحاجات الحسابات التقليدية من قوت، وجنس، وحماية من الخطر. إن القوت وبطريقة أكثر تعقيدا، الجنس، يتطلب تراكما للأراضي ورؤوس الأموال. وهذا يولّد خطرا، مما يتطلب بدوره رأس مال أكثر لتمويل الأسلحة. إن الدليل الحديث الذي مفاده أن المجموعات البشرية البدائية التي هاجرت لتشكل مستعمرات وكانت ترتدي مجوهرات حلزونية حتى يتسنى للمواطنين الأصليين تمييزها، إن صح هذا التأويل، يتضمن الإسقاط لهوية من الهويات. قد كان هذا مهما لأسباب تتعلق بالجنس، والخطر، وربما بالقوت أيضا، لو أن التجارة سادت بين المواطنين

الأصليين والمهاجرين. إن هذا سلوك ترميزي، مشابه إلى حد ما لعرض جنسي أو لعرض قتالي، ولكنه يدل على شيء أساسي حول هوية المرء. إن الاستيلاء على المجوهرات من قبل سكان العصر الحجري الأول في أوروبا يظهر مع ذلك أن «الدال مستقل عن المدلول» بكيفية قد يكون أو لا يكون لها نظير في العرض المادي. إن النقطة المهمة تتجلى في كون التعبير عن شيء ما مثل الهوية الإثنية هو على الأقل معاصر لبداية اللغة. فاللغة نفسها تمدنا بمعالم هوية يمكن نسخها بسهولة أقل من المجوهرات الصدفية ولو أنها قابلة للنسخ.

إن ما يبدو تقريبا تناقضا ظاهريا للهوية يمكن أن يفهم أيضا بهذه الطريقة المرتبطة تطوريا. فمن جهة تهتم الهوية «بالتماثل» (أصلها الإتيمولوجي) - أي كون المرء صينيا أومسلما لتربطه بصينيين أو مسلمين آخرين علاقة لتشكيل فئة من الناس ذوي هوية إسلامية أو صينية - قد يكون بينهم فرد معين عضوا أصليا أو عضوا هامشيا. ومن جهة أخرى، تهتم الهوية بماهية المرء على نحو فريد— أي باسم ما - قبل كل شيء، وبعد ذلك بذات تتألف من هويات متنوعة (في المعنى الأول) يشاركها المرء، وأخيرا، وبالنسبة إلى بعض الناس، بماهية فردية تماما تفلت من كل تقسيم فئوي بعيد الصلة عن هذا الشخص المعين. لاحظ أن هذه التعارضات تتضفر في واقع الحال: إذ إن الهوية باعتبارها تمثلا identity-as-sameness يتم إدراكها مبدئيا عبر الاحتكاك بما هو مختلف، بينما الهوية بوصفها تفردا identity-as-uniqueness تُرسَّخ، إلى حد كبير، عبر نقطة تقاطع فئات الهوية بوصفها تمثلا. إن الدوافع المزدوجة للتمثل والتفرد يمكن لها أن تتصل، على نحو معقول، بالسلوك الذي يمكن رؤيته لدى أنواع الثدييات التي تفضل تناسلا خارج القطيع exogamy (تربية الجماعة الخارجة outgroup) والتي تؤيد إنتاج ذرية قابلة للحياة بواسطة تحسين جيناتها، والتي مع ذلك تعتمد على الروابط النوعية للقرابة العائلية أو القبلية لضمان غذاء الذرية وحماية الجماعة عموما - وبشكل فاصل لضمان امكان تمييز العلائق القريبة حتى يتسنى لها اجتناب التناسل معها. إن العلاقة التي تتصل «بالأنساب» هي مثال رئيس على هذا الجهد لتوسيع وإعادة خلق العائلات «تماثلات» بواسطة دمج غرباء «اختلافات» من أجل صد الأعداء المتربصين.

تبتدئ الهوية الفردية، في اصطلاح علم النفس، بالأنا (الذات أو الشعور) التي تواجه لدى بروزها القوى الاجتماعية التي تعمل على نمو الأنا العليا (اللاشعور). وإن الهويات الجماعية تسهم في تأسيس الأنا والأنا العليا كلتيهما.

بيد أنه يوجد دائما لدى الأنا رغبة في تملك فذ. هل نستطيع مثلا تخيل مجموعة من الراهبات البونيات وقد فرّغن أنفسهن للتعلم الديني والتجمع، بحيث لا يتسرب إلى أفئدتهن اي حسد او أي حقد مهما كان ضئيلا؟ ربما، ولكن علينا أن نعترف أنهن تسامين فوق بشريتهن. وفي الطرف المقابل، فإن الشخص الذي لا يقدّر غير فرديته ولا انتماء جماعيا لديه سيوصم بأنه خطر يتهدد جماعته. ومن منظور لغوي فإن لهذه الحقائق نظراءها بحيث إننا لا نجد في الواقع شخصين متطابقين لغويا تماما مهما كانا قريبين. إنه لمن الصعب التدليل على هذا في حالة راهبتين قد أخذتا على نفسيهما عهداً بالصمت. لأجل ذلك فمن الأفضل أن نوضح بدقة أنه من المستحيل إثبات أن شخصين ما متطابقين تماما. تحذير: ستعتمد الهوية على فئات ومقاييس التحليل اللغوي المستعمل. وفي الوقت ذاته، فإن الهويات الجماعية تميل كثيرا إلى الربط بينهما وبين الملامح اللغوية المشتركة ـ أعظم اكتشاف لعلم اللغة الاجتماعي التي يمكن أن نضيف إليها أن (١) الهويات الجماعية تظهر أحيانا قبل كل شيء عبر الميزات اللغوية المشتركة، و(٢) أن هذه الملامح لا ترتكز بالضرورة على شخص محدد تشمل معرفته بلغته دائما مجالا أوسع من الميزات (كي يتمكن من فهم متحدثين خارج جماعته) والتي يستطيع توسعتها بفعالية في بعض الحالات كحالة المواءمة اللغوية linguistic accommodation.

إن تصورنا أن معرفتنا باللغة تشمل أساسا التمثل المجرد لاتساق المعنى والصوت ليعتمد كثيرا على الحقيقة الممكن ملاحظتها، والتي نستطيع بموجبها تأويل منطوقات مختلفة مكونة من ألفاظ متشابهة على أن لها معنى متشابها. غير أن هذا الأمر يغض الطرف عن حقيقة أننا نفسر غيرها من خلال الطريقة المحددة للكلمة التي قيلت ـ ومنها أساسا معلومات عن المتكلم غالبا ما تشمل محيطه وبيئته ونواياه ومصداقيته. وبعبارة أخرى، فإننا نتفرس الهوية في كلمات ما نقرأ ونسمع من الناس. ونستطيع أن نسمي هذا بشكل دقيق إفراطا في القراءة ما دامت المعطيات التي تأسست عليها غير ملائمة دائما تقريبا لدعم الاستنتاجات المتوصل إليها.

ليس هناك أي سبب منطقي لضرورة أن تعكس الأنماط اللغوية الصفات الأخرى التي تظهر على الشخص، بيد أن الهوية اللغوية تعمل في الغالب الأعم على هذا المنوال: إننا نقرأ هويات الناس الذين تربطنا بهم علائق

اعتمادا على الميزات السلوكية الدقيقة ومن بينها الميزات اللغوية التي تحتل مركز الصدارة بوجه خاص. ومن خلال ملاحظة سلوك الأنواع الأخرى نستطيع دعوتها بمعقولية تامة الإرث التطوري من دون أن نقع في متاهات إضفاء صفات إنسانية على الأشياء بإسناد «تأويل» للأنواع الأخرى.

وهذا لا يعني بأي حال أن مثل هذه القراءة المفرطة يلزمها أن تكون مضللة او عويصة باستثناء حينما تتمخض عن تحيز. ثم إن هذه عملية كلية الحضور وجبارة وتأخذ مكانا في كل لقاء بين الناس إلى الحد الذي يجعل انعدامها، إن لم يكن مستحيلا، فعلى الأقل ذا شكل مغاير إلى حد بعيد لشتى مجالات عملياتها التي تطلق عليها المعنى والتواصل. نعم، نستطيع أن نجادل في كون هذه العملية للقراءة المفرطة موزعة على باقي الأنواع، وهذا يسبق تبعا لذلك اللغة في التطور التقدمي للإنسان. ولا ريب أن نصيبا هائلا من قيمة البقاء لازم لإمكان تقدير مدى صحة أو خطأ ما يخبرنا به الغير. إن الهوية وقراءتها تشكلان بمعنى آخر الأسس الجوهرية للتواصل البشري والتفاعل الذي يطعم اللغة في المفهوم المعتاد.

خاتمة

إن الإدراك المعرفي التقليدي للتمثل والتواصل، بوصفهما من الوظائف الرئيسية للغة، مؤسس على امتياز العملية الفعالة الموضوع والتي هي ذاتها منتوج تاريخي وعائق لنظرية لغوية يسهل التوفيق بينها وبين التطور والارتقاء. ولو فرضنا بدلا من ذلك لغة جوهرية بفاعل ومفعول به كرد فعل مؤولة للعالم من حولها، فإن التأويل يصبح حينئذ الوظيفة الجوهرية للغة. إن إلغاء المكانة المتميزة للفاعل يأذن لنا بإعادة احتواء الوظيفة التقليدية للعواطف في تحليل اللغة فيُضاف بُعد ارتقائي آخر ينهي احتكار الإدراك المعرفي. ثم إن ترك خيال نسق لغوي مستقل تماما ليهبنا هذا البعد الارتقاء المطلوب وهو ما نتعرف عليه بوصفه تحفة تاريخية وليس عضوا ماديا.

لم يعد جليا عند هذا الحد وجود «وظيفة جوهرية» للغة. ذلك لأن هذه الفرضية نفسها تدل على عملية فعل اختراع أداة ما. غير أننا نستطيع تمييز تلك الأمور من العالم والتي تعمل استجابة لأمور أخرى وهي حينما تتفاعل بأساليب لا يمكن التنبؤ بها أو تستدعي بعدا رمزيا، فإنما هي تتفاعل بشكل تأويلي. وعندما

يشتمل التفاعل محاولة وضع شخص أو شيء فردي ضمن فصيلة مع آخرين. فهو الانتساب إلى الهوية ذاتها. ولهذا نستطيع القول إن الهوية فئة فرعية للتمثل ما عدا أنها تمتد خارج حدود التمثل كما يتصوره التقليديون، أي أنها عملية إدراك لعقل عملي agentive غير موضوعي. إننا نستطيع توسيع مدلول التمثل أو الاحتفاظ به ضمن هذا المعنى المحدد في الوقت نفسه الذي نتصرف فيه على حدوده. أما بخصوص الهوية، فيمكن تعريفها بالفئة (أو مجموعة فئات)، التي يقرأ الشخص (أو في الغالب تقريبا حيوان أو شيء أو تجريد) من خلالها كمنتم ومعبر (أو كما هو الشأن بالنسبة للاسم العلم) يحتوي على جملة اسمية أو نعتية. إنني أقول «يقرأ كمنتم» ولا أقول «ينتمي» كي أوضح بشكل جلي أن تجربتنا لا تشمل معرفة أي هوية مطلقة لا توجد إلا في الفردوس الأفلاطوني وما إليه مما يصعب إدراكه. ثمة تناقض جوهري كامن في النماذج السابقة والتاريخ الواسع كليهما: رغم أن هدف العلوم الاجتماعية تحديدُ ماذا يوجد خلف وهم أن الأشخاص يتصرفون كأطراف متعمّدة، فهناك نفور منهجي قوي يبتعد عن اعتبار الشخص طرفا مريدا في مركز الخطاب في دنيا العلوم الاجتماعية. لقد تضمن هذا الفصل محاولة لتحفيز مثل هذه الخطوة عن طريق إثبات مقاربة مبنية على القراءة والتأويل، والتي، ضمن أمور أخرى، هي ذات معقولية متطورة. إن التنقيب داخل اللغة والهوية ليطرح تحديات جوهرية لعلم اللغة كما تصورها التقليديون، وإنه ليمتد حتى يبلغ مفهوم اللغة ذاتها ومكانتها في نطاق الحياة البشرية والتطور. لقد حاولت توضيح حقيقة أن إدراك اللغة دون اعتبار للهوية ما يكون تاما أبدا، مشيرا إلى مدى إسهام مثل هذا الاعتبار في إثراء إدراكنا للغة ولافتا النظر إلى بعض القضايا المنهجية التي لا يمكن تحاشيها لدى العمل ضمن أسلوب جاد. وسوف يتناول الفصل القادم بالتحليل المناهج التي وسعت في واقع الأمر فهم الموضوع، بالإضافة إلى دعاماتها النظرية.



3

مقاربة الهوية في التحليل اللغوي التقليدي

مقدمة

يفحص هذا الفصل النظريات والمناهج المتطورة داخل دراسة اللغة التي تشكل الخلفية للدراسة المعاصرة للغة والهوية، مقيما إنجازاتها ومحدودياتها. وبالإضافة إلى الفصل التالي، الذي يبحث في المساهمات الوافدة من حقول معرفية لاتركز على دراسة اللغة في حد ذاتها، فإن الفصل الحالي لا يزعم أن يكون فحصا وافيا للنماذج المتطورة، بل يقتصر على اتجاهات خاصة من البحث تمهد الطريق نحو مقاربات متداولة.

وقد ميزت بعض الاتجاهات البارزة التطورات التي سوف تفحص هنا، وتتضمن مايلي:

● الانتقال من فهم تلك المظاهر اللغوية المرتبطة بالهوية على أنها مجرد نتيجة ثانوية لنشاط آخر (مثل إبلاغ معلومات)، إلى كونها نشاطا وظيفيا مباشرا ومهما قائما بذاته.

«إن العلامة اللغوية تجسد العلاقات الاجتماعية لمستعمليها، وضمن هذا المفهوم، فإن الهوية الاجتماعية حاضرة، في اللغة ذاتها»

المؤلف

● الانتقال من فهم اللغة نفسها باعتبارها بناء محددا يحدد مباشرة مظاهر مهمة من حياة متكلميها، إلى كونها شيئا يتحكم فيه المتكلمون أنفسهم ويستعملونه لأغراضهم الخاصة.

● الانتقال من التركيز بشكل متفرد على هوية الذات (self-identity) لشخص أو جماعة ما، إلى منح أهمية مماثلة للتاويلات التي يقوم بها الآخرون بشأن هوية شخص أو جماعة ما.

● الانتقال من تعريف «المجموعات» ذات الصلة بالهوية فقط من خلال فئات معترف بها مؤسساتيا، إلى مجموعات «بالغة الصغر» (micro)؛

● الانتقال من الماهوية essentialism إلى البنائية constructionism، وبعبارة أخرى من تحليل الهوية اللغوية بوصفها مظهرا محددا وثابتا لهوية شخص أو جماعة ما، إلى شيء متقلب ومتغير لكونها تتشكل وتتمثل.

وترتبط التغيرات الثلاث الأولى في ما بينها ارتباطا وثيقا. وسوف يجري تناولها في هذا الفصل بالقدر نفسه في الفصل القادم. وسيناقش التغير الأخير بتفصيل في الفصل التالي، حيث تثار أسئلة حول ما إن كانت الهوية ذاتها لا تمثل، في الواقع، ظاهرة لعملية ماهوية في السلوك اليومي للإنسان. وإذا كان الأمر كذلك، فهل يكون ضروريا أن يتحاشى تحليلنا فعلا «الجواهر» essences جملة وتفصيلا.

الآراء الكلاسيكية والرومانسية للغة والقومية والثقافة والفرد

لم يكن الاهتمام المتزايد باللغة والهوية حوالي نهاية القرن العشرين ليمثل أي جدّة تاريخية. ماعدا التوصل إلى موضوعات، وأفكار، وتوترات كانت قد ميزت التفكيرين الأوروبي والأمريكي منذ القرن العشرين. ولقد شهدت المرحلة الرومانسية فترة تذبذب حاسمة في النقاش القديم الدائر حول ما إذا كان شكل لغة ما مرتبطا ارتباطا مباشرا بالناس الذين يتحدثون به. كان أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) يمثل أحد أطراف هذا النقاش، إذ كان يزعم أن «الذي يوجد في الصوت يرمز إلى انفعالات الذهن/الروح، [التي] توجد لدى كل الناس.» «في التأويل»: (١٦a ٣ - ٨) «D'Interpretation»، ترجمة الكاتب: انظر أيضا جوزيف: (a) الذي سيصدر قريبا). إن كلمة pathemata المترجمة هنا بـ «الانفعالات» تعني كل شيء يمر به الذهن استجابة، مثلا، إلى المدخل الحسي sensory input لقد

كان أرسطو يعتقد أن هذه التجربة الذهنية المنفعلة هي الأساس في كل ما يقوم به الذهن بنشاط في عملية التفكير. وكان يرى، وكما هو مصرح به هنا، أن هذه التجربة كونية universal، بحيث تشمل كل بني البشر، بقطع النظر عن المكان الذي ينتسبون إليه واللغة التي يتحدثون بها.

وإن ما وجده العديد من المهتمين غير مقنع في الرأي الأرسطي هو عدم تقديمه اي دليل يجيب من خلاله عن إحدى أهم الأسئلة اللغوية الأساسية: لماذا توجد لغات مختلفة، إذا كانت التجربة الذهنية هي نفسها التي يمر بها الجميع. فكان جواب أرسطو المقترح هو: مجرد عَرَض accident. لم يكن هذا الرد مقنعا جدا، ولا اعتقاد أرسطو أن علامات signs اللغة تدل اصطلاحا by convention على معانيها على نحو صرف، مرضيا تماما في ثقافة كانت تؤول الدلالة العميقة في كل مظهر من عالمها منذ قرون، وهي تنسج أساطير معقدة من الارتباط والسببية causationومن ثم، فليس مفاجئا، بعد جيل من الزمن، أن يجادل أبيقور من ساموس (٣٤١ - ٢٧٠ ق.م) Epicurus of Samos، وعلى نحو مخالف، في أن:

> «الأشياء أيضا لم تعط في البداية أسماء بشكل مدروس، ولكن كان لطبائع البشر وفقا لقومياتهم [ethne] مشاعر خاصة بهم، وكانوا يستقبلون انطباعات مميزة. وبهذا، فإن كل واحد وبحسب طريقته كان يبتعث هواء مشكلا في قالب بواسطة كل من هذه المشاعر والانطباعات، ووفقا للاختلافات الموجودة داخل القوميات المختلفة التي تحددها كذلك أماكن إقامتهم».
> (ابيقور، رسالة إلى هوردوتوس (Letter to Horodotus) ٧٥ - ٦، ترجمت من قبل بايلي Bailey، ١٩٢٦).

يتذكر الناس أبيقور، وإلى حد بعيد، على انه الفيلسوف الذي وضع الجسد في مركز اعتباراته الأخلاقية. ويزعم هنا أن مشاعر وانطباعات متميزة قوميا أو عرقيا تنشأ من اجساد أعضاء إثنية ethnos ما، وأن هذه المشاعر والانطباعات تشكل مباشرة اللغة لهذه الإثنية. لقد كان ما عرضه ابيقور في هذه الرسالة أول نظرية قوية في اللغة، والهوية، كتب لها الحياة، معتبرا أن أعضاء من قوميات وإثنيات مختلفة تختلف في مشاعرها، بل وفي إدراكها الحسي للعالم من حولها، وأن في هذه المشاعر والانطباعات هي التي انتجت لغاتهم الخاصة.

وقد يفسر هذا سبب وجود لغات مختلفة، وسبب وجود على ما يبدو، تطابق بين حدود اللغة وحدود الشعوب في ما بينها. كما يعني هذا أن لغتنا ليست مجرد جزء عرضي من هويتنا باعتبارها شعبا، ولكن ظلت مشكلة بشكل مباشر من الجزء الأساسي جدا لهويتنا، الا وهي الأجساد. وإنها تقدم أيضا شيئا يريد معظم الناس الإيمان به دائما، وهو أننا مختلفون عنهم اختلافا عميقا، في اللغة (وهذا واضح)، وفي العقل (وهذا اقل وضوحا، إلا انه يمكن رؤيته بطريقة غير مباشرة من خلال الاختلافات في العادات والثقافات)، وفي الجسد (وهذا هو الأقل وضوحا، ولو أننا ندرك التشابهات والاختلافات المجهرية التافهة، مثل لون البشرة.

إن رأي أبيقور يروق أولئك الذين ينتمون إلى العالم القديم، مثل لوكريتيوس Lucretius، صاحب كتاب «في طبيعة الأشياء» De rerum natura (خلال القرن الأول قبل الميلاد). إذ يرى أن الاختلافات بين الشعوب تبدو حقيقة واضحة تماما مثل تشكيل مبدأ اول تفسر من خلاله ظواهر أخرى اكثر غموضا. ومع ذلك، لم ينتج أبيقور أي شيء من قبيل اعمال ارسطو الأساسية الذي كان يتمتع، في أواخر العصور الوسطى، بمكانة متفردة حتى اصبح يعرف، ببساطة، «بالفيلسوف». إلا أن هذه المنزلة بدا يطالها الارتياب في أواخر القرن الخامس عشر مع إعادة اكتشاف افلاطون. وعندما تصاعدت اكثر موجة الشك والتحدي لمرجعية أرسطو الأكاديمية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، جرى ذلك باسم «الأبيقورية الجديدة» Neo-Epicureanism.

وخلال تلك الفترة أيضا، أدخل التوسع الاستعماري الامبريالي شعوب أوروبا في اتصال مباشر وقوي بشعوب غير أوروبية اكثر من أي وقت مضى منذ الإمبراطورية الرومانية، وبالطبع، لم يكن هناك أي اتصال بأمريكا. إن مقياس البحث للاختلافات العرقية والثقافية لدى البشر فرض نفسه على العقل الأوروبي، مثيرا فضولا أنثروبولوجيا، ومطالبة بتفسير تاريخي معقول ضمن ثقافة تقبل التفسير الكتابي biblical للخلق. كما تقبل كذلك إمكان أن يكون التفسير مجازيا، إلا أن الكيفية التي يكون عليها هذا التفسير المجازي ظلت محط جدال طائفي مهم.

فغني عن البيان، بالنسبة إلى رجل دين وعالم في آن واحد من أمثال كونديلاك condillac، ضرورة أن تكون هذه التفسيرات متوافقة مع الوقائع الممكن رؤيتها والكتاب المقدس Bible. ولقد استعمل في مقاله: «مقال حول أصل المعارف الإنسانية» Essai sur l'origine des connaissances humaines العام ١٧٤٦، سقوط الإنسان Fall of Man من خلال عصيان آدم وحواء ليُعرِّف خرقاً، قد حصل في تاريخ البشرية الذي سيمكن مثلا الرأيين الأرسطي والأبيقوري في العقل واللغة من الصمود. وإن العقل ماقبل حركة الانحراف prelapsarian وحالة آدم وحواء قبل وقوعهما في الخطيئة الأولى، والتي سنعود إليها بعد موتنا، لها ميزات عامة وصفها أرسطو. وتشكلت في القرن الماضي مما أسماه ديكارت «الأفكار الفطرية» innate ideas، ولكن عقل مابعد حركة الانحراف post-lapsarian فقد الاتصال [*] بهذه الهبة الإلهية من الأفكار الفطرية، ومن ثمة كان لزاما عليه أن يُعاد بناؤه على أساس تجربة الحواس، أي على الجسد. وخلافا لما ذهب إليه ديكارت، فإن جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) حاول أن يبرهن أن الطفل يولد وعقله خاو مثل اللوح الخالي أو الأملس tabula rasa، فتنقش عليه المعرفة والخبرات.

وبعد مرور سبعة أعوام على ظهور مقال كونديلاك، رد عليه جان جاك روسو Jean-Jacque Rousseau في كتابه «خطابات حول أصل اللامساواة وأسسها بين الناس» Discours sur l'origine et les fondements de l'inégalité parmi les hommes. (١٧٥٢) الذي يتصور كيف ان الأشكال المختلفة جدا من اللغة والفكر، التي يمكن رؤيتها بين مختلف الشعوب استطاعت أن تنشأ تاريخيا. وبعدها بجيل من الزمن، سيواصل الرومانسيون في ألمانيا من أمثال جوهان جورج هامان Johann Georg Hamann (١٧٣٠ - ٨٨) وجوهان غوتفرايد هيردر Johann Gottfried Herder (١٧٤٤ - ١٨٠٣) البحث نفسه. وفي اللحظة الحالية، ظهر من جديد اعتقاد قديم يفيد بأن المناخ، والمنظر الطبيعي، والعرق، والشخصية القومية واللغة مرتبطة كلها ارتباطا حميميا ومتلازما فيما بينها. بحيث إن أي وظيفة عرفية، وكما هي الحال مع كونديلاك، تظهرها اللغات، تعتبر سطحية في نهاية المطاف. ولا يملك الأفراد حرية اختيار الأعراف على وجه الإطلاق ضمن أي مفهوم كان، ولم يكن هذا الاختيار اعتباطيا في أصله تماما. إذ يحدده اقتران

(*) إن مصطلح «العلامة» يرادف مفهوم مصطلح «الإشارة»، وهو حديث التداول [المترجم].

الأسباب التي تعرف مجتمعة ما سوف يطلق عليه في النهاية اسم الفولكسغايست Volksgeist، روح الشعب أو الروح القومية. أي «عبقرية» شعب ما، التي تنعكس في لغته وفي إبداعات «شعبية».

إن التطور الكامل لهذه النظرة الرومانسية سيأتي في الكتاب الذي سينشر بعد وفاة صاحبه، بارون فيلهلم فون هومبلت Baron Wilhelm von Humboldt (١٧٦٧ - ١٨٣٥)، تحت عنوان: «التباين اللغوي وتأثيره في التقدم الفكري للبشرية» Uber die Verschiedenheit des menschlichen Sprachbaues und ihren Einfluss auf die geistige Entwickelung des Menschengeschlechts. وبناء على دراسة هومبلت الواسعة والعميقة لتقارير لغات من كل أقطار العالم، فإنه يقترح إمكان تصنيف اللغات إلى عدد قليل من الأنواع التي تقوم على كيفية تركيب المعلومات ضمن كلمات. فهناك النوع الذي يعتمد اللغات العازلة isolating languages التي تشكل اللغة الصينية نموذجا أصليا له، بحيث تقابل فيه كل كلمة فكرة ما، بقطع النظر عما إذا كانت فكرة «أصلية» أم مجرد تعديل. وعلى النقيض من ذلك تماما، نجد نوعا يعتمد اللغات اللاصقة agglutinating، التي تشمل اللغات الأمريكية الهندية والأسرة التركية المنغولية، التي تقوم بتركيب كلمات طويلة جدا تتوافق مع جمل بأكملها في أنواع أخرى من اللغات. ويحل في الوسط، النوع الذي يعتمد اللغات التصريفية inflicting، وتضم السنسكريتية والأسرة الهندو أوروبية برمتها. فيبدأ هذا النوع من اللغات «بجذر» الكلمات، ثم يضيف إليها سوابق، ولواحق، وزوائد وسطية، إلى غير ذلك، ليشير إلى الاختلافات الصغرى المتنوعة التي تحدد أو تؤثر في معنى الجذر من دون أن تغيره مع ذلك بشكل أساسي.

إن هومبلت، وكما يشير إلى ذلك عنوان عمله، يظن أن التطور الفكري لشعب من الشعوب يتأثر بالتصنيفية typology التركيبية للغته. ويزعم أن اللغة الصينية هي اللغة الأكثر تفوقا في التعبير عن الأفكار، وأن الأعمال الأدبية الصينية الكلاسيكية هي دليل فريد على أفكار في شكلها الخالص المنفصل. وأما السنسكريتية، من جهة أخرى، فتعتبر لغة أكثر تفوقا من حيث التعبير عن عمليات الفكر الإنساني، التي تعمل مثل بناء اللغات المتصرفة

نفسها، بدءا بجذع الفكرة، ثم تعديلها بطريقة ثانوية بعد ذلك. وليس من باب المصادفة أن يظن هومبلت أنه في الوقت الذي أنتجت اللغة الصينية التعابير الكبرى من الأفكار الخالصة، أنتجت اللغات الهندو أوروبية الأعمال الكبرى في مجال الفكر الإنساني.

ولنظرية همبلت مظهران آخران يحتاجان إلى تفسير. أول هذين المظهرين قدرة التحول اللغوي language change، مع مرور الزمن، على أن يبعد بناء لغة ما عن تصنيفية مصدرها التاريخي. ومن ثم، فإن الإنجليزية الحديثة Modern English تحتفظ بآثار قليلة نسبيا من أصولها التصريفية. فهي تشبه الصينية أكثر مما تشبه السنسكريتية من حيث «جمعها للمعلومات» في كلمات. ومع ذلك، فبالنسبة إلى مفكر رومانسي مثل هومبلت، يعتبر الواقع الراهن غير ذي قيمة. فكيفما كانت لغة من اللغات في جذورها، ستبقى كذلك إلى الأبد، على الرغم من التقلبات التاريخية السطحية التي قد تخفي ذلك. «فعبقرية» اللغة لا تتأثر. ويجب علينا أن نتذكر أن كلمة «genius» نفسها ترتبط إيتيمولوجيا بكلمة «genesis» (نشوء) وكلمة «genetic» (وراثي)، وكلها مرتبطة بالأصل. ثانيا، يوجد داخل أي شعب من الشعوب، أفراد عددهم محدود ممن نصفهم بالعباقرة، ويرجع المعنى الأصلي لهذا إلى كون أن هؤلاء الأفراد يجسدون، بطريقة ما، ذلك الجوهر الأصيل لشعبهم وثقافتهم. ويعتبر هؤلاء العباقرة، بالنسبة إلى الرومانسي، هم وحدهم الأفراد الحقيقيون، لأنهم ببساطة لا يتصرفون فقط وفق طرق محددة يمليها الإرث القومي الثقافي، بل يضيفون إلى هذا الإرث ليدفعوا به إلى الأمام أبعد من ذلك.

ومع حلول منتصف القرن التاسع عشر، ستحظى فكرة وجود اختلاف رئيسي بين الشعوب المتحضرة والشعوب البدائية بالترحاب، ذلك أن الشعوب البدائية لايوجد بينها أفراد بالمعنى الحقيقي. فكل الأشخاص يتساوون فكريا فيما بينهم داخل عرق بدائي ما؛ في حين يجد المرء اختلافات هائلة في الذكاء داخل عرق متحضر بين الجنسين (بصفة عامة) وبين الطبقات الثرية المترفة والطبقات العاملة. ومن ثم، تشترك طبقة الفلاحين في بلد من البلدان المتحضرة في كثير من الأمور مع السكان الأصليين لبلد بدائي، ولو أنه يعتقد أن الفلاحين هم فقط من يملكون القدرة على إنتاج العبقرية المرضية. وبمجرد أن يُعترف بعبقرية فرد معين، فإنه يغادر تلقائيا الطبقة التي انبثق منها.

ومن المناسب التذكير بفكرة أن هويات المجموعة، وخصوصا الهويات القومية والعرقية سلاح ذو حدين. فهي، من جهة، تؤدي وظيفة إيجابية بمنحها الشعب الشعور بماهيته، والشعور بالانتماء إلى مجموعة ما. وفي غياب هذه الوظيفة، يمكن للمرء أن يشعر بإحساس من العزلة التي قد يكون لها نتائج كارثية. ومن جهة أخرى، يُبنى هذا الانتماء دائما عبر الاختلاف عن «الآخرين»، وهذا الاستبعاد الفئوي يمكن له أن يتحول بسهولة أكثر مما ينبغي إلى رغبة في التمييز العنصري والكراهية. إنه لأمر حاسم على الأقل بالنسبة إلينا فهم هذه المظاهر الهدامة من الهوية بالطريقة نفسها التي نفهم بها مظاهرها الإيجابية، لأنه لايمكننا المساهمة في أعمال مهمة من الكفاح ضد الكراهية العرقية والقومية، والتحامل والظلم. ولكن من دون التضحية في الوقت ذاته بتلك العناصر المفيدة من الهوية التي تعتبر جوهرية في ازدهار حياة الأفراد والمجتمعات.

القرن التاسع عشر وبدايات علم اللغة المؤسساتي:

لما أسس علم اللغة في القرن التاسع عشر، شقت ثغرة طريقها حيث الارتباط الهومبلتي Humboldtian بالفكر والثقافة. وقد جرى تتبع جل فكره الشعبي عبر المناظرات الواسعة التي كانت تقام بينه وبين أستاذ فقه اللغة التاريخي المقارن comparative philology بأوكسفورد، فريديرك ماكس ميلر Friedrich Max Müller (١٨٢٣ ـ ١٩٠٠) والسنسكريتي الأمريكي وعالم اللغة ويليام دويت وتني William Dwight Whitney (١٨٢٧ ـ ١٨٩٤).

وإذ يحنو ميلر حنو هومبلت، فإنه يزعم أن «ليس هناك فكر من دون كلمات، مثلما ليس هناك كلمات من دون فكر إلا بقدر ضئيل». إن الفكر واللغة يظهران في وقت واحد. وتعتبر اللغة هبة مادية، وشيئا حيا يشكل الثقافة والفكر لشعب من الشعوب، فيدفع به نحو الأفضل أو الأسوأ. لقد كانت الميثولوجيا، برأي ميلر، «داء اللغة» (ميلر: ١٨٦١، ص: ١١). ويجادل وتني في أن اللغة لم تكن من هذا القبيل بتاتا ـ بل كانت اللغات مؤسسات، ونتاجات تاريخية جرى ابتكارها من لدن الشعب لترميز فكر كان موجودا من ذي قبل. وعلى نحو بيِّن، فإنه بمجرد أن ابتكروها، بدأوا يعيشون حياة مجازية

«خاصة بهم» تجعلهم يتملصون من مسؤولية ضبط الأفراد. إنها مؤسسات «ديموقراطية» دافع عنها «الشعب وتخضع لإرادته»، مما يجعلها شيئا مختلفا تماما عن نظام الإرادة الفردية.

ولقد كان لآراء وتني الأثر العميق في الشاب السويسري الأرستقراطي المسمى فردناند دي سوسير Ferdinand de Saussure (١٨٥٧ ـ ١٩١٣)، الذي صادف عمل وتني (وذات مرة التقى بالرجل ذاته) خلال دراسته لعلم اللغة التاريخي الهندو أوروبي بألمانيا. فقد اعتنق دي سوسير التصور الوتني للغة بوصفها مؤسسة تتألف من إشارات اعتباطية. ولكنه اتفق مع ماكس ميلر اتفاقا مبدئيا فيما تعلق بعلاقة اللغة بالفكر. وكما تصور وتني طبيعة اللغة المؤسساتي، فإنه من الضروري وجود الفكر في المقام الأول، ثم حلول اللغات بعده بوصفها أنساقا اعتباطية تسخر لأجل ترميز الفكر. إذا ظهر الفكر بالتزامن مع اللغة، كما يصر على ذلك ماكس ميلر، فسيكون الربط بينهما، ومن ثم الربط بين الكلمات ومدلولاتها طبيعيا وليس اعتباطيا.

وعلى الرغم من أن سوسير كان يظن أن فهم وتني لعلاقة اللغة بالفكر خاطئ، فإنه كذلك يعتقد أن الأمريكي قد قدم الحل.

> «وكي يوضح وتني أن اللغات مؤسسات بحتة، أصر على اعتباطية العلامات/الإشارات؛ وهو بذلك يكون قد وضع علم اللغة في محوره الحقيقي. غير أنه لم يتبعه حتى نهاية الطريق، ولم ير أن هذه الاعتباطية تفصل اللغات عن باقي المؤسسات الأخرى». (سوسير، ١٩٢٢ [١٩١٦]، ص: ١١٠).

وإذا أخذنا الاعتباطية بجد، وجعلناها المبدأ الأول للعلامة اللغوية، فإنه يمكن للكلمة أن تظهر إلى الوجود بالتزامن مع مدلولها، من دون أن يتضمن ذلك أي ارتباط حتمي بينهما. فلقد كان سوسير يظن، مثل ماكس ميلر، أن استحضار مدلولات الكلمات يحصل عند ابتكار الكلمة وليس قبلها؛ ولكن ابتكار الكلمة ليس أكثر من تأسيس لعلاقة مؤسساتية اعتباطية بين نمط صوتي (أو كما سيسميه أخيرا بالدال انظر ص: ٢٢) ومعنى ما (المدلول). وإن الحقيقة الثانية، من تبصر وتني، تتقدم على الأولى من دون أن ننفي صحتها.

وسنناقش في القسم التالي سوسير الذي سيُوفق في وضع لبنات علم اللغة للقرن العشرين سالكا طريق البحث في اللغة باعتبارها نسقا اعتباطيا لا ترتبط فيها الدوال بشكل اعتباطي بالمدلولات فحسب، ولكن المدلولات أيضا غير مقيدة، بأي حال من الأحوال، بمفردات «العالم الحقيقي» التي تتصورها. إن هذا النموذج من اللغة لا يسمح إلا بتصور «ضعيف» للربط بين اللغة والهوية، حيث لا يوجد للهويات فيها أساس عميق يتصل بأي شيء مثل الجسد الإثني، ولكنها في الحقيقة ألقاب عرفية/اصطلاحية تستعمل لمصلحة فئات متعارف عليها ثقافيا.

وإن ثمة مفارقة أساسية دامت طوال هذا التاريخ الطويل. فمن حيث الثقافة والعقل (على الأقل من حيث كونه أداة نقل لفكري)، تعتبر لغتي جزءا أساسيا من ماهيتي. ومع ذلك، فإن أناسا آخرين يستطيعون تعلم لغتي، أو أستطيع في المقابل تعلم لغتهم. وقد تتناسق الحدود اللغوية مع الحدود العرقية، إلا أنني، باعتباري متحدثا «للغة عالمية»، مثل الإنجليزية، محاط بدليل يفيد تعارض هذين الحدين، وبمجازية «وجودهما» وعجزهما عن الارتباط علميا. وبينما هي الاختلافات الثقافية أمرا واقعيا وقويا، فلعلي، مع ذلك، أشترك في كثير من الأمور مع أعضاء من ثقافات لغوية أخرى أكثر من ثقافات فرعية subcultures داخل لغتي. وسيستمر تطور علم اللغة في القرنين العشرين والحادي والعشرين في رسم طريق مكوكي بين قطبي هذه المفارقة.

الطابع الاجتماعي في اللغة: فولوشينوف Voloshinov مقابل سوسير

لقد جمع كتاب سوسير: «دروس في علم اللغة العام» course in general linguistics بعد وفاته ونشر العام ١٩١٦. إذ أصبح في غضون عقد ونصف من الزمن نصا تأسيسيا في علم اللغة البنيوي. وأعلن سوسير أن اللغة langue «حدث اجتماعي»، وأن القوة force الاجتماعية تعمل على تماسك النسق اللغوي بقوة شديدة إلى درجة لايستطيع فيها الفرد تغيير اللغة. ولكن يرد التغيير في «الكلام» parole، بحيث إذا قبلت الجماعة الاجتماعية في نهاية المطاف بالتغيير، فإن النسق ينتقل إلى حالة جديدة، أي إلى لغة جديدة.

ويمكن أن يوجد مثال على هذا التغيير في كلمة «اجتماعي» ذاتها، التي تدل بحسب رأي سوسير (واستنادا إلى أصلها اللاتيني)، على الرباط بشكل متماسك، اي كل ما من شأنه أن يجعل جماعة من الأفراد تتصرف بطريقة مماثلة. وإن قوله بأن اللغة حدث اجتماعي يرتبط بتوكيده ان كل عضو من الجماعة الكلامية يمتلك اللغة على نحو مطابق. ولكن سبق لكلمة «اجتماعي» ان استعملت خلال العشرية الثانية من القرن العشرين في «كلام» كثير من الناس، بتضمين مختلف، يناقض فعليا ماجاء به دي سوسير. فقد كانت مرتبطة بما يميز مجموعات فرعية محددة داخل جماعة collectivity ما. وخلال النصف الثاني من القرن، أصبح هذا المعنى هو السائد.

كما كانت الماركسية قوة حاسمة خلف هذا التغيير، إذ تحولت إلى واقع سياسي مع الثورة الروسية العام ١٩١٧، أي بعد مرور عام من نشر كتاب سوسير: «دروس في علم اللغة العام». وفي ظل الاتحاد السوفياتي الذي شكّل حديثا، لقي الكتاب ترحيبا مبدئيا لكونه ينسجم وروح «الشكلانية» formalism التي أصبحت شائعة آنذاك. ولقد أولت ملاحظاته بخصوص طبيعة اللغة الاجتماعي بتناغمها مع النظرة الماركسية التي ترى أن كل مظهر مركزي من التجربة الإنسانية هو اجتماعي في أصله وإجرائه. ومع ذلك فإن «الطابع الاجتماعي» بالنسبة إلى الماركسية يتضمن الطابع السياسي: ذلك بأن المجموعات الفرعية التي يجري التمييز بينها اجتماعيا تتنافس فيما بينها لتعزيز مصالحها على حساب الآخرين.

ولكن خلال العشرية الثانية من القرن العشرين، كانت هناك ثمة أسئلة مهمة برزت حول مدى قياس الشكلانية بالرأي الماركسي الأساسي. فقد أدرك ميخائيل باختين Mikhail Bakhtin (١٨٩٥ ـ ١٩٧٥) وأعضاء معه من الدائرة المثقفة التي قادها، ان الحيز الاجتماعي الذي تشغله اللغة بالنسبة إلى سوسير غير سياسي. ولا توجد فرصة لدى اي متكلم لإظهار سلطته على متكلم آخر، لأن اللغة لا تملك بعدا فرديا ـ وإنما الكلام هو الذي يملك هذا البعد. وقد أخذ فالونتين فولوشينوف Voloshinov Valentin (١٨٩٥ ـ ١٩٣٦)، العضو في دائرة باختين، وبشكل مباشر جدا،

عن سوسير، حيث يظهر هذا التأثير بجلاء في كتابه «الماركسية وفلسفة اللغة» Marxism and the Philosophy of Language (١٩٢٩) وإن أفكار باختين في هذا العمل، كما في أعمال أخرى قام بها مقربون منه، تنسجم إلى حد بعيد جدا مع أفكارهم حتى بات من غير الواضح إلى أي مدى يجب اعتبار باختين المؤلف المشترك co-author أو الكاتب الفعلي (انظر تودوروف: ١٩٨١).

فبالنسبة إلى فولوشينوف، يمثل كتاب سوسير الشكل الأكثر تأثيرا والأشمل تطورا لما يسميه باستخفاف «الموضوعية المجردة» abstract objectivism . إنه يعرف حدود اللغة لا لتتضمن «علاقة العلامة (*) بالحقيقة الفعلية التي تعكسها ولا بالفرد الذي يمد مبتكره، ولكن علاقة العلامة بالعلامة داخل نسق مغلق سبق له أن حظي بالقبول والترخيص (المرجع نفسه: هكذا وردت أحرف الطباعة المائلة في النص الأصلي). وعوض أن يتعامل الكتاب مع المنطوقات الحقيقية، اقتصر فقط على النسق اللغوي الذي جرد منها . إن سوسير انتقل على الأقل إلى ما وراء النظرة الرومانسية للغة بوصفها مظهرا من مظاهر الوعي الفردي. ومع ذلك، فإن رفضه الالتزام مع «التاريخ» بالمفهوم الماركسي لأعمال الناس الحقيقيين («القاعدة» مقابل «البنية الفوقية») يجرد مقاربته من أي ادعاء بجوهر اجتماعي أصيل بمعناها الماركسي. وحسب فولوشينوف فإن:

> «كل علامة، كما نعلم، بناء بين الأشخاص المنظمين اجتماعيا خلال عملية تفاعلهم. ومن ثم، فإن أشكال العلامات مقيدة، أولا وقبل كل شيء، بالنظام الاجتماعي للمشاركين ثم بالشروط المباشرة لتفاعلهم» (المرجع نفسه: ص: ٢١).

إن العلامات أيديولوجية في طبيعتها الحقيقية وإن الوجود الاجتماعي لا ينعكس فيها فحسب، بل تُحَدَّد كذلك قوة انكسار أشعته بواسطتها . لأن العلامة ليست مثل مرآة صقيلة، ولكنها مرآة ذات سطح مكسور وغير منظم، أنشأته المصالح الاجتماعية ذات التوجه المختلف

(*) يمكن لهذا المصطلح أن يترجم «بالمصاحبة اللفظية». غير أني آثرت تعبير «المركبات التلازمية» لتجنب خلطه بمفهوم «co-occurrence» [المترجم].

داخل جماعة علاماتية sign community، أي من قبل الصراع الطبقي» (المرجع نفسه: ص: ٢٣). فإنه عندما أعلن فولوشينوف أن «العلامة أصبحت حلبة للصراع الطبقي» (المرجع نفسه، ص: ٢٣)، جعل اللغة أمرا مركزيا بالنسبة إلى «القاعدة». إنه إعلان ماركسي لا يفصل اللغة عن السياسة، واحتمال ألا يؤمن بإمكان التمييز بينهما تماما. إن «الإبداع اللغوي [...] لا يمكن أن يفهم بمعزل عن الدلالات الأيديولوجية والقيم التي تملأها» (المرجع نفسه: ص: ٩٨).

ليس ثمة فعل كلام speech act فردي، بل إنه دائما اجتماعي، ولو كان المخاطب يوجد دائما في مخيلة المتكلم. وبالتأكيد، فإن أي كلمة ننطقها تولد بتفاعل مع جمهور نتخيله داخل أذهاننا، قبل أن يوجد أي جمهور حقيقي يسمعها أو يقرأها على الإطلاق. ومن ثم، فإن اللغة حسب فولوشنوف وباختين تقوم على تحاور جماعي يجري على نحو متأصل، ومن الخطأ والوهم أن يتصور علم اللغة «البورجوازي» أنها تعتمد تحاورا داخليا أحادي الجانب، تولده ببساطة السيكولوجية الفردية لمتكلم ما. وإن الأنساق المنفصلة التي عادة ما يدرسها علماء اللغة تتعايش مع تعدد طرق مختلفة من الكلام تتمازج باستمرار بعضها مع بعض، مما حدا باختين (١٩٧٥، كتب في العام ١٩٣٤ ـ ٣٥) إلى استخدام مصطلح تباين التعبير اللغوي hetroglossia.

> «إن اللغة الموحَّدة ليست شيئا معطى، ولكنها دائما مفترضة من حيث الجوهر. وهي في كل لحظة من حياتها اللغوية متعارضة مع حقائق تباين التعبير اللغوي. إلا أنها في الوقت ذاته، تجعل من حضورها الحقيقي قوة للتغلب على هذا التباين في التعبير اللغوي فارضة عليه قيودا محددة».

ويشكل هذا التوتر ساحة للصراع الطبقي ذي الصلة بالأصوات والعلامات.

لقد توفي فولوشنوف في الثلاثينيات، وسقطت كتاباته وكتابات باختين في غياهب الظلام إلى أن اكتشفت من جديد في الستينيات. ومنذ ذلك الحين، توصل الماركسيون اللاحقون، وما بعد الماركسيين post-Marxism، واللاماركسيين أنفسهم إلى أفكارهما المبتكرة بشكل مستقل. وعندما بدأ

عملهم يترجم إلى الفرنسية والإنجليزية، بدوا كأنهما معاصران تماما، على الرغم من طمس دام أربعين عاما. ويقدم سوسير وفولوشينوف بوضوح صيغتين مختلفتين لدراسة الطابعين الاجتماعي والسياسي في اللغة، إذ ترتكز صيغة سوسير على مفهوم الطابع الاجتماعي الذي يربط الناس على نحو متماسك، في حين، تقوم صيغة فولوشينوف على مفهوم اجتماعي يعمل على فصل الناس بعضهم عن بعض. وينسجم هذا المفهوم الأخير مع ما يدل عليه «الطابع الاجتماعي» في علم اللغة الاجتماعي والعلوم الاجتماعية عامة. غير أن، فولوشينوف تبنى بقسوة شديدة حجة أن اللغة أيديولوجية من القمة إلى القاعدة حتى جعل مصطلحي «اللغة» و«السياسة» يبدوان كأن لهما طابعا حشويا، بمعنى أنه لم يعد من الواضح لدى المرء ما يستطيع قوله حول العلاقة بينهما التي قد تكون ذات مدلول.

ومع ذلك، فإن فولوشينوف سينجح، بعد أربعين سنة تقريبا من وفاته، أفضل من أي شخص في السابق، في استمالة الناس للأخذ بفكرة أن «سياسة اللغة» ليست مجرد مسألة تتعلق بما يفعله الناس باللغة، وإنما تعتبر اللغة ذاتها سياسية من القاعدة إلى القمة. وإن العلامة اللغوية تجسد العلاقات الاجتماعية لمستعمليها. وضمن هذا المفهوم، فإن الهوية الاجتماعية حاضرة في اللغة ذاتها. ومن ثم، ثمة فضاء مهم فتح على مصراعيه أمام الدراسة الأكاديمية للغة والهوية.

يسبرسن Jespersen وسابير Sapir

وفي غضون ذلك الوقت، لم يكن البعد الشخصي أو الاجتماعي بالنسبة إلى أوروبا الغربية وأمريكا أمرا جديدا وذا حظوة. فجاء التحقيق التاريخي المقارن ليعرف بهذا الميدان في القرن التاسع عشر، أيام كانت ألمانيا مركزا له، فجرد مستعملي اللغة من الصورة. وإن كتاب سوسير، على الأقل، أوضح بجلاء المكان الذي ينتسب إليه الفرد المستعمل للغة - إنه ينتسب إلى الكلام، وليس إلى اللغة. ويقول سوسير إن على علم اللغة الذي يهتم بالكلام أن يطور في نهاية المطاف، وبوضوح تام، إن المصدر الشرعي الوحيد الجدير بالتحقيق اللغوي، على الأقل في الوقت الراهن، هو اللغة في ذاتها ولذاتها.

وقد ذاع صيت لغويين اثنين خلال تلك الفترة ممن أظهرا استعدادا لمواجهة الأيديولوجيا المسيطرة حاليا. ومن بين اللغويين الأوروبيين من خارج الاتحاد السوفييتي نذكر الدنماركي ذا التكوين الإنجليزي، أوتو يسبرسن Jespersen Otto (١٨٦٠ - ١٩٤٣)، الذي كان يتناغم توجهه إلى حد بعيد مع المظاهر السياسية والفردية للغة. وفي كتاب رائع له بعنوان «الجنس البشري، والأمة والفرد من وجهة نظر لغوية» Mankind, Nation, and individual from a Linguistic Point of View (١٩٢٥)، مشى يسبرسن على نهج اللغوي الدنماركي أدولف نورين Adolf Noreen (١٨٥٤ - ١٩٢٥) القديم نسبيا. في تحليله لوظيفة اللغة المعيارية standard language في حياة الأفراد، وخاصة في المدن، الذين كانوا يستعملونها بشكل متزايد جنبا إلى جنب أو بالأحرى في مكان اللهجة المحلية لمسقط رأسهم. وأما اللغويون الآخرون، فقد نزعوا إلى اعتبار اللغة المعيارية أقل «واقعية» - أي مجرد لغة مشتركة lingua franca، بخلاف اللهجات المحلية التي يعتقد أن يكون للأفراد فيها جذور سيكولوجية. ويزعم يسبرسن انه عندما انتقلت الحياة المدنية من كونها حياة انحصرت في جزء صغير من السكان إلى حياة امتدت إلى الأغلبية، كان الواقع اللغوي من النوع الذي لم يعد بإمكاننا التعامل فيه مع اللغة المعيارية بوصفها مجرد رمز في حياة الأمة.

> «لقد كانت تنبثق الظاهرة الكبرى والمهمة لتطور اللغة في الأزمنة التاريخية من اللغات القومية المشتركة الكبيرة مثل الإغريقية، والفرنسية، والإنجليزية، والألمانية، وغيرها - هذه اللغات «المعيارية» التي أخذت مكان اللهجات المحلية المقيدة بكل معنى الكلمة بعوامل جغرافية أو هي في طريقها إلى أخذها».
> (يسبرسن، ١٩٢٥: ص: ٣٩ - ٤٠)
>
> «[...] فاللغات المعيارية محددة اجتماعيا. [...] ويمكن للمرء أن يشير إلى اتحادات سياسية ضخمة تسير وفق مناهج قومية [...]؛ كما يمكن أخيرا، الإشارة إلى أن النمو الهائل الذي تشهده مدن كبيرة متعددة استقطب قطاعا من السكان من الخارج».
> (المرجع نفسه ص: ٦٤ - ٥، توجد هذه الأحرف الطباعية المائلة في النص الأصلي).

«وفي المدن الكبيرة، تُصقل لهجة المهاجرين المنتمين إلى أجزاء مختلفة من البلاد عبر اتصالهم بعضهم ببعض. فينجم عن هذا التفاعل شروع السكان ممن ينتمون إلى مدينة كبيرة في التحدث بطريقة لايتوقع المرء أن تصدر من موقعها الجغرافي». (المرجع نفسه، ص: ٥٧)

ولا يمكن الانتقاص من شأن استعمال اللغة المعيارية بوصفها مجرد زخرف في الحياة اللغوية لفرد ما. وعلى الرغم من إمكان أن يكون هذا صحيحا من الناحية الجغرافية، إلا أن الفرد الذي يستخدم أشكالا من اللغة المعيارية لايملك أن يضلل الناس من خلال كلامه. لقد كانت اللغة المعيارية حينئذ جزءا من هوية الفرد اللغوية تماما مثل لهجة الأم - بل أصبح الآن حتى أولئك الذين لايعرفون اللغة المعيارية ذاتهم موسومين بعلامة هذه الحقيقة.

وباستثناء الأعمال التي قامت بها الدائرة اللغوية لبراغ Prague Linguistic Circle من أمثال بوسلاف هافرانيك Bohuslav Havránek (١٨٩٣ - ١٩٧٨) وجان موكاروفسكي Jan Mukarovsky (١٨٩١ - ١٩٧٣) في الثلاثينيات (انظر هافرانيك، ١٩٣٢، ١٩٣٨؛ موكاروفسكي، ١٩٣٢)، فإن نوع التحقيق الجاد الذي تصوره، مع ذلك، يسبرسن وأدخله في اللغات المعيارية ودورها في حياة المتكلمين، لم يؤخذ به إلا ما بعد الستينيات. ويمكن الاستعلام عن تقرير حول تطورهم، منذ ذلك الحين إلى الوقت الراهن، في كتاب جوزيف (١٩٨٧)، الذي نشر في وقت بدأت فيه اعتبارات اللغة المعيارية تندمج مع تحقيق أوسع في «أيديولوجيات» اللغة (موضوع قسم لاحق) التي من خلالها يجري الحفاظ على المعتقدات الثقافية، الدعامة الأساسية للهوية اللغوية.

وعبر الأطلسي، يبرز الأنثروبولوجي واللغوي، إدوارد سابير Edward Sapir، (١٨٨٤ - ١٩٣٩) أحد الرموز المؤسسة «للبنيوية الأمريكية» (انظر جوزيف، ٢٠٠٢ أ، الفصل الثاني)، مدافعا عن اهتمامه الثابت بالدراسات الميدانية التي تتعلق بمستعملي اللغة الفردية، وعن رغبته القصوى، التي لم يتمكن من بلوغها على الإطلاق، في تأطير دراسة اللغة داخل سياق أكثر اكتمالا «للشخصية» الإنسانية. وفي بحثه الميداني الذي أجراه حول لغات

هندية أمريكية، انتبه سابير إلى أناس يعتبرون غير عاديين من حيث استعمالهم للغتهم، فكتب عدة دراسات حولهم. إذ يعد كتاب «الأنماط الشاذة للكلام في نوتكا» Abnormal Types of Speech in Nootka (١٩١٥) أحد أعماله الأولى الرائعة جدا، التي ركزت على كيف ينوع المتكلمون، أصحاب هذه اللغة الهندية الأمريكية من جزيرة فان كوفر Vancouver Island اللغة للدلالة بها على ميزات الشخص الذي يدور الحديث عنه. وتشمل هذه التنويعات استعمال صيغة التصغير للاحقة ('is-) أو صيغة التكبير للاحقة ('aq-)، إضافة إلى تنويعات أكثر استثناء تلحق بنظام الصامت consonant. وتدل هذه الميزات المطروحة، في حالات متعددة، على تشوهات مادية أو معنوية. كما تستعمل التنويعات اللغوية أيضا عند الحديث عن الحيوانات التي تربطها ثقافة النوتكا بتلك الميزات. وهكذا، فعند الحديث مثلا عن الحيوانات الصغيرة أو محادثتها، تستعمل اللاحقة بصيغة التصغير، كما تستعمل بالصيغة نفسها عند الحديث عن الأطفال أو التحدث إليهم، ولكن ينضاف إليها تغوير palatalization كل أحرف صفير sibilants مثل (s وz وsh..)، أي أنها تنطق مع انسحاب اللسان إلى الخلف نحو الغار hard palate. فتغير الصوت. وتستعمل أحرف صفير مغورة palatalized sibilants عندما يجري الحديث عن الطيور الصغيرة مثل العصافير أو طيور النمنمة wrens، ويظهر الجدول (٢ ـ ١) أمثلة أخرى. ولاحظ سابير أن التأثير بين الشخصي interpersonal في استعمال هذه الأشكال الخاصة عند الحديث إلى شخص يمتلك هذه الميزات، أو عند الحديث في حضوره، معقد ودقيق، ويعتمد جزئيا على شخصيات الأفراد المعنيين. ذلك أن ثمة أشكالا قد تسبب إساءة ما، وقد تستخدم بغرض السخرية أو المضايقة فقط. وفي المقابل قد تستعمل أشكال أخرى عن طيب خاطر ليطلع الشخص على أن المتكلم لايولي أي اهتمام لهذا العيب.

كما أوضح سابير أن ظاهرة النوتكا فئة بكل تأكيد، ولكنها مثال بارز، على نحو استثنائي، عن مسألة تحدث في جميع اللغات، أي «استعمال أدوات متنوعة في كلام يتضمن شيئا يتعلق بالوضعية status، والجنس sex، والعمر، وميزات أخرى للمتكلم أو الشخص المخاطَب، أو الشخص الذي يجري الحديث عنه من دون أي إعلان مباشر عن هذه الميزات (سابير: ١٩٤٩ [١٩١٥]، ص: ١٧٩).

الجدول ٣ ١: اللغة «الشاذة» في نوتكا (مأخوذة من بيانات سابير، ١٩١٥)

ميزة	لاحقة	تغير الحرف الصامت	وتستعمل في محادثة:
طفل	-'is		أولئك الذين يرغب المرء في تصغيرهم
سمين، ضخم على نحو غير عادي	-'aq		
ضعيف على نحو غير عادي	-'is	أحرف صفير مقورة	
عيوب العين	-'is	أحرف صفير - أحرف جانبية	الأيل (deer)، حيوان المنك
أحدب	-'is	أحرف صفير - سميك مع	
	-'is	بروز الفك السفلي	
أعرج		العنصر الخالي من المعنى، ɫc أو ɫcɫ يدرج في مكان ما قبل اللاحقة	
أعسر (عامل بيسراه)		ɫcɫ تدرج بعد المقطع الصوتي (syllabic) الأول	الدببة (يظن أنها عسراء)
رجل مختون		العنصر الخالي من المعنى، cɫ' يدرج بعد المقطع الصوتي الأول	
شَرِه		يدرج ɫcx بعد المقطع الصوتي الأول	غربان سود (ravens)

إن المقال الموسوعي الذي كتبه سابير العام ١٩٣٣ جعل التصريح التالي يحدد الخطوط الكبيرة التي سيتطرق إليها البحث في اللغة والهوية نحو أكثر من نصف قرن من الزمن لاحقاً:

«إن اللغة قوة كبيرة من عملية التنشئة الاجتماعية، ومن المحتمل أن تكون الأكبر. وهذا لا يعني فحسب الحقيقة الواضحة التي تفيد بأن العلاقات الاجتماعية المهمة لا يمكن لها أن تكون واقعا من دون لغة إلا بصعوبة كبيرة، وإنما مجرد وجود كلام مشترك. فهذا يؤدي وظيفة رمز فعال على نحو مميز للتضامن الاجتماعي بالنسبة إلى أولئك الذين يتكلمون اللغة. وإن الدلالة السيكولوجية لهذا تتجاوز بعيدا ارتباط اللغات بالقوميات، أو الكيانات السياسية، أو المجموعات المحلية الصغرى [...].

وعلى الرغم من أن اللغة تتصرف بوصفها قوة مسؤولة عن عملية التنشئة الاجتماعية وقوة منظِّمة، فإنها تعتبر في الوقت ذاته العامل المعروف المستقل الأكثر فاعلية في نمو الشخصية الفردية. ويوجد العديد من المؤشرات المعقدة للشخصية ومنها نوعية الصوت الأساسية لشخص ما، والأنماط الصوتية للكلام، وسرعة النطق ونعومته النسبية، وطول الجمل وبناؤها، وطبيعة المفردات ومجالها، والاتساق المدرسي للكلمات المستعملة، والاستعداد الذي تستجيب بواسطته الكلمات لمتطلبات المحيط الاجتماعي، وبالخصوص ملاءمة لغة شخص ما لعادات اللغة لدى الأشخاص المخاطَبين. [...] ومع اعتبار كل الأمور، فليس من المبالغ القول إن إحدى الوظائف المهمة جدا للغة هي إعلانها باستمرار للمجتمع عن المكان السيكولوجي الذي يشغله كل أعضائه فيه». (سابير، ١٩٤٩ :[1933] ص: ١٥ - ١٨).

وفي قسم «الماهوية والبنائية» أدناه، سأعيد النظر في هذا التصريح مشيرا إلى مدى انحرافه عن افتراضات الوقت الراهن. ولكن لا يقلل هذا من مغزى فحواه التاريخي. فهاهو عالم اللغة الأنثروبولوجي رائد عصره (وقرنه) يدعو إلى التحليل الوظيفي للغة آخذا بعين الاعتبار «إعلانها باستمرار للمجتمع عن المكان السيكولوجي الذي يشغله كل أعضائه فيه». غير أن هذه الدعوة سيجري تجاهلها لمدة عقود مقبلة من الزمن [٢].

وإذا ما سألت شخصا مثقفا عاديا عن الأشياء الثلاثة التي يعرفها عن علم اللغة خلال القرن العشرين، فستكون الأجوبة المألوفة جدا لديه: نظرية العلامة السوسيرية، ونظرية الفطرة innateness التشومسكية (أو «البنية

العميقة» افتراضا)، وفرضية سابير - وورف، من دون أن تخضع هذه الأجوبة بالضرورة لهذا الترتيب [4]. اسألهم عن فرضية سابير - وورف، وسيجيبون احتمالا بالصيغة «القوية» التي تشير إلى أن «إدراك المرء الحسي للعالم يتحدد بواسطة بنية لغته القومية New Shorter Oxford English Dictionary, 1993تحت قسم «الوورفيونية» Whorfianism) أو سيجيبون بالصيغة «الضعيفة» التي مفادها أن «بنية لغة ما تُحَدِّد جزئيا تصنيف تجربة متكلم ما من متكلمي اللغة القومية. (المرجع نفسه تحت قسم فرضية سابير ـ وورف). وإن لهذه الأفكار صلات واضحة بآراء الرومانسية الألمانية التي نوقشت في الصفحات: ٧١ ـ ٤ أعلاه، وإن كنت قد بينت في مكان آخر أن مصادر لاحقة قد أثارتها بشكل مباشر بما فيها مصادر أوغدين ورتشاردز (١٩٢٣) التي تتضمن مالينوفسكي (١٩٢٣).

ولقد أدرك سابير أن أنواع التصورات ذات السلوك اللغوي الفردي idiosyncratic التي يجدها المرء في كل لغة من لغات الإنسان كتلك المُبينة في جدول: ١٠٣ المأخوذة من بينات نوتكا، لهي دليل على أن أعضاء هذه الثقافة اللغوية تفكر على نحو مختلف عن أناس ينتمون إلى ثقافات أخرى. فلنتأمل المثال المتعلق بكلام نوتكا الذي يستعمل للإشارة إلى الأعسر من الناس، هذا الكلام الموسوم بالسمة نفسها التي تستعمل عند الحديث عن الدببة، التي تعتبرها الثقافة عسراء. ويصنف متكلم النوتكا الأشياء في العالم على نحو يساوي فيه العسراويين بالدببة بالنظر إلى انتمائهم إلى الفئة نفسها. في حين، ينعدم أي تصنيف مماثل بالنسبة إلى أولئك الذين يتكلمون الإنجليزية أو لغات أوروبية أخرى. وقد حلل وورف بشكل ممتاز تعابير الوقت في لغة هندية أمريكية أخرى تدعى هوبي Hopi وخلص إلى أن الهوبي لا تتصور الوقت فقط بطريقة مختلفة تماما عن الذي يتكلم ما أسماه «بالأوروبية المتوسطة المعيارية» 'Standard Average SAE European'، وإنما تعتبر أيضا تصورات الهوبي أقرب إلى التصورات والمفاهيم التي طورها علماء الفيزياء المحدثون [5].

ولا ترتبط كتابات وورف مباشرة بمسألة اللغة والهوية، ولكنها أنجزت غرضا مهما غير مباشر بوصفها مَحَكّا للغويين المحدثين الذين يجادلون في أن للغات ارتباطا عميقا بفكر الناس الذين يتحدثون بها

وبثقافتهم. ولم يكن تشومسكي ولغويون آخرون، ممن يحسبون على النزعة «الكلية» universalists، ليولوا أي اهتمام لفرضية سابير - وورف. وأما المعرفيون cognitivists الذين حاولوا اختبار الفرضية، فقد اكتشفوا نتائج تسمح بإمكان تأويلات متباينة. ومع ذلك، كان اللغويون الذين يجادلون في أهمية حماية «اللغات المعرضة للخطر» «endangered languages»، أوببساطة في شرح سبب أهمية اللغة في فهم الهوية، عرضة بدرجة عالية للتراجع عن الأفكار الوورفية التي تفيد بأن كل لغة تقسم العالم بشكل متباين، وبأن اللغة جوهرية، وليست عرضية، في التكوين الثقافي، وتماسكه، ونقله. وفي الفصل الخامس، سوف نواجه محاولة حديثة لتحليل الهوية اللغوية القومية ضمن الإطار الوورفي.

فيرث Firth، وهاليداي Halliday، وتراثهما

ونعود إلى بريطانيا حيث ج. ر. فيرث (١٨٩٠ - ١٩٦٠)، أستاذ علم اللغة الأول الذي صرح شخصيا بعدم ولائه للسوسيرية [٦]، الذي أسس لتحليل سياسي للغة ضمن الإطار الأساسي للتحليل البنيوي، وذلك من خلال تحديد فضاء لمعنى سياسي داخل تحليل سستيمي (أو نظامي) للغة (انظر جوزيف، ٢٠٠٣ للاستزادة). وتبدأ المقاربات البنيوية بتحليل كل شيء إلى أجزائه المكونة له، وتزعم أنه يمكن للتعبير المنطوق برمته أن يفهم على أنه شيء لا يتعدى مجموع هذه الأجزاء. لقد جادل فورث في أن عملية الجمع في حد ذاتها، أو تلازم [*] collocation الأجزاء، خلق، على الأقل، معنى يضاهي القدر الذي تسهم به الأجزاء الفردية. وفي خلال مناقشة قصيدة فكاهية نظمها إدوارد لير Edward Lear، اقترح فورث نقل المعنى باعتباره مصطلحا تقنيا عن طريق «التلازم»، وتطبيق اختبارات الملازمة «collocability» (فورث، ١٩٥٧ [١٩٥١] ص ١٩٤). وقد كتب في هذا المؤلف (المرجع نفسه: ص: ١٩٥)، على نحو شهير، «أن أحد معاني كلمة ass يتجلى في تلازمها المألوف مع ورودها

(*) إن المشارقة يستعملون كلمة اتصال وأما سكان المغرب العربي، فيستعملون كلمة تواصل وكلاهما يفيدان المعنى نفسه مع بعض الاختلاف الجانبي الذي لا أود الخوض فيه [المترجم].

المباشر قبل عبارة you silly [...]». كما يصر فورث على ضرورة أن يتشكل «المعنى» بشكل أوسع ليشمل ليس الكلمات فقط، بل يمتد إلى الأفعال والناس الذين يتكلمون الكلمات وينجزون الأفعال.

«إن الجمل المألوفة جدا التي تستعمل فيها كلمات حصان، وبقرة، وخنزير pig، وخنازير (swine) مع الصفات في عبارات اسمية، ومع أفعال المضارع البسيط تشير إلى توزيعات مميزة في الملازمة التي قد تعتبر بمنزلة مستوى من المعنى في وصف إنجليزية أي مجموعة اجتماعية محددة أو إنجليزية شخص ما في واقع الأمر» (المرجع نفسه ص: ١٩٥).

وتعتبر الفكرة الحقيقية «لوصف إنجليزية أي مجموعة اجتماعية محددة أو إنجليزية شخص ما في واقع الأمر» جديدة بالنسبة إلى عصرها آنذاك. ومن أجل هذا الوصف، فإن فكرة أن الملازمة يمكنها أن تشكل مستوى من المعنى يضاهي من حيث الأهمية معنى الكلمة ليست سوى فكرة متطرفة تجانب الصواب. وقد سعى فورث جاهدا لتوضيح هذا الطرح في قوله:

«إن إثبات المعنى بالتلازم وبمتلازمات مختلفة لا يشمل تعريف معنى الكلمة بواسطة جمل إضافية تتضمن مصطلحات متغيرة. ويعتبر المعنى بالتلازم تجريدا على المستوى الأفقي السياقي syntagmatic، ولايهتم مباشرة بالمقاربة التصورية أو الفكرية لمعنى الكلمات. ويتجلى أحد معاني «ليل» night في تلازمه مع «مظلم» dark، وأحد معاني «مظلم» في تلازمه مع «ليل» بطبيعة الحال». (المرجع نفسه: ص ١٩٦).

ويذهب فورث، في المقال نفسه، إلى ابعد من ذلك عندما يناقش كيفية ظهور المعنى على المستوى الفونولوجي، فيكتب ما يلي: «إنه من دون أدنى شك أن النطق الموحد يشكل لدى أمريكي ما جزءا من المعنى. (المرجع نفسه: ص١٩٢).

وقد كانت هذه إحدى تلك الإثباتات الإيجازية والحِكَمية التي سبق أن أكسبت فورث خلال فترة حياته شهرة، ساهم في نحتها، الفهم الجيد لأفكاره التي دأب طلبته النجباء من أمثال ر. ش. روبينز R.H. Robins (١٩٢١ - ٢٠٠٠) و م. أ. ك هاليداي M.A.K Halliday (ب. ١٩٢٥) على

إيصالها إلى الناس مبسطة من خلال ترجماتهم لها بدلا من الرجوع إليها في أصلها. ومع ذلك، يفسر المرء هذا الإثبات الدقيق، (ويقتضي هذا بالفعل تفسيرا، بما أنه غير واضح تماما إلى أي حد يملك «أمريكي ما» «معنى ما»)، بكونه يتعلق باللغة والهوية القومية بشكل باد للعيان. كما أفهمها على النحو التالي: «إن نمت شخص ما أو إثبات هويته باعتباره أمريكيا (سواء تعلق الأمر بالشخص ذاته أوبشخص آخر) يتضمن توقعات معينة حول شكل الإنجليزية التي يتكلمون. وعندما يقال لنا إن شخصا أمريكيا لا يملك نبرة أمريكية، فإننا نكتشف تنافرا في الأصوات على مستوى الإدراك المعرفي. وهذا شيء غير لائق تماما. وسيمهد تلامذة فورث، وبالذات هاليداي، الطريق لشكل من أشكال تحليل النص الذي يقوم على كشف الأيديولوجيات المخفية التي تنظم استعمال اللغة. إن هاليداي ماركسي وبنيوي على حد سواء، وإن تصور الماركسية والبنيوية على أنهما أيديولوجيتان متعارضتان قد تلاشى في الخمسينيات لما أصبح المنظر الماركسي البارز التوسير Althusser يلقب بالبنيوي من لدن كل الناس باستثنائه هو فقط (تمت الإشارة إلى هذا في الفصل الأول) [٧]. وبتطوير هاليداي (انظر هاليداي، ١٩٧٨ على سبيل المثل) «لنحو وظيفي مستيمي» systemic-functional grammar يهدف إلى استيعاب الأبعاد الاجتماعية والسيميوطيقية للنصوص، يكون قد زود بآليات مهمة «علم اللغة النقدي» critical linguistics، الذي طور من قبل روجير فاولير Roger Fowler (١٩٣٨ ـ ٩٩) بالتعاون مع مجموعة من العلماء الشباب (انظر فاولير ١٩٨٧؛ وفاولير وآخرين، ١٩٧٩). وقد أدى هذا بدوره إلى «تحليل الخطاب النقدي» critical discourse analysis لفيركلاو Fairclough (١٩٨٩ ـ ١٩٩٢)، الذي زاوج بين علم اللغة النقدي ومنظورات فوكو وبورديو (هذه موضوعات سيُتطرق إليها لاحقا)، والذي يرى نفسه متمكنا من ضبط الطبيعة «الدينامية» لعلاقات القوة وكذا، إنتاج النص بواسطة الكشف عن البنيات المهيمنة داخل النصوص. ويختلف هذا مع تحليلات سابقة تتضمن تلك التي تتصل بعلم اللغة النقدي والتي تهتم بالعلاقات الساكنة أو الاستاتية relations static وكيفية تحويلها إلى رموز.

وتوجد مجموعة أخرى من مقاربات مهمة للغة والهوية في الوقت الراهن تعود بجذورها إلى هذا التقليد. ويعد «علم اللغة التطبيقي النقدي» critical applied linguistics مصطلحا شاملا بالنسبة إلى مجال مملوء بالتساؤلات في اللغة، والنصوص، وعلم التربية والتعليم pedagogy والسياسة الثقافية، حيث يوحدها اهتمام مشترك بالنظرية النقدية الحديثة وبالالتزامات السياسية، التي توصف بما بعد الليبرالية post-liberal وما بعد الماركسية post-Marxist كما يشير إلى ذلك بينكوك (٢٠٠١)، إلا انه يصعب تحديدها أبعد من ذلك. ولقد كان علم اللغة التطبيقي النقدي مؤثرا في إقناع أساتذة اللغة الأجنبية، بأن للعمل الذي يقومون به تأثيرا مباشرا على الهويات وحياة أولئك الذين يدرسونهم، وبأن طلبتهم، علاوة على ذلك، فاعلون نشطون في تشكيل هوياتهم وإعادة تشكيلها عبر وسائل لغوية ووسائل أخرى. إن فحص بينكوك (٢٠٠١) لعلم اللغة التطبيقي النقدي لم يحتو إلا على مرجع واحد لهاليداي، في حين غاب أي مرجع لفورث تماما. وبدلا من ذلك رُتب علم اللغة التطبيقي النقدي باعتباره استمرارا للتقاليد القارية بما في ذلك تقاليد جورغين هابرماس والفرنسيين البنيويين فوكو وبورديو. وإن تاريخها، في تقديري، يمكن أن يوصف بدقة أكثر بكونه مثبتا لهذه الأغصان القارية بما يعتبر أساسا شجرة الفورثية - الهاليدايية وسيُفحص بعض النسخ المعدلة لعلم اللغة التطبيقي النقدي بتفصيل أكثر في الفصل السابع (ص: ٢٤٤ - ٥٨) في سياق نشر الإنجليزية.

خطوات بنيوية لاحقة نحو الهوية اللغوية:
براون وجيلمان ولابوف وآخرون

ابتداء من موت سابير العام ١٩٣٩ فصاعدا، استحوذ التحليل البنيوي لنسق لغات خاصة على الاتجاه السائد في السؤال اللغوي، مع إيلاء عناية خاصة بالتحليل الفونيمي phonemic للنسق الصوتي. وفي الحقيقة، كانت بدايات علم اللغة الاجتماعي الحديث خلال هذه المرحلة بالضبط (انظر جوزيف، ٢٠٠٢ ب من الفصل الخامس). غير أن التوجه كان يميل بقوة نحو دراسة نسق لغة ما بأكمله أو دراسة السمات العمومية المشتركة لدى كل هذه الأنساق، بدلا من دراسة التغير داخلها.

وفي العام ١٩٥٨، نظمت ندوة حول «اللغة والأسلوب» في كامبردج، بمساشوسيتس، للتقريب بين عدد من الناس ممن يهتمون بعلم اللغة، وعلم النفس، والدراسات الأدبية لاستكشاف سلسلة من المواضيع المرتبطة بـ «الأسلوب» وهو تصور تجنبوا تعريفه لبلوغ غايات هذا اللقاء. وقد أصبحت المقالات المختلفة لهذه الندوة، التي نشرت في مجلد العام ١٩٦٠ آثارا أدبية، ولو أن من المحتمل أن يكون العمل الوحيد الأكثر تأثيرا، ذلك الذي اشترك في كتابته عالم النفس روجير براون Roger Brown (١٩٢٥ - ٩٧) والبيرت جلمان Albert Gilman (١٩٢٣ - ٨٩)، العالم اللغوي الذي تنصب اهتماماته على تحليل النصوص الأدبية. لقد قدم مقالهما: «ضمائر القوة والتضامن» التمييز بين ضمائر الخطاب المألوفة غير الرسمية وتلك المفعمة بالاعتبار والاحترام (مثل انت (tu) وانتم (Usted) الإسبانيتين و(tu) وانتم (vous) الفرنسيتين، و(du) وانتم (Sie) الألمانيتين، وغيرها.) بوصفها نسقا يؤسس للعلاقات بين الشخصية ويعمل على تثبيتها، ليصبح مباشرة جزءا لايتجزأ من النحو.

إن المقال نقد ضمني للرؤية البنيوية للنسق اللغوي باعتباره مستقلا وبعيدا عن السياسة العادية للكلام. وإنه يذكر بتصور طواه النسيان لفولوشينوف للغة بوصفها ساحة للصراع الطبقي. ولو أن براون وجلمان يأخذان فقط العلاقات بين الشخصية بعين الحسبان، وليس الصورة السياسية في مجملها. إنهما يبينان كيف أن الأشكال ذات النمط غير الرسمي (انتَ عوض انتم) (tu-type) تستعمل للحفاظ على المنزلة الاجتماعية للأشخاص في مكانها، ولكن في الوقت ذاته تستعمل لإظهار مودة رقيقة تجاه طفل أو حبيب ما. أو تضامن سياسي مع الأقران، أو التزام شخصي مع الله. وبمعنى آخر، يمكن لها أن تعمل على تكسير الحدود الاجتماعية بين الأفراد، كما يمكن بالقدر نفسه أن تعمل على تثبيتها وتماسكها معتمدة في معنى كل منطوقاتها على السياق السياسي البيئي.

ولقد افسح براون وجلمان المجال لمزيد من البحث الذي يتعلق بهذه الظواهر عبر مجموعة واسعة من اللغات، مما أدى في الأخير إلى «نظرية التأدب» Politeness Theory لبراون بينيلوب Penelope آخر ولفنسون Levinson (١٩٨٧). وكانت مقاربتهما تقوم على مفهوم «ماء الوجه» كما طوره

السوسيولوجي الكندي أورفين كوفمان. الذي أُشير إليه في الفصل الأول (ص ٩١) في إطار صلته بمصطلح الشخصية الظاهرة، وسيُناقش ايضا في الفصل الرابع (ص ٦٧ – ٦٨). وبما أن كل تبادل لغوي بين المتكلمين يشكل تهديدا لماء الوجه، فإن على اللغة أن تتضمن وسائل تسخر للتعبير عن التأدب الذي يهدف إلى الحفاظ عليه (أي ماء الوجه). ويقترح براون وليفنسون إمكان ان يحلل التأدب اللغوي عموما على أساس ثلاثة متغيرات:

- التباعد الاجتماعي بين المتكلم والمستمع.
- قوتهم النسبية.
- ودرجة العبء المتصلة بالنفقات المطلوبة من فوائد وخدمات.

وقد فحص كاسبر Kasper (١٩٩٤) عددا من الدراسات اللاحقة التي اختبرت على نحو تجريبي نموذج براون ولفنسون، ووجده يفتقر إلى مظهر أو مظاهر كثيرة، فأقام أسسا مختلفة تعمل على التشكيك في كليته المزعومة.

وعلى الرغم من أن للبحث في علم اللغة الاجتماعي تاريخا طويلا جدا، إذ بلغ ذروة تطوره خلال الخمسينيات، فإن عمل وليام لابوف William Labov، الذي أنجز في مطلع الستينيات كان المسؤول الأول عن إكسابه اعترافا مؤسساتيا بوصفه تخصصا أكاديميا جديرا باعتماد مالي مهم يسخر في مجال البحث. لقد تناول المقال الأول المهم الذي نشر للابوف بعنوان: «الحافز الاجتماعي لتحول صوتي» (١٩٦٣) اللهجة الإنجليزية لمارثاس فينيارد Martha's Vineyard، وهي جزيرة بعيدة عن ساحل مساشوسيتس، التي تُظهر ما يدعى أحيانا «بالرفع الكندي» Canadian raising، حيث تنطق المصوتات المزدوجة diphthongs في كلمات مثل house وright على نحو/ey/ و/ew/ بدلا من /ay/ و/aw/. لا توجد في الجزء الرئيسي من القارة الأمريكية هذه السمة في لهجات تتحدث بها أعداد هائلة من الناس، ممن «يصطافون» في مارثاس فينيارد وينسج معهم الفينيارديون (المقيمون على مدار السنة) علاقة معقدة تطبعها التبعية والغل. وإذا اتبعنا فكرة يسبورسن بخصوص الطريقة التي «تُصقل بها لهجة المهاجرين المنتمين إلى أجزاء مختلفة من البلاد عبر اتصالهم بعضهم ببعض»، فربما سنتوقع أن تتساوى هذه السمة مع لهجة

مـارثـاس فـينيـارد عـبـر الاتصـال الواسـع والمنتظم مع أعـداد هائلة من المتكلمـين من الجـزء الرئيـسي من البـلاد. ولكن هـذا بالضـبط مـا قـوى هـذه السمة في رأي لابوف، وكان سببا في الحفاظ عليها.

> «من الواضح أن تكون كلمة «فينياردي» المعنى المباشـر لهذه السمـة الصـوتية. فعندمـا يقـول شـخص مـا [reyt]او [hcws]، فإنه بذلك يثبت، من حيث لا يشعر، فكرة انتمائه إلى الجزيرة: أي انه أحـد السكان الأصليين ممن تنتـمي إليـهم الجـزيرة».
> (لابوف، ١٩٦٣: ص: ٣٠٧)

وبغض النظر عن كلمـة unconsciously (من دون وعي)، التي تعتبر مضللة في واقع الحال - ما دام الوضع لا يتغير سواء أكان التأثير صادرا عن «شعور» أم لم يكن صـادرا عنه (ويسـتحـيل تحـديده) - فإن هذا يعد بالضـبط نوعـا من تحليل تأثيـر الهوية اللغوية في شكل اللغة الذي هو ميزة العمل خلال الستينيات وبعدها.

ومع ذلك، وحـتى اللحظة، لا يعـد هـذا النوع مـن التـأويل، الذي سيـمـرب تأسيس علم اللغة عن استعداده للقبول به، صـالحا علميا. وانطلاقا من هـذا التـأسيس، صمم لابوف أن ينال اعترافا يكون مثمرا بالنسبة إلى بحث لغوي اجتماعي. وإن الأعمـال التي مكنت لابوف من نيل هـذا الاعتـراف، مثل عمله الذي نشـر له العام ١٩٦٦، قلل من اهميـة هـذا التأويل الـذي يبحث في مجـال الهوية على حساب عرض أكثر «موضوعية» من حيث توزيع المتغيـرات اللغوية حسب الطبقة الاجتماعية، مع الاعتماد الكبير على الإحصاء لترسيخ مفازيها. فلو لم يقم لابوف بهـذا، فمن غيـر المحتمل أن يُكتب لعلم اللغة الاجتمـاعي أن يصبـر جزءا معـياريا من منهج علم اللغة في معظم بلدان العـالم، ولم يكن أبدا في مقـدوره أن يطور الأطر من الباحثين، الذين سيمسلون، وبعـد عقـدين من الزمن، الخيط الذي يركز ابتداء على الهوية وينسجونه مع ما تم تحقيقه في غضون تلك الفترة من لدن علماء النفس الاجتماعيين وآخرين.

من «لغة النساء» إلى هوية الجنوسة

تملك لغات عديدة غير أوروبيـة أنساقا نحوية منفصلة يستعملها الرجـال والنسـاء على حـد سـواء. ومنذ الأربعينيات على الأقل، اقترح لغويون أمـريكيون إمكان أن تحلل الفوارق اللغوية بين الرجـال والنسـاء باعتبارها أنساقا متميزة

في اللغات الأوروبية، على الرغم من أنها أكثر غموضا من حيث الشكل (فورفي Furfey، ١٩٤٤: هاس Haas، ١٩٤٤). وأن اللغوي الذي سيعزز أخيرا هذا الطرح بطريقة ستؤسس للفوارق اللغوية بين الرجل والمرأة بوصفه موضوعا مهما وثابتا هي روبين لاكوف Robin Lakoff (١٩٧٣). ففي مقال نشر لها العام ١٩٧٣، قبل أن يجري توسيعه ونشره في كتاب بعد سنتين، جادلت في أن اللغات، في بنائها واستعمالها، ترسم للنساء وظيفة اجتماعية متواضعة وتلزمهن بأن يرتبطن بها. وفيما يتعلق بخطاب المراعاة والتكريم deferential address والعلاقات بين الشخصية، فإن سياسة الجنوسة gender politics، مندمجة بطريقة مباشرة في أنساق ضمائر اللغة الإنجليزية ولغات أخرى عديدة، عبر استعمال المذكر، كالتأنيث والتذكير «غير الموسوم» unmarked نحو «أخذ كل شخص مقعده» «Everyone take his seat» وقد غذى كتاب لاكوف حركة تسعى إلى تغيير هذا الاستعمال، حتى أصبح من المألوف جدا الآن قول «هو أوهي» (his or her) أواستعمال «لهم/لهن» their ضميرا بصيغة المفرد، مما اعتبر في السابق تعبيرا يعمل على تكمير الذات solipsistic ولكنه الآن في طريقه إلى أن يكون مقبولا. وتشير لاكوف إلى السمات التي غالبا ما تحدث في إنجليزية النساء أكثر من الرجال مثل الأسئلة التذييلية tag questions، والاحتراسات hedges، وصيغ التكثير intensifiers، وعلامات الوقف pause markers، التي تعتبر - مثل علامات انعدام الثقة بالنفس ومثل وظيفة النساء التي يُتوقع أن تشغلها - أساسية للحفاظ على الوضع الراهن في سياسة الجنوسة. وقد حظيت تأويلاتها بدعم مستقل من بيانات تحليل الحوار (ساكس Sacks، ١٩٩٢؛ ساكس وآخرون، ١٩٧٤) التي أظهرت، في مناقشات شملت النساء والرجال على السواء، وقوع مقاطعات متفاوتة جدا، بحيث كانت النساء يقاطعن الرجال أقل مما يقاطع الرجال النساء بأضعاف مضاعفة.

وسيجادل أوبار (O'Barr، 1982) في أن السمات، في واقع الأمر، التي عرّفت بها لاكوف، يجب ألا تعتبر جزءا من «لغة النساء»، بل جزء من «لغة ضعيفة» powerless language مادامت تظهر في الحقيقة أكثر بين الرجال أو النساء الذين يشغلون مناصب أقل نفوذا واحتراما، والذين يعتبر مستوى تعليمهم أقل من الأشخاص الذين ينتمون إلى الجنس نفسه،

ويتمتعون بمستوى تعليمي عال وبمنصب أكثر نفوذا واحتراما. وقد انصب اهتمام أوبار الخاص على التأثيرات التي تنتجها اللغة «الضعيفة» واللغة «القوية» في واقع قاعة المحاكمة. وأظهرت بياناته أن هيئة المحلفين تعطي وزنا أكثر للشهادة التي لا تتضمن السمات التي أوضحتها لاكوف، وإن كان هذا يعتمد، إلى حد ما، على أفكار متصورة سلفا على المكان الذي يجب أن يشغله الشاهد على المستوى السوسيولغوي. وإن نتائج أوبار تقترح أن عدل المحكمة الذي تمارسه هيئة المحلفين يسوى من خلال السياسة المتأصلة للغة، ولو أنه من غير الواضح تماما أن أي محاولة لمعالجة هذا قد تكون منصفة أو ممكنة فعلا.

كما أعقب عمل لاكوف على الفور أعمال كل من ثورن Thorne وهينلي Henley (١٩٧٥) وسبانسر Spender (١٩٨٠)، التي أدت إلى التحليلات الخطابية للغة النساء التي مارستها تانن Tannen (١٩٩٤)، وإلى عمل كاميرون Cameron (١٩٩٥، ١٩٩٢) الموجه سياسيا في الدرجة الأولى. وسيولّد عمل تانن، الأكثر مبيعا في العالم، صناعة معتبرة للمعالجة الطبية الشخصية والزوجية التي تقوم على فكرة أن الأشكال المختلفة في الحوار عند النساء والرجال بوتقتهم داخل ثقافات منفصلة، إذ تدعو الحاجة إلى تكسير جدرانها من أجل بلوغ تواصل حقيقي والحفاظ على سلامة الزواج وخصوبته. وهذا معاد كليا للنظرة الماركسية التي تعتبر الاختلافات في الجنوسة أمرا تافها، في حين أن الفوارق الطبقية هي الوحيدة الجديرة بالاهتمام. بل إن كثيرا من اللاماركسيين ذاتهم يسألون ما إن كان، في آخر المطاف، في مصلحة النساء أن يتمسكن بثقافتهن المختلفة، بدلا من العمل على الاندماج.

ومن الناحية التاريخية، استطاع الخطاب حول اللغة والجنوسة أن يدخل بقوة إلى «الاتجاه السائد» في علم اللغة من دون أن يثير أي مسألة ذات علاقة مثلا بالمذهب الشكوكي scepticism الذي أثارته فرضية سابير - وورف، على الرغم من أن الاستنتاجات التي أشارت إليها لم تتغير، أي أن الأشكال المميزة للغة توازي الأشكال المميزة للفكر. لقد كان هذا مقلقا بالنسبة إلى فرضية سابير - وورف لأنه ربما أصبحت قلة قليلة من الباحثين تعكف على استكشاف الفوارق الإثنية في أعقاب الحرب العالمية الثانية

وفضح أعمال الإبادة التي مارستها النازية. لقد نشأ خطاب فوارق الجنوسة في اللغة بعد عقدين من الزمن في جو مختلف تماما، في سياق ظهور حركة تدعو إلى تحرير المرأة. وعندما حددت لاكوف سمات اللغة عند المرأة التي أرادت، على ما بدا، أن تعيدها إلى المجتمع وتسترد مكانتها، عمل ذلك على تقوية إدراك الناس بمقدار التحامل الذي مارسه المجتمع ضدهن. وعلى دعم قضيتهن في سبيل تغيير اجتماعي إيجابي. وبمجرد أن حظيت فكرة لغة النساء ولغة الرجال بالقبول، سيسمح بالفكرة العامة التي تقول بربط اللغة - الهوية انطلاقا من الباب الخلفي، إن جاز هذا التعبير. وقد فتحت الأبواب على مصراعيها لا لتقتصر فقط على دراسة الهوية ذات التوجه الجنسي، ولكن لتشمل أيضا هويات الجماعة على اختلاف أنواعها، بعيدا عن الهويات القومية والعرقية، التي ترتبط تقليديا بالفوارق اللغوية.

ويفتقر بعض الناس إلى هوية قومية واضحة، ومن المحتمل أن يفتقروا أكثر إلى هوية دينية للأسباب التي وصُفت منذ حين. ومن الناس القلائل نسبيا ممن يشعرون بافتقارهم إلى هوية عرقية، مثل الإنجليزيين البيض، لأنهم يوجدون عموما في أعلى قمة المثلث السوسيواثني، حيث تحمل إثنيتهم مقدارا ضئيلا من القيمة الرمزية باستثناء السلبي منها الذي يميزهم عن الإثنيات من حولهم. ومع ذلك، لا أحد يفتقر إلى هوية جنوسة. قد يكون لديهم اضطراب في هوية الجنوسة، أو هوية جنوسة مزدوجة (ولكن غير مضطربة)، أو أي تغير أساسي آخر. ولكن أن تكون إنسانا وتفتقر إلى أي هوية جنوسة، فذاك مالا يمكن تخيله، خصوصا عندما يفرض عليك آخرون واحدة منها أو أكثر من دون وعي منهم بذلك.

وبالنظر إلى وجود حقيقي كلي لجنوسة الهوية، وبالنظر إلى أهميتها الرئيسة، فإنها تأتي على رأس قائمة المداخل المتنوعة في ذخيرة هوية شخص ما. وإنها ليست هوية يذهب الناس من أجلها إلى الحرب، على الأقل ليست كذلك بالمعنى الحرفي. ولكن من منظور دارويني، يعتبر بناء هوية الجنوسة حاسما بشكل واضح عندما يتعلق الأمر بعمل تناسلي خصب. ويصدق هذا على الذكور من الطيور المسيطرة حينما يعرضون ريشهم، وعلى الإناث من الطيور المستقبلة للعروض التناسلية - من حيث إنها خطوة قصيرة نحو تسريحات شعر أنيقة واستعمال أحمر الشفاه (التي

تعمل على نحو مختلف في بناء هويات الجنوسة للذكر والأنثى)، واللباس الرمزي للأفراط، وبالطبع الأداء اللغوي للهويات ذو التوجيه الجنوسي والجنسي.

من نظرية الشبكة إلى جماعات ذات ممارسة مشتركة وأيديولوجيات اللغة

لقد دعت لزلي ملروي Lesley Milroy في كتابها «اللغة والشبكات الاجتماعية» Language and social Networks الذي صدر العام ١٩٨٠، انطلاقا من بيانات حصلت عليها من دراسات اجتماعية لغوية أدارتها في بلفاست، إلى تعديل بعض المفاهيم التي اتخذها أصحابها، في أعمال سابقة، بمنزلة معطى لا يخضع لمنطق المساءلة، خاصة تلك الأعمال التي تسير على النهج اللابوفي. ولا يبدو أن تشكل «الطبقة الاجتماعية» لفرد ما متغيرا رئيسا يسمح للمرء أن يتكهن بنوع أشكال المتغيرات اللغوية الخاصة التي قد يستعملها الشخص. على العكس، إن المتغير الرئيس يتمثل في طبيعة «الشبكة الاجتماعية» للشخص، وهو مفهوم اقتفت ملروي أثره في عمل بارنيز (١٩٥٤)، الذي يتناول بالدراسة جزيرة أبرشية نرويجية. ومنذ عهد قريب ظهر هذا المفهوم جليا في أعمال أنجزها سوسيولوجيون من أمثال بواسوفان Boissevain وميتشال Michell (ميتشال، ١٩٦٩: بواسوفان، ١٩٧٤: بواسوفان وميتشال، ١٩٧٣). وقد عرفت ملروي الشبكة الاجتماعية بتلك:

> «العلاقات الاجتماعية غير الرسمية التي يعقدها فرد ما.
> وبما أن جميع المتكلمين في كل مكان يعقدون contract علاقات اجتماعية غير رسمية، فإن مفهوم الشبكة، من حيث المبدأ، يمتلك القدرة على تطبيق عمومي، ومن ثم فهو مفهوم أقل عصبية عرقية ethnocentric من مفهوم الطبقة أو الطائفة».
> (ملروي، ١٩٨٠: ص: ١٧٤).

إن الشبكات الشخصية للأفراد تحلل بوصفها «كثيفة» أومتعددة. ولقد وجدت ملروي أنه حيثما كان رباط بنيات الشبكة المتمركزة مغلقا close-knit، كلما اشتدت النزعة إلى تثبيت أشكال الكلام من اللغة العامية اللامعيارية، وكان من الصعب تفسير تثبيت أشكال اللغة العامية في نموذج يشبه ذلك

الذي يتبناه لابوف، والذي يعتمد مقياس الانتماء الطبقي. حيث يفرز الانسجام مع مبادئ الاستعمال المعياري طبقة عالية على مستوى التسلسل الهرمي الاجتماعي، فتخول لها، من ثم، هذه الوضعية فوائد تصبح حقا مشروعا لها. وإذا كانت غالبية الناس ترغب في هذه الامتيازات، فلماذا لا تقوم ببساطة بالشيء المنطقي، وتبدأ التحدث مثل من هم «أرفع مكانة منها اجتماعيا»؟ إن الجواب يكمن في الهوية كما هو مقترح في عمل لابوف الذي أنجزه من فترة مبكرة حول مارثاس فينيارد، ويكمن بالخصوص في قيمة الانتماء إلى مجموعة ما تستطيع مع ذلك تثبيت شيء نفيس لها (مثلا الأصالة بالنسبة إلى مارثاس فينيارد) - وإن كانت لا تتمتع بمكانة اجتماعية عالية جدا من الناحية السوسيو اقتصادية. وقد قدم كتاب ملروي أول دعم إحصائي، لهذا التفسير.

إلا أن ما لم يحاول هذا الكتاب القيام به هو أن يستكشف طبيعة الهوية التي انبثقت من الشبكة، أو أن يسأل ما إن كانت فعلا انبثقت منها، أو أن الهوية، خلافا لذلك، هي التي خلقت الشبكة. في حين أسس هذا الكتاب، ببساطة، لأهمية الهوية اللغوية لمصلحة أولئك اللغويين الاجتماعيين الذين آمنوا فقط بقيمة الإحصاء ذي الدقة المتناهية، وتحاشوا التأويل باعتباره غير علمي، إلى درجة أن تمثلوا ذلك حتى في علاقتهم الاجتماعية. علاوة على ذلك، فبقطعنا أرجل المعيار الذي كان يشكل الأساس الحقيقي للبحث اللغوي الاجتماعي - المتمثل في الطبقة الاجتماعية - أصبح المجال مفتوحا على مصراعيه أمام فحص أي معيار قد تقوم على أساسه شبكة اجتماعية ما. ولم يعد بالإمكان النظر باستخفاف إلى التحقيقات إذا لم تكن الفوارق التي فحصتها لا تتبنى على مفهوم الطبقة الاجتماعية، باستثناء تحقيقات الماركسيين الذين سيعتبرون هذا المفهوم، بشكل واضح، أساسيا على الدوام.

وقد أوضحت ملروي شيئا يهم التشكيلات الداخلية للشبكة الاجتماعية، إذ إنها مهما اعتمدت إلى حد ما على مقدار العلاقة الشخصية، كان الأمر الأساسي بالنسبة إليها يتمثل في فكرة أن أعضاء شبكة اجتماعية ما يتقاسمون ضوابط، وميولات سلوكية وأنساق الاعتقاد التي تشمل اللغة وتمتد إلى ماورائها أيضا. وعندما تحول الانتباه إلى فهم طبيعة هذه الضوابط، خلف رأيان منشوران على نحو واسع تأثيرا مقنعا:

اما الأول، فيتعلق بكيفية عمل المعنى النصي، والثاني بطبيعة القومية. وقد اخترع ستانلي فش Stanley Fish (١٩٨٠) تصور «الجماعة التأولية» interpretative community لتفسير كيف يقرأ الناس معاني مختلفة في النص ذاته من جهة، في حين لا نقيم كل هذه القرءات على حد سواء، من جهة أخرى، غير أننا نعتبر بعضا منها صحيحا وبعضا آخر سخيفا. ويجادل فش في وجود ضوابط متنوعة للقراءة أذيعت وظهرت ثقافيا داخل مجموعات من أحجام متباينة، بما في ذلك مجموعات من عضو واحد ولو أن هذا نادر جدا. إن الجماعات التأولية مجموعة تشترك في عدد من الضوابط. وقد ينعدم أي اتصال مادي مباشر بين أعضائها. وربما تنتشر ضوابطهم المشتركة عن طريق مصدر ما كالنسق التربوي، أو الكتب أو وسائل الإعلام. وخلال الوقت نفسه، اقترح بندكت أندرسون مفهوما جديدا «للأمة» بوصفها جماعة متخيلة imagined community، بحيث لا يلتقي أعضاؤها أبدا بعضهم بعضا، كما هو الشأن بالنسبة إلى الجماعة التأويلية، ناهيك عن أن يكون لديهم اتصال منتظم يخلق «شبكة» من الشبكات. فالذي يربطهم جميعا هو الاعتقاد المشترك في عضوية الجماعة.

وتبعا للعمل الذي أنجزه بنلوب إكرت Penelope Eckert بشكل خاص، فإن التحقيق اللغوي الاجتماعي للمجموعات ذات الارتباط الوثيق فيما بينها تحولت من فحص الشبكات الاجتماعية التي تعتمد الإحصاء إلى فحص تأويلي لجماعات ذات ممارسة مشتركة. وتشير الجماعة ذات الممارسة المشتركة «إلى مجموعة متكتلة من الناس الذين يجتمعون حول التزام متبادل في مسعى ما» (إكرت ومكونل - غينت McConnell-Ginet، ١٩٩٢، ص: ٤٦٤)، تظهر خلاله اعتقادات، وضوابط، وأيديولوجيات مشتركة (انظر وينجر Wenger، ١٩٩٨)، ومايرهوف (Meyerhoff، ٢٠٠٢)، وهذا لايقتصر عادة على السلوك اللغوي والتواصلي. إن ميزة الجماعة ذات الممارسة المشتركة تتمثل في انفتاحها، بحيث يمكن لأي مجموعة من الناس أن تشكل جسما واحدا، مادام في استطاعة المحلل أن يشير، على نحو مقنع، إلى سلوك يتضمن ضوابط مشتركة أو افضل من هذا، أن يكون قادرا على استنباط تعبير للأيديولوجيات الأساسية من أعضاء الجماعة. ومن ثم، فإن هذا النهج

في البحث مستمر مع نهج آخر ركز مباشرة على اعتقادات معيارية او أيديولوجية من خلالها تثبت هويات القومية أو هويات لمجموعة أخرى. وفي هذا السياق، نشرت بعض الأعمال مبكرا لووداك Wodak (١٩٨٩) وجوزيف وتايلور (١٩٩٠)، وظهرت أعمال أخرى كثيرة بعد ذلك مثل تلك التي انجزها شيفلن Schieffelin وآخرون (١٩٩٨)، وفيرشورن Verschueren (1999)، وبلومارت Blommaert (١٩٩٩ ب) وكروسكرتي Kroskrity (٢٠٠٠).

وسيفحص الفصل التالي المدخل input الذي ظهر في دراسة الهوية اللغوية في مجالات بحث متعددة تستثني علم اللغة. والأمر الثابت أن الخطوط الفاصلة غير واضحة بما أن بعضا من هذا المدخل قد شكل كلا من هذه المقاربات التي وُصفت في الفصل الراهن. وبالفعل، فإنه منذ هومبلت وقبله، كانت تعتبر أي محاولة تسعى إلى فصل علم اللغة عن السؤال الأنثروبولوجي، والسيكولوجي، والاجتماعي أمرا ينطوي على مفارقة تاريخية. وعلى نحو مماثل، لم يخفق الأشخاص البارزون ممن سيناقشون في الفصل التالي في أن يتعلموا من الأعمال التي أنجزها علماء اللغة.



9

وجهات نظر متكاملة من تخصصات مجاورة

مدخل من علم الاجتماع خلال فترة الخمسينيات: غوفمان

لقد عُرض عمل غوفمان في الفصل السابق (ص: ٩١)، وتم استكشاف تأثيره في دراسة اللغة بتفصيل أكثر، في عمل مشترك لجوزيف (٢٠٠١، الفصل الحادي عشر). وعندما كان غوفمان ينجز بحث الدكتوراه في جزر شتلاند Shetland في نهاية الثلاثينيات، توصل إلى رأي مفاده أن:

«الميل الإنساني إلى استخدام الإشارات والرموز يعني أن دليلا ذا قيمة اجتماعية وتقييمات متبادلة ستنقل بواسطة أشياء بسيطة جدا، وسوف تُرى هذه الأشياء مثلما يُرى واقعها. وقد يمكن للمحة خاطفة، وتغيير مؤقت في نبرة الصوت، واتخاذ موقف إيكولوجي أو عدم اتخاذه، أن يتخم كلاما ما بدلالة حصيفة. ومن ثم، مثلما تتعدم أي فرصة لكلام لا يمكن للانطباعات غير

«إن الذي استوعبه ليس شخصا آخر، وإنما هو الهوية التي سعيت لبنائها لهذا الشخص».

المؤلف

الملائمة فيه أن تنشأ سواء بشكل مقصود أو غير مقصود. كذلك ستتمدم أي فرصة لكلام تافه جدا لا يطلب فيه من كل مشارك إبداء قلق شديد بالطريقة التي يتعامل بها مع نفسه ومع الحاضرين الآخرين. [...]

فكلما نشأت في مجتمع من المجتمعات الإمكانية المادية للتفاعل الملفوظ، بدا أن نسقا من الممارسات، والأعراف، والقواعد الإجرائية تعمل مجتمعة بمنزلة وسيلة لإرشاد تدفق الرسائل وتنظيمها. [...]

وتمثل الأعراف التي تهم بناء مناسبات الكلام حلا ناجعا لمشكل تنظيم تدفق ما للرسائل الملفوظة. وفي محاولة للكشف عن كيفية الاحتفاظ بهذه الأعراف بأعداد كبيرة بوصفها مرشدا للفعل، يجد المرء دليلا لاقتراح علاقة وظيفية بين بناء الذات وبناء التفاعل الملفوظ» (غوفمان، ١٩٥٦، ص: ٢٢٥-٧).

إن «بناء الذات» هذا - مثلما هو مبين في الكلام - أي القناع persona، هو ما دفع غوفمان إلى أن يطور الأدوات التحليلية لتصفه بطريقة تحظى بالقبول داخل اللغة العلمية لدى علماء الاجتماع. ووجد أن مفهوم «ماء الوجه» - الذي ربطته الثقافات الغربية عموما بثقافات شرق آسيا - ضروري في واقع الأمر، لفهم التفاعل الإنساني في أي ثقافة من الثقافات.

«فعندما يتطوع شخص ما بتصريح أو رسالة، مهما كانا تافهين أو مألوفين، فإنه يلزم نفسه بهما، ويلزم بهما من يوجِّه إليهم الخطاب، ويضع كل شخص من ناحية ما، في محل الخطر. ويقول المتكلم شيئا ما، فإنه يعرض نفسه لإهانة المتلقين المقصودين له، وذلك بعدم السماع له، أو باعتباره أحمق أو عدوانيا في ما قاله. وإذا كان لا بد أن ووجه بهذا الاستقبال، فسيجد نفسه ملزما بالتدخل حفاظا على ماء الوجه في مسعى للتصدي لهم. [...]

ومن ثم، فعندما يتطوع الشخص برسالة ما - وهو بذلك يساهم بما قد يعتبر بسهولة تهديدا للتوازن الشعائري ritual equilibrium - فسيكون ثمة شخص آخر مجبر على إظهار أن الرسالة قد وصلت وأن مضمونها أضحى مقبولا لكل المعنيين بها» (غوفمان، ١٩٥٦، ص: ٢٢٧- ٨).

وقد ميز غوفمان بين إراقة ماء الوجه السلبي، الذي يشير إلى رغبة الفرد في التحرر من أي قيد أو تطفل، وإراقة ماء الوجه الإيجابي، الذي يسعى صاحبه من خلاله إلى كسب ود الناس واستحسان سلوكهم. ويمتلك أعضاء أي مجموعة اجتماعية هذين النوعين معا من إراقة ماء الوجه.

ولم يفتح علم اللغة بواباته لنوع التساؤل التأويلي الذي كان يتزعمه غوفمان إلا قبل الخمسينيات تحديدا. ومرد ذلك جزئيا إلى عدم رؤية حشد كبير من اللغويين «الخطاب» ـ أي النصوص التي تتجاوز حدود طول العبارة أو الجملة ـ باعتباره تخصصا لا يدخل في دائرة اهتماماتهم. وقد شكّل التحول التدريجي في هذه الرؤية نقلة نوعية في استيعاب الدراسة الدقيقة للهوية اللغوية في نهاية المطاف، تماما مثل أي تطور آخر.

برنشتاين

كانت توجد مجموعة من الآراء القوية بشكل خاص والمثيرة للجدل حول اللغة والهوية الاجتماعية على رأس جدولي الأعمال التربوي والسوسيولغوي منذ عقدين من الزمن. فحاول بازل برنشتاين Basil Bernstein (١٩٢٤ـ٢٠٠٠) في لندن أواخر الخمسينيات ـ وهو متدرب في علم الاجتماع وعلم اللغة على حد سواء ـ أن يطبق فرضية سابير ـ وورف لتحليل الفرق الطبقي على المستوى اللغوي. وسيثبت هذا المسعى تأثيره وإثارته للجدل بالقدر نفسه [١].

وفي مطلع الستينيات، أصبح برنشتاين زميلا لهاليداي وزوجه رقية حسن، وقال بملء فمه إن هذا اللقاء كان مصيريا بالنسبة إلى عمله اللاحق (انظر برنشتاين، ١٩٩٦، ص: ١٤٨ـ ٩). وقد ميز برنشتاين بين نوعين من اللغة: اللغة «العامة» واللغة «الرسمية»، وسيعيد تسميتهما فيما بعد بنظام لغوي محدود restricted code ونظام لغوي متطور elaborated code. وبهذه المصطلحات، ستلقى آراء برنشتاين اهتماما خاصا من الدارسين، وتكسبه شهرة كبيرة في كل أرجاء العالم الناطق باللغة الإنجليزية. وقد كان برنشتاين يقول بوضوح ـ على الرغم من إنكاره العنيف والمخادع فيما بعد ـ إن الطبقة المتوسطة من الناس هي وحدها التي تمتلك الهويات الشخصية الحقيقية، وإدراكا عقليا كاملا لعالمها، أما الذين ينتمون إلى الطبقة العاملة، فهم الذين يملكون هوية اجتماعية قوية، ويقتسمونها مع أولئك الذين يتحدثون فقط النظام اللغوي المحدود:

«ففي حال نظام لغوي محدود، سيقوم الكلام ضد ستار من الادعاءات مألوفة لدى المتكلمين، وضد مجموعة من الاهتمامات والمماثلات المشتركة، وباختصار ضد هوية ثقافية تحد من حاجة المتكلمين إلى تطوير قصدهم لفظيا حتى يتمكنوا من الإفصاح عنه بوضوح».

ولكن النظام اللغوي المحدود يفتقر إلى موارد تسمح بإشارات لفظية لهوية المرء باعتباره فردا. وهو:

«يعمل ليسمح بالإشارة إلى الهوية الاجتماعية بدلا من الهوية الشخصية. ويبدو أنه يشار إلى الهوية الشخصية عبر وسائل غير لفظية ولا تعبيرية، بدلا من وسائل متفاوتة في التطور لاختيارات لفظية [...]. وهذا النظام يقوي التضامن مع المجموعة، بالحد من الإشارة اللفظية ذات الاختلاف الشخصي، [...] واحتمال أن يتسبب هذا في فرز حس قوي لهوية اجتماعية على حساب حس لهوية شخصية» (المرجع نفسه، ص: ٦٣).

وعندما أوِّلت هذه الأفكار بالطريقة المعقولة الوحيدة الممكنة ـ لتعني أن لغة الطبقات العاملة تجعل متكلميها عاجزين من حيث الإدراك العقلي، وغير متميزين كأفراد ـ وبرزت اعتراضات على طرحه هذا، كان رد فعل برنشتاين عنيفا. وخلال العقود اللاحقة غيَّر أفكاره، لتبدو آراؤه حول الطبقات العاملة أقل سلبية. وكان يرد بعنف على أي شخص تسوِّل له نفسه النَّيل من أفكاره من قبيل تلك التي ذكرت من قبل. وفي الوقت الذي يستحق فيه برنشتاين كل الثقة والاحترام لتغيير موقفه (انظر برنشتاين، ١٩٦٦ خاصة)، فإنه لم يتعامل أبدا مع المضامين التي كانت ضرورية للأعمال السابقة التي صنعت اسمه. ولم تؤد الجهود التي بذلت من أجل إعادة الاعتبار إليه في التسعينيات إلى إعادة صياغة آرائه حول الاختلاف الاجتماعي، واللغة والهوية اللتين تحظيان بتأثير واسع. فمازال يُنظر إليها على أنها تقوم على شكل من أشكال الحتمية اللغوية الذي لم يعد صالحا في العصر الراهن، والذي تم تغييره برأي قوة فردية، لايقبل سوى قلة قليلة تربطه بالطبقة الاجتماعية بأي حال من الأحوال.

مواقف ومواءمة

بدأ عالم النفس الاجتماعي الكندي والس لامبورت Walace Lambert باستكشاف مواقف الناس من اللغة «الأخرى» في وسط ثنائي اللغة مثل كندا، وقد تزامن ذلك مع عمل لابوف الأول، ولم تكن استنتاجاته منسجمة مع توقعاته. وفي وسط مثل كيبيك Quebec الذي كان مشحونا سياسيا خلال الخمسينيات، يمكن للمرء أن يتوقع من الناطقين بالفرنسية أن تكون لديهم مواقف سلبية على نحو مطرد من الإنجليزية، والعكس صحيح. ولكن ما استنتجه لامبورت يعتبر أدق من هذا إلى حد بعيد.

فعندما طلب من الناس أن يصنفوا المتكلمين حسب سمات traits محددة كالذكاء، والمثابرة، والمودة، والثقة، وغيرها، اتضح ارتباط بعض السمات إما بكنديين يتحدثون الفرنسية وإما بآخرين يتحدثون الإنجليزية، بقطع النظر عما إن كان أكثر أولئك المفحوصين أنفسهم ناطقين بالفرنسية أو بالإنجليزية. فمثلا، عندما تم الاستماع إلى شريط مسجل لشخص يتحدث باللغة الفرنسية، وبعده مباشرة استمع إلى الشريط المسجل ذاته لشخص آخر يقول الكلام نفسه باللغة الإنجليزية، مال من كان في الاستماع إلى أن المتحدث بالإنجليزية هو أذكى وأكدح من نظيره المتحدث بالفرنسية، كما أن الناس الذين يتحدثون الفرنسية أنفسهم مالوا إلى تصنيف العينات الإنجليزية على هذا الأساس. ومع ذلك، عندما يتعلق الأمر بسمات تتصل بالمودة، كان الناطقون بالفرنسية يميلون إلى أن المتحدث بالفرنسية في الشريط السمعي أجدر بالمودة، في حين رأى الناطقون بالإنجليزية أن المتحدث بالإنجليزية هو الأجدر بها.

ويعتبر استعمال اختبار «نمط المزاوجة» matched guise في منهجية بحث لامبورت مفخرة كبرى له، إذ يُستمع فيه إلى عينات مسجلة يتحدث فيها الفرد نفسه بلغة واحدة في البداية، وبلغة أخرى بعد ذلك. أما أولئك الذين استمعوا للشريط دون أن يكونوا على علم مسبق بأنهم كانوا يستمعون إلى مجرد فرد واحد (وكي يبدو التسجيل أقل وضوحا للمستمع، خُلطت العينات بعينات أخرى لأشخاص آخرين)، فمنحوا بشكل مطرد تصنيفات مختلفة للسمات الشخصية، عندما كان هذا الفرد يتحدث باللغة الفرنسية من جهة، وباللغة الإنجليزية من جهة

أخرى. وقد برهن هذا فيما يبدو على أن تقييمهم للمتحدث، بوصفه شخصا، اعتمد كلية على اللغة المختارة، وليس على أي عامل آخر كنوعية الصوت أو أسلوب الكلام.

أما الباحثون في المواقف اللغوية الذين أتوا بعد لامبورت، فسينتقدون عمله الأول بشدة وتقنية نمط المزاوجة التي تعني أساسا حسب أحد النقاد:

> «أن متكلما بمفرده يسجل كل النسخ المعدلة لرسالة تظهر في تصميم تجريبي: وتعتبر لهجات (أ)، و (ب)، و(ت) مثالا على ذلك. ثم إن افتراضا مهما، لا نخاله قد خضع للاختبار بحسب ما نعلم ، يفيد بأن المجيبين respondents يدركون أن المتكلم ماهر في تقديم كل نسخة على حدة. وإذا خُولف هذا الافتراض عن غير علم، فإن اختلافات المجيبين مثلا في تقييم مختلف نسخ اللهجات قد تعزى خطأ إلى اللهجات نفسها، في الوقت الذي تعتبر فيه هذه الاختلافات في واقع الأمر، نتيجة لاختلافات تمييزية في طلاقة fluency المتكلم» (بردالك وآخرون، ٢٠٠١، ص: ١٣٩).

وعلاوة على ذلك، فإن دراسات لامبورت الأولى «استخدمت استبيانات ذات علاقة بالمواقف، إذ اعتمدت أساسا مقاييس القطبين، وهي تجارب ومن ثم فهي مجردة من السياق» (المرجع السابق نفسه، ص: ١٤٠) [٢]. وقد يعكس هذا النقد تحولا جديا ظهرت بوادره في منهجية العلوم الاجتماعية خلال العقدين الأخيرين. وفي الستينيات أصبح التركيز منصبا على الحصول على معطيات مهمة إحصائيا، في ظل شروط يمكن الرد عليها من لدن باحثين آخرين. ويعتبر المختبر الوضع المثالي لهذه الشروط كي يمكن التحكم فيها بأقصى قدر ممكن. وفي الثمانينيات أصبحت الرؤية الواسعة الانتشار تفيد بأن البيانات المحصلة بهذه الطريقة، في وضع لا يشبه بتاتا السياقات المألوفة للاستخدام اللغوي، وأضحت لا تلقي في الواقع أي ضوء ذي بال على اللغة الحقيقية. وينبغي بدلا من ذلك الحصول على البيانات عبر وسائل: «إثنوغرافية» ethnographic، تمكن الباحث من دخول سياقات الاستخدام contexts of use بشكل مباشر. ولا يعني هذا أن الصيغة الجديدة ستنسخ الصيغة القديمة جملة وتفصيلا، فهما تشكلان في الوقت الراهن الأرضية

لشيء يشبه حربا أهلية تدور رحاها بين علماء الاجتماع الذين ينزعون في توجهاتهم إلى الصيغة الجديدة أو القديمة. ولكن الاهتمام السائد باللغة والهوية أتى من المجال الإثنوغرافي، لأسباب ستصبح أكثر وضوحا في القسم المتعلق بـ «الماهوية والبنائية».

ومهما تكن النقائص، فإن نتائج لامبورت، إضافة إلى كل نتائج أعماله التقليدية التي وضع لبنتها، واتبعت، وأرشدت آخرين ليسلكوا سبيلها، كانت مهمة في المساعدة على تأسيس علم اللغة الاجتماعي خلال الستينيات. وقد استخدمت هذه النتائج لإبراز كيف أن علاقاتنا مع غيرنا من بني البشر تقوم أساسا على أحكام غريزية نشكلها بشأنهم، إذ إن اللغة التي يستخدمونها تظهر فيها جليا وقد تحدد ـ على الأقل في بعض الحالات ـ أحكامنا بمعزل عن اي عامل آخر.

وفي السبعينيات، ظهر عالم نفس اجتماعي آخر، هو هاورد جايلز Howard Giles بريطاني المنبت Briton، ولكنه ازدرع إلى كاليفورنيا وقام ببرنامج بحث مفصل وموسع ذي صلة بالظاهرة التي نحن بصدد مناقشتها. والحقيقة أننا حين نصادف شخصا ما، فإننا نقوم بتشكيل أحكام حوله من خلال طريقته في الكلام. وطريقة كلامنا تتغير على نحو معهود استجابة لتلك الأحكام.

ثم إن «نظرية المواءمة في الكلام» Speech Accommodation Theory هو المصطلح الذي استعمل أصلا في دراسة كيفية تأثر استخدامنا اللغوي بتصورنا للناس الذين نخاطبهم. وقد وُسع هذا المصطلح إلى «نظرية المواءمة في الاتصال» لغرض عدم فصل السمات اللغوية للمواءمة عن مظاهرها الأخرى (كتلك الموجودة في الإيماءات).

ويخفف هنا حدة التأثير الساحر القديم الذي يعتبر المتكلم مفحوصا subjectعنيدا، بإدراك مشابه لإدراك فولوشينوف، لا يرى «المتكلم» معطى ولا ثابتا، وإنما يراه ظاهرة تبنى لدى تفاعله مع المحادثين interlocutors، ولا يمكن فصله عنهم في نهاية المطاف. وبصفة عامة جدا، فإن هذا المنظور حول الأفراد المفحوصين دخل إلى علم الاجتماع من خلال «نظرية التبادل» exchange theory لهومانز (1958) Homans، الذي زود دجايلز ومتعاونيه ببعض التبصرات المحورية. وقد أصبح مضمون هذه النظرية أكثر وضوحا

خلال الأعوام الأخيرة، لما ابتعد البحث في المواءمة عن النزعة الأولية إلى رسم الظواهر باعتبارها أوتوماتيكية وبطبيعتها مفرطة جدا في التبسيط (يقع التقارب الكلامي عندما يكون هناك تعاطف وتجانس بين المحادثين، ويقع التباعد عند وجود تباعد اجتماعي). وقد استخدم ثاكيرار Thakerar (١٩٨٢) وآخرون معه مفهوم «المواءمة التصورية/الذاتية» perceptual/subjective accommodation الذي يفيد بأنه «على الرغم من إمكان أن يشير قصد متكلم ما، أو سلوك فعلي ذاته، إلى معنى واحد، فإن تأويل المستمع لفعل المتكلم قد لا يكون منسجما مع قصده (أي المتكلم). فقد يتعذر على المستمع فهم السلوك، أو قد يسيء فهم المعنى الذي يرمي إليه المتكلم» (شيبارد Shepard وآخرون، ٢٠٠١، ص: ٣٨). وقد وجد بوفس Boves وآخرون معه (١٩٩٠) أن الوضعية الملحوظة للشريك في الحوار أثرت في السلوكيات الكلامية بشكل كبير، إذ إن تقديرات المفحوصين لشركائهم قامت على صور نمطية تكرس العلاقات بين الوضعية والكلام أكثر من الكلام الحقيقي ذاته» (المرجع السابق، ص: ٤٧).

وقد وجه بيل Bell (١٩٨٤) نقدا لاذعا لعلم اللغة الاجتماعي الذي يتبناه لابوف، لفشله الذريع في الاعتراف بالأهمية المحورية للمواءمة في السلوك اللغوي. لقد كان يظهر الأسلوب الكلامي دائما على أنه متغير رئيس في بحث لابوف، وكان يتعامل معه بوصفه شيئا مباشرا وخاليا من أي إشكال. وهو يتغير وفق مقدار الاهتمام الذي يوليه المتكلمون لما يقولونه. ويرفض بيل هذا الرأي الذي يقوم على «الاهتمام» بالتعامل مع الأسلوب باعتباره خاليا من أي بداية non-starter. ويجادل - بدلا من هذا - في أن الأسلوب أمر يتصل «بالجمهور المستهدف» audience design: فعلى جميع المستويات المتعلقة بالمتغيرية اللغوية، يستجيب الناس فيها بالأساس لأناس آخرين. ويصمم المتكلمون أساليبهم حسب جمهورهم (بيل، ١٩٨٤، ص: ١٩٧).

ويمكن لنا في الوقت الحاضر، أن نأخذ مفهوم «الجمهور المستهدف» إلى مستوى أبعد، فنعتبر أن المتكلمين عند المواءمة/الاستيعاب، يصممون جمهورهم عوضا من أن يستجيبوا فقط لجمهور ما موجود بوصفه معطى. وما تعنيه المواءمة اللغوية بالنسبة إلى اللغة والهوية لا ينسجم مع الفكرة التي تقول إنني أملك هوية لغوية ترتبط - إلى حد ما - ارتباطا وثيقا بمن

«أكون حقاً». فعندما أستوعب شخصا ما معتمدا أساسا على إدراكي للشخص الذي أنا بصدد استيعابه ، أصبح لغويا «شخصا آخر». وتحظى هذه الفكرة الأخيرة بأهمية خاصة: إن الذي أستوعبه ليس شخصا آخر، وإنما هي الهوية التي سعيت إلى بنائها لهذا الشخص. وبالإضافة إلى هذا، فإن فعل المواءمة الحقيقي الذي أقوم به والنسبة التي يمتد إليها هذا الفعل ـ (مادامت هناك فوارق فردية في مقدار ما نستوعب) ـ يصبحان سمة من هويتي اللغوية. وإذا أخفقت تماما في الالتزام بمبدأ المواءمة، فإن هذا الإخفاق يعتبر أيضا سمة.

آراء فوكو وبورديو حول السلطة الرمزية

في فرنسا، وخلال منتصف الأربعينيات، ظهر عالم الأعراق البشرية ethnologistكلود ليفي شتراوس Claude Lévi-Strauss، ليكون مسؤولا بالأساس عن تعميم حركة «بنيوية» حاولت أن تحلل كل الثقافات التي تقوم على المناهج والأصناف المستوردة من علم اللغة. ومن أهم الشخصيات التي ظهرت في هذه الحركة خلال الستينيات نذكر ميشال فوكو (١٩٢٦ـ٨٤). وهو مؤرخ ثقافي ينتصب على رأس «ما بعد البنيوية». وسيقوم فوكو ابتداء من العام ١٩٦٨ فصاعدا بمساءلة هذه الأصناف.

وما يميز فوكو جوهريا عن نظرائه الماركسيين يتمثل في إيمانه بأن مواضيع المعرفة ـ بما فيها اللغة والتصورات التي تشكل مدلولاتها ـ لا تنتج بواسطة الفاعلين الذين يفكرون، ويتكلمون، وينفذون الفعل بطريقة ذاتية تبادلية intersubjectively (أي ليس باعتبارهم فاعلين مستقلين، وإنما باعتبار كل واحد منهم يتوقف على الآخر في تفاعلاته) [٢].

ويؤمن فوكو بالأحرى، بأن مواضيع المعرفة تنتج من قبل «السلطة» ذاتها التي تجمعها بها علاقة تأسيسية متبادلة.

> «لا بد لنا أن نسلم بأن السلطة تنتج المعرفة [...]، وأن السلطة والمعرفة متلازمتان من حيث الدلالة بطريقة مباشرة: وأنه لا وجود لعلاقة سلطة من دون تأسيس مترابط لحقل من المعرفة. ولا وجود لأي معرفة لا تستلزم ولا تؤسس في الوقت ذاته علاقات السلطة [...]. وباختصار، ليست فعالية موضوع

المعرفة هي التي تنتج مجموعة من المعارف، مفيدة للسلطة أو مقاومة لها، ولكن معرفة السلطة، والعمليات والصراعات التي تقاومها والتي تعتبر جزءا مكونا لها، هي التي تحدد أشكال المعرفة وميادينها» (فوكو، ١٩٧٧ [١٩٧٥]، ص: ٢٧ـ٨).

لقد أسيء فهم فوكو من قبل مناوئيه أحيانا ـ وهم فئة تشكل كل ألوان الطيف الفكري، من ماركسيين إلى محافظين مناهضين للنسبية ـ الذين اعتقدوا أن السلطة والمعرفة، وأي حقيقة أخرى، مجرد بناء أو مفاهيم لغوية. وفي الحقيقة، فنقد فوكو للفكر الغربي يعتبر أكثر دقة وقوة من هذا. إن السلطة التي تُفعّل عبر اللغة، تحدد ثوابت المعرفة التي يمكن استقصاؤها (الإبستيم)، والتي امتد إليها التغيير من عصر إلى عصر. وإن سبب استياء العديد من الناس ممن ألهمهم فوكو هي بداية الأمر من التركيز على اللغة و«السلطة» مرده إلى أن التفكير من حيث «السلطة» المجردة يصبح إلى حد ما ـ وعلى وجه التحديد ـ أمام فهم من يفعل ماذا ولصالح من، وبأية طريقة يتحقق هذا الفعل. ومرد هذا كذلك إلى التفرع الثنائي الخاطئ الذي يقضي ـ في الواقع ـ بعدم أحقية أي فرد في الخيارات وتشكيلها، إلا من هم «في السلطة»، بينما يظن السواد الأعظم من الناس أنهم يشكلون هذه الخيارات، في وقت يعيشون فيه فعلا في ظل حتميات فرضتها عليهم بنيات السلطة. وبما أن هذا يشكل الراي الماركسي في جوهره [٤]، فمن باب السخرية أن يصبح فوكو محط ازدراء ماركسي شديد في الأعوام الأخيرة.

ولقد حاول بيير بورديو Pierre Bourdieu (١٩٣٠ ـ ٢٠٠٢) إعادة ربط الخطين الماركسي والبنيوي، بالتخلي عن الإقصاء البنيوي للإنسان بوصفه «فاعلا أو ذاتا»، فهو يتصور كل مجال من النشاط الإنساني بمنزلة «ميدان» مشحون اجتماعيا، لأن اللاعبين فيه ليسوا بعلامات كما هي الحال في البنيوية في مراحلها الأولى، وليسوا بمظاهر سلطة كما يتصور فوكو، وليسوا بالتصورات الأكثر تقليدية للفاعل الفردي الرومانسي، أو الفاعل الاجتماعي الماركسي، ولكنهم بدلا من ذلك نماذج لما يسميه بورديو بالخاصية البيئية التكوينية habitus وتعرف بـ «مجموع الطباع التي توجه الفاعلين في أفعالهم وردود أفعالهم بطرق معينة» (ثومبسون Thompson، في مقدمة له لبورديو، ١٩٩١، ص: ١٢) [٥]. وتترسخ هذه الطباع فينا منذ نعومة أظفارنا، وتولد

ممارسات منتظمة دون أن يُسيطر عليها من قبل أي «قانون». ويفطن الخاصية البيئية التكوينية فاعل بشري نشيط يُعَرّف بالنسق. ولكنه على كل حال ليس مجرد موضوعه السلبي. ويشارك الفاعل في تبادلات السلطة الرمزية مع فاعلين آخرين، إذ ترتبط الخاصية البيئية التكوينية لكل واحد منهم بباقي الفاعلين في الميدان المشترك.

وقد طبق بورديو (١٩٨٢) هذا الشكل من التحليل تحديدا على اللغة، واستشهد به كثيرا في المؤلفات المتعاقبة لعلم اللغة الاجتماعي. ويصف اللغة المعيارية بنتاج ثم «تطبيعه» ليخلق إمكانات لهيمنة رمزية.

> «يتجلى الأمر المميز للهيمنة الرمزية بالتحديد في أنها تتخذ من أولئك الذين يخضعون لها، موقفا يتحدى التفرع الثنائي العادي للحرية والتقييد. وتعتبر «خيارات» الخاصية البيئية التكوينية (مثل استعمال الراء اللهوية 'r' uvular المعيارية، عوضا عن الراء المكررة 'r' rolled في حضور متكلمين شرعيين) طبائع/نزعات تتشكل أيضا خارج نطاقات الوعي والتقييد، على الرغم من أنها ـ ومن دون أدنى شك ـ نتاج الحتميات الاجتماعية. إن النزوع إلى تقليص البحث عن الأسباب إلى بحث في المسؤوليات، يجعل من المستحيل اعتبار التخويف، الذي هو عنف رمزي غير مدرك لكنهه (إلى درجة أنه لا يتضمن أي فعل من التخويف)، يستطيع أن يفرض في النهاية على شخص مهيأ سلفا (في خاصيته البيئية التكوينية) لأن يشعر به، في حين يُتجاهل من قبل أشخاص آخرين. فلقد بات الآن وبشكل جزئي حقيقة القول إن سبب الجبن يرجع إلى العلاقة بين حالة الشخص أو الشخص المخوَّف (الذي قد ينفي أي نية في التخويف)، والشخص الذي جرى تخويفه. أو بالأحرى، بين الحالات الاجتماعية لإنتاج لكل منهما. ونتيجة لذلك، يأخذ المرء بعين الاعتبار، شيئا فشيئا البنية الاجتماعية برمتها» (بورديو، ١٩٩١، ص: ٥١).

لقد كان تأثير بورديو كبيرا جدا داخل فرنسا وخارجها على السواء. وشمل هذا التأثير على وجه الخصوص فروع العلوم الاجتماعية التي ما فتئت تتردد في أخذ الأشياء إلى مدى أبعد، في اتجاه القوة الفردية، أكثر مما قام

به بورديو في فعله المتوازن المحافظ جدا، الذي يبحث في إيجاد أرضية تلتقي فيها كل من الحرية والتقييد. وتبدو وجهة نظره لمن هم أقل محافظة، بمنزلة «عملية حتمية للإنتاج: فنحن نستطيع أن نتاجر في أشكال من الرأسمال، لكن بورديو ـ وكما يلاحظ جينكينز Jenkins (١٩٩٢) ـ أخفق في إظهار الكيفية التي من خلالها يستطيع الفاعلون التدخل بحق، لتغيير كيفية حدوث الأشياء» (بنكوك، ٢٠٠١، ص: ١٢٦).

ومع ذلك، فبتحويل المنظور من إنتاج الهوية بمفردها إلى استقبال الهوية، نلغي إلى حد بعيد التعارض العادل للتحليل البنيوي، ونخلق فضاء تكون فيه خاصية بورديو البيئية التكوينية نافعة. حتى الفرد نفسه الذي يلغي الهوية بطريقة مقصودة ونشيطة، ويكون قد ولد ونشأ اجتماعيا في ظلها، ويتكفل بهوية جديدة ـ (ومن ثم ينحت القاعدة الأساسية التي تنتصب عليها الخاصية البيئية التكوينية) ـ سيتم فهمه، وتأويله، وقياسه من قبل أولئك الموجودين من حوله، بمقتضى مقامه النسبي داخل شبكة من التسلسل الهرمي الاجتماعي الذي يقوم على توزيع الرأسمال الثقافي. وبتعبير آخر، إن تأويل الهويات التي ينحتها غيرنا لشخصنا، سيتشكل انطلاقا من خاصيتهم البيئية التكوينية. ولعل بنكوك على حق عندما حدد التدخل المقصود، باعتباره الجانب الاجتماعي لسلوك الإنسان الذي أخفق بورديو في تفسيره، وإن كان بنكوك لم يسع لتفسيره. ومن منظور بورديو، لا يطرح هذا العمل الفردي المقصود ـ في واقع الأمر ـ أي نوع من أنواع المشاكل الاجتماعية. بل يتمثل المشكل ـ وعلى العكس من ذلك ـ في كيفية تفسير الأعمال غير المقصودة التي يمارسها الفاعلون، والحالات التي يباشرون فيها سلوكا مدروسا للفعل، ولكن يجدون أنفسهم عاجزين عن بلوغها بسبب «نزعاتهم» القوية.

النظرية الاجتماعية للغة و«التصنيف الذاتي»

في مطلع السبعينيات، طوّر هنري تاجفيل Henry Tajfel (١٩١٩-٨٢) ـ عالم النفس الاجتماعي وزميل هاورد دجايلز في بريستول ـ النظرية الاجتماعية للغة Social Identity Theory، التي أصبحت مع مر السنين التالية لوفاته، النموذج الفريد الأكثر تأثيرا في التحليل اللغوي للهوية. وقد عرف تاجفيل (١٩٧٨) الهوية الاجتماعية بـ «ذلك الجزء لمفهوم الذات

self-concept لدى الفرد التي تشتق من معرفته لعضويته في مجموعة (أو مجموعات) اجتماعية، إضافة إلى الأهمية القيمية الانفعالية ذات الصلة بهذه العضوية». وتندرج على الأقل خمسة افتراضات داخل هذا التعريف المبسط الذي كان يشكل ثورة كبيرة في عهدها. ومفادها:

- أن الهوية الاجتماعية تخص فردا ما وليس مجموعة اجتماعية.
- وأن المرء ببساطة يصنف بحسب مفهوم الذات، وليس بحسب الفئات الاجتماعية.
- وأن مسألة العضوية تعتبر الشيء الجوهري، وليس شيئا يتعلق بطبيعة المجموعة ذاتها.
- وأن ما يُعتمد يكمن في معرفة الفرد بالعضوية، وبالقيمة الخاصة التي يتصل بها. وهي عوامل «ذاتية» تماما.
- وأن الأهمية الانفعالية ليست جانبا تافها من تأثير انتماء الهوية، وإنما هي جزء مكمل لها.

وأبعد من هذا، فقد وضعت نظرية الهوية الاجتماعية قطيعة مع المقاربات الأخرى، ذلك بأنها لم تكن تهتم بالتحليلات التي تعتمد مفهوم «السلطة»، وإنما اهتمت ببساطة بتلك التحليلات التي تعتمد عملية التسلسل الهرمي النسبي الذي يبدو كأننا نفرضه على أنفسنا بدافع غريزي، لا سيما في وضعنا الاجتماعي، باعتبارنا أعضاء ضمن «المجموعات الداخلة» in-groups و«المجموعات الخارجة» out-groups التي ستبلغ مكانة رفيعة جدا في «نظرية التصنيف الذاتي» Self-categorization Theory. وهي النظرية التي طورت بوصفها امتدادا للنموذج الأصلي، خصوصا ضمن العمل الذي قام به ترنر Turner - معاون تاجفيل - (للاستزادة في الموضوع، ارجع إلى أعمال تاجفيل وترنر، ١٩٧٩؛ وترنر وآخرون، ١٩٨٧؛ وترنر ١٩٩١؛ ومغارتي McGarty (وآخرين، ١٩٩٤). وعلاوة على ذلك، فقد اتخذت نظرية الهوية الاجتماعية «الأساطير» الاجتماعية أو «الأيديولوجيات» الاجتماعية التي تخلقها المجموعات لأنفسها - بما في ذلك الأنماط الجاهزة التي يطبقونها من أجل إخراج أعضاء من المجموعة (انظر تاجفيل، ١٩٨١) - بوصفها عناصر مؤسسة جادة للهويات، بدلا من إقصائها كما ألفت محاولات التحليل «الموضوعي» القيام به.

وستظهر فروع من نظرية الهوية الاجتماعية في ما بقي من هذا الفصل وفي الفصول اللاحقة، مثل أهمية تحليل الهوية القومية الذي بحث فيها مايكل بلغ Michael Billig ـ معاون تاجفيل أحيانا ـ وتمت مناقشتها في الفصل الخامس. وبالنظر إلى التأثير السريع الذي خلّفه عمل تاجفيل خلال العقدين الأولين من وفاته، استطاع هذا العمل أن يعيد توجيه التفكير في الهوية ـ سواء بصفة مباشرة أو غير مباشرة ـ من تركيزها السابق على الرؤية الموضوعية للمحلل إلى التجربة الذاتية للفرد المعني بالأمر. ومن حس بالهوية بوصفه تصنيفا مفروضا إلى حس آخر من تصنيف ذاتي منجّز. وقد ساعد التأكيد على التفرع الثنائي البسيط: المجموعة الداخلة والمجموعة الخارجة في تقديم مقارنة منهجية عبر المدى الواسع للهويات التي طبق الناس النظرية عليها. وسيبدأ عدد كبير من الناس في الوقت المناسب، يشعرون بأن هذا التفرع محدود جدا بسبب التركيز على التصنيف الذاتي خصوصا. وعلى الرغم من أن هذا التصنيف كان خطوة حاسمة في نقل تحليل الهوية اللغوية، بعيدا عن السلطة «الموضوعية» للعالِم الاجتماعي وكذا في فهم طريقة الناس العاديين في تأسيس الهوية وإبرازها في لغتهم وخطابهم، فإنه يوحي بأن الهوية كانت بالأساس شيئا ينتجه كل فاعل أو فاعلة لنفسه. كما أنه لا يسمح بمساحة كافية لاستقبال هوية المرء، أو تأويلها من قبل الآخرين، من أن ترى ليس أقل من جزء مؤسس للهوية.

محاولات مبكرة لدمج «الهوية الاجتماعية» داخل علم اللغة الاجتماعي

في الستينيات ظهرت شخصيتان بارزتان شقتا طريقهما نحو تحليل يقوم على الهوية في التعامل مع منطوقات داخل جماعات متعددة اللغات، وجماعات متعددة اللهجات. الشخصية الأولى، هي جون غامبيرز John J. Gumperz. المختص في لغات الهند الشمالية، والمتعاون إلى حد بعيد مع دل هايمز Dell Hymes في تأسيس مقاربة تدعى «الاتصال الإثنوغرافي» ethnographic communication. وقد وضع كتاب اللغة والهوية الاجتماعية Language and Social Identity الذي أشرف غامبيرز على تحريره العام ١٩٨٢ حدا فاصلا في هذا الموضوع بدءا من عنوانه على وجه الخصوص. كما ركزت المقالات التي أدرجت في هذا الكتاب على تحليل المحادثات التي ينتمي أصحابها إلى «ثقافات» مختلفة، إذ كانت الانشطارات الثقافية في معظم الحالات إثنية. ولكنها تُبنى على

الجنوسة في إحدى المقالات، وعلى الجنوسة والإثنية أو المرقية مجتمعتين في مقالة أخرى كتبها تانين. وبالنظر إلى عنوان الكتاب، كان من المفاجئ أن تنعدم أي إشارة إلى نظرية الهوية الاجتماعية، وإلى أي عمل سيكولوجي، باستثناء النزر اليسير، وإن كانت منحة مؤسسة الولايات المتحدة الوطنية للصحة العقلية هي التي مولت مشروع جمع تلك المقالات ضمن كتاب (انظر مقدمة الكتاب، ص: x). وقد عرض غامبيرز مقارنته بوصفها شكلا من أشكال الأنثروبولوجيا الاجتماعية. ومع ذلك، ينتسب التقليد الذي جرى تمثيله في الاستشهادات إلى علم اللغة أو علم اللغة الاجتماعي. ويضم شخصيات بارزة عديدة ذُكرت سلفا. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يدفع - بشكل ملحوظ في بعض النواحي - بالبحث في اللغة والهوية نحو الأمام. فيبقى مع ذلك وفيا تماما للمفاهيم السوسيرية الأساسية في شأن أولوية النسق اللغوي، بوصفه شيئا مفروضا على المتكلمين الذين يُعتبرون نسبيا مستخدميه السلبيين، فيبدأ الكتاب بمطالبته.

> «بالبحث في تطوير مقاربات سوسيولغوية تأويلية للتفاعل البشري الذي يفسر وظيفة الظواهر التواصلية في ممارسة السلطة والسيطرة، وفي إنتاج وإعادة إنتاج الهوية الاجتماعية. وطرحنا الأساسي يقدر أن العمليات الاجتماعية هي عمليات رمزية. ولكن يقدر أيضا أنه ليس للرموز معنى إلا في ظل علاقتها بالقوى التي تتحكم في الانتفاع بالموارد البيئية وتخصيصها» (غامبيرز وكوك غامبيرز، ١٩٨٢، ص: ١).

وقد خيم ظل فوكو وبورديو (الذي استُشهد به هنا) على الإشارات إلى «السلطة والسيطرة» و«الإنتاج وإعادة الإنتاج». إن «الظواهر التواصلية» تلعب دورا مهما في ممارسة سلطة وسيطرة مُنحت سابقا. وليس ثم إمكان مقترح بشأن مساعدتها الفعلية في تشكيل السلطة والسيطرة. وإن الإصرار على أن «الرموز ليس لها معنى إلا في ظل علاقتها» بقوى من السلطة - وهي الفكرة التي انبثقت مباشرة عن فولوشنوف (الذي لم يُستشهد به في هذا الكتاب). لا تترك أي مجال للأفراد لأن يؤولوا، ويتصوروا، و«ينجزوا» معنى رمزيا.

واستجابة للداعي الأساسي الذي كان من دون أدنى شك، وراء الدعم المالي من قبل الصحة العقلية، يزعم الكتاب أن «المجتمع الصناعي البيروقراطي الحديث [...] يعمل على تنمية أهمية عمليات الاتصال». بينما يتميز المجتمع الحديث في الوقت

ذاته، «بتنوع ثقافي وإثني غير مسبوقين». «وعندما تكون الخلفيات مختلفة، يمكن أن تصاب الاجتماعات بكارثة سوء الفهم» (المرجع السابق نفسه، ص: ٢). وخلاصة القول، أن ثمة أزمة في الهوية الاجتماعية ترجع إلى أن البيروقراطية تسعى إلى أن نصير أكثر اتكالا على الاتصال، في الوقت الذي تحد الحركية السكانية من هذا الاتصال. ومن ثم، فإن التحليل التخاطبي المتبع في كتاب اللغة والهوية الاجتماعية يهدف ضمنيا إلى حل مشكل اجتماعي كبير عبر تحديد العقبات التي تحدث بين الناس ذوي الهويات المختلفة. وما جعل من هذا البحث إرثا ثابتا ـ (وقد يكون هذا غير متوقع)، هو نتائجه بدلا من طروحاته المنهجية:

> «عادة ما ننظر إلى الجنوسة، والإثنية (العرقية)، والطبقة الاجتماعية على أنها ثوابت معطاة، وحدود نخلق بداخلها هوياتنا الاجتماعية. وتبرهن دراسة اللغة بوصفها خطابا تفاعليا على أن هذه الثوابت غير قادرة كي تُتخذ كأمر مسلم به، ولكنها تنتج من الناحية الاتصالية» (المرجع السابق، ص: ١).

ولم يكتب للمضامين الكاملة لهذه المقولة أن تُتبنى في الدراسات التي احتواها هذا الكتاب. ولكن كان عليها أن تنتظر التزاما أكثر اكتمالا من اللغويين، تصاحبه تطورات في علم النفس الاجتماعي.

أما الشخصية الأخرى التي أشير إليها في مستهل هذه الفقرة من هذا القسم، فهو روبرت لوبيج Robert Le Page من جامعة يورك الذي كتب مجموعة من المقالات في نهاية الستينيات، تعبر عن استيائه من مناهج علم اللغة الاجتماعي الذي نشأ من محاولته تطبيق تلك المناهج في تحليل الإنجليزية الهجينة Creole الكاريبية. وقد بين عمل لابوف كيف يستعمل المتكلمون التنوع اللغوي للإشارة إلى هوية خاصة، ذات أساس إثني، او اجتماعي، أو جنوسي. غير أنه بحسب رأي لوبيج لم يقدم مجالا لفهم كيف تحدث الإشارة إلى هويات متعددة في أن واحد. وحاول لوبيج أن يقوم بهذا من خلال تحليله لكل تلفظ يصدر عن متكلم ما باعتباره «فعل هوية» act of identity يمكن تأويله انطلاقا من أبعاد متعددة تظهر مجموعة من الانتماءات المعقدة جدا. ويشدد لوبيج على مرونة الهوية اللغوية، وسعة الخيارات المتاحة التي تشير إليها. ولعل التشديد على هذه المرونة هو ما ميّزه عن لابوف أكثر من جهازه الوصفي الحقيقي. على الرغم من انتقاداته القوية الموجهة لعلماء اللغة الاجتماعيين أحيانا، ليس لمجرد كونهم غير عمليين، ولكن لأنهم متعصبون عرقيا أيضا. (انظر لوبيج، ١٩٧٧، ص:

١٧٢، ملروي، ١٩٨٠، ص: ٢٠٢). كما أكد لوبيج على دور أفعال الهوية في الحفاظ على تماسك لغة ما، وضرورة التركيز عليه على الرغم من القوى المساهمة التي تسعى إلى تبديده.

وكان كتاب «أفعال الهوية» الذي اشترك لوبيج في تأليفه مع أندري تابوري - كيلر Andrée Tabouret-Keller العام ١٩٨٥، أول كتاب يعالج موضوع الهوية اللغوية بتفصيل. ولما كان عنوان الكتاب الفرعي: «مقاربات تعتمد الكريول في التعامل مع اللغة والإثنية Creole-based approaches to language and ethnicity»، فقدم في نهاية فصوله على وجه الخصوص نموذجا لفحص كيف تبنى الإثنية في الخطاب الذي أصبح، في اللحظة الراهنة، طبيعيا جدا في تحليل أي هوية لغوية، وليس هويات لغوية هجينة فحسب. والذي سيجعل من العام ١٩٨٥ عاما في غاية الروعة في دراسة هذا الموضوع، هو ظهور عمل «اللغة، والمجتمع، والهوية»، الذي أنجزه عالم النفس الاجتماعي الكندي، جون إدواردز John Edwards وهو الذي سيقدم التركيب العام الأول لمقاربات اللغة والهوية المتطورة داخل علم اللغة وعلم النفس الاجتماعي. وسيطبقها مباشرة على قضايا تهم الصراع اللغوي والتحول اللغوي عبر أرجاء الكرة الأرضية. ومما لاريب فيه، أن هدف إدواردز كان مختلفا جدا عن هدف غامبيرز ولوبيج، بما أن سعيه لم يكن فحص المحادثات، أو نصوص أخرى، قصد الحصول على دليل لغوي مباشر للعلاقة الموجودة بين اللغة والهوية. فقد كان اهتمامه ينصبُّ بالأحرى، على تفحص قضايا اجتماعية وسياسية كبيرة، إلى جانب تفحص مضامينها - (بما في ذلك المضامين التربوية) - بالنسبة إلى أولئك الذين يتحدثون لغات الأقليات. وقد أولى اهتماما خاصا بإحياء الغيلية الإيرلندية Irish Gaelic، حين جعلها مادة دراسية إجبارية في جمهورية إيرلندا. ولربما كان لهذه الخطوة نتيجة عكسية لا تمتُّ إلى تحسين حيوية اللغة بصلة، بما أن فرض لغة ما لتكون مادة مدرسية يبدو السبيل الأنجع لضمان استياء جيل الشباب منها ورفضه لها. ومع ذلك، فقد أوضح إدواردز أن الهوية القومية الإيرلندية تبقى قوية ونابضة بالحياة، وأن الدور الرمزي الذي يلعبه التمسك المشترك بعدد صغير من الكلمات الإيرلندية - (ونخص بالذكر هنا المؤسسات الحكومية والقومية، على سبيل المثال) - يبدو كافيا لتلبية الحاجة لمكون لغوي أساسي للهوية القومية. وذكر إدواردز أنه من غير المنطقي أن نتوقع من أناس القيام باستثمار ثقافي ضخم ومطلوب، من أجل تمسك شامل بلغة «موروثة»، إذا كان الأمر يقتضي أن شكلا جد محدود من التمسك اللغوي هو الذي سيسخر من أجل تحقيق الغاية الوظيفية.

نظرية الاتصال في الهوية

لقد أظهرت قائمة المصطلحات البديلة للهوية في الفصل الأول، كيف كان التقليد المنصب كله على التفكير فيها والحديث عنها، منحيزا بقوة في اتجاه هوية الذات، لأنه الشكل الوحيد من أشكال الهوية الذي كان يحظى بالاهتمام الخاص. ومن المحتمل أن ينتج هذا التحيز للحقيقة التاريخية التي تفيد بأن هذا التقليد بدأ مع محاولات تسعى إلى تحليل ما أسماه سماتس «الوعي بالذات» وهو نفسه ينحدر من تساؤل استبطاني introspective inquiry سابق حول طبيعة الروح. ومع ذلك، يعد من المفاجئ أن يركز أولئك الذين يتحدثون عن «الهوية الاجتماعية» أنفسهم على هذه الأدوار الاجتماعية التي يلعبها أفراد ما وكيف يمكنها أن تبني تصورهم لذواتهم وتقيدها، في حين يولون اهتماما ثانويا جدا بالهوية التي يمتلكونها عن الناس الآخرين الذين يشكلون عالمهم الاجتماعي.

وفي علم النفس الاجتماعي، كان مايكل هشت Michael Hecht نشيطا خلال العقد الأخير في تحويل تحليل الهوية، من مفهوم الذات، نحو فهم كيفية بناء طبقات متنوعة من الهوية خلال التفاعل مع الآخرين. وقد تم الإفصاح بوضوح عن «نظرية الاتصال في الهوية» لهشت في عمله الذي نشر العام ١٩٩٢، مع «المنظور المنفصل إلى طبقات» الذي أضيف إلى عمل بولدوين وهشت ١٩٩٥ . وتميز هذه النظرية بين أربع طبقات أو مستويات من الهوية:

- هوية شخصية أو مفهوم الفرد للذات. و بما أن هذا المستوى من الهوية غالبا ما يدعى «مفهوم الذات»، فإنه يضبط ماهية الشخص الذي يظن أنها تمثل وجوده.
- هوية معبّر عنها enacted identity أو كيف يُعبر عن هوية ما في اللغة والاتصال.
- هوية علائقية relational identity أوهويات يشير بعضها إلى بعض.
- هوية مشتركة communal identity أو هويات تُعرف من قبل الجماعات.

(هشت وآخرون، ٢٠٠١، ص: ٤٣٠، تمت إضافة الحروف الطباعية المائلة).

ويمثل الفرق بين الهوية الشخصية والهوية المعبر عنها - أي الفرق بين ماهيتي في تصوري وماهيتي في تصور الآخرين - تقدما واضحا نحو الدفع بالبحث في اللغة والهوية نحو الجهة المتوجهة إلى الآخر. واظن أنه يمكن أن تظهر ملامح

هذا الفرق أكثر في الاعتراف بأن «الهوية المعبر عنها» وضعية تختلف تماما عن وضعية الهوية الشخصية. ذلك لأنها (أي الهوية المعبر عنها) تفتقر إلى ما ندعوه بالمؤوِّل صاحب الامتياز privileged interpretr فضيما يتصل بالهوية الشخصية، وكما يعرفها هشت، فهي تعتبر الذات السلطة الفريدة القادرة على تحديدها. أما بالنسبة إلى الهوية المعبر عنها، فتنعدم فيها هذه السلطة - أي أن كل شخص يصادف فردا، يشكل تأويله الخاص به. إن مفهوم «هوية معبر عنها» موحدة هو تجريد يفرض مظهرا خادعا للوحدة على ما يَستدعي أن يكون تنوعا في التأويلات، إذ إن كل تأويل يتعلق بالفرد المؤوِّل تماما، مثلما يتعلق بالفرد المؤوَّل.

ولكن لماذا كان على عالم النفس الاجتماعي التعامل مع تجريدات مثل «الهوية المعبر عنها»؟ إن وراء هذا سببا واضحا جدا، ودافعا قويا. كما أن وراء هذا، في تقديري، سببين آخرين أكثر دقة. السبب الأول، يكمن في نفور العلوم الاجتماعية من مفهوم التأويل الفردي المقصود الذي تعتبره مجالا تختص العلوم الإنسانية بدراسته. ويتصور «العلم» الاجتماعي أن هدف وجوده تحديد ما يحدث فعلا، عندما نخادع بأننا نقوم بخيارات مقصودة. ولا يعني هذا النيل من طرح هشت، وإنما هو اعتراف بأن تجريدا من قبيل «الهوية المعبر عنها» قادر من حيث البناء، على أن يحظى بقبول داخل جماعة من العلم الاجتماعي الذي يتجنب بديل التأويلات الفردية المفرطة. وبعبارة أخرى، إنها خدعة ضرورية لأسباب استراتيجية تتعلق بالتخصصات الأكاديمية لعلم الاجتماع، استمرت إلى حدود وقت أصبحت فيه العلوم الاجتماعية مستعدة لفهم الحقيقة التي كان يخفيها التجريد.

أما السبب الثاني الذي أشرت إليه، فيفيد بأن الهوية المعبر عنها، بوصفها مفهوما موحدا، تقدم ثقلا موازيا للهوية الشخصية، ومفيدا لإزاحة هذه الشخصية من مكانها الذي يتمتع بامتياز فريد. وقد لفتُّ النظر إلى أن الهوية المعبر عنها: أي من أنا في تصور الآخر، تفتقر إلى مؤوِّل مميز، بل إن لها مؤولا مجردا من الامتياز على نحو فريد هو الذات. وإنني آخر شخص مرجح يعرف ماهيته في تصور الآخرين. وهو قد يطابق تصوري لماهيتي أو يخالفه، لأن مسألة من أكون في مخيلاتهم تعيق رأيي/تصوري. ومرة أخرى، لا يمكن إنكار الأهمية الاستراتيجية في سبيل تأسيس هوية غير مقتصرة على هوية شخصية. ولكن بمعنى أو بآخر، نعيد التأكيد - وبخفية - على الأهمية الفريدة التي تحظى بها الهوية الشخصية بتوجيه تحليلنا نحو هذا الاتجاه. والحق،

فلا تزال الهوية المعبر عنها في تصور هشت شيئا تبدعه الذات و«تعبر عنه». وبهذا تبقى الذات في مركز الصدارة. وأخيرا، تدعو الحاجة إلى تفسير الذات على أنها مُنتِج ومستهلك لهوياتها المعبر عنها. وهي مسألة تجربة مشتركة، أن يكون بمقدور الناس الإفصاح بوضوح وتلقائية عن كيفية رؤية الآخرين لهم، وعن كيفية نجاحهم في حالة اجتماعية خاصة. وهذا علاوة على ذلك، جزء مهم من «مفهوم ذواتهم»، يجعل الفرق بين ما هو شخصي وما هو معبر عنه غير واضح.

ويتمثل السبب الثالث للتعامل مع تجريدات الهوية المعبر عنها، في كون العلوم الاجتماعية لم تخفق فقط في الاعتراف بغياب مؤوِّل مميز، ولكنها تتضمن اعترافا بوجود هذا المؤول الذي هو عالم النفس الاجتماعي الذي يتولى التحليل. ومرة أخرى، فثمة عوامل اكاديمية سوسيولوجية تعمل في شكل معايير مفروضة من قبل محكمي المجلات ومحرريها، وهذا قد يتطلب من المرء تبني موقف يزعم فيه الإحاطة بكل شيء. وإن مفهوما من قبيل الهوية المعبر عنها الذي يخوِّل لمحلل ما تحويل أي شيء يراه إلى شيء ممكن رؤيته، يعزز من المعرفة الكلية omnicience ما دام في استطاعة المرء الإفلات من العقاب.

وهذا ينقلنا إلى «الهوية العلائقية» لهشت التي تأتي في ترتيب مختلف تماما عن الهويات الأخرى المدرجة في القائمة، لأنها جزء من كل واحدة من هذه الهويات، وليست بديلا لأي واحدة منها. فكل هوية ـ ولو على الأقل جزئيا ـ علائقية ومبنية بحسب صلتها بالهويات الأخرى. وحتى عندما نعتبر هوية ما علائقية بكل معنى الكلمة ـ أي عندما يُعرِّف شخص ما أو مجموعة، استنادا إلى الاختلاف عن شخص أو مجموعة أخرى ـ سوف تصنف هذه الهوية باعتبارها شخصية/معبرا عنها أو مشتركة.

وبتعريف «الهوية المشتركة» بوصفها هويات تعرف من قبل الجماعات، فإن هشت يطرح غموضا: هل يمكن لهوية فرد خاص، كما تعرفها جماعة ما، أن تكون هوية مشتركة؟ مثلا، هل يمكن للتصور الشعبي لهوية المغني مايكل جاكسون أن يكون هوية مشتركة، أم هوية معبرا عنها؟ إن الطريقة التي يوظف من خلالها هشت ومعاونوه مصطلح الهوية المشتركة توحي بأن تعريف هذا المصطلح يجب أن يكون «هويات كما عرفت بالنسبة للجماعات». وعلى كل حال، فإن تعريفهم يثير تساؤلا محيرا: كيف يصبح أي شيء معرفا من قبل جماعة ما؟

ولفهم هويات الجماعة، لا بد لنا من فهم كيف يثبت الأفراد تلك الهويات التي يجب أن ننظر إليها في المقام الأول.

تحظى الذات أو الذوات التي يريد الفرد أن يسقطها بأهمية قصوى. ولكن فهمنا لها محدود جدا، إذا ما حاولنا فصلها عن كيفية استقبال هوية هذا الشخص وتأويلها ـ أو«قراءتها»، وهو المصطلح الذي استخدم في الفصل السابق ـ من قبل الآخرين. إن الفرق هنا شبيه بذلك الشيء الموجود بين مقاربتي «المعنى الذي يتوخاه المؤلف» authorial intent، ومقاربات القارئ في الاستجابة للمعنى النصي الذي يقوم على آراء متعارضة بشأن مكمن المعنى الحقيقي». هل يوجد مكمنه في ما يعنيه مؤلف ما (أومتحدث) في قوله، أو في ما يعنيه لدى الاستماع إليه؟ مهما كان الجواب الذي نختاره، فإننا لن نعدم مشاكل ضخمة (لمعالجة جيدة، انظر لسيركل Lecercle (١٩٩٩). وتبدأ هذه المشاكل بالنسبة إلى المعنى الذي يقصده المؤلف، باستحالة تحديد ما «يعنيه حقيقة» غيرنا، مع اعتبار أنهم قد يكذبون، أويلجؤون إلى الغموض عن قصد، أو قد لا يدركون هم أنفسُهم ما يعنونه بالضبط، إذا كانت تتحكم، مثلا في هذا المعنى دوافع غير مقصودة. أما بالنسبة إلى استجابة القارئ، فيتجلى المشكل في كيفية منع أي تعبير من نفاذ المعنى إليه، مهما يكن تصميم أي شخص على قراءة ما فيه. ولكن فصل القراءات المعقولة عن غير المعقولة يقوم أساسا على تأويلاتنا بشأن ما إن كانت قراءة ما تندرج فعلا في مجال تلك المعاني التي يمكن للمؤلف أن يتصور معناها أو يوافقه، وهذا أمر تخميني على نحو متأصل. والشيء الجوهري يتمثل في الاعتراف بأن المعنى الذي يتوخاه المؤلف واستجابة القارئ على حد سواء، لهما وظيفة في تحديد المعنى. والشيء نفسه ينطبق على الهوية: فكل من هوية الذات والهويات التي يشكلها الآخرون لنا تسمى إلى صنع هويتنا «الحقيقية».

وقد يكون من الإنصاف القول إنه خلال الأربعين عاما الماضية خاب أمل علماء اللغة الاجتماعيين وعلماء النفس الاجتماعيين، أمام إخفاق الآخرين في تزويدهم بنموذج ملائم يُسخَّر في بلوغ غاياتهم. ومع ذلك، واعتبارا للفترة الفكرية الرائعة جدا التي امتد عبرها كل طرف خلال تلك العقود، فمن غير المؤكد وجود أي نموذج ملائم، على الأقل على المدى البعيد. ويبحث القسم التالي في أحد التحولات التي جرت، فكانت أكثر إثارة، كما يدرس مسألة التوازن الفكري الذي يضمن الصيرورة.

الماهوية والبنائية

توجد على المستوى المنهجي - إلى حد ما - مقاربتان متقابلتان للغة والهوية خلال العقود الأخيرة. الأولى، تهم المقاربة «الماهوية» essentialist التي تعد فيها أمور مثل الجنسية، والطبقة، والجنس، والجنوسة أشياء معطاة. وفي ضوئها يمكن أن يحلل سلوك الناس اللغوي. وعلى الرغم من سيطرة هذه المقاربة حتى التسعينيات، فإنها كانت دائما تتعايش مع مقاربة «بنائية» أخرى تهتم أكثر بالهوية بوصفها «عملية» يشكل الأفراد فيها انتماء فئويا لأنفسهم، ولآخرين يحتكون بهم على حد سواء.

وقد ذُكر في الفصل الأول أنه في مطلع العام ١٩٢٦، كان سمانس يجادل في فكرة أن الذات بناء أو معنى اجتماعي له أساس في اللغة. وبفكرته هذه، سيضع نفسه داخل تقليد مبجل. وقبل ذلك في العصور الوسطى، ظهرت خلافات بين «الواقعيين» - الذين اعتقدوا أن التصورات المجردة، بما فيها أسماء أصناف الأشياء مثل المناضد والكراسي، هبة من الله، وبناء عليه، فهي طبيعية في صفتها الأساسية - ومعتنقي الاسمية nominalists (*) الذين اعتقدوا أن هذه التصورات من مبتكرات الإنسان، ولذلك، فهي اعتباطية. وقد عزف هذان الرأيان عن الجدالات القديمة حول طبيعة اللغة، وضَمِنا أن النقاش حول ما إذا كانت اللغة أساسا موهبة طبيعية، أوابتكارا بشريا سيختفي بكل تأكيد في الألفية الثانية.

وإن أي مقاربة للغة تنظر إلى ما وراء «حديث الناس» لإيجاد نسق ينظم ما يقولون يمكن أن توصف على أنها شكل من الماهوية التي تعتبر المرادف الحديث للواقعية التي ظهرت في العصور الوسطى، وللنزعة الطبيعية القديمة. وبتعبير أدق، نستطيع أن نعتبر النزعتين الواقعية والطبيعية شكلين من الماهوية، كما نلاحظ أن بعض الماهويين المحدثين، وإن لم يكونوا جميعهم، يشغلون مناصب تولاها واقعيو العصور الوسطى والطبيعيون القدامى. ولكن ما يوحّد الماهويين اللغويين هو اعتقادهم أن على وظيفة اللغة العميقة والحقيقية أن تجد مكانا لها خارج إرادة الإنسان، لتستقر عادة في نسخة من العقل اللاواعي، أو في «المجتمع» الذي يُفهم - مع ذلك - على أنه نوع من قوة

(*) النزعة الاسمية: مذهب فلسفي مفاده أن المدلول أو المفهوم المجرد ليس إلا اسما مرافقا لصورة فردية [المترجم].

شبه ميتافيزيقية منبثقة عن مجموعات من الناس وفوق إرادة الفرد، أو في تشكيلات الأنساق السيميائية نفسها التي تعتبر مرة أخرى نوعا من عالم ميتافيزيقي غامض.

وتعتبر الماهوية اللغوية ـ التي تضم عمليا كل علم اللغة الحديث ـ خطابا جذابا ينشأ عن خطوة بلاغية مثيرة للاهتمام عندما يعاد تصور النحو بوصفه حقيقة فعلية في ذهن الإنسان. إذ نشأ تاريخيا كأداة لتدريس اللغة. ولا يعرف بوضوح متى نشأت هذه الخطوة على وجه الدقة، ويجوز أن تكون قد نشأت في القرن السابع عشر عندما أعيد تأويل كتب النحو والصرف لاشعوريا في القرون الوسطى بعد ديكارت، على أنها تحلل العقل ذاته، وليس مرآته. وعلى كل حال، فلقد تمت إعادة هذه الخطوة من قبل أجيال متعاقبة من اللغويين في كل من القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، والقرن العشرين. وكانت لها نتائج مثيرة للاهتمام، ولو أنه من غير الممكن أن تستأثر على نحو معقول بمقاربة «علمية» للغة.

وقد حاول اللغويون الذين ذكروا آنفا خلال النصف الأول من القرن العشرين، تحويل اهتمام المتكلمين بالنحو، وإقناعهم بذلك، وخاضوا معركة ضد كنه الماهوية، ليفضي بهم الأمر مع ذلك إلى وضع ماهوية أخرى في مكانها. فعلى سبيل المثال، حاول سابير في كثير من كتاباته تأطير دراسة اللغة ضمن سياق أكثر اكتمالا «لشخصية» الإنسان. ففي الفقرة التي استشهد بها في صفحة ٨٥ سلفا، رأينا كيف كان يتصارع سابير من أجل أن يتخلص من رأي ماهوي للغة، وقد نجح جزئيا. إلا أنه لم يستطع التخلص كليا من بعض المفاهيم الماهوية:

> «إن اللغة قوة كبيرة من عملية التنشئة الاجتماعية [...].
>
> وإن الحقيقة الفريدة للكلام المشترك تُسخَّر بشكل خاص كرمز فعال من التضامن الاجتماعي لدى أولئك الذين يتكلمون اللغة.
>
> وإن القيمة الأساسية لصوت المرء، والأنماط الصوتية للكلام [...] كل ذلك مؤشرات كثيرة جدا ومعقدة للشخصية.
>
> وإن إحدى الوظائف المهمة جدا للغة هي إعلانها باستمرار للمجتمع عن المكان السيكولوجي الذي يشغله كل أعضائه».

ومن وجهة نظر العصر الحاضر، تبقى هذه الفقرة ماهوية في اعتبارها اللغة، في المقام الأول، قوة تمارس على الناس بمفردها إذا جاز التعبير، وثانيا، في تعاملها مع الوقائع اللغوية بوصفها رموزا ومؤشرات لحقيقة اجتماعية أو سيكولوجية يبدو وجودها مستقلا عنها. فالبنائيون لن يقولوا «إن الحقيقة الفريدة للكلام المشترك تسخر بشكل خاص كرمز فعال من التضامن الاجتماعي لدى أولئك الذين يتكلمون اللغة». فبداية، لن يعتبروها حقيقة «فريدة»، وسيعتبرونها بعمق شديد جزءا من أي مقياس ممكن تصوره «للتضامن الاجتماعي» الذي يعد رمزا لها. وإن الأنواع الثمانية للسمات اللغوية التي أدرجت في الفقرة الثانية لم توصف على وجه الدقة، على انها «مؤشرات كثيرة جدا ومعقدة للشخصية»، في حين أن «الشخصية» صنف مجرد نستعمله للتعبير عن معنى شمولي لكيفية تأويل هوية شخص ما وتأويل تركيب عاطفي، وإن السمات المطروحة جزء مما نؤول. وليس كافيا القول إن اللغة «تعلن باستمرار للمجتمع عن المكان السيكولوجي الذي يشغله كل أعضائه». في حين تعتبر اللغة في واقع الأمر، محورية في تأسيس الفرد نفسه ومكانه في النظام الاجتماعي، و«المكان السيكولوجي» يعني في الحقيقة أي شيء، وليس مجرد مناغاة نفسية psychobabble.

ومع ذلك، شعر سابير بالخطأ لما جرد اللغة من كل هذه الاهتمامات جملة وتفصيلا. ولئن عمّر بيل Yale طويلا، لأصبح في مطلع الأربعينيات مهدا لمقاربة بنائية للغة. ولكن التقليد السابيري بقي حيا في علم اللغة الأنثروبولوجي بشكل واسع، عبر عمل ديل هايمز الذي كان يدرس في هارفرد في الخمسينيات، مثلما هو الشأن بالنسبة إلى شخصيات رئيسة أخرى ستتم مناقشتها فيما يأتي. وقد أعاد أخيرا جون ستون Johnstone (١٩٩٦) إحياء الاهتمام الجاد بالدراسة اللغوية للفرد.

ثم إن الدراسات التي تهتم بكيفية تشكيل الأطفال للغتهم و«لعالمهم» بأكمله في تفاعلهم مع آبائهم، وأوليائهم، وأقرانهم ترجع على الأقل إلى القرن التاسع عشر، لتبلغ ذروتها من حيث الصيغة النظرية والملاحظة التجريبية في العشرينيات والثلاثينيات. وبعد ذلك مع عمل بياجيه (انظر الفصل الأول، ص: ٢٠). و قام كل من بياجيه وعالم النفس الروسي لف، فيغوتسكي Lev S. Vygotsky بخطوات مهمة نحو البنائية. وستساعد انتقادات فيغوتسكي

المباشرة بياجيه (١٩٢٩) في هذه الناحية إلى حد كبير. ولقد انتقد فيغوتسكي بياجيه لوصفه فكر الأطفال وكلامهم أنويا أو ذاتيا egocentric في غالبيته، واعتبر الجوانب الاجتماعية تطورات ثانوية. وفي مقابل هذا، أدلى فيغوتسكي برأيه على النحو التالي:

«إن الوظيفة الرئيسة للكلام لدى الأطفال والبالغين على السواء هي التواصل، وبالضبط، التواصل الاجتماعي. ومن ثم، فإن كلام الطفل في مرحلته المبكرة جدا اجتماعي بشكل أساسي [...]. وفي مرحلة معينة من عمر الطفل، ينقسم كلامه الاجتماعي بوضوح تام إلى كلام ذاتي فردي وكلام تواصلي. أما الكلام الذاتي، فيظهر عندما يحوّل الطفل أشكالا اجتماعية تعاونية من السلوك إلى مجال من الوظائف النفسية الشخصية الداخلية [...]. وإن الكلام الذاتي الذي ينشق عن الكلام الاجتماعي العام يؤدي، في نهاية المطاف، إلى الكلام الداخلي inner speech الذي يسخر في التفكير الانطوائي autistic والمنطقي على حد سواء» (فيغوتسكي، ١٩٦٢، ص:١٩).

وقد استعمل الفيغوتسكيون الجدد بقيادة جيمس لانتولف James Lantolf (انظر مثلا فراولي ولانتولف، ١٩٨٥، لانتولف، ٢٠٠٠) ـ تصريحات مثل هذه لتكون الأساس في بناء نظرية تعلم اللغة غير الماهوية، لا تعتمد على أي نوع من موهبة عقلية في الفرد، وإنما تهتم بدلا من ذلك بالتبادل والتفاوض الاجتماعيين. واضعة هذه النظرية إلى حد بعيد في إطار زوج بنائية. أبعد في الواقع من فيغوتسكي نفسه الذي قرأ (الفيغوتسكيون) له بشغف مفرط، رغبة منهم في تمجيده لكونه إرثا فكريا. ولم يتحدث فيغوتسكي حقيقة عن البناء الاجتماعي للكلام أو اللغة، بل بقي يركز على الفرد الذي يُصدر الكلام، ويجادل فقط في ما إذا كانت غاية هذا الكلام ذاتية أو اجتماعية. إنه يتحدث، في الواقع عن القصد من وراء توجيه الطفل المتحدث كلامه إلى نفسه أو إلى شخص آخر. ومن الملاحظ أن فيغوتسكي يتحدث عن الطفل، وهو يقدم منظورا غير فرداني، بل يقدم عكس ذلك منظورا مناقضا له. وطرحه يفيد بأن كل الأطفال سواسية بالنظر إلى مايقصدونه من كلامهم خلال فترة مبكرة من عمرهم. طبعا عندما لا يمكن أن يطلب من الأطفال تأكيد قصدهم، ليتوقف كل شيء على تأويل

الملاحظ. الا يمكن اعتبار كلام بعض الأطفال في فترة مبكرة من عمرهم ذاتية فردية بالأساس. في حين يعتبر كلام الآخرين تواصليا في الأصل. إن الإخفاق في ترك هذا الإمكان مفتوحا لهو إشارة إلى نوع من أنواع الماهوية. وإن المرء ليتساءل جادا عما إذا كان لمحاولة تمييز الكلام مدلول في ضوء هذه الثنائية؟ الا يمكن للكلام أن يكون، أويستطيع أن يكون، ذاتيا وتواصليا في وقت واحد؟ الا يمكن اعتبار التقسيم الحاد الذي يقول فيغوتسكي إنه يبرز بين هذين النوعين فرضه منظور المحلل؟

ولكن السؤال الأكبر الذي قد يرغب البنائيون في طرحه على فيغوتسكي هو: لماذا يُركِّز فقط على الشخص أثناء حديثه؟ ومهما تكن «الوظيفة الأساسية للكلام»، فإن الوظيفة الأساسية للغة هي لا محالة تأويل ما يقال لنا من قبل الغير. لا أحد يجادل في أن التأويل والتعلم أمران منفصلان. وإن أساس الحجة الدامغة التي دفعت إلى التركيز على الكلام بمفرده منهجي، يقضي بأن الكلام أمر يمكن إدراكه وتسجيله، ومن ثم إثباته بشكل مباشر، في حين أن التأويل مسألة تتعلق بتجربة ذهنية خاصة. وبتناول لغة البالغين، يمكن لنا أن نجد دليلا للتأويل في الخطاب نفسه وفي الأفعال المصاحبة له. ويمكن أيضا أن نسأل المفحوصين: ماذا يقصدون بمنطوق خاص، أوماذا يفهمون منه؟ ولو أننا لا يمكن بالضرورة أن نقبل بأجوبتهم على علاتها. أما بالنسبة إلى لغة الطفل، فنقتصر تقريبا على الأفعال كمصدر دليل لتأويلنا. ولكن، لاحظ أن فيغوتسكي لم يأخذ نصيبه من هذه الهموم المنهجية. إذ إنه يقرأ دون خجل حوافز في الكلام المبكر للأطفال الذين يلاحظهم. وبعد ذلك يعلن عما يوجد في الحالة العقلية الداخلية «للطفل».

وفي نهاية الخمسينيات، بدأت تظهر جهود في مواجهة أعمال بياجيه، وفيغوتسكي، وآخرين من علماء نفس النمو والعمل على ضمها إلى النتائج التي توصل إليها علم اللغة البنيوي. وجائز أن تكون تلك الجهود قد جرت قبل هذه الفترة، باستثناء بعض منها الذي ظهر من محض الصدف التاريخية. ويعتبر رومان جاكوبسون Roman Jakobson اللغوي الأكثر اهتماما بلغة الطفل في الفترة الممتدة من الثلاثينيات إلى الخمسينيات (١٨٩٦-١٩٨٢)، كما يعد المعاصر الأبرز لبياجيه والسائر على نهجه. فبمجرد أن استقر به المقام في هارفرد في نهاية الخمسينيات، وضعته مواهبه - بوصفه شخصية فكرية جذابة لا تعترف

بأي حدود أكاديمية - في مركز رئيس داخل مجموعة مرتقبة من الباحثين في علم النفس الذي يستكشف لغة الطفل والذكاء من خلال توجه مابعد بياجيه، وداخل مجموعة لغويين تخلوا عن القيود السلوكية البلومفيلدية، مقابل التحقيق العلمي في الأشياء التي لا يمكن رؤيتها، بما فيها العقل البشري.

ومن بين أولئك الذين كانوا موجودين في هارفارد خلال ذلك الوقت، نذكر جيروم برونر Jerome Bruner الذي طوّر صلات عبر تخصصات أكاديمية، كما فعل جاكوبسون، فبرز كشخصية رئيسة في المقاربة البنائية للغة والعقل. ويبقى في العصر الحاضر بمنزلة «المستشار الشخصي والسري» لها. وقد رحب برونر بمقاربة نعوم تشومسكي لما وفرت من انعتاق من السلوكية التي تقوم على مثير - استجابة stimulus-response، والتي أصبحت بعدئذ مهيمنة تحت رعاية ب. ف. سكينر B. F. Skinner، رئيس برونر في مختبر علم النفس بهارفرد. ولكن برونر كان يؤمن بأن رأي تشومسكي بشأن قدرة فطرية ذات لغة نوعية language-specific في عقل الإنسان، لا تقدم شيئا أكثر من نقطة انطلاق موجزة في فهم اكتساب اللغة. وإن مزيدا من المعرفة يقتضي منا التخلي عن رأي تشومسكي، في مقابل رأي بياجيه، الذي يرفضه تشومسكي بصراحة، والذي يفيد بأننا نولد وبداخل أذهاننا شيء ما. ولكن هذا يمثل الأطر الذهنية schemata (*) لتعلم عام غير خاص باللغة. وكما عبر عن ذلك برونر في بحثه الذي أنجزه العام ١٩٨٣:

> «مهما يكن الشيء الذي قد تتألف منه الموهبة الطبيعية للغة أصلية، قل أو كثر، فربما لا يعنينا هذا بالضرورة، لأنه سواء كان الإنسان مدرعا بشكل ضخم أو ضعيفا بقدرات فطرية تسخر من أجل الحصول على اللغة من حيث تكوينها المعجمي النحوي، فإنه مع ذلك يجب عليه أن يتعلم كيفية استخدام اللغة. وليس بالإمكان تعلم ذلك في مختبر. وإن السبيل الوحيد الذي يؤدي إلى إمكان تعلم استخدام اللغة، إنما يكون عبر استخدامها في إطارها التواصلي. ولم تُحدد القواعد النحوية «قواعد» استخدام اللغة إلا نادرا... ليس لأن هذه القواعد ليست ذات اهتمام عميق، فلعلها تكشف لنا

(*) إن الإطار الذهني هو أحد أنظمة الأبنية المعرفية المختزنة في الذاكرة، وتشكل تمثيلا رمزيا للأحداث والأشياء في عالم الفرد [المترجم].

الكثير عن شكل العقل، بل لأن الأطفال الذين يتعلمون اللغة ليسوا نحويين أكاديميين يستنتجون قواعد على نحو تجريدي ومستقل عن الاستخدام.

وأي لغة أخرى، مهما كانت ، فهي تخضع لطريقة نظامية في التواصل مع الغير، والتأثير في سلوكهم وسلوكنا، وتشكيل الانتباه، والحقائق التي نلتزم بها بعد ذلك، تماما كما نلتزم بحقائق الطبيعة» (برونر، ١٩٨٣، ص: ١١٩-٢٠، إن أحرف الطباعة المائلة موجودة في أصل النص).

ولكي يكون المرء بنائيا على الطريقة البرونية، يجب عليه أن يؤمن بأهمية دراسة حالات فردية من تعلم اللغة - وألا يعالجها بوصفها أمثلة من جهاز اكتساب اللغة المحدد سلفا بشكل وراثي، إذ إن الشيء المهم فيه ترشيح خاصيات عرضية للوصول إلى عملية مثالية من اكتساب اللغة. وقد اتخذ البنائي بالأحرى، «الخاصيات العرضية» لتشير إلى ما هو حقيقي ومهم بالفعل، وقادر على فتح تبصرات حول كيفية تعلم الناس الكلام عموما، دون أن يكلف هذا البنائي نفسه بإخضاعها إلى عملية رسمية من التأمثل idealisation الذي قد يتسبب في خطر تحريفها لتنسجم مع نظرية لغوية تضفي عليها صفة الماهوية.

وفي أكثر المشاريع العلمية ذات الصلة بالنشاط الإنساني، تعتبر هذه العملية أمرا مألوفا. ففي الطب وطب النفس، يتم تحرير الحالات الشاذة، وتستخلص النتائج من تأويل الصفة المميزة. وإن المرء ليرغب في التعرف إلى تاريخ الشخص، وبيئته وعاداته، إضافة إلى أي معلومة وراثية مناسبة. وقد لا يكون لهذه النتائج أي صلة مباشرة بأي فرد آخر. ومع ذلك فهي منوِّرة بالنسبة إلى الطبيب والطبيب النفسي اللذين يعتبر عملهما - كما لا يخفى على أحد - تأويليا. ويرى البنائيون عملهم شبيها بعملهما، فالفهم العام يعتبر بطبيعة الحال هدفا جوهريا، ولكن دراسة حالات خاصة يمكن أن تكون مسلكا مهما باتجاهه.

ولعل الأمر الأكثر أهمية في ما ورد في كلام برونر، هو فكرة أن اللغة طريقة نسقية لتشكيل الحقائق. وهذا هو النهج الذي استمر عمله في تبنيه خلال الثمانينيات وبعدها (انظر برونر على سبيل المثال، ١٩٩٠)، مستقصيا الكيفية التي نشكل بها الحقائق لأنفسنا - باعتبارنا أطفالا وبالغين - عبر اللغة ليكون اكتساب اللغة منفصلا في واقع الأمر، عن الكيفية التي يتسنى لنا بها تشكيل إدراكنا الحسي وفهمنا

للعالم من حولنا. وفي التسعينيات، تقدم هذا الرأي خطوة إلى الأمام، أي فهم اللغة في حد ذاتها على أنها شيء يشكله الفرد، وليس شيئا معطى سلفا يعتبر نسقيا ولا «يكتسبه» الفرد. ومن هذه الناحية، تعتبر لغة ما نصا، أو قصة حول الكلام الذي هو في الوقت نفسه قصة حول أنفسنا الذي تخلق في الحقيقة ذواتنا.

ولكن في الوقت نفسه، تراجع برونر عن موقفه البنائي القوي ليتجه نحو موقف يسمح بدور للنزعة الفطرية التشومسكية. وعلى الرغم من أن أتباعه سينشقون عنه بسبب ما اعتبروه تراجعا عن الموقف (انظر جوزيف وآخرين ٢٠٠١، الفصل ١٢ لمزيد من التفاصيل)، فإن برونر، وبحكمة استمدها من عمره المتقدم، يستحق التقدير، لرجوعه إلى الوراء وملاحظته المسألة من منظور شمولي sub specie aeternitatis فإذا لم يكن ثمة شيء سواء في موقفي الطبيعة أو التنشئة، لما بقيت المناقشة عمليا بينهما على امتداد تاريخ البشرية. ولكن لايبدو على وجه الترجيح أن ينسحب أي منهما، بل من الأرجح وجود تركيب مكون من كلا الموقفين، للاقتراب من فهم الحقيقة، بدلا من الاكتفاء بالتزام أحادي الجانب يُؤثر موقفا على حساب آخر.

وعلى نحو مماثل، من السهل أن نسقط في خندق عميق جدا لوصفنا التاريخ الحديث للأفكار المتعلقة باللغة والهوية على أنه حركة من الماهوية إلى البنائية. وإن تفسيرات من هذا القبيل مضللة من حيث لا يدري حاملها، لأنه في الوقت الذي يعلن فيه اليوم كثير من الناس انتسابهم للبنائية، لا أحد يدعي انتسابه للماهوية. والماهوية مصطلح ازدرائي يتألف من أي شيء لا يحبه البنائيون. فحين يتحدث البنائيون عن الماهوية، فهم «يضفون على التاريخ صفة الماهوية» على نحو ساخر جدا. ولا يعني هذا أن ما يعارضونه لا يجب أن يعارض أو على الأقل يسائل. فعندما يستمر التعامل مع «الطبقة الاجتماعية» و«السلطة»، باعتبارهما إرثين ينتميان إلى الحقبة الرومانية والحقبة التي أعقبتها، وكأنهما ليسا بمفهومين constructs على الإطلاق، بل معطيان بطبعهما، فلابد من الإعلان عن هذه المغالطة. وإن كان ثمة ثمن، فلا بد من دفعه. وعندما يفقد المرء الأمان بهاتين الفئتين، تصبح الدقة البالغة في التحليل صعبة المنال. ويتعرض خطاب اللغة والهوية إلى مجازفة تجاوز عالم غامض، ليدخل في عالم من الحشو tautology الخالص ذي الدافع البلاغي. لذلك فإن النموذج المنهجي يكمن في بذل أقصى الجهد من أجل دقة فكرية من التحليل الماهوي، دون الوقوع في شَرَك الاعتقاد بمطلقية فئاته. كما يكمن في الحفاظ على التركيز الدينامي والفرداني للبنائية، مع تجنب شَرَك النسبية الفارغة.

وهناك سبب آخر يستدعي عدم تحاشي الماهوية جملة وتفصيلا في دراسة اللغة والهوية. ويرجع هذا إلى أن بناء هوية ما، هو في الواقع بناء للماهية essence ـ وكانت هذه فكرة بورديو في المقولة التي وردت في الفصل الأول (ص: ٣٣) بشأن «الصراعات حول التصنيفات، والصراعات حول احتكار السلطة لجعل الناس يرون ويعتقدون، ولإقناعهم بأن يعرفوا ويدركوا، ولفرض التعريف الشرعي لتقسيمات العالم الاجتماعي، وبذلك تشكيل المجموعات وحلها» (بورديو، ١٩٩١، ص: ٢٢١). ولتفعيل هذه العملية، لا بد أن تقوم على الاعتقاد السائد بماهوية الهويات. وهذا ما يحفز ابتكارها ويؤطرها. وإن المحلل الذي يرفض أية مقايضة مع الماهوية، يتعرض إلى خطر فقدان عامل مهم في بناء الهوية. وبعبارة أخرى، إن الماهوية مقابل البنائية لا يمكن اعتبار إحداهما منفصلة عن الأخرى كما هو معتاد، بما أن ما يُشكّل هو في الواقع أسطورة تضفي عليها صفة الماهوية. فرفضنا الماهوية في المنهجية يعني قولنا بحق، إن تحليلنا يجب ألا يشتري جزءا من الأسطورة، بل عليه أن يمكث بعيدا عنها في محاولة لرؤية كيف تعمل، وكيف يمكن لها أن تظهر في النسق الاعتقادي أو الأيديولوجي لأولئك الذين يؤكدون فكرتها. ومع ذلك، يجب أن يبقى هناك فضاء للماهوية في إبستمولوجياتنا، وإلا لما تمكنا أبدا من استيعاب الفكرة من أساسها التي من أجلها تشكلت الهويات.

أما الشق الثاني من هذا الكتاب، الذي يبدأ من الفصل التالي، فسيهتم بالبناء الاجتماعي المكون بالخصوص من ثلاثة أنواع قوية من الهويات التي «أضفي عليها صفة الماهوية»، إلى جانب دراسة الكيفية التي يشكل بها الأفراد تلك الهويات، ويفككونها، ويعيدون تشكيلها، ويبرزونها، ويؤدونها، ويقرؤونها، ويؤولونها بوصفها جزءا من ذخيرة الهوية. ولا يمكن فصل البعدين الاجتماعي والفردي أحدهما عن الآخر لغايات تحليلية، لأنه إذا كان الأمر واضحا انطلاقا من القسم الثاني من الكتاب، فمعنى ذلك أن هذين البعدين متلازمان. فهما يمثلان طرقا مختلفة في تصور الظواهر نفسها وملاحظتها، وليسا ظواهر مختلفة.



5

اللغة و الهويات القومية

طبيعة الهويات القومية

إن كلمة «أمة» كلمة غامضة بشكل متأصل، إذ تستخدم أحيانا ضمن معناها التأصيلي (الإيتيمولوجي) للدلالة على علاقة الناس من حيث الأصل والمولد. تماما مثلما هي الحال عندما يتحدث المرء عن الأمة اليهودية أو الأمة التشيروكية. وفي أكثر الأحيان، تستخدم في معناها الموسع للدلالة على امتداد إقليم ما، وسكانه، والحكومة التي تحكمهم انطلاقا من محور فردي موحد - وما الأمة البريطانية إلا مثال على ذلك - وعندما يلتئم كل من المعنيين الإيتيمولوجي والموسع للأمة، يتم استخدام عبارة «الدولة - الأمة» أحيانا. ومن ثم، ستعتبر إيرلندا (آير Eire) على هذا الأساس، أمة ودولة - أمة في آن واحد، في حين لا تعد المملكة المتحدة غير أمة وفق سياق المعنى الموسع، مشكلة على الأقل أربع أمم ضمن المعنى الإيتيمولوجي، ويتعلق الأمر بأمة الإنجليز، والإيرلنديين الشماليين، والاسكتلنديين وأمة الويلزيين. وتدعى أحيانا كل من اسكتلندا، وبلاد الغال، ودول أخرى تشبهها «أمما بلا دول».

«انطلاقا من هذا الحاجز الداخلي [اللغة] الذي رسمته طبيعة الإنسان الروحية ذاتها، يبقى تحديد الحاجز الخارجي من خلال مكان الاستقرار تحصيل حاصل».

فيخته

وثمة مشكل يطفو على السطح هنا مرده - حقيقة - إلى استحالة التحام المعنيين الأساسيين بالمطلق، لكلمة «أمة». وكي يكون هذا أمرا ممكنا، فلا يحق لأي أحد ان يقطن بالإقليم القومي ماعدا أعضاء الأمة من حيث المنشأ، كما لا يحق لأي عضو يحسب على الأمة من حيث المنشأ أن يعيش خارج هذا الإقليم. ويشكل هذا التنظيم المتقن «المثل الأعلى» للأمة - الدولة، ولا يعد هذا مثلا طوباويا، بل هو بالأحرى «ديستوبيا» (أي قاتما و كئيبا) بالنسبة إلى أي شخص ما عدا الأنقى قوميا إلى حد التطرف [1]. وفي العالم الحديث، كان التأكيد على الاعتقاد في الأمة من حيث المنشأ قويا جدا، كلما أدركت أمة سياسية أنها تحت التهديد «الخارجي» الناتج إما عن الهجرة التي كانت سببا في اختلاف السكان فيما بينهم بشكل باد للعيان، أو عن الهيمنة الإمبريالية أو الاستعمارية. وفي فرنسا وخلال العقدين الأخيرين، كانت المساندة التي حظي بها حزب الجبهة الوطنية (الذي اتخذ من «فرنسا للفرنسيين» شعارا له) قوية جدا في تلك المناطق ذات الكثافة العالية من المهاجرين الجدد، ويتعلق الأمر بداية، بمهاجري أفريقيا الشمالية، والآن - وبشكل متزايد - بمهاجري اوروبا الشرقية. وفي العام ٢٠٠٢ وصل مؤسس الجبهة الوطنية وزعيمها جون ماري لوبين Jean-Marie Le Pen إلى المرحلة النهائية من الانتخابات الرئاسية الفرنسية. وأما في اسكتلندا، فقد ازدهر الحزب الوطني الاسكتلندي في عهد تاتشر، عندما رأى العديد من الاسكتلنديين في التدابير الإصلاحية الأليمة المفروضة على المستوى الاقتصادي في المملكة المتحدة برمتها، اضطهادا إمبرياليا من لدن العدو القديم، إنجلترا. ومنذ أن شرعت حكومة بلير في العام ١٩٩٩ بتفويض جزئي للسلطة السياسية لبرلمان اسكتلندي أعيد تأسيسه، وجد الحزب الوطني الاسكتلندي نفسه في صراع من أجل الحصول على دور يعزز من مكانته من جديد.

ويمثل الانتشار الفوري للإعلام في الولايات المتحدة الأمريكية بعد الهجمات التي ضربت كلا من المركز التجاري العالمي والبنتاغون في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ مثالا شديد الوضوح على الكيفية التي نتعامل بها، على نحو فطري، مع رموز من الهوية القومية كرد فعل اتجاه اي هجوم قومي، وما الدمار الذي لحق بهذه المنشآت إلا هجوم وطني صمم بدقة على هذا الأساس. فإلى حدود وقوع الهجوم وآثاره الكارثية، كان بإمكان المرء تصور أن

القيمة الرمزية التي يشكلها مركز التجارة العالمي. بالنظر إلى الاسم الذي يحمله هذا المركز، تتعلق بالرأسمالية العالمية. غير أن موقعه المهيمن في الأفق بنيويورك فسر على ما يبدو من لدن منفذي الهجوم بأن الولايات المتحدة والرأسمالية «العالمية» جسمان لا ينفصلان. وأن الأمر الذي لا يزال يشكل أكبر مفاجأة هو مقدار ما يشكله هذان البرجان من رمزية قومية بالنسبة إلى الأمريكيين ذاتهم الذين يقيمون بعيدا عن نيويورك بآلاف الأميال، والذين لم يسبق لهم قط زيارة المدينة، ومع ذلك يعتبرونها عادة مجسدة لقيم تتناقض نوعا ما مع قيمهم الخاصة. ولعل الهجوم نفسه هو الذي كان سببا في إبراز قيمتها «القومية». وعلى أي حال، قادت الولايات المتحدة الأمريكية في غضون أسابيع تحالفا عالميا لغزو أفغانستان وإسقاط حكومة طالبان، التي كانت تحتضن أسامة بن لادن العقل المدبر لهجمات ١١ سبتمبر. وبعد ثمانية عشر شهرا، ستقود تحالفا صغيرا لغزو العراق وتطيح بصدام حسين، الذي لم تكن له علاقة مطلقة بالهجمات، غير أنه تم تصوره بمنزلة العدو القومي الرئيسي إلى جانب ابن لادن.

إن التحول البنائي الذي وُصف في الفصل السابق أثّر في تحليل الهوية القومية على الأقل، مثله مثل أي شكل آخر من الهوية. وبالفعل، فإن إعادة ترسيم الحدود القومية في أعقاب الحربين العالميتين. وإعادة تنظيم الاتحاد السوفييتي والمعسكر الشرقي ١٩٨٩ ـ ١٩٩١، والاعتراف بالكيانات القومية الفرعية في أوروبا الغربية خلال التسعينيات، أسهمت كلها في بلورة وعي قوي يتسم بمرونة القومية وعشوائيتها. وعلى الرغم من أن هذا الوعي لم يتمكن من القضاء على إيمان عميق بهوية قومية «حقيقية» باعتبارها شيئا مفروضا علينا عند ولادتنا أو خلال ظروف سابقة لتبقى ثابتة لا تتغير بعد ذلك بشكل أساس، فقد ساعد، من دون شك، على تعزيز النزعة التحليلية بين الدارسين لمعالجة هذه المعتقدات بوصفها خرافية، والسعي بدلا من ذلك إلى فهم الهوية على أنها شيء نشكله طوال حياتنا ونتفاوض في شأنه.

وقد كان من المواضيع الثابتة في الدراسات التي تهتم بالهوية القومية خلال العقود الأربعة الأخيرة موضوع الأهمية المركزية للغة في تشكيلها. وكما سنرى لاحقا، جادل عدد من المؤرخين البارزين، وعلماء الاجتماع، وعلماء

السياسة في أن وجود اللغة القومية هو الأساس الرئيس الذي تتبنى عليه الأيديولوجية القومية. ولكنّ عددا آخر من الدارسين، اولوا أهمية أكثر للدليل الذي جُمع من قبل المؤرخين اللغويين والذي يبين أن اللغات القومية ليست معطى في واقع الأمر، وإنما هي مشكّلة، في حد ذاتها كجزء من عمل ايديولوجي لبناء الدولة القومية. وإذا ما أخذنا الجزر البريطانية مثالا (وهو مصطلح ناب في حد ذاته بالنسبة إلى القوميين الإيرلنديين، إذ لم يوجد له، حتى الآن، أيّ مقابل لترسيخه)، فسنجد أن نمطهم اللغوي ظل منذ قرون خليطا من اللهجات المحلية ذات الأصل الجرماني أو السلتي. ولم يشرع افرادها إلا في الأزمنة الحديثة، تُحركهم طموحاتهم القومية المتنوعة، في تأسيس «لغات» لأمة إنجلترا، وإيرلندا، واسكتلندا، وبلاد الغال، وكورنوال Cornwall إضافة إلى بعض المناطق الصغرى (التي غالبا ما تشكل «أمما» في أعين مناصريها الأكثر تحمسا).

وبخصوص اسكتلندا، حيث تظهر لغتان قوميتان منفصلتان (الغيلية والاسكتلندية، ذواتا الأصل السلتي والجرماني على التوالي)، نجد أن تعايشهما لم يؤيد نمو القومية اللغوية، بل أعاق سيرها، بما أن مناصري كل من اللغتين قد ركزوا طاقاتهم على مصارعة الادعاءات المنافسة لكل طرف منهما بدلا من تسخيرها ضد الهيمنة الإنجليزية. وعلى الرغم من أن هذا يجعل اسكتلندا تبدو وكأن قوميتها اللغوية ضعيفة، فإن الأغلبية الساحقة من الاسكتلنديين لا يرون الأمور على هذا النحو، بل يعتبرون أن القيمة الاقتصادية والاستراتيجية لاستخدام لغة عالمية تفوق بكثير القيمة السياسية، والثقافية، والعاطفية للغات «الموروثة». وثمة حالة لا باس من ذكرها هي أن الصراع الداخلي بين الغيلية والاسكتلندية يمثل طريقة ذكية للإبقاء على الحماس القومي متقدا، دون أن يفسد للود قضية.

وكما تظهر الحالة الاسكتلندية، فليس ثمة أحكام مطلقة تتعلق باللغة والهوية القومية. وإن مفهومي «اللغة» و«الأمة» أنفسهما يخضعان للتنوع المحلي. ولكن يمكن، مع ذلك، إيجاد أنماط معينة تتخلل البناء اللغوي للهوية القومية المنتشرة على المستوى العالمي، هذه الأنماط التي توفر قالبا أصليا، يمكننا من قراءة تقلبات البناء المحلي في الداخل ومقارنته.

متى بدأت القومية؟

وكما هو الشأن بالنسبة إلى العديد من «المذاهب» التي تمثل السبق في ما تم تداوله سلفا، تبقى مسألة تحديد مكان بداية القومية مثيرة للجدال. وسيدرس هذا الفصل آراء الدارسين المحدثين الذين حددوا مكان هذه البداية انطلاقا من أواخر القرن الثامن عشر إلى غاية أواخر القرن التاسع عشر. وحتى إن كانت القومية قد خضعت لتحولات غير متوقعة في وقت ما خلال الـ ٢٥٠ سنة الأخيرة، فهي لم تنشأ من فراغ. فإن القومية المعاصرة تظهر من غير ريب اتصالية مهمة بالهويات القومية التي يمتد وجودها إلى بداية تدوين التاريخ.

ويسجل العهد القديم التقاليد الشفوية للأمة اليهودية ذات الصلة بأصولها، ومعتقداتها، وعلاقاتها بالأمم المجاورة، وإنزالها إلى درجة العبودية وإبعادها عن وطنها، وبعد ذلك يسجل عودتها إلى أرض الوطن كمقدمة لبداية عصر ذهبي. ولم تكتب لمجرد أنها وقائع تاريخية، وإنما أيضا لإظهار استمرارية وجود الأمة وتأكيده. ثم إن التطورات التي حدثت على مستوى القومية في القرن الثامن عشر، والتاسع عشر، والقرن العشرين استلهمت تأويلها كلها من نصوص هذا الكتاب المقدس، الذي يعد القاعدة المشتركة للثقافة الأوروبية عبر كل الانقسامات الاجتماعية والقومية. وقد سجلت الأمم أول ظهور لها في سفر التكوين العاشر. ويورد هذا الفصل أسماء لأبناء سام، وحام ويافث (أولاد نوح الثلاثة)، بالإضافة إلى الأماكن التي أقاموا بها، مع تحديد دقيق أحيانا للحدود. وتختم كل من هذه المجموعات الثلاث بفقرة كهذه: «من هؤلاء [الأولاد السبعة والأحفاد السبعة ليافث] تفرقت جزائر الأمم بأراضيهم كل لسان كلسانه حسب قبائلهم بأممهم.» (سفر التكوين ١٠:٥). الأرض، واللسان، والعائلة... والأمة، وضعتها يد الرب نفسه في كتاب سفر التكوين حسب المؤمنين به.

ويمثل سفر التكوين العاشر فترة نسب فاصلة بين قصة الطوفان (سفر التكوين ٦ ـ ٩) وسردا لكيفية انتشار أحفاد نوح فيما بعد عبر العالم (سفر التكوين ١١). وفي بداية سفر التكوين الحادي عشر، نعود إلى زمن «كانت الأرض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة» (سفر التكوين ١١:١)، كما وجدت قبيلة نوح المرتحلة غربا، سهلا في أرض شينار فاستقرت به. ثم قرروا بعدها بناء

مدينة وبرج «وقالوا هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه بالسماء» وماذا آخر؟» ونصنع لأنفسنا اسما لئلا نتبدد على وجه كل أرض بالإضافة إلى شيء آخر: «ولنتخذ لنا اسما خشية تفرقنا في كل بقاع الأرض» (سفر التكوين ١١:٤).

ويفيد هذا الاعتقاد ضمنيا أنه في غياب اسم مشترك لهم - أي في غياب هوية قومية - سيتفرقون في كل بقاع الأرض لا محالة. ولا بد من تشكيل للهوية كي تتماسك الأمة، ويتلاحم أعضاؤها بشكل متبادل. وينشئون مدنا بدلا من أن يتبددوا في أصقاع الأرض. يبحث كل واحد منهم على قطعة أرض تؤويه - هذا التبدد في المناطق الريفية الذي سيوصف مع مرور الوقت «بالطبيعي» في مقابل التشكل «الاصطناعي» للمناطق الحضرية.

وقد كانت الإمبراطوريات القديمة لحوض البحر المتوسط واعية بالأمم التي تبسط سيطرتها عليها. وفي العصور الحديثة، كانت المشاعر القومية الإنجليزية حاضرة بشكل واضح في المسرحيات التاريخية لشكسبير منذ نهاية القرن السادس عشر إلى غاية بداية القرن السابع عشر. ولكن وصفها «بالقومية» أمر ينطوي، ربما، على مفارقة تاريخية إذا كان مفهوم القومية لم يظهر أصلا، باعتباره موقفا مذهبيا، إلا في غضون القرنين الأخيرين.

وثمة اتفاق واسع على ان الثورة الأمريكية (١٧٧١ - ١٧٨١) والثورة الفرنسية (١٧٨٩-٩٢) كانتا الحدثين الأساسيين اللذين أسسا للمفهوم الحديث للقومية باعتبارها واقعا سياسيا. ولكن في كتاب يمكن اعتباره مساهمة في تطوير الخطاب الجدير باهتمام الدارسين المعاصرين حول القومية، حدد فيه إيلي كيدوري Elie Kedourie (١٩٢٦- ٩٢) التغيير الحاسم على أنه حدث في بداية القرن التاسع عشر، إذ فجرتها الآثار الكارثية لثورة نابوليون الفرنسية. ويستهل كتابه هذا بجملة استفزازية أدرجت عمدا:

> «إن القومية مذهب تم ابتكاره في أوروبا في بداية القرن التاسع عشر [...]. وباختصار، يعتبر هذا المذهب ان الإنسانية مقسمة بشكل طبيعي إلى أمم، هذه الأمم معروفة بميزات خاصة يمكن التحقق منها، وأن النموذج الشرعي الوحيد للحكومة هو الحكم الذاتي القومي».

إن معظم الأعمال السابقة حول القومية، بما في ذلك دراسات شاملة قام بها دوتش Deutsch (١٩٥٢) وشافير (١٩٥٥)، ركزت على مظاهر الهوية في القرن العشرين، في الوقت الذي ادعت فيه أن الأمة ذاتها، بوصفها بنية اجتماعية كانت موجودة في شكلها الحديث على الأقل منذ عصر النهضة، مع اعتبار القومية ملازما أيديولوجيا حتميا له. وعلاوة على ذلك، شكلت الأمم والقوميات القاعدة الأساس للتنظيم السياسي والاجتماعي في العالم بأسره، فتبقى بلا ريب دائما موجودة، إلا إذا كان ماركس على حق، و غدت الأمم تسقط واحدة تلو الأخرى، مثلما يسقط التفاح الناضج، في التدويل الشيوعي communist internationalism.

ولم يبتكر ماركس (١٨١٨-٨٣) فكرة بنيوية الأمم، بل سبق له أن اقتبسها من عمل طوماس كوبر Thomas Cooper (١٧٨٣-١٨٣٩)، الذي كتبه العام ١٨٢٦، إذ يقول فيه إن «الكيان المعنوي - الكينونة النحوية المسماة أمما، صبغت بصفات ليس لها وجود حقيقي، إلا في مخيلة أولئك الذين يحولون كلمة ما إلى شيء [...] (ماركس، ١٩٥٥ [١٨٤٧]، 3 a)». ولم يكن مفاجئا أن يؤول ماركس ذاك التجسيد لمفهوم القومية طبقيا، كوسيلة تحمي من خلالها البورجوازية مصالحها وتحفظها. وكان وجود الأمم، مثل الدين والرأسمالية، مجرد مرحلة ضرورية في التطور التاريخي للبشرية نحو الاشتراكية المثالية.

إن حقيقة أن التحليل الماركسي كان مقيدا ببرنامج ثوري ويهدف إلى إنهاء سريع لتلك المراحل الأقل مثالية، جعلت من الصعب بمكان على اللاماركسيين (المعادين للماركسية خصوصا) أن يتقبلوا الفكرة الأساس التي مفادها أن مفهوم الأمة كان نتاجا تاريخيا. ولكن في العام ١٩٤٤، ظهرت ردة فعل لاماركسية عنيفة مع هانس كوهن Hans Kohn (١٨٩١ - ١٩٧١)، الذي جادل في أن «الأمم» تصور حديث يرجع تاريخه ليس قبل القرن الثامن عشر، وأن «القومية nationalism أولا وقبل كل شيء، حالة نفسية، وفعل واع، ظل منذ الثورة الفرنسية شيئا مشتركا أكثر فأكثر بين الجنس البشري» (كوهن، ١٩٤٤ ص: ١٠ - ١١). وفي السياق المباشر للحرب العالمية الثانية والصراع ضد النازية (التي كان كوهن فارا منها)، لقي هذا الموقف آذانا صاغية في العالم الناطق بالإنجليزية، ولكن مع بداية الحرب الباردة، أصبح التقسيم القديم، الذي بموجبه تمت موازنة مناهضة القومية بالماركسية، يتماسك من جديد.

وأما الصعوبة الأخرى في طرح كوهن، فتكمن في انبنائها على ثنائية ماهوية بين «القومية الطوعية» voluntaristic nationalism، التي هي سمة من سمات إنجلترا وفرنسا، والمرتبطة بالمذهب الفلسفي التجريبي، مقابل «القومية العضوية» organic nationalism التي تمثلها ألمانيا ودول أوروبا الوسطى، والمرتبطة بالمذهب العقلاني. وقد خدم تصوير كوهن الإيجابي للقومية الطوعية وانتقاداته للقومية العضوية الجمهور الذي عايش الحرب، ولكن فقد أهميته بعد الحرب، حينما أصبحت الثنائية الرئيسة الماركسية المناهضة للقومية مقابل أي قومية كانت على الإطلاق. وقد حاول دوتش (١٩٥٣) ملء هذا الفراغ بطريقة نموذجية حديثة، وذلك بإعادة صياغة تصور جديد لمفهوم القومية من منظور العلوم الاجتماعية، والبدء في إعادة تعريف الناس بوصفهم «جماعة community ذات اتصالات اجتماعية»، والبحث عن منهجية كمية في البحث لتفسير ما يقصد بالأمم بشكل دقيق ـ وهذه رغبة يبدو بلوغها أمرا مستحيلا تقريبا في العصر الحاضر.

ومن جهة أخرى، قدم كيدوري (١٩٦٠) رؤية بنائية صرفا أكثر من تلك التي قدمها كوهن، وذلك باستبدال مفهوم القومية بوصفه «فعلَ وعيٍ» بالقومية بوصفه مذهبا، لا لبس في اصطلاحيتها، ودفع بداياتها إلى الأمام في غضون عقود قليلة قادمة. وبوضع المفهوم في سياقه التاريخي الذي لم يبرز فيه ماركس ببساطة، يكون قد جعل من الممكن بالنسبة إلى علماء السياسة، والمؤرخين ودارسين آخرين أن يعالجوا فكرة الأمم والقومية باعتبارها طوارئ تاريخية دون أن يتركوا للآخرين فرصة تصنيف أعمالهم بشكل آلي على أنها حزبية. وكما سنرى، أن بعض الأعمال المهمة جدا المستفيدة من هذه الطفرة ستبدأ بالاختلاف الشديد مع كيدوري، على مختلف التفاصيل، ولو أنها لاتزال تعترف بدوره الرئيس في إرساء دعائم الخطاب، وفي لفت الانتباه إلى مفكر كان من بين أهم المنظرين المتميزين المبدعين، بقطع النظر عن المرحلة التي تكون قد بدأت فيها القومية، الا وهو جوهان غوتليب فيختة Johann Gottlieb Fichte (١٧٦٢ ـ ١٨١٤). وستتم مناقشة فيخته الذي يضع اللغة في صلب تعريفه للقومية بتفصيل لاحقا في هذا الفصل، ولكن نحتاج في المقام الأول أن نعود خمسة قرون إلى الوراء، حيث الجد الأول لكل القوميين اللغويين، دانتي اليغييري Danti Alighieri (١٢٦١ ـ ١٣٢١).

بناء الهوية القومية واللغة: كتاب دانتي «من فصاحة اللغة العامية»(*)

لقد كان واضحا منذ أمد طويل أن من بين أولى العقبات وأخطرها التي يجب تخطيها من أجل التأسيس لهوية قومية تلك التي تتمثل في عدم وجود لغة قومية. وإن «أسطورة الدولة ـ الأمة» ـ تلك الرؤية الأساسية للعالم على أنه مؤلف طبيعيا من الدول ـ الأمم ـ ترتبط ارتباطا وثيقا بفرضية أن اللغات القومية حقيقة متاصلة. ومهما تكن العقبة التي تعترض سبيلنا في تحديد الخطوط الفاصلة لماهية «الألمان»، أي ما إن كان أطفال المهاجرين الترك الذين ازدادوا في ألمانيا ألمانيين على سبيل المثال، أو ما إن كان بعض الألزاس فرنسيين أو ألمانا، فإن اللغة الألمانية ستبرز في هذه المعادلة بشكل ملحوظ. من أجل هذا، حاول هتلر تسويغ غزواته الأولى للدول المجاورة على أساس أن هذه الشعوب الناطقة بالألمانية كانت جزءا من الأمة الألمانية على نحو متأصل. وكما أوضح ذلك هوتون Hutton (١٩٩٩)، إن سياسات هتلر الاضطهادية وإبادته لليهود في نهاية المطاف كانت مبنية أساسا على مسوغ يفيد بأنه على الرغم من كون لغتهم «اليهدية» Yiddish (لغة يهود أوروبا) كانت شكلا من أشكال اللغة الألمانية، فقد كانت لهم خصوصية عرقية غير معقولة لا تسمح لهم بامتلاك «لغة أم». وبالتالي فهم لم ينتموا إلى الجهاز السياسي الألماني، وإنما كانوا داخله عالة عليه. (انظر الفصل ٧، ص: ١٧١ـ١٧٢).

ولكن سواء كانت البوهيمية، والنمساوية، والبيروسية الشرقية واليدية لهجات تشكل جزءا من «اللغة الألمانية» أم لا تشكل ذلك، فتلك ليست حقائق مسلما بها سلفا، ولا هي حقائق يمكن للغوي أن يؤسس لها علميا. ومرد ذلك إلى كون «اللغة الألمانية»، مثلها مثل كل لغة قومية، بناء ثقافي. ويعود تاريخها إلى القرن السادس عشر وتنسب عموما إلى مارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤١) الذي سعى، من خلال ترجمته للكتاب المقدس، إلى خلق شكل من اللغة الألمانية يمكّن من توحيد العديد من المجموعات ذات اللهجات المتعددة عبر ما اعتبرت، إلى حدود أواخر القرن التاسع عشر، خليطا من دول صغيرة وكبيرة، ومختلفة اختلافا كبيرا. إن هذه القصة ذاتها جزء من البناء الثقافي، وهي فعلا قصة لا يمتد إليها الزيف، إلا أنها مبالغ فيها بشكل كبير.

(*) De Vulgari eloquentia

ولكي يتم تشكيل أسطورة «بطولية» سليمة، فهي تعمل على تجاهل عمل العديد من الأفراد الآخرين أو تهميشهم في صياغة «لغة ألمانية»، وتشجعنا على نسيان أن لوثر لم يكن لينجز أي شيء لولا التغيرات الثقافية الواسعة التي كانت تجري خلال القرن الخامس عشر، بما في ذلك اختراع الطابعة المتنقلة وبدايات المشاعر القومية التي ستعمل على التفكير في إحداث قطيعة مع الملكية الرومانية الدينية.

وإن النموذج الأصلي للغة القومية كان الإيطالية، ويبدو هذا مفاجئا على اعتبار أن إيطاليا لم تكن لتصبح أمة سياسية إلا في العام ١٨٦٠، لتتوحد بالكامل في العام ١٨٧٠، قبيل عام فقط من توحد ألمانيا. وإذا ما علمنا أن الانقسامات السياسية لشبه الجزيرة الإيطالية هي التي تكون قد أنشأت ـ تحديدا ـ وحدة وطنية عبر وسائل لغوية، فليس ذلك مفاجئا بالقدر الكبير. وفي العالم الناطق باللغات الرومانية، وخلال ألف سنة من سقوط الإمبراطورية الرومانية إلى غاية عصر النهضة، كانت «اللغة» تعني «اللاتينية»، بحيث كانت تستعمل في كل الغايات الرسمية والمكتوبة، على الرغم من أن ما كان يتكلم به الناس في سياقات غير رسمية هو لهجة محلية مرتبطة تاريخيا باللاتينية، وإن كانت مختلفة بشكل واضح من قرية إلى قرية.

وهكذا لم تكن ثمة أي «لغة إيطالية». فذلك المفهوم وتحققه ينسب، وبشكل بطولي وشبه أسطوري، إلى دانتي، مؤلف «الكوميديا الإلهية» (١٣٠٦). وإن أطروحة دانتي «عن فصاحة اللغة العامية»، التي لم تنشر إلا في العام ١٥٢٩، حددت العملية التي ادعى عن طريقها اكتشاف ـ وليس ابتكار ـ اللغة القومية لأمة سيكلفها خمسة قرون من الزمن كي تبتق سياسيا.

وإن المهمة، كما رآها دانتي، تتمثل في اكتشاف هذه اللغة العامية، أو العامية الإيطالية واستخدامها في مكان اللاتينية، وهي اللغة الرسمية للعالم الغربي المسيحي:

> «إننا ندعو الكلام العامي ذاك الذي يتعلمه الأطفال ممن حولهم، عندما يبدأون لأول مرة في التمييز بين الكلمات، أو باختصار شديد، نقول إن الكلام العامي ذاك الذي نكتسبه من دون أي قاعدة، من خلال تقليدنا لمربيتنا». (DVE، ١، ١، ترجمتي) [٢].

ويقارن دانتي هذا النوع من اللغة بـ«النحو»، الذي يعني به اللغة الرسمية، لغة الكتابة، وهو ما يصطلح عليه الآن باللغة الفصحى أوالمعيارية. وتعد تلك اللغة مرة أخرى، لا تينية بالنسبة إلى العالم الغربي المسيحي، وهي اللغة ذاتها التي يكتب بها دانتي:

«ولدينا بعدئذ، كلام ثانوي آخر، سماه الرومان النحو. وإن لدى الإغريق وآخرين أيضا، هذا الشكل الثانوي، وإن كانوا ليسوا كلهم. وقليل هم، في الواقع، من تمكنوا من استخدامه، لأن تعلمه وإتقانه يتطلبان قدرا كبيرا من الوقت والدراسة الجادة». (المرجع السابق نفسه) [٣].

ويبدو «ثانويا» في الوهلة الأولى مجرد المعنى المؤقت، الذي اكتسبه هذا النوع من الكلام في المقام الثاني. ولكن دانتي يصرح فيما بعد بأن المعيار التقليدي يأتي أيضا في المقام الثاني من حيث النبل بالمقارنة مع العامية:

«وتعتبر اللغة العامية هي الأنبل، لأنها اللغة الأولى التي استخدمت من قبل الجنس البشري، ولأن العالم كله يستخدمها حتى ولو كانت مقسمة إلى كلمات وتعابير مختلفة، ولأنها أيضا طبيعية بالنسبة إلينا، في حين تعد الأخرى مصطنعة ومتكلفة». (المرجع السابق نفسه) [٤].

وإن اللاتينية هي لغة الكنيسة، وهي لغة مقدسة، وسيبدو أقرب إلى الهرطقة إذا ما اقترحنا أن اللغة العامية هي الأنبل. ولكن دانتي يعرب عن إعجابه بما هو «طبيعي» في مقابل ما هو «اصطناعي»، أي كل ما يصنعه الفن. فالتفنن أو الدهاء عادة ما يعتبر قيمة إيجابية في هذه المرحلة. وإذن، يعد الفن، مع ذلك، إنسانيا في جوهره، في حين أن الطبيعة إلهية في مصدرها. وقد فحص دانتي مختلف اللهجات الإيطالية لتحديد أيها أنسب لاستخدامه لغة عامية نبيلة volgare illustre، اي العامية النيرة والمستنيرة على السواء، والتي ستكون الناقلة الأفضل بالنسبة إلى الشعر ضمن سياق الوحدة الإيطالية. فكان رأيه النهائي عدم ملاءمة اي من اللهجات الموجودة. في الواقع، لهذه الغاية. وعلى العكس من ذلك، فإن العامية النبيلة هي لغة مثالية ينبغي إيجادها بالعقل لا بالآذان:

«وبما أننا عبرنا كل المرتفعات والمراعي في إيطاليا، ولم نعثر على ذلك النمر الذي نتعقبه، فلنقتفِ أثره بعقلانية أكثر، حتى يتسنى لنا، بمهارة عملنا الدؤوب، الإيقاع بهذا الحيوان تحت قبضتنا بشكل تام. هذا الحيوان الذي تنبعث رائحته من كل مكان، ولكنه لا يظهر أثره في أي مكان» (DVE ١، ١٦) [٥].

إن الطريقة التي يمكن بموجبها فعل ذلك تكمن في العثور على ما هو «جوهري» في هذه اللهجات، أي العضو الأبسط من نوعه في صنفها:

«يصبح كل شيء قابلا للقياس بواسطة شيء من صنفه، بواسطة ذلك الشيء الأبسط في صنفه. ومن ثم، وبالنظر إلى تصرفاتنا، التي تقسم مع ذلك إلى العديد من الأنواع، يجدر بنا العثور على هذا المعيار الذي يمكن من خلاله قياس هذه التصرفات [...]. وأما ما يتصل بتصرفنا كشعب إيطالي، فلدينا بعض العلامات الموسومة الجوهرية من العادات، والملبس، والكلام، التي بواسطتها يمكن لتصرفاتنا أن توزن وتقاس بوصفها إيطالية». (المرجع السابق نفسه) [٦].

ومن دون أن يحدد دانتي أي شيء بخصوص ماهية هذه العلامات الموسومة الإيطالية، فإنه يعلن إلى حد ما، على نحو مفاجئ عن انتهاء البحث الآن:

«نعتبر تلك السلوكات الإيطالية غير الخاصة بأي مدينة من المدن الإيطالية، ولكن مشتركة بين الجميع، الأنبل من بين تلك السلوكات الإيطالية. ومن خلالها، يمكننا الآن أن نحدد تلك اللغة العامية التي كنا بصدد البحث عنها من قبل، والتي تنبعث رائحتها في كل مكان ولكن لا تستقر في أي مكان» (١٦:١) [٧].

وإن دانتي في الواقع، لم يبرهن على أن السلوكات الإيطالية الأكثر نبلا مشتركة بين كل المدن، الأمر الذي يبدو هنا على أنه خلاصة لسلسلة استنتاجية طويلة. ولكن دانتي واثق بأننا حددنا العامية النيرة التي كنا نبحث عنها، وذلك من خلال استنتاجنا الذي لا يقول بوجوب أن تكون خاصة بأي من المدن الإيطالية، ولكن يشترك فيها الجميع. ولدينا الآن لغة واقعية تتناسب مع هذا الوصف: غراماتيكا (النحو)، اللاتينية، لكنها مستثناة من التعريف، فهي ليست نبيلة بالقدر الكافي، لأنه على الرغم من أنها مشتركة

بين كل المدن الإيطالية، إلا أنها ليست مشتركة بين كل الناس. إننا نريد شيئا مشتركا بين كل الناس وليس خاصا بأي من المدن؛ ما يقوم به كل الناس وليس ما يقوم به أي واحد منهم.

يبدو كل هذا بمنزلة خيال بالنسبة إلى القارئ الحديث، ادعاء باكتشاف ما سيكون في الواقع اختراع دانتي للعامية النيرة. والذي سيعمل بدوره على تمويه المقدار الذي تقوم عليه في الحقيقة لغته التوسكانية الأم (اللهجة التوسكانية هي اللغة الإيطالية التي يتكلمها سكان توسكاناي. ولكن إن هي وجدت، فلن تكون لها السمات التي طلبها دانتي، فهي لن تكون أصيلة، ولا مشتركة، ولا طبيعية، ولا تتمتع بالنبل الذي تمنحه هذه السمات. إذن، على أي أساس يمكن أن تكون أفضل من اللاتينية؟

ثم يواصل دانتي مسيرته نحو اكتشاف عنصر طبيعي، سيستخدمه بعد ذلك في فنه الخاص دون الاعتراف إطلاقا بأن العنصر في حد ذاته يمكن أن يكون بأي حال من الأحوال نتاجا للفن. وبينما «الفراماتيكا» شيء مصطنع لأنه نتاج التاريخ الإنساني، تعتبر «العامية النيرة» نتاجا مناهضا للتاريخ. وكل ما هو مشترك بين جميع أفراد إيطاليا حتى الآن لا يحوي أي شيء من صنع ماضيهم، ولا يحوي الحالة التي كانوا عليها لما كانوا جسدا واحدا. لقد كانوا متحدين في الوقت الذي تشكلت فيه اللاتينية، ولكن هذه الوحدة كانت تضم أيضا ما سيصبح لغة إسبانية، وفرنسية، وأوكسيتانية، وهلم جرا. ويمكن العثور على نمر دانتي، وذلك بقلب التاريخ بما فيه الكفاية لبلوغ وحدة إيطالية بصورة دقيقة. إن التاريخ هو الذي فكك اللغة الإيطالية المشتركة. وسيُعثر على العامية النيرة بالتحديد من خلال نزع كل ما أضافه التاريخ إلى كل لهجة محلية من شوائب مشوهة. ويرى دانتي أن مشكل التاريخ سيتفاقم بدلا من أن يجد حلا باستخدام «الفراماتيكا» التي كانت نفسها نتاجا تاريخيا - أي تاريخيا بالمعنى السيئ جدا لأنها مصطنعة، ولأنها تشويه متعمد للطبيعة وإثم مقترف. فالاختلاف التاريخي للهجات هو نتيجة طبيعية لخطيئة اللامبالاة - التشويه السلبي للطبيعة نتيجة العجز عن الالتزام بالعلامات الجوهرية elemental signs. كما إن العامية النيرة لدانتي معادية للتاريخ في تعارضها مع كل من تعدد اللهجات واللغة المعيارية التقليدية. وتهدف في المقابل إلى تأسيس تاريخ بديل، أي أسطوري بشكل عميق وحتمي، يعمل على إيجاد وحدة وطنية شاملة بذريعة إعادة اكتشافها وترميمها.

تذليل اللغة ومَرْكَزَتُها: دبريا ودالديس

إن العامية النيرة لدانتي، كما طبقت في عمله: «الكوميديا الإلهية»، وفي أعمال معاصريه المقربين منه بيترارش وبوكاشيو Boccaccio، أصبحت النموذج الذي تصاغ وفقه لغات اوروبية معيارية أخرى حديثة. وعلى الرغم من أن الهوية الوطنية الإيطالية استغرقت قرونا كي تجد لنفسها إدراكا سياسيا واسعا، بسبب المصالح البابوية والخارجية القوية التي تتحقق بإبقاء شبه الجزيرة منقسمة على نفسها، فإن هويات قومية أوروبية أخرى استفادت كثيرا، وبأسرع ما يمكن، من النموذج اللغوي الذي ابتكره دانتي. وإن ما أثبته من دون جدال هو الإمكان المعلن في عنوان اطروحته اللغوية ـ فصاحة الكلام غير المصقول. وقد حُشدت طائفة كبيرة من الافتراضات في مفهوم «الفصاحة» حول طبيعة التواصل، والمعرفة، والحقيقة، والجمال، وأما الماهية. فليس آخر ما كان ينبغي أن تكون لدى «شعب» ما. وما دامت طريقتهم «الطبيعية» في الكلام اعتبرت غير معيارية (والتي هي كذلك بطبيعة الحال، بالمقارنة مع اللاتينية التي أصبحت مصطنعة خلال عقود من التنظيم والصفاء في الاستخدام)، فليس ثمة إمكان لأي ادعاء شرعي باستقلالية شعب ما.

إن الهدف المعلن وراء كتاب أنطونيو نيبرخا Antonio de Nebrija (١٤٤٤ـ١٥٢٢)، النحو الإسباني Grammática castellana (١٤٩٢)، الذي يعد أول نحو مهم للغة أوروبية حديثة، هو إبقاء الإسبانية (القشتالية)، أساس اللغة الإسبانية الحديثة، تحت السيطرة والضبط. وتبدأ مقدمة الكتاب التمهيدية الشهيرة والموجهة أصلا إلى الملكة إيزابيلا بهذا: «لقد ظلت اللغة باستمرار دائم المرافق للإمبراطورية، وبقيتا على هذه الحال لتبدأ، وتنموا وتزدهرا معا، وتسقطا أيضا معا» (نيبرخا، ١٩٤٦ [١٤٩٢]: ٥ ـ ٦، ترجمة الكاتب) [٨]. وقد أعقبت ذلك مجموعة أمثلة من اللغات التي نشأت وتلاشت بالتزامن مع إمبراطوريات عظمى. ويستمر نيبراخا في ذكره سبب تصميمه العزم على «تقليص اللغة الإسبانية (القشتالية) وحصرها في وسيلة بارعة مصطنعة» reduir en artificio (ص: ٩):

> «وبما أن تفكيري ورغبتي كانا دائما يبجلان الأشياء المتعلقة بأمتنا ويمنحان رجال لغتي أعمالا يمكن لهم من خلالها استغلال أوقات فراغهم بشكل افضل، يهدرونه الآن في قراءة

روايات وقصص مغلفة بآلاف من الأكاذيب والأخطاء، قررت قبل كل شيء تقليص لغتنا الإسبانية (القشتالية) إلى وسيلة بارعة مصطنعة، بحيث يمكن لما يكتب بها الآن وفي المستقبل أن يتبع معيارا، كما يمكنه أن يشمل كل الأوقات القادمة. كما حصل مع اللغتين اليونانية واللاتينية، اللتين بسبب خضوعهما للفن، بقيتا موحدتين، على الرغم من مرور قرون عديدة» [٩].

إن الغايات الثلاث التي ذكرها نيبرخا ـ وهي تعظيم الأمة، واستخدام أفضل لعقول الناس، ومنع اللغة من التحول ـ هي أهداف مركزية لفكر النهضة اللغوي عموما. وإن عبارتي reduir en artificio (تقليص إلى شيء بارع مصطنع) وdebaxo de arte (خاضع للفن) تفيدان الشيء نفسه ـ حيث مازالت كلمة «مصطنع او اصطناعي» في هذه الفترة تحمل معنى «مُعَد وفق الفن». وقد تصور نيبرخا نحو لغة ما بمنزلة غزو لها، إذ يتم على إثر ذلك إخضاعها وإذلالها، وإضعافها كما يضعف المرء عدوا ما، كما يقلص حجمها من خلال إقصاء تلك العناصر التي لا تتوافق مع المنطق والانتظام. وهنا يكمن «فن» النحو. وفي آخر المقدمة التمهيدية، يخبر نيبرخا إيزابيلا (ص ١١):

«وبما أن صاحبة الجلالة وضعت تحت سيطرتها شعوبا همجية عديدة، وأمما ذات لغات غريبة؛ وبالانتصار عليهم، أرغموا على تقبل القوانين التي يفرضها الفاتح على المحتل إلى جانب لغتنا، التي من خلال فني، سيتوصلون إلى معرفتها، تماما كما نتعلم الآن فن النحو اللاتيني من أجل تعلم اللاتينية» [١٠].

إن علم النحو لنيبرخا سيمكن الشعوب المحتلة حديثا من قبل الملكة من تعلم اللغة الإسبانية (القشتالية)، كي تفرض القوانين الإسبانية عليها وتتمكن الإمبراطورية الإسبانية من فرض وجودها وتأدية وظيفتها. وستتوسع الإمبراطورية ما توسعت «رفيقتها»، اللغة الإسبانية. وليس ثمة معنى هنا يفيد بأن «القشتالية» تنتمي إلى قشتالة أو إسبانيا بأي معنى طبيعي كان أو أنها تجسد الروح القشتالية. فحِجاجُ نيبرخا سياسي وعملية وقحة: إنْ قشتالة غزت بلدا، ستفرض قوانينها ولغتها داخله. وبما أن تعلم اللغة القشتالية من قبل الشعوب المغزوة يزيد من هيمنة إسبانيا الإقليمية، فإن تبجيلي اللغة والإمبراطورية أضحيا أمرين متلازمين.

وقد كان عمل خوان فالديس Juan de Valdés (١٤٩٥ ـ ١٥٤١). «حوار اللغة» diálogo de la lengua هو بمنزلة نوع أدبي نموذجي من هذه الفترة التي كان فيها الحجاج يصب في مصلحة لغة عامية خاصة، وبشكل مألوف جدا، أو أنه كان يؤكد امتيازات لهجة عامية ما على حساب لهجة عامية أخرى كأساس تقوم عليه اللغة القومية الوليدة. ولكن كان المرجع النهائي دائما، مع ذلك، اللغتين الإغريقية واللاتينية بخاصة، بما أن اللغات المقدسة ليست هي وحدها التي تحدد المعيار الذي ينبغي لأي لغة عامية أن تنسجم معه، وإنما أيضا اللغات التي تحدد الفصاحة. وعلى الرغم من أن معظم الناس ظلوا مقتنعين بأن لا أحد بإمكانه مضاهاتهما، فإن فالديس كان قادرا على الإشارة إلى الطاشقية (العامية المثلى لدانتي) على أنها اللهجة الحديثة التي تم قبولها عموما على أنها حققت تقريبا القدر الكافي لنوع الفصاحة الذي تحظى به اللغات الكلاسيكية. وخلال تلك الفترة أيضا، كان هناك إنتاج أدبي كاف باللغة القشتالية ليتم إدراجه كدليل على الصفات المميزة لجمالية اللغة.

وأما النقاشات التي تدور في شأن أي لغة أو لهجة يمكن اعتبارها الأفضل، فهي تهتم أيضا بقضايا تتعلق بمسألة صفاء (فصاحة) اللغة ونقائها. فاللغة القومية ينبغي لها ألا تستعير الشيء الكثير من اللغات المجاورة لها، خصوصا إذا كانت دائما تحت سيطرتها. ويربط فالديس وجود التنوع اللغوي بشكل مباشر بغياب الوحدة السياسية والاستقلالية داخل دولة ما، وإلى الحقيقة التي لا مفر منها، والتي تقيد بأن لدى المناطق المحيطة داخل دولة ما، على الأقل، شيئا مشتركا مع الدول المجاورة مثلما هي الحال مع المناطق المركزية والمناطق المحيطة بدولتهم:

> «مارسيو (Marcio): وبما أننا نعتبر أساس اللغة القشتالية (الإسبانية) هو اللغة اللاتينية، فيبقى لنا أن نتساءل عن كيف صار التداول في إسبانيا يتم الآن بأربعة أنواع من اللغات، أي الكاتلانية، الفالنسية، البرتغالية والباسكية.
>
> فالديس (Valdés): عادة ما يكون هناك شيئان أساسيان يتسببان في تنوع اللغات في إقليم ما: أما الشيء الأول، فهو يتمثل في كون الأمير أو الملك أو السيد لايتحكمون تماما في هذا التنوع اللغوي الذي ينشأ ويستمر باستمرار تعدد اختلافات

> اللغة وتنوع الأسياد: وأما الآخر، فهو بما أن هناك شيئا ما يربط دائما الأقاليم الحدودية فيما بينها، فسيأخذ كل جزء من إقليم ما شيئا عن الأقاليم المجاورة، ليصبح مختلفا تدريجيا عن الآخرين، ليس فقط من حيث الكلام ولكن أيضا في التخاطب، والعادات. وكما نعلم، كانت إسبانيا في ظل حكم العديد من الأسياد [...]. وإن هذا التنوع في السيادات يسبب، بطريقة ما، حسبما أظن، الاختلاف في اللغات، ولو أن كل واحدة من هذه اللغات تتطابق مع اللغة القشتالية أكثر من أي لغة أخرى، ذلك بأنه على الرغم من أن كل واحدة منها أخذت عن جيرانها كما أخذت كاتالونيا عن فرنسا وإيطاليا، وفالنسيا عن كاتالونيا، «فإنك ترى عموما أنها تعتمد أساسا على اللاتينية، والتي هي كما قلت، القاعدة الأساس للغة القشتالية [...]» (فالديس، ١٩٦٥ [١٥٣٥-٣٦]، ص: ٩ - ٤٧، ترجمة الكاتب) [١١].

إن الاعتقاد في أن القشتالية قد خضعت لتأثير خارجي أقل من الكاتالانية والفالنسية يقوي مزاعمها لأن تكون اللغة القومية لسببين: أولا، لأن سمعتها الإسبانية لم تضعف بشكل كبير، وثانيا: لأنها ظلت أكثر وفاء للجوهر التاريخي للغة، فمن المرجح أن تكون مفهومة لدى الإسبان أكثر من أي لغة أخرى «غريبة» جدا. وفيما يخص الباسكية والبرتغالية، يستمر فالديس في إقصائهما من المعادلة عبر استراتيجيات متعارضة بشكل متناقض: فالباسكية، بحسبه، هي ببساطة بعيدة كل البعد عن باقي اللغات، ومن ثم يتعذر عليهم فهمها، في حين أن البرتغالية قشتالية في الأساس، مع اختلافات طفيفة في النطق والتهجئة [١٢].

وقد تناول جزء من هذا النقاش أيضا مقدار «التطهير» - أي «اللتننة» Latinisation الذي ينبغي أن تخضع له اللغة العامية. كما أن هذا التطهير، في واقع الأمر، ينزع عنها صفتها «الطبيعية» التي اقترحت على نحو نموذجي كحجة رئيسة لاستخدامها حتى من قبل أولئك الذين يميلون بشكل كبير إلى ترويضها بمثل هذه الوسائل. وعلاوة على ذلك، يعتبر ما يتم تنقيته جزءا من إسبانية اللهجة، وهذا يضع السؤال حول «أصل» اللهجات الإسبانية على وجه الدقة، وحول ما إذا كان الذي أزيل من الشكل الأصلي هو شيء غير جوهري

و«دخيل». ومن الملاحظ أن فالديس يربط اقتراض اللغة باقتراض الأعراف من الجيران. وهذا ما يجعل مسألة إسبانيتهم بالضبط في موضع السؤال. ويحدد المركز، المحمي من التأثيرات الخارجية، بفضل موقعه الجغرافي، جوهر الطابع القومي وتجلياته اللغوية.

وعلى الرغم من أن استراتيجية إقصاء المحيط فعالة في دعم لهجة مركزية تشكل الأساس للغة القومية، فإنها تسير عكس ما يستلزمه البناء السياسي للأمة. فالشعب الإسباني (أو الإيطالي أو أي شعب كان) هو بناء يقوم على حدود سياسية اعتباطية باعتبار أن وجودها عرضي تاريخيا، وكانت تقع في مكان آخر في أوقات أخرى. وقد أصبح الهدف السياسي والثقافي هو تثبيت الحدود لمنعها من التحرك ثانية (إلا لغرض التوسع). وللقيام بهذا، لا بد من إقناع أولئك الذين يعيشون في المناطق الحدودية للبلد بأنهم يشكلون شعبا واحدا إلى جانب أولئك الذين يوجدون في المركز، وليسوا كذلك مع جيرانهم في الجانب الآخر من الحدود. وإنه لمن الضروري أيضا إقناع أولئك الذين هم في المركز بالشيء ذاته، إذا ما كنا نريد أن يتحفزوا لدفع تكلفة الحرب من أجل الحفاظ على سلامة حدود الأمة. ولعل الفلاحين الذين أدوا الخدمة العسكرية في الأزمنة الغابرة لم يكونوا محتاجين إلى شيء يحفزهم كي ينضموا إلى الجيش. فهم يقومون بهذه الخدمة كلما طلب منهم سيدهم الإقطاعي ذلك، وإن الإمكان الوحيد بالنسبة إليهم للهروب من الأمر الواقع هو مغادرة ضيعتهم قصد البحث عن حياة مجهولة في المدينة أو ما وراء البحار. وفي أثناء المعركة الفعلية، مع ذلك، يحتاج الجندي المسيحي الذي رُبِّي على عدم خشية الموت والسعي إلى ابتغاء الدار الآخرة المجيدة إلى التحفيز الكافي ليقدم أفضل ما لديه دفاعا عن القضية القومية.

ويكمن تألق مفهومي الأمة واللغة القومية بالنسبة إلى هذه الغايات في إمكان تحديدهما بشكل حاسم انطلاقا من اختلافهما عن الجيران الأقرب من المرء، تماما مثلما سيقودنا تحليل تاجفيل Tajfel لذي يقوم على «المجموعة الداخلة» لأن نتنبأ به (الفصل ٤، ص: ٧٦ ـ ٧٧). وإن الكنديين الأنجلوفونيين يعرفون «ماهيتهم» مبدئيا من خلال السمات التي تميز ثقافتهم ولغتهم عن تلك الخاصة بالولايات المتحدة. والشيء ذاته ينطبق على اسكتلندا وإنجلترا، وعلى المناطق الفرنسية تجاه المركز، والصين الشمالية والجنوبية.

وما إلى ذلك. كما أن هذا الاعتماد على الفوارق ذات التنظيم الدقيق بالضرورة، والمتمثل في مسألة القرب، يهب التغيرات المتناهية في الصغر دلالة ثقافية ضخمة. ولعل الجوهر الحقيقي لأي أمة يكمن في داخل خصوصية تافهة سطحيا ـ أي في الحفاظ على الصوت الحلقي الاحتكاكي داخل النظام الصوتي، ولباس التنورة الاحتفائي أو تقديم طبق من طعام يجده الجيران كريها ليجعلوا منه نكتة. وليس من الغريب جدا أن تكون «الماهوية»، هي الصيغة العلمية المتادة لفهم الهوية القومية، إذا ما اعتبرنا أن هذه الهوية اساسية جدا في تجلياتها الأولية.

ولتلخيص ما ذُكر في الفصل الأول (ص: ٢٢)، فإن العلامة اللغوية في السيميائيات، ووفقا لما جاء به سوسير، هي ارتباط دال (نمط صوتي) بمدلول (تصور). فالهوية القومية ـ «الإيطالية على سبيل المثال ـ تصبح دالا لمدلول يوجد أولا على شكل رغبة وحسب. وبقدر كاف من التحفيز، ستصبح هذه الرغبة مشتركة بين قدر كبير من الجمهور في هذه الأمة المفترضة. وفي حال حدوث ذلك، فإن المدلول، أي «الشعب الإيطالي»، يصبح حقيقيا، اي مدلول آخر، باعتباره مفاهيم أو فئات بدلا من أشياء مادية حقيقية.

تصور اللغة بمنزلة جمهورية: دو بولاي (Du Bellay)

ومن الممكن أن يكون الإيطاليون والإسبان قد أنتجوا الأبحاث الأولى، والمحاورات وكتب النحو والصرف، مشددين على أن لغتهم العامية، أو اي شكل منها، يمكن أن تتناول فصاحة اللغات الكلاسيكية، بعكس باقي أوروبا الغربية التي لم تنتظر كثيرا لتعمل عملا مماثلا. وقد كتب جواكيم دو بولاي Joachim Du Bellay (١٥٢٢ ـ ١٥٦٠) كتاب «دفاع اللغة الفرنسية و بيانها» defense et illustration de la langue françoyse (١٥٤٩)، بنية إثبات أن الفرنسية كانت جديرة بأن تستخدم في كل من الكتابات الأدبية والعلمية بالقدر نفسه الذي كانت تستخدم به اللاتينية واليونانية. ومعظم الأدلة التي سيقت في «الدفاع والبيان» كانت قد قدمت من قبل سبيرون سبيروني Sperone Speroni (١٥٠٠ـ٨٨) في إيطاليا، ومن قبل الكتاب الفرنسيين الأوائل خلال القرن السادس عشر مثل جوفروي طوري Geoffroy Tory (١٤٨٠ـ١٥٣٣) في «شون فلوري» Champ fleury (١٥٢٩). ولكن هذا لم يمنع

بحث دو بولاي من أن يكون له وقع كـبـيـر في زمنه، ويـبـقى إلى يومنا هذا مصدرا مقررا في التعليم الفرنسي. وكما هي الحال بالنسبة إلى دو بلاي، يقدم دو بولاي القوانين اللغوية والسياسية للأمة على أنهما أمران مرتبطان بشكل مباشر:

«ربما سيأتي اليوم ـ ولكم أتمنى قدومه، مرفقا بقدَر سعيد لفرنسا ـ الذي سيتولى فيه هذا الملكوت القوي والنبيل، بدوره، زمام الهيمنة العالمية، والذي ستتفجر فيه لغتنا (هذا إن لم تكن قد دفنت مع فرنسوا الأول [١٥٤٧])، التي لا تزال في بداية تثبيت جذورها، في الأرض لترتقي إلى مستوى عال، يمكنها من مقارعة اليونانيين والرومان انفسهم [...]» (دوبولاي ١ ـ ٣، ترجمة الكاتب) [١٣].

ويقر دو بولاي بالمفارقة التي تقتضي أنه كي تبلغ الفرنسية الفصاحة الضرورية، ينبغي لها أن تأخذ بعناصر اللغات ومظاهرها التي تسعى إلى مضاهاتها. ويعبر عن هذه الفكرة في هذه الفقرة التالية من خلال عبارتين مجازيتين، حيث تعتبر العبارة الأولى اقتصادية (تستطيع لغتنا أن تردَّ ما اقترضته)، والثانية زراعية (ستنتج ثمارا لأولئك الذين يحرثونها)، قبل أن يربط كل هذا بحب البلاد بشكل مباشر.

«إن لغتنا الفرنسية ليست ضعيفة جدا إلى الحد الذي يجعلها غير قادرة على إرجاع ما اقترضته من الآخرين بوفاء، ومُجدِبة جدا حتى تعجز عن إنتاج ثمار خاصة بها نابعة من اختراع جيد، يتم الحصول عليه عبر الصناعة، ومثابرة أولئك الذين يقومون بفلاحتها، شريطة أن يكون لبعض من هؤلاء ما يكفي من الحب لبلدهم ولأنفسهم كي يتمكنوا من إنجاز هذه المهمة» (١، ٤) [١٤].

إن اقتراض الكلمات يشكل تقريبا هاجسا بالنسبة إلى دو بولاي، وهذا أمر مفهوم، بما أن الحاجة إليه تسلم بفقر في اللغة، وفي الوقت ذاته تعزز من إمكان إغنائها. ومن ثم، فإن البحث اللامتناهي عن استعارات يمكن من خلالها تسويغ الاقتراض ـ والذي يعتبر ما سيأتي اكثرها أهمية، إذ يتخيل فيها دو بولاي اللغة نفسها على أنها المرادف لأمة ما، والكلمات الفردية

على أنها مهاجرة تكون قد خضعت لعملية التجنيس بشكل كامل وقد لا تكون قد خضعت له، مما يعني امتصاصها من قبل الهوية القومية («العائلة»):

> ينبغي على المترجمين الا يقلقوا إذا ما صادفوا أحيانا كلمات لا يمكن نقلها إلى العائلة الفرنسية، باعتبار أن الرومان لم يصروا على ترجمة مفردات يونانية من قبيل: علم البلاغة، والموسيقى، وعلم الحساب، وعلم الهندسة، والفلسفة [...] وأكثر المصطلحات المستعملة في العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية عموما. وإذن، ستكون تلك الكلمات في لغتنا مثل الغرباء في مدينة ما [...]. ومن ثم، إذا كانت الفلسفة التي زرعها ارسطو وأفلاطون في الحقول الخصبة لأتيكا Attica قد أعيد زرعها في سهولنا الفرنسية، فهذا لا يعني رميها في العلّيق والأشواك حيث ستكون عقيمة، بل تحويلها بالأحرى من شيء بعيد إلى شيء قريب، ومن مغترب إلى مواطن في جمهوريتنا» (١٠، ١) [١٥].

ومن ثم، فإن كلا من اللغة والثقافة شبيهتان «بجمهوريات»، تسكنها كلمات من جهة وأفكار من الجهة الأخرى [١٦]. وبطبيعة الحال، ليس كل عنصر أجنبي يدخل إلى الجمهورية ستمنح له الجنسية، ولكن سيرحب بأولئك الذين يقدمون نفعا كبيرا لها، وسينمون بقوة، مثلما تنمو البذور المزدرعة، على تربة فرنسية وأكثر من هذا كله، سيتحولون إلى نباتات فرنسية. وإنه لمن المهم أن يقول دو بولاي تحديدا «غرباء في مدينة»، اي المدن حيث تختلط أعداد كبيرة من السكان بشكل كبير، وحيث من المرجح مصادفة الغرباء، وحيث أيضا ظهور اللغة القومية ـ التي كانت جزئيا بمنزلة لغة مشتركة بالنسبة إلى أولئك الذين يفدون إلى المدينة من مختلف المناطق اللهجية، لأن المدينة كانت، إلى حد ما، الموضع لتلك المؤسسات، القانونية، والحكومية، والتعليمية، والاتصالية التي سيكون لها الدور الرائد في تشكيل اللغة.

وإن أحد التحولات الرئيسة التي ظهرت في الفكر الأوروبي على امتداد القرنين والنصف الأخيرين، والذي سيؤدي إلى ظهور العصر الرومانسي، يتجلى في الاعتقاد الراسخ أن المدن، وبسبب عنصرها الأجنبي القوي، ليست في الواقع جزءا من الأمة على الإطلاق. وإن الأمة الحقيقية تكمن في البلد ـ وهو اعتقاد

متاصل في الغموض الذي يكتنف كلمة «بلد» ذاتها. إذ تعني إما الأمة أو مقابل «مدينة» (كما هي الحال بالنسبة إلى متجانسيها في العديد من اللغات الأخرى). وكما رأينا سلفا، فالسؤال عن ماهية الأمة في الواقع، غير غائب عن المناقشات اللغوية لعصر النهضة، لكنه يعمل عمل تقاليد بلاغية مألوفة Topos ضمن تقاليد مألوفة أخرى عديدة داخل حجج تهدف إلى توسيع النطاق الوظيفي للغة أو لهجة معينة. وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر، حظي ذاك السؤال بتركيز ودلالة كبيرين جدا، حتى أصبح في أمريكا وفرنسا عملا ثوريا. وفي ألمانيا، على الأقل في البداية، تأملا فلسفيا. ومع بداية القرن التاسع عشر، دفعت به التطورات السياسية إلى ما وراء النطاق الفلسفي بالنسبة إلى الألمان وكل أوروبا في واقع الأمر. كما أن الأصل الحقيقي للتصورين الحديثين، «أمة» و«قومية» ظهر في رحم هذه التطورات المعقدة خلال أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، وإن كان هذا الأصل - تحديدا - مازال يثير جدلا واسعا. وقد تم التطرق إلى بعض من هذا الجدل سلفا لما تمت الإشارة إلى كيدوري. وسيكون فيخته (Fichte)، الذي يعتبر واحدا من الشخصيات البارزة لدى كيدوري، موضوع نقاشنا في القسم التالي.

دراسة فيخته للغة والقومية

لقد تمكن الجنرال نابوليون بونابرت من إحكام سيطرته على الحكومة الفرنسية إلى العام ١٧٩٩. وفي ١٨٠٢، أصبح أيضا رئيسا للجمهورية الإيطالية. وفي ١٨٠٤ انتخبه مجلس الشيوخ الفرنسي والفرنسيون إمبراطورا عليهم. وخلال السنوات الست المقبلة، وسع من إمبراطوريته لتشمل معظم أوروبا. وفي هذه الفترة بالذات التي قام فيها مفكرون رومانسيون ألمان، والذين كان العديد منهم معجبين بنابوليون في السابق باعتباره الشخصية المجسدة للإرادة الإنسانية، بمعالجة حقيقة انهزام بلدهم أمامه والنظر في التخلص من مشكلة جعلتهم أهدافا إمبريالية له. ومن هذه التجربة برزت حجة أن هذا النظام الإمبريالي جائر، لأنه طبيعي بالنسبة إلى كل أمة أن تحكم نفسها بنفسها.

ولكن ما هي الحدود الطبيعية للأمة؟ لقد كان هذا هو السؤال الرئيس الذي بدا جوابه واضحا للجميع في هذه الفترة حينما كان التعريف السائد «للأمة» يركز على التوسع الإقليمي. وكانت الحدود الطبيعية تتمثل في الحواجز

الجغرافية، والشواطئ البحرية، وأي سلسلة جبلية أو أنهار كبرى تقف سدا منيعا في وجه الخطر الذي قد يشكله جيران الأمة. ولكن انطلاقا من هذا الجواب، لم يكن هناك أي شيء من حيث المبدأ يمنع «أوروبا» من أن تعتبر «أمة» بدلا من إمبراطورية تتشكل من أمم. وليس ثمة حواجز طبيعية داخلها لا تذلل (باستثناء القناة الإنجليزية). ومن المؤكد أنه لم يكن هناك بشكل خاص أي حاجز مائي أو بري ضخم يحدد أمتهم بوصفها مميزة عن جيرانهم في الشرق أو الغرب، وهذا أمر يهم الرومانسيين الألمان أكثر من غيرهم.

وإذا كان لابد من الحفاظ على حق الأمة الألمانية في الاستقلال بشيء أساسي في العقل الرومانسي أكثر من مجرد اختلاف تاريخي، بشيء غير جغرافي، ولكنه معقول في أساسه، فلا بد للحاجز «الطبيعي» من أن يحدد. ولعل أحد الحلول لهذه الإشكالية كان العودة إلى الانتماء الديني، الذي قام عليه صرح ما قبل العصر الحديث كله للسلالة الحاكمة. ولكن كل أوروبا كانت مسيحية بشكل رسمي، وعلى الرغم من قوة الفوارق المذهبية في المسيحية الغربية، خصوصا تلك التي تفصل البروتستانت عن الكاثوليك الرومان، فإن الألمان على الخصوص لم يستطيعوا تجاوزها من دون أن يضعفوا الوحدة الغربية في وجه أي مخاوف قائمة بشكل دائم يمثلها السلف الأرثوذكسيون (الصقليون) في الشرق. وإضافة إلى ذلك، كان للفكر الأوروبي السائد في أعقاب عصر الأنوار أسس علمانية. فالنقاشات المبنية على أساس ديني كان لها مظهر الانتماء إما إلى عصر قد مضى أو إلى ميدان متخصص بشكل متزايد في اللاهوت.

وأما أكثر الأجوبة قوة في الإقناع، فقد كانت تلك التي صاغها فيخته العام ١٨٠٦ في «خطاب وجهه إلى الأمة الألمانية»، حيث أظهر فيه أن ما يحدد أمة ما هو لغتها بشكل أكثر وضوحا:

> «إن الحدود الطبيعية الأولى والأصلية للدول بشكل دقيق هي - من دون شك - حدودها الداخلية. وجميع أولئك الذين يتكلمون اللغة نفسها عددا كبيرا من الروابط الخفية نسجتها الطبيعة نفسها منذ عهد بعيد، قبل أن يبدأ أي فن إنساني. ويفهم هؤلاء بعضهم ولديهم قوة الاستمرار في تمكين الناس من فهمهم بشكل أكثر وضوحا. وينتمون إلى جسد واحد وهم كل طبيعي متلازم لا يمكن فصله». (فيخته، ١٩٦٨ [١٨٠٨] ص: ١٩٠-١).

ومع ذلك، فاللغة بالمفهوم الأبيقوري، وضمن السياق الذي كتب فيه فيخته، كانت لا محالة المرشح الواضح الذي يشكل السمة المميزة للأمم. وقد كان يعتقد أن معظم اللغات الأوروبية كانت تنحدر من لغة ذات أصل مشترك، مع وجود اختلافات تتعلق فقط بالحصيلة الثانوية التاريخية لمجموعات فرعية مختلفة للقبيلة الأصلية، والتي استقرت في أجزاء مختلفة من القارة، وفصلتها الحواجز الجغرافية التي كانت تعتبر الحدود الطبيعية والأصلية للأوطان، لتبقى معزولة نسبيا لفترات طويلة من الزمن. ولكن فيخته قلب هذه الآراء التقليدية رأسا على عقب:

> «فانطلاقا من هذا الحاجز الداخلي [اللغة]، الذي رسمته طبيعة الإنسان الروحية ذاتها، يبقى تحديد الحاجز الخارجي من خلال مكان الاستقرار تحصيل حاصل. فالناس يشكلون، من المنظور الطبيعي للأشياء، ليس لأنهم يعيشون بين بعض الجبال والأودية، ولكنهم على العكس من ذلك، فالناس يعيشون جنبا إلى جنب ـ وإذا حالفهم الحظ ورتب لهم ذلك، حماهم بالأودية والجبال ـ لأنهم كانوا قبل ذلك شعبا، استنادا إلى قانون الطبيعة الذي هو أكثر حسما.
>
> ومن ثم، كانت الأمة الألمانية ـ الموحدة بشكل كاف في داخلها بواسطة لغة مشتركة وطريقة تفكير مشتركة، ومنفصلة بشكل واضح جدا عن باقي الشعوب ـ في وسط أوروبا بمنزلة جدار يفصل الأعراق غير المتجانسة [...]» (المرجع السابق نفسه)

وقد كان لكتابات فيخته دور مهم في استنهاض همم الألمان ضد النظام النابليوني. ولم تكن القضية التي ناصرها فيخته، مع ذلك، سياسية بحتة فحسب. فلقد ذاع صيتها عاليا جدا لمجرد كونها توافقت كثيرا مع النسق الفكري للرومانسية الألمانية بوجه عام. وبما أن هذه القضية مثالية جديدة في طبعها، فإنها كانت موجهة نحو عالم المثل الخالدة، ولا تضع الحقيقة في عالم التجليات السطحية البسيطة والعوارض التاريخية، بل في الجوهر الثابت والدائم للأشياء. وفيما يختص بأمة ما، فإن جوهرها يوجد، في شكله البحت، في مؤسسها، وإن ذلك الجوهر المترسخ في مكنونه يبقى ما بقي تاريخ الأمة بأكمله،

ليزودها بالقاعدة الأساس التي تقوم عليها اللغة، والثقافة، وطريقة التفكير والمنجزات الفنية والفكرية. ومع ذلك، فإن الاختلاط بالأمم الأخرى يعني إضعاف هذا الجوهر:

«إن هذا الكل [بما أن الأمة تعرَّف انطلاقا من اللغة]، إذا ما رغب في أن يمزج ذاته بأي شعب آخر ذي سلالة ولغة مختلفتين، فإنه لا يستطيع القيام بذلك، من دون أن يعتريه غموض واضطراب، في البداية على كل حال، ومن ثم، ومن دون أن يعيق بشكل عنيف تقدم ثقافتها».

إن هذا المظهر الخاص للفكر الرومانسي الذي انبثق منطقيا من مبادئه المؤسسة له، سيؤدي إلى تطور «العنصرية العلمية» انطلاقا من منتصف القرن التاسع عشر إلى غاية منتصف القرن العشرين، مخلّفا نتائج هائلة أكثر من أي شيء في التاريخ غير الإنساني كله للإنسانية. عما إذا كانت أي من تلك الكتابات في هذه الفترة قد تنبأت بهذه التطورات، فتبقى مسألة خاضعة للتأويل والنقاش، غير أنه في حالة فيخته، يمكن للمرء أن يكون واثقا جدا من أن نيته كانت إنقاذ الأمة الألمانية، ولغتها، وثقافتها مما كان يبدو آنذاك هيمنة مطبقة للفرنسية، مع نسبة ضئيلة من الاعتقاد أنه في يوم ما قد يقوم أبناء وطنه باستحضار معادلته التي تقول بنظرية الامتصاص بنوع من الخلط على أنها جزء من أساس منطقي للإبادة الجماعية.

رينان ومناظرة كيدوري ـ فيلنير

لقد حدثت في منتصف الطريق بين نابليون وهتلر واقعة وضعت فرنسا في موقع شبيه جدا بتلك المواقع التي شعر بها الألمان أنفسهم قبل سبعة عقود. فقد وحدت بروسيا، الأمة الألمانية بقيادة أوتو فون بسمارك بين الفترة الممتدة ما بين ١٨٦٣ و١٨٧١، عبر سلسلة من الحروب التي خاضها و حقق فيها انتصارات على الدنمارك، والنمسا، وفرنسا. وشكلت الحرب الفرانكو ـ بروسية التي انتهت بحصار باريس في العامين ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ لحظة فاصلة بالنسبة إلى القومية الحديثة في عدة جوانب: فقد انتهت بالإعلان عن الإمبراطورية الألمانية ـ وهي ألمانيا الحديثة التي نعرفها حاليا ـ وضمها لألزاس ـ لورين Alsace-Lorraine، وهي مناطق كانت تخضع تارة للحكم الفرنسي، وتارة أخرى للحكم الألماني، حيث

اللهجات المحلية جرمانية. ولكن الولاء السياسي لعامة الناس لفرنسا بشكل قوي. وظلت فرنسا تقاوم الإمبراطورية الألمانية الحديثة بعد استسلام ما تبقى من فرنسا، فخضعت ولمدة شهرين لحكومة الكوميون، التي هي حكومة «شيوعية» بروليتارية منظمة على نحو غير مقيد. لكنها سحقت أخيرا على يد الحكومة المؤقتة الوطنية الفرنسية التي تشكلت عقب المعاهدات مع البروسيين.

وقد كان لهذه الأحداث وقع كبير على نفسية الفرنسيين، مشابه لذاك الوقع الذي خلفته انتصارات نابوليون على الألمان في مطلع القرن، والتي أنتجت كتابات فيخته حول القومية وأمورا أخرى عديدة. وكانت المناقشات الفيختية حول اللغة، بوصفها محددا لأمة ما بشكل طبيعي، تشكل الدعامة الأساسية للمسوغات الألمانية لضمها ألزاس ـ لورين. لقد شكلت هذه الطريقة في التفكير التصور الأوروبي الحديث للقومية بشكل قوي جدا إلى درجة أن الفرنسيين أنفسهم الذين كانوا يعتقدون بإخلاص بفرنسية ألزاس ـ لورين بشكل لا يقبل المساومة، لم يستطيعوا أن يجدوا طريقا واضحا يردون من خلاله على الدليل اللغوي. وكرد فعل من لدن اللغوي ارنست رينان، الذي أنتج في النهاية تصورا جديدا للقومية. إن هذا التصور بالذات هو الذي سيصبح القاعدة الأساس للمبادئ الولسونية، إذ بمقتضاها أعيد رسم خريطة العالم للقرن العشرين في فرساي العام ١٩١٩.

لقد كان يذكر عموما خطاب رينان للعام ١٨٨٢ «ماهي الأمة؟» «Qu'est-ce qu'une nation?» (*) باعتباره خطابا مهما جدا. ويبدأ تصوره للأمة انطلاقا من الفكرة الرومانسية التي تقول «بتقاسم النفس» (âme) و(هي كلمة تعني «الذهن» و«النفس» على حد سواء)، كما كان متوقعا من شخص تبلورت مقاربته للغة، والعقل، والعرق في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، تحت تأثير هيردر (انظر الفصل الثالث، ص: ٧١). ولكنه تجاوز الفكر الرومانسي عندما قام بتفتيت النفس إلى أجزاء أساسية: إرث الذاكرات، إضافة إلى إرادة تملك مقومات الاستمرارية في إقرار شرعية ذلك الإرث من الذاكرات:

> «إن الأمة نفس، مبدأ روحي. وإن ثمة شيئين يمثلان، في حقيقة الأمر، شيئا واحدا في تشكيل هذه النفس. ذلك المبدأ الروحي. اما الشيء الأول، فموجود في الماضي، في حين الشيء

(*) إن هذا النص كتب أصلا بالفرنسية لصاحبه إرنست رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢)، ويعد إحدى الركائز التي أسست للفكر القومي في أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد ألقى رينان، المستشرق الفرنسي، هذا النص في صورة محاضرة في جامعة السوربون بباريس في ١١ مارس سنة ١٨٨٢ وكان رينان كاثوليكيا تحول بعد ذلك إلى عقلاني علماني بكل المقاييس [المترجم].

الآخر قائم في الحاضر. فالشيء الأول يمثل ملكية مشتركة لإرث غني من الذاكرات، وأما الثاني، فهو التوافق الحاضر، والرغبة في العيش سويا، والإرادة التي تملك مقومات الاستمرارية في إقرار شرعية الإرث الذي تم توارثه بشكل مشترك» (رينان، ١٨٨٢، ص: ٢٦، ترجمة الكاتب).

وبتعبير آخر، توجد الأمة في الذكريات والإرادة ـ أذهان الشعب الذي شكلها. وهذا هو التصور، الذي عاد إليه أندرسون (١٩٩١، ص: ٦) في تعريفه للأمة بوصفها «جماعة سياسية متخيلة». إن إرث الذاكرات الذي أشار إليه رينان سيهيمن على المحاولات الأكاديمية والفلسفية المستقبلية في تحليل الهوية القومية. وأما العنصر الآخر، «الإرادة» الجماعية للشعب، فسيكون له مع ذلك الوقع السياسي الأعمق، انطلاقا من فرساي. وستظل الأساس المفترض لشرعية الأمة السياسية حتى الفترة الراهنة.

وسيظهر رينان في قلب المناظرة الكبرى الأولى في الخطاب المعاصر للقومية، التي ستقام بين دارسين يهود بعد الحرب العالمية الثانية بسنوات: كيدوري الذي ترعرع في العراق، وهي دولة استحدثت لغايات إدارية بريطانية، استقر في دولة إسرائيل الجديدة إبان إنشائها، ولكنه سرعان ما اجتذبته مهنة أكاديمية إلى لندن. وأما الدارس الثاني، فهو إرنست غيلنير Earnest Gellner (١٩٢٥ ـ ٩٥)، الذي هرب من بطش النازية الألمانية، مثله مثل هانس كوهن Hans Kohn، ليلجأ إلى لندن بدلا من أمريكا. فأصبح غيلنير وكيدوري صديقين، وكل منهما يعترف للآخر بالدور الذي قام به في تشكيل آرائهما المتضاربة بشكل أساسي حول طبيعة القومية. وهي آراء تعكس تجاربهم المختلفة في الحياة بشكل مهم.

ويختلف غيلنير عن كيدوري في مسألتين جوهريتين: أما المسألة الأولى، فيعتقد غيلنير أن رأي كيدوري في شأن القومية بوصفها «مذهبا اخترع في أوروبا في بداية القرن التاسع عشر» (ص: ١٣٦ أعلاه) حولته من التطور التاريخي العام، والطبيعي، والضروري الذي كان يفترض وجوده، إلى شيء محتمل تماما، واختراع عرضي، ومنتج ثانوي لخربشات مجموعة من المفكرين في حالة تاريخية معينة (غيلنير، ١٩٩٧، ص: ١٠، هكذا أورد أحرف الطباعة المائلة في النص الأصلي). ويحسب غيلنير كيدوري ذلك الشخص الذي أيقظه من

سباته القاطع في شأن هذه النقطة ـ فقد ظللت أفترض، أو على الأقل لا أنتقد بوضوح الرأي القومي ذا «الصبغة الطبيعية» إلى أن قرأت هذا الكتاب (المرجع السابق نفسه). ولكن بينما أخذ غيلنير فكرة كيدوري، التي تفيد بأن الأمم لا تمثل تطورا تاريخيا شديدا بالنسبة إلى كل الشعوب حيثما كانوا. فإنه يرفض الاستنتاج الإضافي الذي يقضي بأن تكون القومية مجرد حدث أيديولوجي لم يكن له أن يحدث، لو لم يكتب كانت وفيخته ما كتباه:

«إن القومية ليست عامة ولا ضرورية، ولا هي محتملة وعرضية، وثمرة أقلام تافهة وقراء سذج. بل هي النتيجة الضرورية أو المتلازمة لبعض الأوضاع الاجتماعية، وهذه أوضاع تتصل بأوضاعنا، وهي أيضا منتشرة جدا، وعميقة، وعامة. وعليه، فالقومية ليست شيئا عرضيا: إن جذورها عميقة ومهمة. إنها قدرنا في واقع الحال، وليست نوعا من مرض طارئ، مفروض علينا من لدن مؤلفين تافهين من مؤلفي عصر الأنوار من الفترة الأخيرة. ولكن من ناحية أخرى، إن الجذور العميقة التي أنشأته ليست حاضرة بشكل عام، وبهذا فالقومية ليست قدرا محتوما بالنسبة إلى كل الناس. وإنما من المحتمل أن تكون قدرا محتوما بدرجة عالية بالنسبة إلى بعض الناس، في حين لا ينطبق هذا الوضع على كثيرين آخرين. وإن مهمتنا تتجسد في إبراز الفرق الذي يفصل الإنسانية التي لها قابلية القومية عن الإنسانية المقاومة لها» (غيلنير، ١٩٩٧، ص: ١٠ ـ ١١).

وبينما لا يرغب المرء في أن يفسر كل شيء ببليوغرافيًا، فإنه يستطيع بسرعة فهم كم أن هذه المهمة كانت تبدو أمرا مستعجلا بالنسبة إلى شخص فقد أفراد عائلته تحت رحمة إبادة النظام القومي بشكل متعصب، وكيف تراءى لهذا الشخص أن تصور القومية، باعتبارها مجرد تجريد أيديولوجي، كان غير مقنع بصورة عميقة.

وعلى كل حال، حينما بدأ غيلنير المهمة التي حددها لنفسه، كان أحد العوامل البارزة في تبني الناس للقومية بالنسبة إليه هي امتلاكهم لغة مشتركة، وهي العامل الذي أشار إليه فيخته بالذات. ونتيجة لذلك، اتجهت الثقافة المعاصرة حول القومية والهوية القومية، تحذو في ذلك حذو غيلنير، إلى اعتبار اللغة عاملا أساسيا، وهو اتجاه استمد سندا من روح «ما بعد بنيوية» ترى كل البنيات الاجتماعية بمنزلة تشكلات لغوية. وإن البديل

الكيدوري، الذي تنحدر فيه منزلة اللغة من قوة ملزمة أساسية للأمة إلى مجرد أحد المواقع الأيديولوجية المختلفة داخل الخطاب القومي، سيجد أصداء في مناقشات أولئك المابعد - بنيويين المحترسين جدا من الماهويات أن تخصص للغة أو أي عامل آخر دورا تأسيسيا [١٧].

وأما الفكرة الثانية التي يختلف فيها غيلنير عن كيدوري بشكل جوهري، فتتمثل في تصور كيدوري الكانتي للأمة بوصفها شيئا مشكلا على غرار المثل الرومانسية للفرد. فبالنسبة إلى غيلنير، تعد الأمة اجتماعية في بنيتها من القمة إلى القاع. ودعما لهذا الطرح، استحضر بشكل ممتاز رأي رينان (١٨٨٢، ص: ٢٧)، الذي يعتبر أن «وجود أمة ما هو - وأستسمح عن هذه الاستعارة - استفتاء عام يتم بشكل يومي [...]» [١٨]، بالإضافة إلى وصفه للبنية العقلية للأمم على أنها تقوم ليس على ذاكرات مشتركة وحسب، كما كان مفترضا على نحو عام، ولكن أيضا على نسيان مشترك، أي على وضع الخلافات جانبا بين المجموعات التي تشكل الأمة، من دون الانقطاع عن التفكير أيضا في أن هناك وقتا لم تكن فيه هذه المجموعات متحدة كأمة (انظر القسم التالي).

وهناك بعض السخرية، في رأي رينان، يتم الآن تذكره على نطاق واسع جدا، لهذه الآراء الحداثية التي تم سبرها، مع الأخذ بعين الاعتبار، وكما أشرنا سابقا، أنه أحد أبرز مفكري القرن التاسع عشر اللغويين الذين طوروا الرؤية الماهوية للغة إلى أقصى حد. وفي عمله الشهير الذي يتناول فيه مسألة أصل اللغة، يتبع رينان الرأي الرومانسي الألماني، الذي عبر عنه هومبلت (انظر الفصل الثالث، ص: ٧٢)، بحيث يرى أن بنية اللغات لا بد أنها تبلورت بشكل كامل في لحظة نشأتها (رينان، ١٨٥٨، ص: ١٠٥ - ٦). كما يعتقد رينان أن الإنسان البدائي أنشأ اللغة بشكل عفوي، مثل الطفل، لم يخلقها باستعمال إرادته (المرجع نفسه، ص: ٩٨)، بل بترك اللغة تتدفق تلقائيا وطبيعيا من بنية ملكاته المادية والعقلية (رينان، ١٨٥٨، ص: ٩٢ - ٣). وعموما، ينضم رينان إلى آراء هيردر إلى حد بعيد، لكنه يضرب عرض الحائط برأي من يعتبر أن التأمل كان مفتاح أصل اللغة، ويعود بدلا من ذلك إلى شيء يشبه الفكرة الأبيقورية للغة التي تنشأ عن الجسد - وبشكل أكثر دقة، عن الجسد الإثني (انظر الفصل الثالث، ص: ٧٠). كما يعتقد رينان، مثل فيخته وهمبولت، أن «عقل كل شعب يوجد في ارتباطه الوثيق بلغته [...]» (رينان، ١٨٥٨، ص: ١٩٠) [١٩].

«الجماعات المتخيلة» عند أندرسون و«القومية المبتذلة» عند بيليغ

سيظهر التوافق بين رينان وغيلنير بشكل واضح جدا في تعريف بينديكت أندرسون المؤثر للأمة «كجماعة سياسية متخيلة»:

«إنها متخيلة لأن أعضاء الأمة الصغرى نفسها لا يعرفون أبدا معظم زملائهم، ولا يلتقون بهم، ولا حتى يسمعون عنهم، ومع ذلك تحيا صورتهم في أذهان كل واحد منهم. وقد أشار رينان إلى هذا التخيل بطريقة رقيقة وغير مباشرة عندما كتب أن «جوهر أمة ما يتجلى في أن كل الأشخاص لديهم أشياء كثيرة مشتركة، كما أن لديهم أشياء كثيرة قد طالها النسيان». وببعض الشراسة، يقوم غيلنير بمقارنة عندما قرر أن «القومية لا تعني استيقاظ الأمم بوعيها الذاتي: وإنما القومية تبتكر الأمم في أماكن لا وجود لهذه الأمم فيها» (أندرسون، ١٩٩١، ص: ٦) [١٠].

وفيما يتعلق «باكتشاف» لغة قومية، فإن جزءا مهما من ذلك الابتكار أو تخيل أمة ما يتمثل في خلق فكرة تفيد بأن الأمة لم تُبتكر بعد. وبتعبير آخر، يجب نسيان ابتكارها. ذلك لأنه إذا ما ابتُكرت، فإن الأمة قد تتصوَّر على أنها شيء مصطنع، واعتباطي، وعرضي في طبعه. ومن ثم سيسبب هذا، فيما يبدو، ضحالة صحتها بشكل كبير. بالعكس، يجب أن تقوم الأسطورة على أن الأمة كيان طبيعي، ذو مصداقية راسخة أعيد اكتشافها من جديد. فإذا كانت الأمة المشار إليها غير موجودة باعتبارها أمة عبر التاريخ المدون برمته، فإن الأسطورة (أو بشكل عادي أكثر، مجمع الأساطير) آنذاك ستمتد إلى الوراء لتصل إلى فترة ما قبل التاريخ بقدر الحاجة، فترسخ مبدأ مطالبتها بالشرعية، ثم يمضي أندرسون في شرح أن الأمة:

«[...] متخيَّلة كجماعة، لأنها، وبغض النظر عن التفاوت الحقيقي والاستغلال اللذين قد يسودان كل أمة على حدة، تعتبر دائما بمنزلة رفقة أفقية عميقة. وفي نهاية المطاف، إن هذا الإخاء هو الذي يجعل منها أمرا ممكنا على امتداد قرنين من الزمن قد مضيا، بما أن ملايين كثيرة من الناس كانوا مستعدين أن يموتوا من أجل هذه التخيلات المحدودة» (المرجع السابق نفسه، ص: ٧).

إن كلتا البنيتين التنظيميتين الأساسيتين اللتين سبقتا التصور الحديث للأمة، الجماعة الدينية والسلالة الحاكمة، عموديتان وليستا «أفقيتين» في نسقيهما. فالسلطة تنبع من الإله لتصل إلى السلطة العليا للإنسان، سواء كانت دينية أو علمانية، ومن هناك إلى بقية المجتمع. وقد كانت السمة المميزة للفكر الحديث اعتبار هذه التسلسلات الأفقية شيئا وهميا، لا تخدم سوى مصالح من هم في قمة الهرم، وقهر من هم في أسفله. وهكذا، استبدلوا، إلى حد ما، بالأمة «الأفقية»، حيث يتم التعامل، إلى حد ما، مع كل مواطن فيها على قدم المساواة. وإن مسألة أن يقطنوا في إقليم متاخم أصبحت أساسية، إذ إن هذا يعمل على تجاوز الاختلافات في الدين، والثقافة، والطبقة الاجتماعية، إلى غير ذلك. ولكن، كيف يمكن تحفيز الناس على القتال، حتى الموت إذا دعت الضرورة لذلك، باسم الأمة - غالبا ضد أعضاء آخرين ممن ينتمون إلى دياناتهم، على سبيل المثال؟ من أجل هذا كانت الميثولوجيات الجديدة أمرا مطلوبا.

وباعتماد أندرسون بشدة على تفسير سيتون - واتسون (١٩٧٧) للقومية بوصفها تعتمد على الفرق اللغوي، فإنه يعزو تشكيل الأساطير القومية، التي بدأت في عصر النهضة، إلى تحول:

> «من فكرة أن رسما كتابيا للغة خاصة يقدم توصلا مميزا إلى حقيقة وجودية، لأنها كانت، على وجه الدقة، جزءا لا ينفصل عن تلك الحقيقة. [...] فلقد كان البحث قائما على إيجاد طريقة جديدة لربط - إذا جاز التعبير - الإخاء، والسلطة، والوقت معا على نحو معبر. وربما ليس ثمة شيء يعجل من هذا البحث، ولا يجعله أجدى من الطباعة الرأسمالية، التي مكنت عددا متزايدا من الناس، وبشكل سريع، من التفكير في أنفسهم، ومن ربط أنفسهم بآخرين، بطرق جديدة للغاية» (أندرسون، ١٩٩١، ص: ٣٦).

تجد هذه التصورات الذاتية الجديدة للغاية قالبا جاهزا تشتغل في إطاره: فاللغات القومية، التي يظن أندرسون أنها ظهرت في القرن السادس عشر باعتبارها تطورا تدريجيا، وغير واع بذاته، وعمليا، حتى لا نقول عشوائيا (المرجع ذاته، ص: ٤٢). وفي أصولها، يعتبر تحديد اللغات المطبوعة والمفاضلة بينها في المنزلة عمليات غير واعية لذاتها على نطاق واسع (المرجع ذاته، ص: ٤٥)، وستتم مساءلة هذه الآراء، والتدقيق فيها في القسم التالي.

فالقومية ليست بالضرورة الهوية التي يموت معظم الشعب من أجلها، فالهويات الإقليمية والمحلية مهمة، كما هو الشأن بالنسبة إلى هويات الطبقة الاجتماعية، والعرقية، والدينية، والطائفية. وإن الهوية اللغوية نفسها يمكن لها أن تكون هدفا في حد ذاته، وإن كانت تسير في اتجاه يحولها إلى تعبيرات شبه عرقية. وإذ نأخذ بعين الاعتبار أهمية الهويات في تحديد الماهية، التي يعتقد الأفراد أنها تمثل كنههم بحق، فإن المرء ليتوقع أن تؤسس هذه الهويات في كل حالة على أساس عميق جدا، مثل مكتبات من النصوص بأكملها التي تدون آلاف السنين من التقليد الثقافي. وعادة ما كان ذلك ينطبق على البنيات التنظيمية القديمة للجماعات الدينية والسلالة الحاكمة، ولكن البنيات الحديثة كالأمة تقوم بشكل نموذجي على أسس رمزية تماما، وأكثر سطحية إلى حد بعيد [٢١].

وقد توسع بيليغ، الذي أُشير إليه في الفصل الرابع، باعتباره زميلا ومتعاونا مع هنري تاجفيل، في موقف أندرسون بشكل كبير. فمصطلح «الجماعة المتخيلة» قد يوحي بأن الأمة «تعتمد على أعمال متواصلة من الخيال كي تضمن وجودها» (بيليغ، ص: ٧٠). والواقع أن «التخيل» الأصلي، بدلا من ذلك، قد أعيد إنتاجه ـ وهذا مصطلح أخذه بيليغ عن بورديو (انظر ص: ١١١) ـ أحيانا عبر انتشار هادف أو رموز قومية، ولكن في الأكثر عبر عادات يومية ندركها على نحو خافت أو لا ندركها قط. وما العلم القومي المعلق أمام مكتب البريد، أو الرموز القومية الموجودة على العملات والأوراق النقدية التي نستعملها كل يوم إلا مثالان على ذلك. فقد استخدم بيليغ مصطلح القومية المبتذلة ليشمل:

> «العادات الأيديولوجية التي تمكن من إعادة إنتاج الأمم المرسخة في الغرب. ويجادل في مسألة أن هذه العادات لم تُزَل من الحياة اليومية، كما ذهب إلى ذلك بعض المراقبين، فالأمة يشار إليها يوميا في حياة مواطنيها بأعلام مزينة. والقومية هي الحالة المستوطنة، بعيدا عن كونها مزاجا متقطعا في الأمم المترسخة» (بيليغ، ١٩٩٥، ص: ٦).

ولعل هذه الفكرة كانت ضمنية في استشهاد أندرسون برينان حول ضرورة «النسيان»، ولكن بعدم استخلاصه للنتائج، قاد أندرسون قراءه لأن يربطوا القومية بشكل دقيق بما دعاه بيليغ «العلم المرفرف وجدانيا»، وإلى تجاهل

«الرايات الروتينية»، مثل ذلك العلم الباهت الذي يرفع أمام مكتب البريد، والذي يعمل على إعادة إنتاج القومية المبتذلة، لأنها وبشكل دقيق «تذكرة منسية» (المرجع نفسه، ص: ٨)، فمدلولها «منسي» لدى المراقب، غير أنه حاضر في أعماق ذهنه. وإن فكرة بيليغ تقهد بأن دراسات القومية قد أولى أصحابها اهتماما عكسيا بالقومية التي تم التأكيد عليها بشدة والتي تعبر عنها مجرد أقلية قليلة من الناس، وتجاهلوا القومية المبتذلة التي هي جزء من الحياة اليومية لكل إنسان (ويشمل ذلك القوميين المتطرفين). وعلاوة على ذلك، يجادل في أنها جزء

> «من نمط أيديولوجي تعتبر فيه «قوميتنا» (قومية الأمم المترسخة [...]) شيئا منسيا: فهي لم تعد تظهر بوصفها قومية، واختفت في البيئة «الطبيعية» لـالمجتمعات». وفي الوقت ذاته، تعرف القومية بأنها شيء انفعالي على نحو خطير وغير معقول، وإنها تعتبر مشكلا، أو وضعا بشكل عبئا على عالم الأمم. ويتم إسقاط اللا معقولية للقومية على «الآخرين»» (المرجع السابق نفسه، ص: ٣٨).

وحسب رأيه، الذي يدين بالكثير لبورديو أكثر من تاجفيل، تجد الهوية مكانا لها في العادات المجسدة للحياة الإجتماعية (المرجع السابق ذاته)، بما في ذلك اللغة، كما سنرى في القسم التالي.

كما أن هناك مظهرا آخر للهوية اللغوية، سيتم إبرازه في هذا الفصل، ولم يستكشفه بيليغ بأي شكل من الأشكال، على الرغم من انه أشار إليه من خلال استشهاده بتأكيد إدوارد سعيد (١٩٨٣) على أن الأمم «جماعات تأويلية» (مقترضا هذا المفهوم من فيش كما رأينا في ص: ٩٩) ومتخيلة، لأن ما يجب أن يخلق ليس مفهوم الأمة وحسب، وإنما تاريخ بأكمله، بناء على تأويل خاص لأحداث مدونة. وفي الواقع، إن الهويات، كما أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول، ليست مجرد مسألة تتعلق بما يسقطه مالكوها (أو من يدعون امتلاكها)، بل بكيفية استقبال هذه الإسقاطات وتأويلها. وكما أكد فريق من علماء الاجتماع

> «إن الهويات القومية ليست ثابتة بشكل أساسي أو معطى، بل تعتمد إلى حد كبير على مزاعم الناس ضمن سياقات مختلفة في أوقات مختلفة. كما لا تقوم عمليات الهوية على

مجرد هذه المزاعم، بل أيضا على طريقة استقبالها، أي تأييدها أو رفضها من قبل الشركاء» (بيشهوفر Bechhofer وآخرون، ١٩٩٩، ص: ٥١٥).

كما أضيف أنه لا يمكننا إهمال الهويات التي يسقطها غيرنا علينا. ومع ذلك، فمن المهم أن نلاحظ أنه، على الرغم من كل هذه المزاعم التي يشكلونها ويستقبلونها حول الهوية القومية، ليس من هذه المزاعم ما يعد أكثر أهمية أو قوة من الادعاء الذي يفيد بأن الهوية هي في واقع الحال ثابتة ومعطى، وهي مفروضة علينا منذ ولادتنا، وستبقى ثابتة لا تتغير بشكل أساسي بعد ذلك. ومن وجهة نظر بنائية، يتجلى خطأ التحليل الماهوي في النظر إلى ما وراء الأسطورة التي تندرج ضمن الهوية قيد البحث. وفي الوقت ذاته، على البنائيين أن يأخذوا حذرهم فيتجنبوا خطأ ممكنا من صنع أيديهم، وذلك بإقصاء «الأسطورة» باعتبارها مجرد فكرة خاطئة، ومن ثم، ليست جديرة بالاهتمام التحليلي أصلا. وإنها بناء ثقافي لا يمكن فصله في نهاية المطاف عن الهوية القومية عموما.

تجريد وظيفة اللغة من النزعة الماهوية: هوبسبوم وسيلفرشتاين

على الرغم من أن إريك هوبسبوم Hobsbawm (ب. ١٩١٧) يفوق كلا من كيدوري وغيلنير ببضع سنين، فإنه وجه اهتمامه صوب القومية قبل أن يرسي ثوابت الخطاب الراهن بعقدين من الزمن. ومثله مثل العديد من كتاب القومية المعاصرين، ولد هوبسبوم في ألمانيا من عائلة يهودية (غير حريصة على العادات والتقاليد)، وحل ببريطانيا، ليس بوصفه لاجئا، في العام ١٩٣٣، وخلافا للآخرين، كان يحمل بطاقة العضوية في الحزب الشيوعي من العام ١٩٣٦ إلى غاية ١٩٩١، وظل ملتزما بالماركسية. ولم يكن مفاجئا أن تكون مقاربته للقومية قد قللت من قيمة وضعيتها باعتبارها تفسيرا نهائيا للتطورات السياسية والسلوك الإنساني، وقد ربطتها بعوامل سوسيو اقتصادية أكثر عمقا. لكن مهارات هوبسبوم المؤرخ، أو مؤرخ اقتصاد، عالية جدا إلى درجة أن آراءه لقيت آذانا صاغية حتى لدى أولئك الذين ينبذون العلماء الآخرين من أقصى اليسار ولا يدينون لهم بالولاء. وزيادة على ذلك، ظهرت إعادة تقييمه الرئيسي للقومية (هوبسبوم، ١٩٩٠)، في الوقت الذي

أصبحت فيه الانقسامات الحزبية عينها الناتجة عن الحرب الباردة القديمة في «خبر كان». فخطاب القومية، بالنسبة إلى هوبسبوم، بما في ذلك الدور البارز المخصص للغة القومية، يرمز إلى اهتمامات أكثر عمقا. ومن الخطأ أن نأخذ الخطاب كما يبدو في الظاهر فحسب. ولا أحد يجادل في مسألة أنه عندما بدأ مفهوم الأمة يترسخ في نهاية القرن الثامن عشر، كان ذلك لأسباب سياسية، ولكن حينما قدمت مسوغات تستند إلى حق شعب ما في تقرير المصير، لم يكن أبدا الإعلان عن الحكم الذاتي أمرا صادرا فقط عن قوى خارجية معادية، ولكن كان أمرا صادرا كذلك، وبالقدر نفسه على الأقل، عن الطبقة الحاكمة من داخل البلد الذي ينتمي إليه هذا الشعب:

«إن ما ميز الأمة ـ الشعب، كما هو ملاحظ من الأساس، هو أنها تمثل بالضبط المصلحة المشتركة ضد مصالح خاصة، والنفع المشترك ضد الامتياز، كما هو مقترح، في الحقيقة، من خلال المصطلح الذي استخدمه الأمريكيون قبل سنة ١٨٠٠ للإشارة إلى الأمة، في الوقت الذي يتجنبون فيه هذه الكلمة في حد ذاتها. وقد كانت الفوارق العرقية انطلاقا من وجهة النظر الديموقراطية الثورية هذه، ثانوية، كما بدت كذلك لدى االاشتراكيين أخيرا. ومن الواضح، أن ما ميز المستعمرين الأمريكيين عن الملك جورج ومؤيديه لم يكن اللغة ولا الإثنية، وبالمقابل لم تشهد الجمهورية الفرنسية أي صعوبة تذكر في انتخاب الأنجلو ـ أمريكي، توماس بين Thomas Paine لمؤتمرها الوطني.

ومن ثم، لا يمكننا أن نقرأ في «الأمة» الثائرة أي شيء مثل البرنامج القومي الأخير لتأسيس الأمة ـ الدول بالنسبة إلى هيئات حددت في ضوء المعايير التي تمت مناقشتها على نحو ساخن جدا من قبل منظري القرن التاسع عشر، كالإثنية، واللغة المشتركة، والدين، والإقليم، والذاكرات التاريخية المشتركة». (هوبسبوم، ١٩٩٠، ص: ٢٠)

وأما بالنسبة إلى لغات القومية، فقد توافق رأي هوبسبوم مع تلامذة القومية الأوائل، ويلغ هذا التوافق أوجه مع اندرسون، بشأن الأهمية المركزية داخل الخطاب. وبينما اتخذ أندرسون اللغة القومية كمعطى،

بحيث يقدم الأساس الذي يمكن لباقي الهوية القومية أن تبنى عليه، يدرك هوبسبوم أن اللغة القومية، في حد ذاتها، بناء استطرادي discursive:

> «تعتبر اللغات القومية [...] نقيض ما تفترضه ميثولوجية القومي، أي أنها التأسيسات الأصلية للثقافة القومية والتصفيفات matrices للذهن القومي. وإنها عادة ما تعتبر محاولات لابتكار تعبير اصطلاحي مقنن من أصل مجموعة من التعابير الاصطلاحية الحقيقية، التي أنزلت إلى منزلة اللهجات [...]» (المرجع السابق ذاته، ص: ٥١).

ولم يتوصل أي ممن درس تاريخ أي لغة قومية أو معيارية (باستثناء ما تعلق منها بأغراض حزبية) باستنتاج مختلف عما ذكر. ولكن لم يهتم مؤرخو القومية عموما بعمل المؤرخين اللغويين بقدر اهتمام هوبسبوم به. وأما بالنسبة إلى المؤرخين اللغويين أنفسهم، فنادرا ما كانوا يدركون التضمينات الأكثر وضوحا لنتائجهم الخاصة. وفي الواقع، لا أحسب أن أي لغوي سبق له أن قدم تعريفا ملائما وبليغا للغة المعيارية مثل ما فعل هوبسبوم: «إنها نوع من فكرة مثالية للغة، توجد خلف وفوق كل تنويعاتها ونسخها غير السليمة» (المرجع السابق ذاته، ص: ٥٧). ويظهر إذن تعريف صوفي أو باطني للقومية مع هذه الفكرة المتعلقة باللغة، وهو تعريف يظن هوبسبوم أنه «يميز البناء الأيديولوجي للمفكرين القوميين الذين يعتبر هيردر كبيرهم بقدر أكبر من المستعملين الشعبيين الحقيقيين للتعبير الاصطلاحي. إنه تصور أدبي وليس تصورا وجوديا» (المرجع السابق ذاته، ص: ٥٧). ولا أستطيع هنا أن أتفق مع هذه الفكرة بالكامل: فبينما يمكن تاريخيا اعتبار أن اللغة القومية/المعيارية خاصية مميزة للمفكرين القوميين بدلا من الناس العاديين ممن يستخدمونها إبان فترة تشكلها في البداية، فإن هذا الوضع يتغير بمجرد دخولها المجال التربوي، ويصبح التعليم منتشرا. ومن ثم، تصبح الأيديولوجية اللغوية ملكا قوميا مشتركا، تجد من يؤمن بها إيمانا راسخا سواء من ينتمي إلى الطبقة العاملة التي لا تتحكم فيها (أي في تلك الأيديولوجيات) أو إلى الطبقة العليا التي تسيطر عليها. وفي الواقع، سيؤكد هوبسبوم في فصل لاحق من كتابه فكرة التحمس لقومية لغوية كانت تاريخيا ظاهرة من ظواهر الطبقة المتوسطة الدنيا:

«إن الطبقات الاجتماعية التي تحيا أو تسقط بواسطة الاستعمال الرسمي للغة العامية المكتوبة هي طبقات متواضعة اجتماعيا ولكنها متوسطة ومتعلمة، بحيث تشمل أولئك الذين اكتسبوا وضعية الطبقة المتوسطة الدنيا بفضل توليهم مناصب غير يدوية تتطلب التعليم» (المرجع السابق ذاته، ص: ١١٧).

ويعد هؤلاء أيضا أناسا أصبحوا الدعامة الأساسية للقومية - ليس فقط برفرفة العلَم عاليا في مناسبات رمزية، ولكن من خلال الطرق المبتذلة بشكل يومي التي أشار إليها بيليغ. ويشمل ذلك استخدامهم لـ «اللغة المناسبة» وإصرارهم على مبادئها، مثلا في تخاطبهم مع أطفالهم. ويرى هوبسبوم أن «الهوية القومية» بالمفهوم الذي نتصوره عادة، يعود في الحقيقة إلى الفيكتوريين من أصحاب المتاجر والكَتَبة الذين يحسدون الطبقات العليا على نوع الانتماء الطبقي الذي يتمتعون به وبنواديه وألقابه الأرستقراطية، والذين يحسدون أيضا العمال الذين يستطيعون تحديد موضع هويتهم في الاشتراكية (socialism):

«إذا سبق لهم أن عاشوا داخل أمة - دولة ما، فإن القومية تكون قد منحتهم الهوية الاجتماعية التي نالها البروليتاريون من حركتهم الطبقية. وقد يقترح المرء أن التعريف الذاتي للطبقات المتوسطة الدنيا - ويتعلق الأمر بكل من ذلك القسم الذي كان بائسا من الحرفيين وأصحاب المتاجر الصغيرة، وكذا الطبقات الاجتماعية التي كانت شيئا مبتكرا مثلها مثل العمال، مع الأخذ بعين الاعتبار التوسع غير المسبوق لأصحاب الياقة البيضاء ذوي التعليم العالي والوظائف المهنية - لم يكن ليصل إلى درجة طبقة اجتماعية، بل يشير فقط إلى جماعة من أبناء وبنات الوطن الأكثر حماسا وولاء، وتقديرا». (المرجع ذاته، ص: ١٢٢)

وبتعبير آخر، على الرغم من أن هويتهم الحقيقية كانت تجسدها طبقة اجتماعية، فقد أخفوها لأنفسهم ولغيرهم في قناع قومي. وقد كان لهذا القناع وجهان: ففي الوقت الذي كانت تستحوذ عليهم فكرة «الكلام بشكل جيد»، كانوا يساهمون في البناء اللغوي لأمتهم.

وقد سبق لغيلنير أن اقترح أنه، حتى وإن ثبت أن القومية بدأت كأيديولوجية في بداية القرن التاسع عشر، فإن ثمة شيئا تحويليا وقع مع أحداث ١٨٧٠ - ٧١ والأحداث التي أعقبتها. فمع هوبسبوم، أصبحت هذه

الفترة الأخيرة الفترة الرئيسة بحق، بما أن المفاهيم الأيديولوجية حول الأمة واللغة، التي كانت تقتصر حتى الآن على المفكرين، والنخبة الحكومية، انتشرت، ولأول مرة، لتصل إلى عامة الناس، بل ولتبلغ حتى الطبقة العاملة في نهاية الأمر. ويشير هوبسبوم إلى تطور آخر ميز هذه الفترة وكانت له نتائج مذهلة. فقبل حوالي العام ١٨٨٠، لم تكن مطالب مجموعة من الناس لتشكيل «أمة» ما تؤخذ على محمل الجد إلا إذا بدا لسكانها منفذ لذلك. ولكن منذ ذلك الوقت فصاعدا،

> «أي شعب كان يعتبر نفسه «أمة» سيطالب بحقه في تقرير المصير [...]. ونتيجة لهذه المضاعفة للأمم «غير التاريخية» المحتملة، أصبحت الإثنية واللغة المعيار المركزي، أو المصيري بشكل متزايد، أو ربما المعيار الوحيد لأمة محتملة» (المرجع ذاته، ص:١٠٢).

وقد يبدو هذا متعارضا مع الشاهد الذي رأيناه في مناقشات سابقة، حيث استخدم اللغة للتعريف بالأمة، وكان فيخته من أبرز أولئك الذين دعوا إلى هذا النوع من التعريف. ومع ذلك، إن ما يقودنا هوبسبوم إلى أخذه بعين الاعتبار هو إمكان قراءة فيخته وآخرين ممن عاصروه بمنظار فترة ما بعد الثمانينيات من القرن التاسع عشر لنجد مضامين لم يكن فيخته ومعاصروه ليفكروا فيها، وهذا يعكس اهتمامات العصر التالي الذي عرّف لنا القومية بشكل فعال. وعلاوة على ذلك، قد نغالي في مدى التأثير الذي يمارسه فيخته وزملاؤه من المثقفين على أبناء بلدهم، الذي كان، مع كل هذا، قسم صغير منهم مشاركا في هذه المناقشات على نحو فعال. كما أن التطور الوحيد الذي بدل المناخ الفكري من غير ريب في بداية الفترة المعاصرة هو ازدياد الإيمان بالتطور الإنساني وانتشاره، الذي اقترن باسم تشارلز داروين. ومن أهم التأثيرات التي لم يكن داروين ليتنبأ بها أبدا لأن نظرية التطور استعملت لتشكيل الأساس «العلمي» للإيمان بالاختلافات العرقية ذات النظام الفكري والأخلاقي. وبينما تنتشر هذه الأفكار في الثقافة الشعبية، فإنها تجعل الاختلافات العرقية تبدو أساسية في طبيعتها أكثر فأكثر. وبشكل دقيق وتدريجي، ليصبح من الطبيعي اعتبار فكرة أن أمما متميزة تحدد دولا متميزة صحيحة. ولكن إحدى المشكلات القائمة، كما أشار إلى ذلك هوبسبوم، هي أن

الاختلافات الإثنية لا يمكن تبينها بسهولة استنادا إلى الجانب المادي، أو على الأقل لا يمكن اعتماده بشكل موثوق به. (انظر هوبسبوم، ١٩٩٠، ص: ٦٥ - ٦٧). وحيثما توافقت الاختلافات اللغوية مع الاختلافات الإثنية، فإن ذلك قدم على ما يبدو أساسا أكثر موضوعية توضع عليه خطوط فاصلة، هذا، على الرغم من إصرار لغويين بارزين على أن اللغة لم تكن لديها أي صلة تاريخية مباشرة مع الإثنية. والدليل، في الواقع، على انعدام هذه الصلة، متاح بسهولة لأي شخص، مادام قد صادف شخصا ثنائي اللغة (ومن الصعب أن نتخيل إمكان عدم مصادفتهم له). ولكن، مرة أخرى، كانت هذه الرغبة في تشكيل الاختلاف القومي من القوة بحيث إنه كان يؤخذ بما سيدعمها فقط، أما ما سيناقضها فكان يهمل تماما.

وسواء أكان المرء مستعدا أو غير مستعد للأخذ بما ذهب إليه هوبسبوم في تحديد عوامل تقوم على الطبقة الاجتماعية والتي تشكل أساس القومية اللغوية، فقد كان لعمله بلا شك تأثير مفيد في مواجهة نهج أندرسون القبلي aprioristic للغة داخل الهوية. وقد شن الأنثروبولوجي اللغوي مايكل سيلفرشتاين Michael Silverstein نقدا جريئا مماثلا على استخدام أندرسون «اللغة في تشكيل الفنومنولوجيا (علم الظاهرات الفلسفية) الثقافية للقومية» (سيلفرشتاين، ٢٠٠٠، ص: ٨٥). وقد أفضى نقده، الذي يعتمد بشدة على قراءته، التي هي إلى حد ما مميزة لأفكار وورف اللغوية، إلى التأكيد أن أندرسون أخطأ لما ظن ما هو استطرادي قومية لغوية «حقيقية».

> [...] يبدو أن أندرسون أخطأ لما ظن أن مجاز الحس الجماعي "we"-ness" الذي تم إنتاجه جدليا مجازا يمثل الحقيقة. ويبدو أنه لا يدرك أن التشكلات الجدلية للعمليات السياسية التي تشكل الفضاء الممكن تقاسمه لتحقيق واقعي بلغة مقننة هي الحقائق التي يجب أن تميز وتفسر (سيلفرشتاين، ٢٠٠٠، ص: ١٢٦).
>
> «إن نظام اللغة الذي تقوم عليه هذه الجدلية هو نظام سوسيو سياسي هش بشكل مألوف، يغلي بنزاع ينبثق من التعددية اللغوية heteroglossia الحقيقية، وعلى الأقل مثل مؤشرات لصراع اقتصادي سياسي أساس. وإن هذا النظام

اللغوي، مع ذلك، تم تنشيطه وترسيخه إلى حد ما بواسطة مجاز لحس جماعي تم ترميزه شعائريا. فيبدو أنه خدع أندرسون، الذي اشترى المجاز بوصفه «حقيقة» متخيلة على نحو واضح» (المرجع السابق نفسه، ص: ١٢٨ ـ ٩).

ومن جديد، سيكون من الصعب عدم الاتفاق مع نقد سيلفرشتاين الذي يشير إلى أن أندرسون أخذ اللغة على علاتها بقدر كبير. وهذا يعني أنه كي يفسر أندرسون متغيره variable الرئيس: تشكيل الهوية القومية، استخدم اللغات القومية وكأنها شيء ثابت ـ بينما هي في واقع الأمر أشياء متغيرة، وتشكيلات، وجماعات متخيلة، مثلها مثل الهويات القومية التي هي مطالبة بتفسيرها. وبتعبير آخر، إن مقاربة أندرسون البنائية للقومية تم شراؤها بسعر منظور ماهوي للغات. ويبدو أنها صفقة بالنسبة إلى العالم الاجتماعي أو السياسي، الذي تقدم له بساطة في التفسير (ناهيك عن السهولة). ولكنها بالنسبة إلى سيلفرشتاين كما لهوبسبوم بساطة مضللة. فاللغات القومية والهويات تنشأ بالترادف، «جدليا» إن شئت، في عملية معقدة يجب أن تكون محط اهتمامنا ودراستنا.

ومع ذلك، يذهب سيلفرشتاين أبعد من ذلك للتأكيد على أن الوقائع «الحقيقية» الوحيدة هي «العمليات السياسية» و«الصراع الاقتصادي السياسي» الذي يشكل أساس الخطاب الذي تقاوم عبره اللغة المعيارية/القومية من أجل ضمان بقائها. وإن الحس «الجماعي» الذي تتبنى عليه الجماعة القومية المتخيلة ما هو إلا «مجاز» واحد أنتج من رحم هذا الخطاب. وإن مسألة أن هذا الحس الجماعي «تم ترميزه شعائريا» تقود إلى الوهم بأنها فعلا حقيقية، في حين ما هي إلا من نافل القول. والهوية المشكلة داخل اللغة، خلافا لرأي أندرسون، ليست الموضع الحقيقي للقومية. فالقومية توجد، في الحقيقة، في السياسة، والاقتصاد، وأما ما نراه في اللغة، فما هو إلا انعكاس لتلك القومية الحقيقية. فقد خلط أندرسون، في الواقع، بين الصورة الموجودة داخل المرآة والشيء المعكوس.

ولكن هوبسبوم لما يذهب إلى هذا الحد. بل إنه على العكس من ذلك، كان منتبها لخطر «اختصار القومية اللغوية إلى مسألة وظائف، كما اعتاد الليبراليون الماديون الدنيئون اختصار الحروب في مسألة الأرباح التي تجنيها شركات الأسلحة» (هوبسبوم، ١٩٩٠، ص: ١١٧ ـ ١٨). ويقترب سيلفرشتاين، في المقابل،

من اختصار مادي دنيء عندما يصر على أن أيديولوجيات اللغة هي مجرد انعكاس لما هو حقيقي، ولا تحمل أي حقيقة في داخلها. وبذلك، يخلد الخطأ الحقيقي الذي سبق له أن انتقد جانبا آخر منه عند أندرسون. ويتعلق الأمر بفرق قوي مبالغ فيه بين الحقيقة اللغوية والحقيقة «السياسية». ويقر أندرسون بحقيقة انجدالهما من حيث الوظيفة، لكنه يتعامل معهما بوصفهما مختلفين بشكل أساسي في طبيعتهما الداخلية، آخذا بعين الاعتبار بأن اللغة معطى متماسك، والهوية السياسية بناء. ويقر سيلفرشتاين أن طبيعتهما الداخلية أكثر تشابها مما يفترض أندرسون، ولكنه يرفض أن يكون هناك انجدال وظيفي بينهما، باستثناء الحالة العادية بشكل نسبي حيث يعكس أحدهما الآخر.

وأظن أن أندرسون محق هنا. فالخطأ الذي وقع فيه سيلفرشتاين، كي نستعير تعبيره الذي ورد في استشهاده الأول أعلاه، هو أنه يفترض أن ما يدعوه الحس «الجماعي» هو «مجاز تم إنتاجه جدليا» بدلا من أنه جزء من «التشكلات الجدلية للعمليات السياسية» ذاتها.

فهذا الافتراض يتطلب تقسيما دقيقا وشفافا بين ما يوجد في اللغة، من جهة، وما هو «سياسي» من جهة أخرى. ففي غياب هذا التقسيم - وفي نظري لا يمكن لهذا التقسيم إلا أن يكون موهِما - يعتبر إنزال سيلفرشتاين الحس «الجماعي» إلى مجرد منزلة صنف «المجاز»، وهو ما يقوم عليه هذا الجزء من نقده لأندرسون، لا شيء أكثر من إعلان بديهي وغير مسوغ. ويعتبر هذا الحس «الجماعي»، والهويات القومية، والجماعات المتخيلة التي تأسست عليه، لا أقل ولا أكثر حقيقة من «التشكلات الجدلية للعمليات السياسية» أو «الصراع الاقتصادي السياسي»، لأنها في واقع الأمر جزء لا يتجزأ منها.

كما أن ثمة نقدا لسيلفرشتاين في مكان آخر من المقال يقودنا إلى الشك في إمكان رغبته في أن يحدث فرقا ذا مبدأ بين اللغات «المعيارية» التي تشمل البناء السياسي وفقا للطريقة التي اقترحتها، واللغات «غير المعيارية» أو اللهجات، التي لم تتشكل سياسيا بالطريقة نفسها. وعلى الرغم من أني قبلت بوجود هذا الفرق عندما بدأت بأشكلتها في عمل جوزيف (١٩٨٧)، لم أقتنع في نهاية المطاف بأن أي لغة أو لهجة، معيارية أو غير معيارية، يمكن لها أن تتشكل بشيء ما يختلف عن شكل من أشكال العمليات السياسية نفسها (انظر جوزيف، ٢٠٠٠b). ولكن حتى وإن قبل المرء بهذا الفرق، فإن الحس

الجماعي الذي كتب عنه كل من أندرسون وسيلفرشتاين هو مسألة تتعلق ببناء سياسي بشكل واضح ولا لبس فيه. وإن مسألة تداخله مع ضمير جماعة المتكلمين «نحن» الذي تشترك فيه اللهجات غير المعيارية لا تزيله، بطريقة ما، من المجال السياسي، سواء من خلال جعله «طبيعيا»، أو جعله «مجازيا». فهي فعلا تُسهم، كما أدرك ذلك كل من هوبسبوم وسيلفرشتاين بشكل صحيح، في ماهوية الهوية القومية. وكما ناقشت ذلك في الفصل الرابع، تعتبر الماهوية واقعا مهما تستلزم منا تفسيرها، آملين الا نتركها تتسرب إلى تفسيرنا. وبقدرما تفتح معالجة أندرسون للغة، ضمن سياق شبه ماهوي، الطريق في وجه هذا التسرب، يقدم سيلفرشتاين مساهمة مفيدة لإيقافه.

دراسات ذات علاقة ببناء هويات قومية لغوية خاصة

لقد فحص عملي السابق حول التقنين اللغوي جوزيف، ١٩٨٧) الدراسات التي أجريت حول اللغات القومية التي كانت سائدة آنذاك. وإن مفهوم «الهوية القومية» في أكثر تلك الدراسات، حاضر بشكل ضمني، ولكن منذ ذلك الحين، ظهرت دراسات كثيرة جعلت هذا المفهوم يحتل مركز الصدارة. وسيفحص هذا القسم عددا هائلا من الدراسات، غير أنه سيركز على تلك التي ظهرت في العقد الأخير.

أوروبا

لقد انصب الاهتمام الأكاديمي ضمن السياق الأوروبي، في الأعوام الأخيرة، على «ظهور» اللغات القومية - والتي كثيرا ما تدعى لغات «الأقلية» - لدى أناس يعيشون داخل دولة ما أكثر شمولية. وفي التسعينيات، أي في أعقاب انهيار الاتحاد السوفياتي وحلف وارسو وظهور الدولة - الأمم من جديد التي لم يكن لها وجود منذ العام ١٩٣٩ أو لنقل ١٩١٩، صار الوضع يتجه بشدة نحو حل مؤسسات سياسية أو دول كبيرة لمصلحة كيان أوروبي مكون من دولة - أمم صغيرة يوحدها الاتحاد الأوروبي. وإن سياسات المفوضية الأوروبية، بالتأكيد، كانت في مجملها تستهدف هذه الغاية، ولكنها كانت تصطدم باستمرار مع البرلمان الأوروبي والحكومات ذات الدول المستقلة، التي أصبحت مسألة الاستقلال القومي في بعض منها قضية انتخابية

خطرة. ويمكن أن نجد محاولات تدعو إلى نظرة شمولية للحالة اللغوية في عمل باغيوني Baggioni (١٩٩٧)، وباربور Barbour (١٩٩٦)، وبيلييه Bellier (٢٠٠٢)، وتوني كراولي Tony Crowley (١٩٩٦ b)، وهارمان Harmaan (١٩٩٥)، وهوفمان Hoffman، وباري Parry وآخرين (١٩٩٤)، وتابوريت - كيلير Tabouret-Keller (١٩٩٩). وبشكل أكثر تركيبا في عمل رايت Wright (٢٠٠٠، ٢٠٠٤). ويجمع إسكال Escalle وميلكا Melka (٢٠٠١) دراسات تاريخية حول تشكيل مجموعة من الهويات اللغوية القومية الأوروبية.

وفي المملكة المتحدة، أظهر إحياء البرلمان الاسكتلندي والمجلس الغالي - مع تفويض لكل واحد منهما مجموعة قضايا تهم السياسة الداخلية - نجاعتهما على نحو مذهل في تلبية مطامح القومي الذي ينتمي إلى الجزء الرئيس من جمهور الناخبين. وقد تمت دراسة سياسة اللغة في شمال أيرلندا، جمهورية أيرلندا واسكتلندا، في ٢٣ مقالا، جمعت في عمل كيرك Kirk وأوبويل Ó Baoill (٢٠٠١) وكذا عمل ولياماز Williams (١٩٩٩). ويعود غورلاش Görlach (١٩٩٧) وتورفيل - بيتر Turville-Petre (١٩٩٦) إلى الخلف ليفحص الدور الذي كان للهوية اللغوية في تطور الإنجليزية، في حين تركز مقالات فرانتزين Frantzen، ونايلز Niles (١٩٩٧) بصورة أدق على «النزعة الأنجلوسكسونية». كما ركز عمل توني كراولي على الأيديولوجيات المتناقضة للإنجليزية البريطانية والإيرلندية، وبخاصة في القرن التاسع عشر، بينما يوسع مالي ١٩٩٤ المنظور ليمتد إلى الخلف فيشمل سبنسر Spencer. ومن بين المقالات التي يشتمل عليها عمل تريسترام ١٩٩٧، التي تبحث في «الإنجليزيات السلتية» تلك التي كتبت من قبل بايتون، نجده يتطرق إلى الحالة الكرنيشية، Cornish المثيرة جدا، وهي لغة من المفروض أنها انقرضت في القرن الثامن عشر، ولكنها تبدو حية ترزق بشكل متزايد، بالاشتراك مع الهوية التي تتوافق معها. وفي ما يختص بي شخصيا، فقد فحصت وضعية الهوية اللغوية الاسكتلندية في عملي الذي صدر العام (٢٠٠٠b)، بينما ركز هاردي Hardie (١٩٩٦) على لغة الاسكتلنديين في السهول.

أما في الجهة الأخرى من القارة، فقد تم إيلاء اهتمام خاص بالكتالانية، باعتبارها القصة الأكثر نجاحا للغة القومية التي عاودت الظهور بعد قمع متعمد إبان حكم فرانكو Franco لإسبانيا، انظر مثلا، سيبنمان

Siebenmann، (١٩٩٢). كما يبحث أرشلي Archilés ومارتي Martí في هذه الحالة في فالينسيا المجاورة، في حين يقارن كونفرسي Conversi (١٩٩٧) الأيديولوجيات القومية الباسكية، والكتالونية، والإسبانية، مع التركيز أكثر على دور اللغة. ويفحص ألفاريز ـ كاكامو Alvarez-Caccamo (١٩٩٣) الحالة الراهنة للهوية اللغوية القومية الغاليشية. ومما زاد هذه الحالة أهمية، هو أن الغاليشية، وعلى الرغم من أنها تصنف سياسيا داخل إسبانيا، فهي قريبة جدا ـ من حيث اللغة ـ من لغة البلد المجاور، البرتغال، كما أن الهوية القومية الغاليشية مبنية جزئيا على ذاكرة ربما أسطورية الأصول السلتية، انظر الفصل الثامن لاحقا، (ص: ٢٤٤ ـ ٢٤٥). وبينما يدرس إيغليسياس ألفاريس Iglesias Álvarez 2000 نتائج الهجرة الداخلية من أجل هوية سوسيولغوية غاليشية، تبحث ملان ـ فاريلا Milán-Varela 2000 في الهوية الغاليشية من منظور الترجمة.

وبالنسبة إلى فرنسا، يمكن أن نجد دراسة مهمة للهوية اللغوية القومية بالمقارنة مع الحالة السويدية في دراسة قام بها أوكس Oakes (٢٠٠١)، إضافة إلى جرد عام عن الحالة المعاصرة في عمل سافران Safran (١٩٩٩). ومن ضمن لغات الأقلية التي حظيت باهتمام بالغ في فرنسا، الهوية اللغوية السيلتية الحقيقية لبروتو Breton، مثلا في عمل جونز Jones (١٩٩٨)، وكوتر Kuter (١٩٩٢، ١٩٩٤)، وبريس Press (١٩٩٤)، بينما فحصت هوية البروفانس Provençal من قبل بلونشي (١٩٩٥)، والحالة الكورسيكية من قبل جاف Jaffe (١٩٩٩) وجينسين Jensen (١٩٩٩). وأما ما يتعلق ببلجيكا، فقد درس فرانكارد ١٩٩٨ الجماعات الفرنكفونية لبروكسل وفالونيا Wallonia، في حين سعى بيري Berré (٢٠٠١) إلى الرجوع إلى الوراء لينظر في التفاعل بين الهوية القومية وعلم أصول التدريس في تدريس الفرنسية في الفلانديرز Flanders أواخر القرن التاسع عشر.

وأما بالنسبة إلى إيطاليا، فقد قام ستراسولدو Strassolodo (١٩٩٦) بتقييم وضعية الفريولان Friulan، بينما قام جان Jahn (١٩٩٨) بفحص حالة أستريا Istria. ويناقش بيفونا Bivona تشكيل الهوية القومية الإيطالية في الكتب المدرسية. كما درس كوفينو Covino (١٩٩٩) دور هوية اللغة الإيطالية في مالطا من قبل، ودرست الحالة العامة للهوية اللغوية في مالطا من قبل فرغييري Friggieri.

وفي عائلة اللغة الجرمانية، قُدم جرد عام للهويات اللغوية الاسكندنافية من قبل هاس Huss ولينغرين Lindgren (١٩٩٩). وكانت جور فارو Faroe موضوع دراسة قام بها نوربي Nauerby (١٩٩٦)، والهوية اللغوية الأيسلاندية موضوع فحص حديث قام به جونسون (٢٠٠٠) وكرستينسون Kristinsson (٢٠٠١). ودرست باكن - ناب Bucken-knapp (١٩٩٢) دور اللغة في سياسة الهوية النرويجية. كما ركز ستيفنسون Stevenson (١٩٩٣) والمقالات التي يتضمنها كتاب غاردت Gardt (٢٠٠٠) على اللغة الألمانية وتشكيل الهوية القومية في عدد من الدول. ويبحث نيوتن في دور لتزجيبورجيش Letzgeburgisch وهي لهجة ألمانية في الهوية القومية للوكسمبورغ. في حين يدرس مينكي Menke (١٩٩٦) اللغة الهولندية في ألمانيا الشمالية. ويركز سيليا Cillia (١٩٩٧)، وستوبكجار Stubkjaer (١٩٩٧)، وويسنغر Wiesinger (٢٠٠٠) على النمسا، كما فعل ووداك Wodak وآخرون ١٩٩٩، من منظور خطابي. وكانت الأمة واللغة في سويسرا موضوع غروسنباخر - شميد Grossenbache-Schmid (١٩٩٨)، وكولير Koller (٢٠٠٠).

وفي الحدود السلافية - الجرمانية، يدرس بلانكي Blanke (١٩٩٩) الهوية القومية للألمان الناطقين بالبولندية، في منطقة ماسوريا Masuria، وهنان Hannan (١٩٩٦) يفحص تشين سلزيا Teschen Silesia، وروهفليش Rohfleisc (٢٠٠٠) في بولندا وسيلسيا العليا. وتتطرق كاموسيلا Kamusella (٢٠٠١) إلى حالة الهوية اللغوية في أوروبا الوسطى بشكل عام.

والمقالات التي جمعت في كتاب كل من سيريو Sériot (١٩٩٦) ولورد Lord وستريتشكا - إيلينا Strietska - Ilina (٢٠٠١) بتقييم الحالة في المعسكر الشرقي الأسبق بصفة عامة. ويدرس غورهام ٢٠٠٠ مناقشات ذات علاقة بالهوية واللغة في الاتحاد السوفييتي، وروسيا من العام ١٩٨٥ إلى ١٩٩٩. ويستكشف كريندلير Kreindler (١٩٩٧) التأثيرات التي تطال هوية التعددية اللغوية في الدول المتعاقبة للاتحاد السوفييتي، في حين يدرس لايتين Laitin (١٩٩٨) تشكيل الهويات اللغوية بين الناطقين بالروسية بين يهود الشتات ما بعد فترة السوفييت. ودرس دولراب Dollerup (١٩٩٥) ذلك في أوزبكستان. ويركز هولمان Holman (١٩٩٥) على أستونيا ما بعد فترة السوفييت، ويفحص سبايرز Spires (١٩٩٩) الدور الرمزي لعبادة العصور القديمة في القومية

اللغوية الليثوانية. كما يعتبر عمل ساير Sayer (١٩٩٦) بمنزلة تقرير تاريخي للهوية اللغوية القومية كما ظهرت في مدينة براغ Prague منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى نهاية الحرب العالمية الأولى. ويدرس ستفانينك Stefanink (١٩٩٤) دور اللغويين في تأسيس الهوية القومية الرومانية في منتصف القرن التاسع عشر.

أما في البلقان، فيبحث ليفنغر Levinger (١٩٩٨) في البوسنة والهرسك، وبيلاج Belaj (٢٠٠٠) في كرواتيا، وغارد Garde (١٩٩٦) في كل من هذين المكانين بالإضافة إلى صربيا. ويفحص جان ١٩٩٩ حالة الهوية اللغوية في أدرياتيك العليا. ويلقي فريدمان ١٩٩٩ الضوء على حالة مقدونيا في سياق يوغوسلافيا المنحلة، بينما يقارن نهتينن Nihtinen (١٩٩٩) بشكل ممتع الهوية اللغوية «المقدونية» بالاسكتلندية. كذلك درس ستينكي Steinke (٢٠٠٠) الترابط الحاصل بين الهويتين البلغارية والرومانية. وفحص سمارا Samara (١٩٩٦) الحالة في ألبانيا، في حين فحصها فرانغوداكي Frangoudaki (١٩٩٧) في اليونان. ويحاول غوتشميت Gutschmidt وهوبف Hopf (١٩٩٩) أن يقدما مسحا عاما للحالة البلقانية.

آسيا

إن الهويات اللغوية القومية في قارات أخرى بعيدة عن أوروبا كثيرا ما تكون معقدة نتيجة لاستمرار الوجود الحالي للغات الأوروبية الاستعمارية السابقة في وظائف معتبرة. وهذا لا يعني أننا ننكر وجود «الاستعمار الداخلي» في أوروبا، أو داخل آسيا، لتقف الصين واليابان مثلا في سبيل تطور اي لغات قومية أخرى محتملة. ولكن الإنجليزية على وجه الخصوص لم يكن بالإمكان تجنبها بوصفها عاملا في القوميات اللغوية لآسيا الجنوبية وآسيا الشرقية، كما هو الحال بالنسبة إلى الفرنسية في الهند الصينية، والعربية عبر مساحة الجامع الكبير لجنوب شرق آسيا حيث الإسلام هو القوة المهيمنة.

وانطلاقا من الطرف الغربي للقارة، في العالم العربي، مهد عمل سليمان (b١٩٩٤، ١٩٩٦، ٢٠٠٣) الطريق لفهم القومية اللغوية (والوحدة العربية) من حيث اللغة. وبالنسبة إلى لبنان، أضفت مساهماتي الخاصة في العمل المشترك لغالب وجوزيف (٢٠٠٠) وجوزيف (سيصدر قريبا c)، وكذا الفصل

الثامن من هذا الكتاب، إلى دراسة تتضمن داغر (١٩٩٤) ودير - كارابيشن Der-Karabetian وبرودين - دير - كارابيشن Proudian-Der-Karabetian (١٩٨٤)، وغوردن Gordon (١٩٨٥) وكانت قبرص محط اهتمام شيريها Scheriha (١٩٩٥). وركز اليسي Alici (١٩٩٦) على القيمة الرمزية في محافظة آسيا الوسطى للغة التركية في تشكيل هوية قومية تركية، بينما قارن بيرجر (١٩٩٨) تركيا بإسرائيل في تطور أيديولوجية اللغة القومية. كما يمد عمل بين - رافائيل Ben-Rael (١٩٩٤) دراسة للهوية اللغوية اليهودية في إسرائيل كما تطورت من خلال وجود مجموعة كبيرة من لغات المهاجرين، بالإضافة إلى العربية الفلسطينية.

وفي جنوب آسيا، درس غونراتني (١٩٩٨) هوية ثارو Tharu في النيبال. كما ركز بانديان Pandian (١٩٩٧) على الهوية الدرافيدية (سنغفورية) بين التاميل. وعمل وراميسوامي Ramswamy (١٩٩٧) على محاولة «أندينة» (جعلهم هنديين) التاميل ودرفنتهم (جعلهم درافيين) كجزء من مشاريع قومية تعتمد على الهوية. ويفحص فان بيليرت Van Bijlert دور السنسكريتية في تشكيل الهوية القومية للهنود في البنغال خلال القرن التاسع عشر. ويناقش كاشرو (١٩٩٦) تشكيل هوية جنوب آسيا باللغة الإنجليزية.

أما في شرق آسيا، فيبحث رولي Rowley (١٩٩٧) في الهوية اللغوية في ميجي اليابان، بينما جرت دراسة هونغ كونغ من قبل بولتون Bolton و كووك (١٩٩٠)، وبولتون (b٢٠٠٣)، وجوزيف (١٩٩٦، c٢٠٠٠)، والفصل التالي من هذا الكتاب. وكان تاريخ «الإنجليزيات الصينية»، وبخاصة في هونغ كونغ موضوع بحث بولتون (b٢٠٠٣). كما يدقق ماوكانولي Mawkanuli (٢٠٠١) الهوية اللغوية لتوفا Tuva داخل جمهورية الصين الشعبية. ويركز هوانغ Huang (٢٠٠٠) وتسي Tse (٢٠٠٠) على تايوان.

وفي جنوب شرق آسيا، يبحث وينيشاكول (١٩٩٤) في تايلند، ولنغمايز في كمبوديا. وأما راساتوفر، فيستكشف دور هوية كايان Kayan في ميانمار Myanmar. ويدرس كين Keane (١٩٩٧) الهوية اللغوية في إندونيسيا الشرقية، بينما يدرس إيرنغتون (١٩٩٨) تأثيرات التحول اللغوي في الهوية اللغوية في إندونيسيا الجاوية Javanese، ويدرس كويبرز Kuipers (١٩٩٨) تأثير التحولات في الهوية الدينية على استخدام الكلام الطقوسي التقليدي في جزيرة سومبا

Sumba الإندونيسية. ويتطرق عمر (١٩٩٨) إلى «بناء الصورة» باعتبارها جزءا من سياسة اللغة الملاية Malay بماليزيا. في حين يحلل سيركومبي Sercombe (١٩٩٩) الهوية اللغوية للجماعات الإيبانية Iban على جانبي الحدود الماليزية ـ البرونية في بورنيو Borneo. وأما الهوية اللغوية السنغافورية، فقد تكفل بدراستها شو Chew (٢٠٠٠) و هفيتفيلت Hvitfeldt وبودجوسودارمو Poedjosoedarmo (١٩٩٨)، بينما درس اومونيبي Omoniyi (١٩٩٩)، على الرغم من عنوانه، على الحدود الماليزية ـ المنغافورية.

افريقيا

إن التعقيبات التي قُدمت في بداية القسم المتعلق بآسيا، بشأن وجود لغات استعمارية سابقة، تنطبق على هذا القسم أيضا. فهذه دراسة بلومارت Blommaert (١٩٩٩a) التي تعرض إلى إيديولوجيا الدولة واللغة في تنزانيا، تستأثر باهتمام كبير لما لدور اللغة السواحيلية Swahili في تشكيل هوية قومية وهوية وحدة افريقية. ويركز نغونياني Ngonyani (١٩٩٥) أيضا على تنزانيا. وفي مجلد خصص للهويات الأفريقية المتحولة، يبحث غاروبا Garuba (٢٠٠١) في موضوع اللغة والهوية في نيجيريا، حيث كانت أيضا دراسة اديكونلي Adekunle لدور الإنجليزية، ودراسة فان دين برسيلار Van den Bersselaar (٢٠٠٠) لإغبو Igbo. كما يقوم إهريت Ehret (١٩٩٧) بدراسة حالة كريو Krio في سيرا ليون، وهي الدولة التي بحث بريتبوردر Breitborder (١٩٩٨) فيها تشكيل هويات الطبقة الاجتماعية والإثنية في اللغات المحلية، واللغات الاستعمارية السابقة، واللغات الهجينة في سياق الغرب الأفريقي الحضري.

وفي الجزء الجنوبي من القارة، يدرس أليكساندر Alexander (٢٠٠١) سياسة اللغة في جنوب أفريقيا. كما يبحث تشانلز Chennells (١٩٩٨) في حالة زمبابوي، وستراود Stroud (١٩٩٩) في دور البرتغالية خلال فترة مابعد الاستعمار في الهوية اللغوية بموزمبيق.

وفيما يتعلق بالدول الأفريقية التي لاتزال تشكل جزءا من «الفرنكفونية»، يبحث وودز Woods (١٩٩٥) في حالة الكونغو، ومكلوغلين McLaughlin (١٩٩٥) في هوية هالبولار بالسنغال. ويحلل كانوت Canut (١٩٩٧) قيمة هوية الأسماء التي تمنح للغات في مالي.

ويدرس هيلاند إريكسن (١٩٩٠) تشكيل الهوية اللغوية في موريشيوس وفي شمال أفريقيا، يدرس رضوان (١٩٩٨) الثنائية اللغوية والهوية في المغرب، بينما يفحص كاي Kaye والزيبر (١٩٩٠) دور اللغة والأدب في تشكيل الهويات القومية في كل من المغرب والجزائر. كما أن عمل الناجي (١٩٩٩)، وعلى الرغم من العنوان الذي يحمله، يركز أيضا وبشكل كامل تقريبا على هذين البلدين.

أمريكا

لقد ركزت دراسات الهوية اللغوية في أمريكا الشمالية والجنوبية سواء على التوتر القائم بين لغات السكان الأصليين واللغات الاستعمارية السابقة والحالية الإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية، والبرتغالية، أو على الصراع بين أزواج اللغات الاستعمارية السابقة خاصة الإنجليزية والفرنسية في كندا، أو بين اللغات الهجينة ولغات الأهالي واللغات الاستعمارية السابقة، كما ركزت على هويات لغة الأقلية لدى جماعات مهاجرة أخرى انطلاقا من أواخر القرن التاسع عشر إلى الفترة الراهنة. فبالنسبة إلى المكسيك، يقدم سيفوينتيس Cifuentes (١٩٩٤) نظرة تاريخية عن الوضع هناك، بينما يتبنى كنغ King (١٩٩٤) مقاربة معاصرة أنثروبولوجية تركز على دور محو الأمية. ويدرس إيرفورت Erfurt (١٩٩٧) الهوية اللغوية عند فرنكوفونيي الشتات في كندا، في حين يقوم كاري باستعراض موسع لثنائية اللغة وثنائية الثقافة والهوية في كندا. كما يفحص سكتّشي Scacchi (١٩٩٩) التطور المشترك للهجات الأمريكية والهوية القومية في الولايات المتحدة من العام ١٧٦٠ إلى ١٨٣١ . ويبحث لوبيانكو Lo Bianco (١٩٩٩) في تشعبات الهوية نتيجة محاولات معاصرة للإعلان عن الإنجليزية لغة الولايات المتحدة الرسمية.

وأما في أمريكا الوسطى ومنطقة البحر الكاريبي، فقد فُحصت الهوية الاجتماعية في باربادوس Barbados من قبل بليك Blake (١٩٩٦)، وفي بيليز Belize من قبل بونير Bonner (٢٠٠١)، وفي كوبا من قبل آشلي Ashley (٢٠٠٢)، وفي الجمهورية الدومينيكية من قبل توريبيو Toribio (٢٠٠٠)، وفي بورتوريكو Puerto Rico من قبل موريس Morris (١٩٩٦)، وسنتينو انييسيس

Centeno Ancses (١٩٩٩)، وكلامبيت ـ دونلاب Clampitt-Dunlap (٢٠٠٠) ثم تتناول دراسة لوبيدج وتابوريت ـ كيلير ١٩٨٥، التي نوقشت في الفصل الرابع لأهميتها النظرية، عددا من الحالات الهجينة الكاريبية.

ومن جهة أخرى، تناول باروس Barros وآخرون (١٩٩٦) بالتحليل تشكيل الهوية اللغوية في أمريكا الجنوبية ككل. كما دُرست الصلة الموجودة بين الهوية الإثنية والسوسيو لغوية في غويانا من قبل هاينيس Haynes (١٩٩٧) ثم ركز سولي Solé (١٩٩٦) على الباراغواي، بينما حلل أورلاندي Orlandi وغويمارشيه Guimaraes (١٩٩٨) دور كتب النحو والصرف في تشكيل الهوية اللغوية البرازيلية.

أوستراليا وأوقيانوسيا

يمكن لنا أن نجد جردا عاما وموجزا حول هذا الجزء من العالم في لوثرينغتون Lotherington (١٩٩٩) فمن بين الحكومات القومية عبر العالم، كانت أستراليا في مركز الصدارة من حيث تطوير سياسة قوية وتنفيذها من اجل تشكيل هوية مبنية على التعدديتين اللغوية والثقافية. فنجد نظرة شاملة على هذه القضايا في عمل كليني Clyne (١٩٩٧)، في حين يركز تيرنر Turner (١٩٩٧) حصريا على تطور «إنجليزية أستراليا» حيث موضع الهوية، وديلبريدج Delbridge (٢٠٠١)، وبشكل أدق، على دور المعجميات Lexicography. وأما الهوية اللغوية في نيورلندا، فتظهر جليا في دراستين قام بهما بيل Bell (١٩٩٧، ١٩٩٩). ثم يفحص دورانتي Duranti (١٩٩٤) سياسة اللغة والهوية في ساموا الغربية، وتيري كراولي Terry Crowley (٢٠٠٠) في فانواتا Vanuata.



٥

دراسة الحالة ١: شبه قومية هونغ كونغ الجديدة

يخصص هذا الفصل لدراسة معمقة لحالة لغوية، تبدأ فيها هويات متميزة في الظهور في مراحلها الأولى نسبيا. وهناك احتمال قوي، في نهاية المطاف، سيثبت عدم ظهورها بالمرة، بالنظر إلى وقوف القوى الاجتماعية الفعالة، والقوى الثقافية والقومية وما فوق - قومية صفا متراصا ضد هذا الظهور. ومع ذلك، توجد قوى مشابهة بلغت أوج نشاطها في تاريخ كل هوية لغوية قومية، سواء كتب لها النجاح أو لم يكتب. من أجل هذا، تقدم هونغ كونغ تبصرا فيما حول كيفية قيام عملية بناء الهوية اللغوية.

«عندما يتحدث الناس عن تدهور مستويات الإنجليزية في هونغ كونغ، فإنهم بذلك يتفاعلون مع المظهر الذي يمكن إدراكه بشكل فوري جدا لتغيير اجتماعي رئيس.

المؤلف

الخلفية التاريخية

ظلت هونغ كونغ مستعمرة بريطانية من العام ١٨٤١ إلى العام ١٩٩٧، حيث أصبحت منطقة إدارية خاصة ذات استقلال جزئي، تابعة لسيادة جمهورية الصين الشعبية.

ويمقتضى المعاهدة التي جرى التفاوض بشأنها بين المملكة المتحدة وجمهورية الصين الشعبية العام ١٩٨٤، تتمسك هونغ كونغ بوضعية منطقة إدارية خاصة إلى حدود العام ٢٠٤٧، وهو التاريخ الذي ستنضم فيه بصفة تامة إلى جمهورية الصين الشعبية. وستستمر اللغتان الصينية والإنجليزية في التداول بوصفهما لغتين رسميتين مشتركتين co-official languages، بحيث تنشر الوثائق الرسمية باللغتين معا. وقبل ١ يوليو ١٩٩٧، كانت الوثيقة الإنجليزية هي النسخة «المهيمنة»، وهي التي سادت في حال ظهور أي تعارض بينها وبين النسخة الصينية. ومنذ ١ يوليو ١٩٩٧ أصبحت الوثيقة الصينية هي النسخة المهيمنة.

إن الوضعية المعقدة لهونغ كونغ ذات صلة باستعمال اللغة الإنجليزية جزئيا، ولكن صلتها أكبر، على الأقل، بما تشمله كلمة «صيني (ة)». وعلى الرغم من وجود لغة صينية مكتوبة موحدة نسبيا يشترك بها [1] المثقفون في كل مكان من العالم الناطق باللغة الصينية، فإن «اللهجات» المنطوقة تختلف بقدر كبير جدا بعضها عن بعض إلى درجة أن صنفها لغويون باعتبارها لغات منفصلة. إن ثمة فهما قليلا متبادلا بين البوتونغوا Putonghua، اللغة «الرسمية» المنطوقة التي تقوم على اللهجة الشمالية: ماندرين Mandarin، واللهجات الجنوبية كالهاكا Hakka، والهوكين Hokkein، أو اللهجة الكانتونية Cantonese التي تعد اللغة الأم لأكثر من تسعين بالمائة من سكان هونغ كونغ. وقد قورن التباعد اللغوي بين البوتونغوا والكانتونية بالتباعد اللغوي الموجود بين الإنجليزية والسويدية.

ولما صارت جزيرة هونغ كونغ مستعمرة بريطانية، لم تكن لتتوافر إلا على عدد قليل من السكان، صيادي الأسماك. وقد طورت المستعمرة علاقات تجارية مع عائلات التجار الثرية من الصين الجنوبية، فأدى هذا إلى نمو الساكنة المحلية التي جُلبت من إقليم الكانتون المجاور للعمل في الصناعات ذات العلاقة التجارية. وانتشر السكان على طول المنطقة الرئيسة لكاولون Kowloon عبر المضيق من الجزيرة. وقد تم التخلي عن هذه المنطقة لبريطانيا بمقتضى معاهدة في العام ١٨٦٠ بعد صراع آخر مع الصين. وفي ١٨٩٨، اتفق على عقد إيجار «الأقاليم الجديدة» (وهي مناطق ريفية واسعة تمتد على طول الجبال) من قبل المستعمرة لمدة

٩٩ عاما. وحين أوشكت مدة الإيجار على الانقضاء في العام ١٩٩٧، قررت بريطانيا عام ١٩٨٤ أن المستعمرة لم تعد قابلة للحياة من دون الأقاليم الريفية، فأعادتها إلى السيادة الصينية.

إن التزايد السكاني كان ثابتا بشكل معقول حتى العام ١٩٤٩ عندما أطاح الشيوعيون بقيادة ماوتسي تونغ، بحكومة كيومنتانغ Kuomintang التي يترأسها الجنرال شيانغ كاي - شيك Chiang Kai-Shek، وأرغموه على اللجوء إلى تايوان [٢]. ومنذ ذلك الوقت، بدأت أعداد هائلة من الناس في البحث عن اللجوء إلى هونغ كونغ إلى أن فرضت الحكومة البريطانية قيودا على الهجرة. وقد أيدت الصين هذا التوجه البريطاني. وشددت هذه القيود منذ عودة هونغ كونغ إلى السيادة الصينية.

وقد حاول حاكم هونغ كونغ البريطاني الأخير، كريستوفر باتن Christopher Patten، إدخال المؤسسات الديموقراطية إلى المستعمرة بدءا من سنة ١٩٩٢، ولكن محاولاته هذه لقيت مزيجا من العداء واللامبالاة من قبل بكين التي اعتبرت أسلوبها الأوليغارشي في الحكم أسلوبا «ديموقراطيا»، نجحت في فرضه جزئيا على شعب هونغ كونغ الصيني. ومع ذلك، أرغمت إدارة جمهورية الصين الشعبية في بداية العام ١٩٩٨على أن تغير من سياساتها في أعقاب الاحتجاجات الشعبية. وقد كانت أولى هذه الاحتجاجات وأكثرها قوة، تلك المتعلقة بالسياسة اللغوية. فالاقتراح الحكومي القاضي بالتحول من الإنجليزية إلى الكانتونية كلغة تعليم في المدارس التي تديرها الحكومة لقي معارضة شديدة من لدن الآباء الذين أكدوا أن عدم تلقي أبنائهم الدروس باللغة الإنجليزية في المرحلة الابتدائية وبعدها، سيقلل من فرص نجاحهم في الحياة المهنية، فنزلوا إلى الشوارع معبرين عن احتجاجاتهم إلى أن تراجعت الحكومة عن قرارها وتوصلت معهم إلى حل توفيقي. ومن المرجح، نتيجة لذلك، أن تؤدي الإنجليزية في المستقبل دورا مهما في ثقافة هونغ كونغ ومجتمعها لمدة عقود عديدة على الأقل.

وقد بقيت الحالة السياسية في هونغ كونغ متوترة جدا، ففي صيف ٢٠٠٣ أرغمت مظاهرات شعبية إدارة جمهورية الصين الشعبية على سحب التدابير «الأمنية» التي كانت بكين تعتزم فرضها، لتحد بشكل كبير من الحريات المدنية. ولم تكن بكين تتوقع، على ما يبدو، أن شعب هونغ كونغ ذا العرق

الصيني، بمجرد أن يتحرر من التأثير البريطاني، سيكون مستعدا للوقوف ضد سلطة تحكم بالقبضة الحديدية ذاتها التي كان يحكم بها البريطاني. وهذه الحقيقة تقدم دليلا كافيا على أن ثقافة هونغ كونغ متميزة عن الثقافة الصينية في طرق شتى غير سطحية.

إن شعب هونغ كونغ لا يرى نفسه «شعبا» كأي شعب موجود على هذه البسيطة، وإنما كجزء من الشعب الصيني، و في بعض السياقات (وهذا ما سنعرض إليه لاحقا) كجزء من شعب الصين الجنوبي. ويتوافق هذا مع الحالة اللغوية، إذ يعتبر شعب هونغ كونغ أن «لغته» هي الصينية، والتي يستمد منها «لهجته» المنطوقة الكانتونية. والتسلسل الهرمي الاجتماعي في هونغ كونغ، مع ذلك، يُحدد بقسط كبير بثنائية اللغة مع الإنجليزية. فبالنسبة إلى الجيل الإداري الكبير الذي ترعرع في الخمسينيات والستينيات، تعتبر طلاقة إنجليزيته ونبرته شبه المعيارية السمة المميزة التي تجعل منه نتاجا «لأيام مجد» صنعه التعليم الاستعماري، وتساعده على تبوؤ منزلة عالية في مجتمع هونغ كونغ. أما بالنسبة إلى الأجيال الشابة، فتنتمي الكفاءة في الإنجليزية التي تشبه ناطقها الأصلي - وبشكل حصري تقريبا - إلى أولئك الذين يُبعثون إلى الخارج لاستكمال دراستهم، وقد عاد العديد منهم إلى هونغ كونغ، بينما بقي الآخرون في الخارج. ولكن على كل حال، إن عدد من بقوا في هونغ كونغ من أجل استكمال دراستهم الجامعية فاق بكثير العائدين من الخارج. فبالنسبة إلى هذه المجموعة الكبيرة جدا، تكمن سمة هويتهم في قدرتهم على تحويل القن code-switch بلا هوادة ولا تقطع بين الصينية والإنجليزية (انظر غيبونز Gibbons، ١٩٧٩).

«خرافة» انحطاط الإنجليزية

لقد دُرس الخطاب الشعبي حول الإنجليزية في هونغ كونغ من قبل كل من جوزيف (١٩٩٦) ولن Lin (١٩٩٧) وقد بدأت هذه الدراسة في أواخر السبعينيات مركزة بشكل تدريجي على مفهوم تردي مستوى الإنجليزية. وقد استعمل التعبير المجازي السائد، «انحطاط» أو «تدني» لوصف هذه الحالة اللغوية. وهذا مثال من ضمن أمثلة متعددة ذكرها لنا في الصفحة الرئيسة للمنشور الاقتصادي الرائد في هونغ كونغ:

لقد بدأ تدني مستوى الإنجليزية في هونغ كونغ يستأثر باهتمام الدارسين من خلال إنتاج كتب جيب مشتركة.
وبما أن الإقبال على الناطقين بالإنجليزية ازداد بشكل ملحوظ لتنمية المشاريع الخدماتية المزدهرة التي تديرها الدولة، فهذا يشير إلى أن إجادة الإنجليزية لدى المتخرجين من الجامعة ومن المدرسة الثانوية الذين يقتحمون سوق الشغل في تدهور، مما يجبر الشركات المحلية على دفع مبالغ ضخمة مقابل تدريب لغوي يعوض هذا الضعف [...] (لووت تشو، Lott Chow، «تدهور مستوى الإنجليزية يضر بالتجارة في هونغ كونغ»، Asian Wall Street Journal Weekly, 12 June 1995, p.1، ذكرها لن، ١٩٩٧ في ص:٤٢٨).

ولدراسة هذا المشكل ومقاومته، أسست لجان وهيئات ممولة بشكل سخي، واستُخدم عشرات اللغويين من الخارج. وقد لاحظ بعض اللغويين تردي مستوى الإنجليزية، خاصة لدى مشاركتهم في المنتدى الشعبي، حيث المكان الذي لا يستطيع فيه المشارك أن ينفي هذه الفكرة (سواء كانت صائبة أو خاطئة)، وإلا اعتبر بعيدا عن الواقع، ومعطلا للمسؤولية المهنية. ومع ذلك، فإن اللغويين نادرا ما يتحدثون عن تردي مستوى الإنجليزية في الخطاب المهني على هذا النحو. فتدني المستوى اللغوي، بدلا عن ذلك، هو نتيجة لتصور خاطئ أو منحرف على الأقل.

ويعتمد مفهوم التدهور اللغوي على تصور يقيّم لغة فرد ما بوصفها «جيدة» أو «رديئة». وهذا تصور «معياري» يرفضه علم اللغة منذ القرن التاسع عشر [٣]. وإذا ما تبنينا آراء بورديو وبيليغ التي نوقشت في الفصل السابق، يمكن لنا أن نرى أن هذا الرفض هو مجرد رفض سطحي، بحيث إن فعالية علم اللغة «الوصفي» وخطابه لا ينفصلان عن فعالية «المعيارية» وخطابها. ومع ذلك، فإن الفرق حاسم بالنسبة إلى الأيديولوجية التي يعمل معظم اللغويين في إطارها. فالقول بتدهور حالة لغوية ما يحمل في طياته مضامين حول نوعية اللغة، وهو أمر اعتاد اللغويون على عدم الرغبة فيه منذ فترة.

ومما عقد حالة هونغ كونغ أكثر الحالة «الجيدة» في الماضي حيث كان طلبة الجامعة (أو يتخيل أنهم كانوا) يتكلمون اللغتين الصينية والإنجليزية (اللغة الاستعمارية) ويتلقون تعليمهم بهما. ويبدو أن اللغويين الغربيين يقترحون أن التحول من ثنائية اللغة ـ التي تشمل اللغة الاستعمارية والقومية ـ إلى أحادية اللغة ـ التي تشمل اللغة القومية ـ أمر مرغوب فيه، أو على العكس من ذلك، أمر غير مرغوب فيه. وأيا كان الأمر، فإن هذه المناقشة تؤدي إلى مشاكل جدية، هذا ناهيك عن مسألة أن البيانات (التي قُدّم بعض منها أدناه) لا تؤيد الاعتقاد بأن هونغ كونغ تتجه إلى أحادية اللغة. إن الحكم القيمي الإيجابي يتضمن أن أحادية اللغة وأحادية تعلم القراءة والكتابة أفضل من تعدد اللغة ومن تعدد تعلم القراءة والكتابة، وهذا رأي يميل اللغويون إلى رفضه فطريا، وينفر شعب هونغ كونغ أيضا من القبول به بشكل عام. وإن الحكم السلبي قد يعني أن الإنجليزية أفضل من الصينية، وهي فكرة يرفضها أي لغوي على الفور بوصفها هراء تفتقر إلى المعقولية إذا ما طبقت على البناء أو على «المنطق الداخلي» للغة (في انعدام أي معيار مستقل نقيس به نوعية اللغات، حتى إن كانت هذه اللغات متصلة فيما بينها)، كما أنها فكرة تتجنب وإن كان معنى «أفضل» يفيد ببساطة «أكثر نفعا» (بما أن لكلمة «نفع» مظاهر متعددة أكثر مما لها من مظاهر أخرى واضحة بشكل مباشر).

فلهذه الأسباب نفسها، بدا منطقيا لدى كثير من اللغويين عدم تأييد فكرة التردي الذي لحق مستوى الإنجليزية في هونغ كونغ، بل وأكثر من ذلك، فهي تتعارض بشكل مباشر مع نتائج البحوث التجريبية. إن الجدول ٦-١ المأخوذ من تقرير لمشروع يبحث في لغة هونغ كونغ، والذي أعده باكون ـ شون Bacon-Shone وبولتون Bolton، (١٩٩٨) يبين تزايد عدد الناطقين بالإنجليزية في هونغ كونغ بنسبة ٥٠٪ بين العامين ١٩٨٣ و١٩٩٣، وقد لاحظ باكون- شون وبولتون ارتفاعا سريعا بشكل ثابت من الثلاثينيات إلى الوقت الراهن في كل من النسبة والأعداد المطلقة لسكان هونغ كونغ الذين يجيدون الإنجليزية، ليدحض، بما لا يدع مجالا للشك، فكرة أن «هونغ كونغ مجتمع أحادي اللغة (ينطق الكانتونية)، وأنه متجانس عرقيا (٩٨٪ صينيون)» (سو So، ١٩٨٧، ص: ٢٤٩) أو ليدحض حتى هذه الرواية المفعمة بالغضب نسبيا: «إن هونغ كونغ مجتمع أحادي اللغة ينطق الكانتونية، إذ لا تستعمل الإنجليزية فيه سوى في ميادين محصورة» (سو، ١٩٩٢، ص: ٧٩) [4].

الجدول (٩-١): تقرير حول اللغات المنطوقة والمفهومة
لدى شعب هونغ كونغ لعام ١٩٩٣ (٪)

	يفهم	يتحدث	(يتحدث: تقرير ١٩٨٣)
الكانتونية	٩١,٥	٩٨,٥	٩٨,٥
الإنجليزية	٦٨,٦	٦٥,٨	٤٣,٣
البوتونغوا (ماندرين)	٦١,٩	٥٥,٦	٣١,٩
الصينية	٧,٣	٦,٦	(غير مدرجة في التقرير)
هاكا (Hakka)	٧,٤	٦,٠	٧,٥
شيو شو (Chiu Chau)	٧,٠	٥,٢	٩,٣
فوكيان (Fukien)	٤,٢	٤,١	٤,٢
سزي ياب (Sze Yab)	٣,٢	٣,٣	٦,٦
الشنغانية (Shanghainese)	٣,٧	٢,٧	٤,١
اللهجات الكانتونية	٣,٥	٢,٥	٤,٧
لهجات صينية أخرى	١,٥	١,٥	(غيرمدرجة في التقرير)
لغات أوروبية أخرى	١,٩	١,٨	(غير مدرجة في التقرير)
أخرى	٠,٤	٠,٣	٣,٦

تقرير معدل أخذ عن باكون - شون وبولتون (١٩٩٨، ص: ٦٨-٧٤)

الجدول (٩ - ٢): إجابات عن السؤال «كيف تقيم معرفتك بالإنجليزية؟» (٪)

	١٩٨٣	١٩٩٣
«جيد نوعا ما» / «جيد» / «جيد جدا»	٥,١	٣٣,٧
«لا على الإطلاق» / سوى جمل معدودات / قليلا	٩٢,٨	٦٦,٣

معطيات معدلة أخذت عن باكون-شون وبولتون (١٩٩٨، ص: ٧٦)

كما تبين دراسة باكون ـ شون وبولتون ارتفاعا ملحوظا بين العامين ١٩٨٣ و١٩٩٢ في نسبة الذين يدعون معرفتهم بالإنجليزية معرفة جيدة جدا (الجدول ٦ - ٢). وهكذا، يجد المرء، بين الشعب بصورة عامة، تحولا هائلا في الإدراك حول مستوى الإنجليزية المتداولة في هونغ كونغ، يخالف التوجه الذي يقول به خطاب التدهور. ومن أجل فهم ما يدور، أضحى مفيدا التفكير في كيفية حدوث هذا التحول في الإدراك تاريخيا.

وحتى حدود العام ١٩٩٥، كانت في هونغ كونغ جامعتان هما: جامعة هونغ كونغ التي أسست العام ١٩١١، وجامعة هونغ كونغ الصينية التي أسست العام ١٩٦٣، وفي الفترة الممتدة بين ١٩٩٤ و١٩٩٧ منحت خمس كليات (كليات متعددة الفنون) مؤسسات وضعية جامعة واستُحدثت جامعة جديدة باكملها. وقد تضاعف عدد مقاعد الطلبة الجامعيين ثلاث مرات في أقل من ثلاث سنوات. وفي الوقت نفسه، اتخذ عدد الطلبة الذين غادروا المدارس ليتجهوا إلى الخارج، وبخاصة نحو المملكة المتحدة وكندا، من أجل الالتحاق بالتعليم الجامعي، منحنى تصاعديا حادا بالتزامن مع الغنى المتزايد الذي شهدته البلاد منذ أواخر الثمانينيات. وكانت العائلات التي تمتلك إمكانات مادية، لا ترى بدا من إرسال أبنائها إلى الخارج قصد التعلم. وهذا يعني أن الجامعات المحلية ذات المنزلة الرفيعة (القديمة منها، خاصة جامعة هونغ كونغ) تستقبل الخاصة من الطلبة أبناء العائلات الفقيرة. وقبل عشرين أو ثلاثين عاما، لم يكن الأمر على هذا النحو. فخلال تلك

الأيام، كان يتوجه الميسورون من الناس نحو الجامعة البريطانية لهونغ كونغ، في حين قد يحصل الطلبة الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة على مكان في جامعة الصين إذا حالفهم الحظ. ولكن أخيرا في مطلع السبعينيات، لم يدخل إلى الجامعة سوى ٢٪ من خريجي المدارس الثانوية في هونغ كونغ. وبحلول العام ١٩٩٧، بلغ الرقم ٢٠٪.

وفي العام ١٩٧٢، حصل خريجو المدارس الثانوية ذوو الرتب العليا التي تتراوح بين ٣٪ و١٨٪ داخل أقسامهم على مناصب شغل كمستخدمين في المكاتب وسكرتارية، حيث مكنتهم من التعامل مع الشعب بشكل واسع. أما مناصب الشغل التي تتعلق بالتسيير، فليست «مفتوحة في وجوههم» مباشرة. فقد كان القطاع التنفيذي، مثل الاقتصاد، صغيرا جدا ويهيمن عليه المنفيون. فعندما كان يزور

المرء حكومة أو مكتب تجارة في قلب المدينة، يجد موظف استقبال أو كاتبا وراء النافذة يفترض أنه كان من ضمن الـ٥٪ من صفوة خريجي الطلبة الذين تلقوا تعليما عاليا وذوي المستوى الممتاز في اللغة الإنجليزية.

وفي الوقت الراهن، ومع توجّه أكثر من ٢٠٪ من الخريجين إلى الجامعة، ومنها إلى وظائف إدارية عالية، فإن موظف الاستقبال أو الكاتب وراء النافذة لم يعد يُختار من أصل ربع صفوة خريجي الطلبة داخل الفصل الدراسي الواحد. ومن هذا المنطلق، جاز لنا القول إن هناك تدهورا في المستويات، لكن حدث هذا كجزء من زيادة كبيرة في فرص التعليم، وهي مسألة جيدة جدا حتى في أعين أولئك الذين يتذمرون من ضعف الإنجليزية.

إن هذه التحولات جعلت من هونغ كونغ، بلدا يشبه، في كثير من النواحي، العهد الفيكتوري البريطاني الذي وصفه هوبسبوم ، إذ كان الطلبة خلال هذا العهد «يمتحنون في فصل دراسي واسع»، والناجح في الامتحان يتحول بواسطة التعليم من ميدان العمل الذي يعتمد نظام الأجرة بالساعة، أو من أصحاب متاجر صغيرة إلى طبقات اجتماعية متوسطة ادنى. وإن استعمالهم للغة (وبخاصة الإنجليزية) وثيق الصلة بالبنيات المؤسساتية المدنية (مدارس، جامعات، وكالات الفحص، مكاتب التشغيل) المسؤولة عن عملية تسلسلها الهرمي. ففي كل فعل كلام أو كتابة تحدث عبر الأشكال الخاصة للغتين الصينية والإنجليزية اللتين يتحدث بهما الطلبة ـ والتي غالبا ما تحدث بشكل متقطع داخل الجملة الواحدة ـ يعبرون عن هوياتهم كصينيين من هونغ كونغ الذين بلغوا أعلى سلم في التعليم. كما أن التحدث بالإنجليزية البريطانية المعيارية أو الإنجليزية الأمريكية سيكون أمرا غير مرغوب فيه بالنسبة إليهم، ما دامت تصفهم بالدخلاء، وتقل هذه الرغبة أكثر إذا لم يتحدثوا بالإنجليزية بتاتا، لأن ذلك سيؤدي إلى نعتهم بالمواطنين غير العالميين، وغير المتعلمين، وغير المرغوب فيهم كأزواج.

وعندما يتحدث الناس عن تدهور مستويات الإنجليزية في هونغ كونغ، فإنهم بذلك يتفاعلون مع المظهر الذي يمكن إدراكه بشكل فوري جدا لتغيير اجتماعي رئيس. وقد سبق للورد (١٩٨٧) أن تطرق لهذه الفكرة:

> «ففي هونغ كونغ، وخلال العقدين الماضيين، تغيّر وضع الإنجليزية من كونها لغة استعمارية محضة ـ اقتصر استخدامها على نطاق واسع على الدوائر الحكومية، والقانون،

والتجارة ذات المستوى العالي، إضافة إلى ميادين أخرى قليلة ـ إلى لغة ضرورية ذات تواصل أوسع بالنسبة إلى مجموعة كبيرة متزايدة من الناس، بدءا من كبار المسؤولين المتنفذين في جهاز الدولة إلى الكتبة، ومن رئيس لتجارة خارجية إلى موظفي سكرتارية... ومن الطبيعي جدا أن يتراءى للعديد أن مستويات الإنجليزية في انحدار» (لورد، ١٩٨٧، ص: ١١، وردت أحرف الطباعة المائلة على هذا النحو في النص الأصلي).

وإذ يطبع لورد كلمة «يتراءى» بالحرف المائل، فهو يرى مثل العديد من اللغويين الآخرين أن تدهور مستويات الإنجليزية مسألة خرافية. وهذا ليس خطأ جملة وتفصيلا. ولا يمكن أن تفهم المسألة على أساس أن كيانا مستقلا، يدعى اللغة الإنجليزية، كان موجودا في هونغ كونغ وتعوّد الناس على التعامل معه بوصفه شيئا أفضل، والآن أصبح شيئا أسوأ. ومهما يكن ما نعنيه عندما نتحدث عن «الإنجليزية» ـ سواء امتلاكنا مجموعة من الكلمات وقواعدها في ذهننا، موجودة بمعزل عن المتكلمين، أو شكلا من أشكال المعرفة في أذهان المتكلمين أو أدمغتهم، أو طريقة للتصرف في الخطاب التواصلي ـ فإنه من الواضح أن ما حدث في هونغ كونغ يفيد بأن كثيرا من الناس وليس قليلا منهم، حصلوا على فرصة استخدام الإنجليزية. وكما هو معهود، عندما يصبح امتياز فئة قليلة في متناول عامة الناس، تفقد الخاصة ذاتها التي كان تتمتع بها من قبل.

وانطلاقا من وجهة النظر هذه، تعتبر «خرافة» انحطاط الإنجليزية في هونغ كونغ، نوعا من أنواع التعجرف اللغوي. وهذا يساعد على تفسير مظهر من تجربتي الخاصة كأستاذ للغة الإنجليزية بجامعة هونغ كونغ في منتصف التسعينيات، وهو أن الناس الذين تقدموا بشكواهم لي، مستخدمين مصطلحات صاخبة وانفعالية، بشأن انحطاط الإنجليزية في هونغ كونغ هم من إثنية صينية. وقد أشار الغربيون من حين لآخر إلى هذا الوضع، لكن بطريقة تكتنفها اللامبالاة وعدم الاكتراث. وإن الشعب الصيني الإثني الهونغ كونغي نفسه الذي يتمتع بمهارة عالية في الإنجليزية، ويسعى باستمرار إلى تحسينها، يصر على أنها قضية مستعجلة وأزمة يجب ضبطها واحتواؤها. وبعدها، أضافوا حتما أن الأمر لا يقتصر على رداءة الإنجليزية لدى الطلبة الجامعيين فحسب، بل امتدت

هذه الرداءة بالقدر نفسه إلى اللغة الصينية أيضا. وهذا تعقيب معقد حول حالة اللغة الصينية التي وصفت سلفا. غير أن قلق هؤلاء الطلبة بالأساس يتمثل في ظهور المزيج الفني code-mixing. استخدام الكلمات الإنجليزية داخل تخاطب كانتوني من الناحية الظاهرية (انظر ص: ١٨٤ أعلاه التي تتطرق إلى قيمة الهوية لهذا المزيج الفني). وفي واقع الأمر، لا أظن أنهم يقولون هذه الأشياء كليا بدافع التعجرف. وسأتوسع أكثر في الأسباب الكامنة احتمالا وراء هذا الزعم. ولكنهم يرسخون، عبر هذا الخطاب، قيمة نوع الإنجليزية التي يمتلكونها ويمتلكها معهم آخرون من خريجي الجامعة من جيلهم، والتي هي نادرة بين طلبة العصر الحاضر بشكل متزايد.

إن المسألة الأولى التي سوف ينكرونها، هي أنهم يتحدثون شيئا يعرف وجوبا «بإنجليزية هونغ كونغ». ولا يتحدث عن هذه اللغة سوى اللغويين، باستثناء حالات نادرة. وإن متكلميها ليهزؤون من فكرة وجود «إنجليزية جيدة» فقط (ويمثل ذلك المستوى الخارجي)، وإنجليزية مواطنيهم «السيئة». وفي هذا الصدد، كانت إنجليزية هونغ كونغ تتبوأ المنزلة نفسها التي كانت تتمتع بها كل لغة رومانسية حديثة في المراحل الأولى من ظهورها، بالمقارنة مع اللاتينية أو أي لغة رومانسية أخرى (بالإضافة إلى تعقيدات سلافية بخصوص الحالة الرومانية).

ومن شبه المؤكد أن وجهة النظر التي تقول بانحطاط مستويات الإنجليزية مرتبطة جزئيا بظهور إنجليزية هونغ كونغية مميزة من حيث التركيب مع سمات لغة بينية واضحة. والاعتراف «بلغة» جديدة يعتمد على ثلاث مجموعات من العوامل: الشكل اللغوي، والوظيفي، والطبقي (status) (انظر جوزيف، ١٩٨٧). وتمثل الأقسام التالية عينات من إنجليزية هونغ كونغ، ودراستها بعد ذلك في ضوء هذه المعايير الثلاثة، بدءا بالشكل.

نماذج من إنجليزية هونغ كونغ

كي أقدم للقراء على الأقل معنى أوليا حول مفهوم إنجليزية هونغ كونغ، أقترح ثلاثة نصوص، لكل واحد منها جنس أدبي مختلف. أما النص الأول، فمأخوذ من جريدة Hong Kong Voice of Democracy (٣ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٢). إنه نص

مكتوب على نحو صرف ـ شبه رسمي في طبيعته ـ يدعو القراء إلى الخروج في نزهة على الأقدام خلال نهاية الأسبوع التالي. وقد أبرزت سمات لا تتبع المعيار البريطاني أو الأمريكي، بحيث فرقت بينهما على النحو التالي. إذ إن تلك السمات التي هي بحسب رأيي، خاصة بالنص الذي بين أيدينا كتبت بحروف مائلة. وأما بالنسبة إلى تلك السمات التي يشترك فيها بشكل أعم ناطقو إنجليزية هونغ كونغ وكتابها، والتي من المرجح أن تشكل جزءا من الشكل المميز لتلك اللغة لدى ظهورها، فقد كتبت بحروف رومانية:

أيها الأعضاء الأعزاء/الأصدقاء، أعضاء ٧.١ بيبل بايل People Pile

الرجاء إلقاء نظرة أدناه على تفاصيل نشاط النزهة على الأقدام المزمع تنظيمها هذا الأحد.

الديموقراطية في طريقها إلى لايون هيل

الوقت: ٧ شتنبر، ٢٠٠٢ (الأحد)

توقيت التجمع: ٣٠: ١ زوالا

مكان التجمع: مصرف هانغ سينغ قرب محطة ونغ تاي سين MTR (ترتدي مجموعة قمصان shirt بولو برتقالية كوسيلة لتحديد الهوية)

وسيلة النقل: الحافلة الصغيرة رقم ١٨.

مسار الرحلة: شاتين باس ← إستيت وشاتين باس ← يونيون ريدج ← لاين روك ← بافليون ← أماه روك ← هانغ مووي كوك.

الميزات: لملاحظة تطور كاولون وشاتين وإلقاء نظرة قريبة على أماه روك.

المسافة: حوالي ٧ كلم

الوقت: من ٢.٥ إلى ٣ ساعات

الصعوبة: مستوى ٢

خدمات: لا يوجد.

وقت الانطلاق: ٥:٣٠ مساء

مكان المغادرة: باربكيو

وسيلة النقل: توجد حافلات في هانغ مووي كوك تتوجه إلى كاولون أو شاتين.

وكبديل عن ذلك، يمكننا المشي مدة عشرين دقيقة تجاه محطة وي KCR (Wei).

ملاحظات

١) أحضروا طعاما وماء (٧٠٠-١٠٠٠مل) كافيين. استعدوا لرسوم نقل كافية.

٢) تحت الشمس يجب تحضير مظلة، واق من الشمس، وقميص، ومنشف.

من بين السمات «المنتظمة» لإنجليزية هونغ كونغ في هذا النص نلاحظ ما يلي:

● إلغاء الفرق بين الاسم المعدود والاسم غير المعدود (أي غير القابل للجمع أو الإفراد)، الذي يظهر من خلال استعمال صيغة المفرد محل صيغة الجمع في اللغة الإنجليزية المعيارية، ومن خلال التوزيع المتنوع لأدوات التعريف المحددة وغير المحددة (مثلا مجموعة من القميص [...] group of) (shirt، وكبديل (for alternative).

● توزيع مميز جدا بشكل كبير لحروف الجر.

● اختلافات دلالية في وحدات معجمية lexical items مستقلة (مثلا كلمة «أعدّ» (prepare) تعني في هذا النص «أحضر»).

أما النص الثاني، فمأخوذ أيضا من جريدة Hong Kong Voice of Democracy بتاريخ (يونيو/حزيران، ١٩٩٨). ويحتوي على مقتطفات من نسخة من مقابلة أجريت مع سزيتو واه Szeto Wah، السياسي البارز المؤيد للديموقراطية ورئيس مجلس اتحاد هونغ كونغ الداعم لحركة الصين الديموقراطية الوطنية:

> س: إن التحالف قد حصل على أموال هائلة من المواطنين من خلال أنشطته طوال هذه السنين. فما هي الصورة المالية الآن؟ ماذا لو تم إنفاق هذا المال بأكمله؟ فهل سيقبل الاتحاد بكفيل خارجي؟
>
> ج: إلى حدود أبريل/نيسان، ما زلنا نملك ثلاثة ملايين دولار هونغ كونغي في البنك. وإننا نبذل قصارى جهدنا لقطع كل النفقات غير الضرورية. أظن أن هذا العام لن يكون لدينا أي مشكل. وكل عام، خاصة خلال أنشطة إحياء ذكرى الاتحاد، نتلقى الكثير من التبرعات من المواطنين. ولكن، مع مرور هونغ كونغ بضائقة اقتصادية في الآونة الأخيرة، لا بد أن نفكر في

الأمر. فإذا استطعنا الحصول على مليون ونصف المليون دولار هذا العام خلال أنشطة إحياء ذكرى الاتحاد، فسيكون الوضع مريحا. في العام الماضي حصلنا على أكثر من مليوني دولار هونغ كونغي. يمثل المال همـا بالنسـبـة لنا، ولكن ليس همـا رئيسا. سنكيف مصاريف عملنا مع ميزانية الاتحاد. ولن نبحث أبدا عن مساعدات مالية خارجية. وإن مواردنا السابقة تقوم كلها على المال المتبرع به من لدن المواطنين بطريقة مباشرة.

[...]

س: في مايو الماضي، أشير إلى قضية تم تداولها في المجلس التشريعي Legco تدعو بكين إلى تصحيح ما صدر عنها في مذبحة الرابع من يونيو/حزيران.

وبطبيعة الحال، إن الفعل رمزي وليس واقعيا. فقد حُلّت الهيئة التشريعية. ولكن العديد منكم الآن أعيد انتخابه للمجلس. فهل تظنون أن ثمة حركة أخرى يمكن أن تثير انتباه كل من الشعب والسلطة، ومن ثم تكون قادرة على ممارسة ضغط إعلامي؟

ج: إن آلية نظام المجلس التشريعي في الاقتراع المقترح مختلفة تماما الآن. فهناك مشرعون تم انتخبوا حديثا. ونظام التصويت الذي حدده المجلس لن يسمح لهذا النوع من الاقتراع المقترح الحدوث. فمن دون رخصة مكتوبة من لدن الرئيس التنفيذي، لن يناقش ضمن جدول أعمال. طبعا، نستطيع أن نكرر طلب الاقتراع كي نجتذب تغطية إعلامية، ولكن هذا لا يؤدي إلى نوع النقاش والتأثير مثل ما حصل في السابق. وفي النقاش الأخير ذاته، كان هناك تسجيل للآراء المقترحة من أعضاء المجلس التشريعي. ولم يكن ذلك يتعلق بالسلطة القضائية فقط.

فبالإضافة إلى السمات التي أشير إليها في النص الأول، نجد هنا أمثلة متعددة لسمة أخرى في إنجليزية هونغ كونغ تتجلى في توزيع صيغ أفعالها المختلفة عن الإنجليزية المعيارية (مثلا، recently,last [...] ,is going through year we have raised) وعلى الرغم من أن العديد من «إنجليزيات العالم» تظهر مثل هذه الاختلافات عن الإنجليزية المعيارية، يبدو أن ثمة اختلافا بينها

يرجع أصله ربما إلى اللغة الأم في «الأساس». مثلا، يبالغ ناطقو اللغات الجرمانية الأصليون في استخدام صيغ الحال المتصل progressive forms بشكل قوي من وجهة نظر الإنجليزية المعيارية (مثلا Where are you coming from? مقابل اللغة المعيارية (Where do you come from?)، ولكن المرء لا يجد هذا الاستخدام في إنجليزية هونغ كونغ.

أما العينة الأخيرة من النصوص، فمأخوذة من أبحاث كتبها طالبان اثنان كنت أدرسهما مادة «اللغة في المجتمع» بجامعة هونغ كونغ في خريف ١٩٩٦، وأدرج هذه النصوص هنا ليس فقط باعتبارها عينات تبرز إنجليزية هونغ كونغ كما ينطقها طلبة الجامعة ذوو المستوى العالي في النصف الثاني من التسعينيات، ولكن ايضا لأمكن أصوات متكلمي إنجليزية هونغ كونغ أنفسهم من الإفصاح عن رأيهم حيال الحالة اللغوية:

> لقد أصبح التعدد اللغوي أكثر شيوعا وشعبية بين الدول [...].
> وحسب رامريز، يبدو التعدد اللغوي سمة معظم بني البشر. فهناك دول كثيرة تعترف بلغتين أو أكثر بوصفها لغات رسمية. ومع تطور التكنولوجيا بشكل واسع في العقود الأخيرة [...]، أصبحت التعددية اللغوية ضرورة ملحة بالنسبة إلى الدولة كي تطور التجارة/الاتصال مع دول أخرى [...]. بالإضافة إلى هذا، فإن الشعب الذي يتحدث لغات متعددة يستطيع أن يتواصل مع دول أخرى (التي) تخدم مصالح عالمية وتعمل على رأب الصدع بين الأمم.
>
> ففي هونغ كونغ، يتعرض الشعب للغة الصينية المكتوبة في معظم الأوقات، بما أنها لغة الأم لما يزيد على ٩٥٪ من السكان. وهناك مشاكل تتعلق بكتابة المندارينية/الكانتونية، فطلبة هونغ كونغ يدرسون المندارينية المكتوبة، وتستعمل على نحو عام. ولكن يمكن للكانتونية المكتوبة أن تمثل الكانتونية المنطوقة بمقطع لفظي، ويستطيع الشعب كله أن يفهم هذا تماما [...]. كما توجد في هونغ كونغ نسبة أقل ممن تتعذر عليهم قراءة الصينية بالمقارنة مع النسبة الموجودة في سنغافورة. أما بالنسبة إلى الإنجليزية، فلهونغ كونغ مستوى أقل بالمقارنة مع سنغافورة، لأن اللغة الأساسية المستعملة في سنغافورة هي الإنجليزية (للتواصل مع اجناس أخرى)، في حين تستعمل الصينية في هونغ كونغ.

كما أن جودة الأستاذ تؤثر في أداء الطلبة بشكل مباشر. فلدى أكثر الأساتذة [...] في هونغ كونغ مشكل في استخدام الإنجليزية. ومن ثم، يدرس بعض الأساتذة بلغة نصفها إنجليزي ونصفها الآخر صيني، مما يسبب خللا في التكوين اللغوي لدى الطلبة: فلا يحسنون في نهاية المطاف الإنجليزية، ولا الصينية [...]، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأطفال في المرحلة الابتدائية، يستخدمون منطق لغتهم الصينية لدراسة الإنجليزية؛ ولهذا تجدهم يستخدمون هذا الأسلوب الإنجليزي مثل Do you think you can pass me the salt? بدلا من «Can you pass me the salt?»، [...].

ولدى العديد من الآباء في هونغ كونغ رغبة قوية في أن يتابع أبناؤهم دروسهم بالإنجليزية، لأن الذي يملك مستوى عاليا من الإنجليزية يمكن أن تتاح له فرص أفضل للعمل [...].

Multilingualism becomes more common and popular among the countries [...]. According to Ramirez, multilingualism appears to be a characteristic of most human. There are already many countries recognize two or more languages are their official languages. As the technology is largely improved in recent decades [...] multilingualism is need for a country to develop trade/communication with other countries [...]. Besides, people with multi-linguistic people are able to communicate with other countries, that serve global needs and shorten the gap between nations.

In Hong Kong, people are exposed to written Chinese in the most of the time as it is the mother language for over 95% of the population. Problems of written Mandarin/Cantonese are concerned. Students in Hong Kong are taught of written Mandarin and it is commonly used. However, written Cantonese can represent spoken Cantonese syllable by syllable, and all people in Hong Kong can fully understand [...]. Hong Kong has a smaller percentage who cannot read Chinese while comparing with Singapore. For English, Hong Kong has a lower standard comparing with Singapore as it can be expected as language mainly used in Singapore is English (to communicate with other races) while Chinese is used in Hong Kong.

The quality of teacher directly affect the performance of the students. In Hong Kong, most teachers [...] have the problem of the using of English themselves. Then some teachers [...] will teach in half English and half Chinese that make students neither good at English nor Chinese [...]. When the children are in the primary, they use their Chinese language logic to study English. This is the reason that primary students make Chinese style English like 'Do you think you can pass me the salt?' instead of 'Can you pass me the salt?' [...].

Many parents in Hong Kong have strong desire to have their children learning on English. It is because having higher English can have better job opportunities [...].

على الرغم من أن معظم السمات سبق أن ناقشناها حسب ما ظهر في إحدى العينات السابقة، فإن الجملة الخامسة من المقتطف الأول أعلاه (Besides, people with multi-linguistic people are able to communicate with other countries that serve global needs and shorten the (gap between nations) = بالإضافة إلى هذا، إن الشعب الذي يتحدث لغات متعددة يستطيع أن يتواصل مع دول أخرى (التي) تخدم مصالح عالمية وتعمل على رأب الصدع بين الأمم)، يحتوي على ثلاث سمات جديرة بالملاحظة:

- إن استخدام Besides في أول الجملة، توافق Furthermore في الإنجليزية المعيارية (على نحو مماثل لـ: Then في المقتطف الثاني).
- إن كلمة people التي وردت في أول المقتطف، يجب أن يحل محلها تعبير a people في الإنجليزية المعيارية a 'people with multi-linguistic people'= people with a multilingual population، ويجب أن تُتبَع بفعل في صيغة المفرد بدلا من فعل في صيغة الجمع. ومن ثمة حضور كلتا السمتين هنا: الاسم المعدود والاسم غير المعدود بوصفهما شيئا واحدا.
- استخدام كلمة that بوصفها ضميرا لإسناد واسع ـ ومقابل هذه الكلمة في الإنجليزية المعيارية، قد يكون شيئا من هذا القبيل "an ability which" او "a situation which".

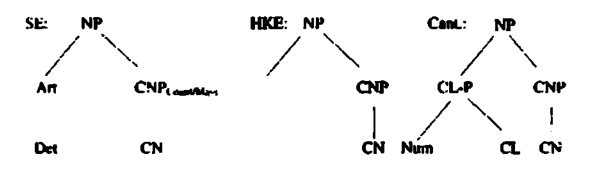
من أصل كل هذه السمات التي تُنوولت هنا، تعتبر السمة الأكثر اهمية بلا شك، تلك التي ألفت التمييز بين الاسم المعدود والاسم غير المعدود في المركب الاسمي ـ إلى حد أن اصبح يعبر عن هذه الحالة اللغوية من خلال رسم كاريكاتوري للصينيين الناطقين بالإنجليزية. وستكون هذه السمات محط تركيز في القسم التالي (٥).

التميز الرسمي لإنجليزية هونغ كونغ

لقد لاحظ كلوس Kloss (١٩٧٨) أن الشرط الأساسي بالنسبة إلى لغة جديدة كي تحظى بالاعتراف يتمثل ببساطة في اختلافها من حيث الشكل عن التنوع اللغوي الذي تم الاعتراف به في السابق. وقد استعمل كلوس مصطلح أبستاند Abstand للإشارة إلى التباعد اللغوي المطلوب. والاختلاف موجود دائما بطبيعة الحال ـ ولا يسلم أي شكل من اشكال اللغة، مهما حُدد بشكل ضيق، من التغير (او التنوع). وهذا يؤدي حتما ـ على مستوى «لغة ما» ـ إلى تغير يتسبب في بعض الاضطراب في التواصل بين المتكلمين. وكما رأينا في السابق، لا يوجد أي سقف

محدد سلفا للاختلاف الذي يجب أن تسمى «لغة» متميزة إلى بلوغه. وإذا كانت هناك رغبة قوية جدا، في أن يُعترف بلغة متميزة فستستثمر الاختلافات الطفيفة جدا، وتكون القيمة الأيديولوجية ضرورية لبلوغ هذا المرمى.

إن إحدى السمات التي تتميز بها إنجليزية هونغ كونغ التي ترد بانتظام في عينات الخطاب هي افتقار الإنجليزية المعيارية للتمييز بين مركب الاسم المعدود ومركب الاسم غير المعدود. وفي هذا الصدد، يملك مركب الاسم البسيط (NP) في إنجليزية هونغ كونغ مقابلا لبنيته في الصينية، كما يبين ذلك (الشكل ٦-١)، حيث يمثل (CPC) «مركب اسم عام»، و(CL) «مصنف»، و(CL-P) «مركب المصنف» ويمثل X «شيء يستوجب تحديده». وقد دهش الناطقون بإنجليزية هونغ كونغ، بما في ذلك طلبة الماجستير الذين أدرسهم والذين هم أساتذة اللغة الإنجليزية ومن خيرة المتخرجين المحليين في الإنجليزية، لما علموا أن كلمة noodle اسم معدود، وليست اسما غير معدود في الإنجليزية المعيارية وأن المرء لا يقول: *bowl of noodle. ليعني bowl of rice. وقد قال لي أحد طلبتي من هونغ كونغ ممن أدرس حاليا إنه عنف من قبل أستاذ على قوله: bowl of noodles بدلا من الاستعمال «الصحيح» bowl of noodle. فالأسماء "rice" faahn (رز) و"noodles" mihn (رشتة) لها المصنف الاسمي نفسه في الكانتونية، "bowl" wun (سلطانية) [٦].



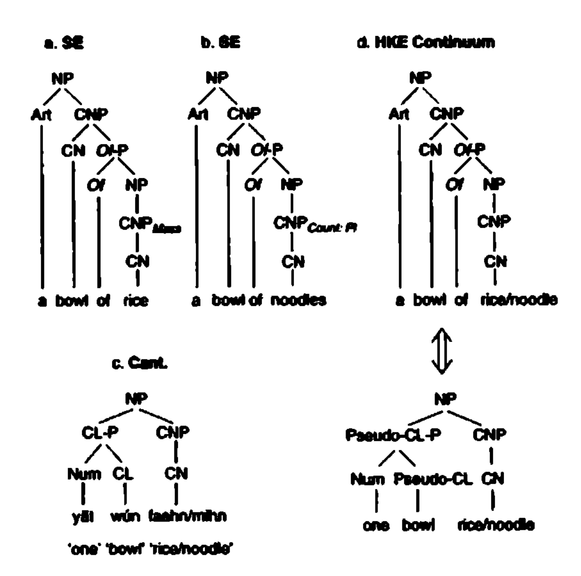
الشكل (٦-١): بنية مركب الاسم البسيط في الإنجليزية المعيارية (SE)، وإنجليزية هونغ كونغ (HKE)، والكانتونية (Cant.).

الإنجليزية المعيارية:	إنجليزية هونغ كونغ:	الكانتونية:
1. a bowl of rice	1. a bowl of rice	1. yát wún faahn
أ. *a bowl of rices	أ. *a bowl of rices	(one bowl rice)
ب. *a bowl of noodle	ب. a bowl of noodle	ب. yát wún mihn
بَ. a bowl of noodles	بَ. *a bowl of noodles	(one bowl noodle)

ويختار كل اسم عام في الصينية مصنفا خاصا: فتعبير "a book" (كتاب)، في الكانتونية هو yat bun syū، و"a university" (جامعة)، هو "yat gāan daaih-hohk"، إلى غير ذلك. ويتوقع المتعلمون الصينيون للإنجليزية ضمنيا أنه لو اختار المصنف نفسه في الصينية اسمين، فإن مقابليهما في الإنجليزية سيظهران سلوكا تركيبيا مماثلا. وعلى الرغم من التباينات البنيوية الكثيرة بين اللغتين، فإن المتعلمين الصينيين الأكفاء للإنجليزية لا يملكون توقعا مماثلا، إذ إن تعبير "bowl of noodles" يبدو غريبا بالنسبة إلى طلبتي بالماجستير، الأكفاء بشكل كبير، تماما مثلما هو تعبير "*bowl of rices" غريب بالنسبة إليهم وإلي.

ويمكن تمثيل البنية التركيبية لهذه المركبات الاسمية كما في (الشكل ٦-٢) حيث الإنجليزية المعيارية والكانتونية على اليسار، وإنجليزية هونغ كونغ على اليمين بوصفها لغة متصلة continuum بينية [٧]. ويتألف المركب الاسمي من أداة تنكير (a)، ومركب اسمي عام ورأسه الاسم العام bowl. ويختار هذا المركب الاسمي العام مركبا يكون رأسه حرف الجر of الذي يعمل عمل فضلة أوخبر complement. وفضلة هذا المركب هي مركب اسمي عام آخر يحدد دائما على أنه اسم معدود أو غير اسم معدود. وإذا كان اسما معدودا، فسيحدد أيضا إن كان جمعا أو مفردا، في حين أن مركب الاسم العام غير المعدود لا يخضع لهذا التخصيص.

وإذا ما نظرنا الآن إلى (c)، فسنجد أن المقابل الكانتوني لهذين المركبين الاسميين هو بنية مفردة، تتألف من مركب تصنيفي ومركب اسم عام. فالمركب التصنيفي يتألف من العدد (yat) والرأس الذي هو المصنف (wún)، ورأس المركب الاسم العام هو اسم لا يحمل أية سمة تركيبية تدل على أنه اسم معدود أو اسم غير معدود. وليس في الصينية أي سمة مباشرة تدل على صيغة الجمع أو المفرد في الأسماء أو الأفعال. وتبين أسماء الإشارة ظواهر عددية مهمة، إلا انه لا يوجد هنا مرة أخرى أي دليل حقيقي يميز بين الاسم المعدود والاسم غير المعدود في الكانتونية. والفرق الرئيس الثاني بين المركبات الإنجليزية والكانتونية يتجلى في أن كلمتي rice وnoodles في الإنجليزية ليستا رأسا لمركب الاسم العام الأعلى، بينما faahn وmihn في الكانتونية يقومان بهذه الوظيفة. ويبدو أن بنيات إنجليزية مثل a lot of rice تبين شيئا قريبا جدا من البنية الصينية، بحيث تقوم (a lot of) بوظيفة تشبه السور المركب compound quantifier و(rice) بوظيفة تشبه الاسم الرأسي head noun، ولكن هذا ليس في الحقيقة أمرا مهما جدا بالنسبة إلى التحليل الراهن.



الشكل (٦ - ٢): بنية مركب الاسم (bowl of rice/noodle-type) في الإنجليزية المعيارية (SE)، والكانتونية (Cant)، وإنجليزية هونغ كونغ (HKE) المتصلة.

أما فيما يتعلق بإنجليزية هونغ كونغ في الشكل (d)، فلدينا عمليا في الأعلى بنية الإنجليزية المعيارية، وفي الأسفل لدينا البنية الصينية. وهذا لا يعني أن إنجليزية هونغ كونغ تفتقر إلى التمييز بين المفرد والجمع. فعلى العكس من ذلك، إن هذا التمييز موجود ويعمل بمنزلة سمة تحدد موضع المتكلمين في هذا المتصل من التغير اللغوي البيني.

ولكن في المركب الاسمي للإنجليزية المعيارية، يعتبر الفرق بين صيغتي المفرد والجمع أمرا ثانويا، حيث يطبق عندما يختار الاسم المعدود فقط بدلا من الاسم غير المعدود ولا يميز المتكلمون الموجودون في أعلى المتصل لإنجليزية هونغ كونغ بين الاسم المعدود والاسم غير المعدود إلا بقدر قليل، ولو أن لديهم كفاءة متطورة جدا في السمات المحددة لصيغتي الجمع والمفرد. وفي المقابل، وكما أشرت إلى ذلك آنفا، يظن هؤلاء المتكلمون أن على الأسماء التي تختار المصنف ذاته في الصينية أن تظهر السلوك التركيبي ذاته في الإنجليزية، وكان هذا السبب الرئيس وراء تسميتي bowl هنا شبه مصنف (pseudo-classifier)، ولدي شعور بأن حضور ما قد نسميه «التأثير شبه المصنف» ولو في الإنجليزية المعيارية لإنجليزية هونغ كونغ يعتبر مسؤولا عن مطابقة الفعل للفاعل غير المعيارية التي يجدها المرء عند أولئك المتكلمين الأكفاء بدرجة عالية.

ومنذ ما يزيد على ثلاثين سنة رسخ مفهوم «اللغة البينية» في علم اللغة التطبيقي فكرة أن ناطقي اللغة الثانية لا يرتكبون الأخطاء بشكل اعتباطي. وكي نكون دقيقين، فهم فعلا يرتكبون أخطاء على نحو اعتباطي، تماما مثلما يفعل ناطقو اللغة الأم، غير أن الحجم الكبير من السمات التي تعزل لغتهم البينية عن اللغة المعيارية للغة المستهدفة منتظم بطبعه. فناطقو إنجليزية هونغ كونغ يرتكبون «الأخطاء» نفسها (من وجهة نظر الإنجليزية المعيارية) في الأنماط التي ترد بانتظام، حيث إن العديد منها ناتج عن تأثير الكانتونية. وبالنظر إلى هذا الانتظام في البنية، من المهم من وجهة نظر اللغوي الحديث أن إنجليزية هونغ كونغ بدأت تفرض نفسها «كلغة» باطراد. أما المسألة الثانية فهي أن «ظهور إنجليزية هونغ كونغ» وتدهور مستويات الإنجليزية في هونغ كونغ يعتبران شيئا واحدا ومماثلا، ينظر إليه من وجهتي نظر اثنتين. وفي بعض الأحيان ينظر إليه من خلال وجهتي نظر متناقضتين، لأن كلمة «ظهور» توحي بأن الإنجليزية بصدد أن تصبح لغة لهونغ كونغ (ويستعمل حرف الجر "of" «ل» في هذا السياق ضمن المفهوم القوي الذي يفيد «انتماء إلى»)، بينما توحي كلمة «تدهور/انحطاط» بأن هونغ كونغ تفقد الإنجليزية. وفي الواقع، هناك ما يبرر فقدان هونغ كونغ للإنجليزية، بحيث يمكن أن نعبر عنه على النحو التالي: إن الإنجليزية البريطانية أو الأمريكية أو أي إنجليزية معيارية

أجنبيـة أخـرى تملك إنجليزية منطوقـة صحـيحة لم تعـد النمـوذج السـائد بالنسبـة لهـونغ كـونغ. فمن المرجح أن عـدد من يتكلمون إنجليـزيـة بريطانيـة «صحيحة» في هونغ كونغ صـار أكثر مما كان عليه، غير أن هؤلاء الناس ـ من حـيث إنهم جـزء لا يتـجـزأ من سكان هـونغ كـونغ الناطقين بالإنجليـزيـة ـ لم يكونوا قلة قليلة أبدا.

وكان هذا التطور أمـرا حتـميـا بمجرد أن أسس التعليم العـام، كله أو جله بالإنجليزية في البلاد في أواخر السبعينيات. وبالنظر إلى الأعداد الهائلة من الطلبة المنخرطين، لم يكن هناك بد من منع هذا التطور من الحدوث بشكل مـتـلازم، أي ظهـور إنجليـزيـة هـونغ كـونغ والتـدهور الذي طـال مـسـتـويات الإنجليـزية. ومن المفـارقـة، على مـا يبـدو، أن يرتبط التـعليم بانحطـاط في المسـتويات. ويتم هـذا الربط بشكل روتيني في سيـاقـات التـعليم في أمـريكا الشـمـاليـة وبريطانيـا وأوروبا الغـربيـة. فـقـد أدرك الناس هناك ببطء وبشق الأنفس، أنه بالنظر إلى الفـوارق داخل البيـئـات العـائليـة التي ينتـمي إليـهـا الطلاب، والموارد الاقتصادية والبشرية المحدودة، والتي يمكن للمجتـمعات أن تجندها من أجل التعليم، أصبح من الضـروري أن يكون هناك خيـاران اثنان: التقيد بالمستويات الأكاديمية التقليـدية وتعليم الجمـاهيـر. فحتى اللحظة، لم يبين أحد كيفية بلوغ الغايتين معا، بل نادرا ما نسمـع أصواتا تدعو إلى التخلي عن الجماهير لمصلحة جودة مستويات التعليم.

وضعية إنجليزية هونغ كونغ

إذا ما نظرنا إلى سياق إنجليزية هـونغ كونغ، فسنجد أن التاريخ علمنا أن «الانحطاط» في المسـتويات المفروضـة خـارجيا يجب أن يحدث إذا مـا أريد للإنجليزية أن تحيا في هـونغ كونغ ما بعد الفترة الاستعمارية (انظر هـاريس، ١٩٨٩). لا بد لمسـتـويـات «داخلية» جديدة أن تحل مـحلهـا، وهـذا مـا يحـدث بالضـبط مع ظهور شكل مميز للإنجليـزية. وإذا كانت إنجليـزية هـونـغ كونغ تظهر بانتظام أنماطا يرجع تأثيرها إلى ناطقي لغتها الأم، فاللغات الرومانية قـد ظهـرت نتـيـجـة عـمليـة مماثلة، هـذا الظهـور الذي كـان في الوقت ذاته تحطيما لمستويات اللاتينية بالقياس إلى معيار فيرغيل وشيشرون الخارجي. ولا يعتبـر هذا التـحطيم عشوائيا، بل هـو مـرتبط بلغـات أخرى منطوقـة في

الإمبراطورية الرومانية السابقة. وفي العصور الوسطى، بدأت اللهجات الرومانية تأخذ أشكالها المميزة، إلا أنه لم يعترف بها بوصفها «لغات» متميزة إلا بعد مرور قرون عديدة (انظر رايت، ١٩٨٢). وعندما يتعلق الأمر بالكتابة بشكل خاص، وكذا بمستوى التعبير/الأسلوب registerالمنطوق المتميز، فإننا نجد لاتينية جيدة، تطابق المستويات الكلاسيكية، ولاتينية رديئة تخضع للتأثيرات المتسربة من اللغات العامية. ومع عصر النهضة وانتشار الفكرة الحديثة لمفهوم الأمة، تغيرت وضعية هذه «اللاتينية الرديئة» إلى شيء جديد، وأصبح الناس يفكرون فيها على أنها شيء آخر، على أنها لغتهم. أما بالنسبة إلى حالة فرنسا خلال القرن الثامن عشر، فقد أصبحت مسألة أن اللغة الفرنسية هي اللغة الأكثر عقلانية، مقارنة مع كل اللغات التي عرفتها البشرية آنذاك، فكرة ثابتة idée fix وهو رأي لايزال سائدا الآن في الثقافة الفرنسية.

إن وضعية إنجليزية هونغ كونغ حاليا يمكن مقارنتها بوضعية «اللاتينية الرديئة» في أواخر العصور الوسطى، على رغم أنها شهدت تطورا مفاجئا. وإن النمط النموذجي في الاعتراف بلغة جديدة أو شكل لغوي هو أن مجموعة مناصرين من السكان الأصليين يبدؤون في الدفاع عن الاستقلال اللغوي، ويتبع ذلك صراع من أجل الاعتراف. أما بالنسبة إلى حالة إنجليزية هونغ كونغ، فقد جاء الاعتراف الدولي بها في غياب شبه كامل لأي دفاع محلي عن هذا الحق. فإنجليزية هونغ كونغ مثلا هي أحد الأشكال الإنجليزية التي تدرس ضمن المشروع الدولي الهائل لرابطة الإنجليزية. وإن أي غياب لاعتراف إيجابي لإنجليزية هونغ كونغ في الخطاب العام المحلي ليس مفاجئا، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن ظهور إنجليزيات أخرى - بما في ذلك الإنجليزية الأمريكية، والإنجليزية الأسترالية، والإنجليزية الكندية، والإنجليزية الهندية، والإنجليزية النيوزيلندية، والإنجليزية السنغافورية، إلى جانب الفرنسية الكيبيكية، والإسبانية الفنزويلية، والبرتغالية البرازيلية، وما شابه ذلك - كان دائما يمثل ظواهر ما بعد - استعمارية بالمعنى الحرفي للكلمة (لأجل الاطلاع على دراسات مهمة بشأن ظهور إنجليزيات جديدة في سنغافورة وماليزيا خلال حقبة ما بعد الاستعمار، انظر بلات Platt وفيبر Weber، ١٩٨٠،

وفي سيريلانكا، انظر عمل باراكراما Parakrama (١٩٩٥)، وللاطلاع على نظرة شاملة حول الوضوع، انظر بلات وآخرين، ١٩٨٤، وبرات-غريفلير (Brutt-Griffler (٢٠٠٢)). وقد يتطلب هذا الظهور في بعض الأحيان أعواما قليلة من الوقت، وأحيانا يتطلب الأمر عقودا بأكملها، بعد انسحاب القوة الاستعمارية. ولا نجد حالات ترقى فيها التنوعات اللغوية المحلية، باعتبارها «لغات» متميزة، إلى اعتراف اجتماعي أو رسمي خلال الحقبة الاستعمارية. وأظن أن أفضل شيء يمكن التنبؤ به هو ان إنجليزية هونغ كونغ ستشهد تطورا مستقبليا. أي أنها من ناحية الشكل اللغوي، تسير نحو انتزاع اعتراف مهم، ولكن من ناحية الوضعية لا نستطيع أن نتوقع بشكل معقول حصولها على اعتراف إلا بعد ١٩٩٧، انطلاقا من دلائل تاريخية، وليس من لغويين يركزون على تميزها الشكلي.

ولا يعني هذا أن الخطوات الأولى نحو ابتكار تلك الوضعية ليست قابلة للتمييز. فالطلبة الجامعيون في هونغ كونغ برمتهم غافلون عن أن إنجليزيتهم «رديئة»، وفي هذه الحقيقة نفسها دليل على أن إنجليزية هونغ كونغ لاتزال في مرحلتها الأولى من التطور لوضعية اللغة. ولا ننسى أن هؤلاء الطلبة كانوا يدرسون الإنجليزية في سن الرابعة أو الخامسة، وإذا ما قبلوا ليدرسوا في الجامعة، فمن المرجح أن يتصدروا المراتب العليا في استخدام الإنجليزية بين أقرانهم، ويرتبك الطلبة، وأحيانا يستمتعون، عندما يصلون إلى الجامعة، فيلتقون بأساتذة منفيين متعلمين وآخرين أجانب يخبرونهم بأن الإنجليزية التي دائما ما كانوا يثنون عليهم بها هي في الواقع إنجليزية ضعيفة وناقصة. والمرء لا يراهم يهرولون في ذعر إلى المركز الإنجليزي من أجل «تحسين» إنجليزيتهم، اللهم إلا إذا طلب منهم ذلك بالتحديد. ومرة أخرى، هذه علامات تفيد بأن المعيار «المحلي» يشتغل، وإن كان هذا المعيار لم يحظ باعتراف أو وضعية داخل الخطاب المحلي حول الإنجليزية.

إذا كان ظهور إنجليزية متميزة بشكل رسمي في هونغ كونغ ـ وهذا ما يعرف أيضا بانحطاط مستويات الإنجليزية ـ أمرا حتميا بمجرد أن أسس التعليم العام سنة ١٩٧٨، فإن الاعتراف النهائي بهذه «الإنجليزية الجديدة»، وانسجامه مع وضعية «إنجليزية هونغ كونغ» داخل الخطاب العام وكذا داخل الخطاب المتخصص للغويين ـ إذا ما حدث ـ سيبدو بعد

فوات الأوان أنه حتمي بمجرد أن قرر الاستعمار البريطاني في هونغ كونغ وضع نهاية لفترة حكمه بهذا البلد سنة ١٩٨٤. ومرة أخرى، يؤدي بنا التاريخ لأن نتوقع أن إنجليزية هونغ كونغ لن تحصل على اعتراف بشكل عام إلا بعد العام ١٩٩٧، وأن بلوغها وضعية عامة سيكون مرتبطا ارتباطا وثيقا باستخدامها في وظائف لغوية خاصة، وهي الفكرة التي سنناقش في القسم التالي من هذا الفصل. وهذه هي الورقة الرابعة التي يمكن استغلالها في كل الحالات، لأن التوزيع المستقبلي للغات في وظائف رسمية، ووظائف غير رسمية في المنطقة الإدارية الخاصة بهونغ كونغ يعتمد بشكل حاسم على سياسات حكومة بكين وحكومة هونغ كونغ التي لاتزال في طور النمو، وعلى التقدم الحاصل في هوية هونغ كونغ، وهذه كلها أمور لا يمكن التنبؤ بها.

وظائف إنجليزية هونغ كونغ

بينما يعتمد بلوغ وضعية لغوية على استخدام لغة من اللغات في مجالات وظيفية محددة ـ وهو استخدام دعاه كلوس (١٩٧٨) تطويرا لغويا Ausbau مركزا على الوظائف الأدبية ـ يبقى هذا الاستخدام في تلك المجالات، متوقفا أيضا على وضعية محددة سبق الحصول عليها. إن الوضعية والوظيفة هما شيئان متداخلان على نحو جدلي. وإن تقرير جوزيف (١٩٨٧) يقول أو على الأقل يتضمن أن وضعية اللغة تبدأ مع مجموعة مناصرين من المتكلمين الأصليين الذين تعلموا وظائف اللغة المعيارية في اللغة الاستعمارية، وبدأوا في استخدام اللغة الجديدة في تلك الوظائف، وأحيانا عملوا على الزيادة في الفوارق الشكلية أثناء هذه العملية. ونعني بهذا أن الوضعية الجديدة تنتشر بين السكان بصفة عامة، وتكسب في نهاية المطاف اعترافا قوميا واعترافا دوليا.

ومرة أخرى. هذا ما لوحظ بانتظام في حالات ما بعد الفترة الاستعمارية، وكذا في ظهور اللغات الأوروبية المعيارية إبان عصر النهضة وبعده. ولكن هونغ كونغ لم تنتقل بالضبط إلى حالة ما بعد الفترة الاستعمارية، على الأقل لا تشبه وضعيتها وضعية مستعمرة كانت محتلة، فمنحت استقلالا. فهي بالأحرى بلد تم إرجاعه إلى قوة أخرى هي جمهورية الصين الشعبية، والتي لم

يكن لها وجود إلا بعد مرور ما يزيد على مائة سنة، ليصبح احتلال هونغ كونغ مستعمرة بريطانية. وللصين لغتها المنطوقة المعيارية، بوتونغوا، ولغة مكتوبة تستعمل فيها حروف مبسطة، بدلا من حروف تقليدية لاتزال متداولة في هونغ كونغ. وتعتبر الكانتونية اللغة الأولى لمعظم شعب هونغ كونغ. وهي تستخدم في وظائف لغوية معيارية منطوقة في الصين، على الرغم من أن النقاش في هذه النقطة بالذات يصبح معقدا جدا، لأن في تلك الوظائف يستخدم شكل خاص من الكانتونية التي تجمعها باللهجات الكانتونية العامية colloquial علاقة ازدواجية اللغة Diglossia.

ففي حضور الكانتونية العامية، والكانتونية المنطوقة المعيارية، والكانتونية المنطوقة الرسمية، و البوتونغوية الرسمية المنطوقة، والصينية المكتوبة بأحرف تقليدية ومبسطة، وكانتونية مكتوبة مميزة وموجودة سلفا، ماذا بقي من الوظائف لإنجليزية هونغ كونغ كي تملأها؟ ستبقى لغة رسمية مشتركة، ومادام الإقليم جزءا من التقليد القانوني المشترك، لن تكون الإنجليزية بعيدة كل البعد عن الاستخدام القانوني وعن الوضعية حتى عندما تدور الأحداث في الصين بشكل سطحي. إضافة إلى ذلك، يسود شعور في هونغ كونغ يفيد بأن الإنجليزية لغة الأعمال الدولية والسياحة، والعلوم، ومن ثم يبقى استخدامها وتعلمها ضرورة اقتصادية وتعليمية. ومن منظور «وظيفي» مختلف، هناك فكرة أن المزج اللغوي أو التحول الفني موجود بشكل واسع جدا في خطاب الكانتونية في هونغ كونغ إلى درجة أن الحدود بين اللغات أصبحت أكثر غموضا، على الرغم من الفجوة البنيوية الكبيرة التي توجد بينها. لكن، مرة أخرى، هذه الفجوة في تقلص حسب ما نراه من خلال إنجليزية هونغ كونغ في (الشكل ٦ - ٢) أعلاه، وربما في الاتجاه الآخر كذلك، كما تمت مناقشة ذلك في عمل جوزيف (١٩٩٦).

هويات صينية

إن المشكل الذي تعاني منه الصين جزئيا يكمن في تقنية الثقافة الشاملة التي تبدو الإنجليزية لغتها الرئيسة. ومنذ حوالي ١٩١٩، تصارع الصينيون المثقفون مع ما أسماه تو Tu (١٩٩١، ص: ٦)، «مأزق الرابع من مايو الثقافي: تداخل القومية (الوطنية) ونزعة تدنيس الأيقونات ومهاجمة المقدسات الدينية (المعادي

للتقاليد)». فكيف يمكن للمرء أن يكون صينيا ـ مع كل الوزن التقليدي الثقافي الذي تحمله تلك الهوية ـ وعصريا في الوقت ذاته؟ إن على عبقرية ماو تقديم جواب مقنع للعديد من الناس: تكمن النزعة الصينية في أحوال الفلاحين، والاشتغال بالأرض، وتكمن المدنية في المقام الأول في الإطاحة بالطبقات الحاكمة، كي يتمكن الفلاحون من الحكم. وفي كلتا الحالتين، يظهر أن الفلاحين قد تجسدوا في شخصه (للاستزادة، انظر تو، ١٩٩١، ص: ٢٤ - ٢٥).

إن ثورة ماو الثقافية كانت إلى حد ما ثورة دلالية، تدعو إلى إعادة تعريف كلمة «صيني» بشكل يصير فيه تعارضها القديم مع المدنية أمرا باطلا ومعطل المفعول. من الآن فصاعدا، كل ما هو غير مدني سيصبح غير وطني، ومن ثم غير صيني. وكما عبر وانغ Wang (١٩٩٣، ص: ٧٢) عن ذلك، أطلق ماو هذه الثورة، ليلبسها أجزاء من ماء الوجه الصيني، مستحضرا سمات من السلطة والقوة.

إن اعتبار كل شيء غير مدني شيئا غير وطني، لا يعني أن كل الأشياء المدنية هي وطنية. إن موجة التحرير الذي ظهر في أواسط الثمانينيات كانت تقوم على فرضية أن عصرنة دينغ شيوبينغ Deng Xiaoping الاقتصادية هي رأسمالية بشكل ظاهر، وإن كانت قد سميت «اشتراكية بالميزات الصينية». وقد كان القصد من هذه العصرنة فتح كل الأبواب أمام كل السمات المميزة لما هو عصري مدني - أي المنتوجات التي تحمل علامات تجارية عالمية، ورقصة موسيقى الروك، والنهج الغربي في الديموقراطية المتحررة. وكرست الوطنية ذاتها من أجل قضية الحداثيين الجدد:

> «إن الملايين من المتظاهرين من أجل الديموقراطية في ربيع ١٩٨٩، أطلقوا على حركتهم اسم «وطنية»، في مقابل نظام يرون أنه ضيع ثروة شعب حصل عليها بشق الأنفس في استيراد مواد استهلاكية مترفة كالسيارة المرسيدس التي تشتغل بالبنزين تستفيد منها طبقة حاكمة متطفلة» (فريدمان، ١٩٩٣، ص: ١).

(يبدو أن السماح بدخول بضاعة واحدة، على الأقل، تحمل علامة تجارية دولية كالسيارة المرسيدس هو سلوك غير مقبول). في ٤ يونيو ١٩٨٩ قامت السلطة المركزية بتقديم توضيح دلالي نهائي حول معنى الوطنية، عندما أوقفت المظاهرات المطالبة بالديموقراطية مستخدمة كل القوة الضرورية، بما في ذلك قتل الطلبة الجامعيين المحتجين.

لقد حل هذا السلوك الحكومي كالصاعقة على الصينيين وغير الصينيين في كل مكان، وإن كانت الصدمة خاصة بشعب هونغ كونغ الذي وضع مصيره في أيدي هذه الحكومة منذ خمسة أعوام. فخلال كل التاريخ الاستعماري لهونغ كونغ، وتحديدا منذ أعمال الشغب المناهضة للاستعمار في أواخر الستينيات، قامت بريطانيا بمعارضة دلالية ليس ضد الصين وحسب، ولكن أيضا ضد الحكم الذاتي والديموقراطية. وعلى خلاف ما يظن العديد من الصينيين في أماكن أخرى، يبدو أن الصين لا تمثل الماضي، بل المستقبل، لأن بريطانيا في نظر هونغ كونغ كانت تعني الماضي. وقد كان تحديد هويتهم انطلاقا من «البلد الأم» للصينيين اختيارا سهلا لأسباب سياسية وأخرى إثنية. إنه اختيار لمستقبل ديموقراطي يتعامل معهم باعتبارهم «ذوات»، بالمفهوم الهيغلي، بعدما أمضوا حقبة استعمارية عاشوا فيها مجرد أشياء. وعندما أصبح جليا رفض الصين هذا التراصف بوصفه تهديدا لاستقرارها الداخلي، لم تعد هذه الاختيارات بالنسبة إلى هوية هونغ كونغ تعني أي شيء متماسك.

وشدد كل من فريدمان (١٩٩٣) وسيو Siu على أهمية تجديد الهوية الصينية الجنوبية في مقابل الهوية الصينية في وضعها الحالي، الغامض سياسيا وثقافيا. وقد نجح ماو في إنشاء تاريخ أسطوري نسب فيه نهوض الأمة الصينية بأكمله إلى شعب «هان» Hanالشمالي وحضارتهم المتفوقة. وكانت كل الأحداث البطولية اللاحقة من أعمال الفلاحين الصينيين الشماليين (انظر فريدمان، ١٩٩٣، ص: ٢ - ٤). ولم يكن هذا هو الرأي السائد قبل ماو. كثيرا ما كان الوطنيون الصينيون في نهاية القرن العشرين، يعرفون المانشويين* المبغوضين الغزاة بالشمال الأجنبي وبروسيا القيصرية الرجعية، في حين يحددون الوطنية الصينية (ليست وطنية هان) في القسم الجنوبي من البلاد (المرجع ذاته، ص: ٦). ومنذ ماو، تداعى تاريخ هان الأسطوري في الجنوب وظهر من جديد ما يشبه الهوية القديمة. ومع الازدهار الاقتصادي الذي شهده الجنوب، أصبحت بكين محط سخرية باعتبارها مدينة الثرثارين الذين يعيشون على ثروة الشعب دون أن يسهموا بأي شيء في تنمية هذه الثروة وتوسيعها. ويسخر من الشماليين بوصفهم شعبا لا يستطيع تمييز النقود الملقاة في الشارع (المرجع نفسه، ص: ١٠). «وفي بكين ذاتها، أدرك الشعب أن المستقبل قدم إلى الصين من الجنوب الذي يقوم على التجارة، وقدم كذلك من السواحل التجارية. وانتشرت اللغة الكانتونية وثقافتها، وفي أقصى الشمال ذاته، كان التجار يؤجرون مرشدين كانتونيين» (المرجع نفسه، ص: ١١).

وليس معقولا إمكان ظهور الصين الجنوبية ـ بالمقارنة مع هونغ كونغ تحديدا أو الصين عموما، أو كل هذه المناطق مجتمعة ـ باعتبارها موضعا لهوية شعب هونغ كونغ في الأعوام أو العقود القادمة. وهذا التوقع له لغة بجانبه، هي اللغة الكانتونية، التي تربط غوانغدونغ Guandong وهونغ كونغ ثقافيا، على الرغم من تاريخهما الحديث المختلف بشكل واسع. وهناك الجغرافيا والاقتصاد أيضا. ومن المحتمل أن يحل الزوج «شمال وجنوب» محل الزوج القديم بريطانيا والصين، مع كل الصفات السلبية التي نقلت بالجملة من بريطانيا إلى بكين، بالإضافة إلى شيء يشبه النهج المبين في (الشكل ٦- ٣) ومن الواضح أن بكين لا تفضل أن ترى ظهور هوية صينية في عموم الجنوب باعتباره موضع ولاء للشعب بأكمله في هذه المنطقة المزدهرة. إنهم يفضلون كسب قلوب هونغ كونغ وعقولها على تعريف بكين لمفهوم الصينية Chineseness، ومن ثم احتواء غوانغدونغ وإرغامها على العودة إلى حدودها. لكن كيف يمكن كسب تلك القلوب والعقول؟

تقابلات ما قبل ١٩٨٩	
بريطانيا	الصين
الماضي	المستقبل (والماضي المجيد)
الحكم الاستعماري	تقرير المصير
اضطهاد الخدمة الذاتية	الديموقراطية
تجارة وإدارة جيدتان	إمكانات إدارية/تجارية جيدة

تقابلات ما بعد ١٩٩٧	
الصين الشمالية	الصين الجنوبية
الماضي	المستقبل (والماضي المجيد)
الحكم الاستعماري	تقرير المصير
اضطهاد الخدمة الذاتية	الديموقراطية
تجارة وإدارة سيئتان	تجارة وإدارة جيدتان

الشكل (٦ - ٣): تقابلات في الهوية خلال الفترة ما بعد ١٩٩٧ وما قبلها في هونغ كونغ

بناء الهوية الاستعمارية

للإجابة عن السؤال المطروح منذ لحظات، من المفيد أن ننظر إلى الوراء لمعرفة كيفية محاولة الإدارة الاستعمارية البريطانية القيام بذلك، في مرحلة كانت تعيش فيها السيادة أزمة. إن النصين اللاحقين مأخوذان من مجلد عنوانه (Proclamation by H.E. the Governor, Sir Alexander Grantham, G. C. M. G., Queen Elizabeth II Coronation Celebration N[ew] T [erritories] H[ong] K[ong] هونغ كونغ: وكالات تايمز للأخبار، التاريخ غير موجود)، ويوجد في مكتبة جامعة هونغ كونغ. وفي الحقيقة، هذان النصان جزء من أصل ثلاثة نصوص، أولها هو Hong Kong New Territories District Commissioner's Speech at the Coronation Dinner, 5June 1953، والثاني نص صيني يتوافق مع الأول بشكل وثيق حتى أنه اعتبر نسخة منه، على رغم أنه ليس ترجمة بالمعنى العادي. أما النص الثالث، فيعد ترجمة إنجليزية لنسخة صينية. وتبقى ضرورة أن يكتب هذا النص الأخير وينشر أمرا مدهشا للغاية. إن هذا النص الثالث والنص الأول هما ما سأعيد نسخهما ومناقشتهما.

نسخة موجهة للجمهور البريطاني:

كلمة مفوض المقاطعة خلال عشاء مراسم التتويج، ٥.٦.٥٣

> إن تتويج جلالة الملكة إليزابيث الثانية هو مناسبة للاحتفال والابتهاج في بريطانيا وفي الأراضي البريطانية قاطبة.
>
> إن هذا الابتهاج ليس تعبيرا فقط عن الولاء والمودة للعاهل الجديد، فالتتويج يمنح أيضا فرصة خاصة للشعب في كل أنحاء بريطانيا للتأكيد من جديد على قناعتهم العميقة وإيمانهم الراسخ بالحرية والديموقراطية. وإن وحدة هذا الإيمان في كل أرجاء رابطة الشعوب البريطانية والإمبراطورية معا يرمز إليها بالولاء للملكة التي اعتُرف بها طوعا رئيسة لهذه الرابطة.
>
> وخلال الأيام القليلة الماضية، خلف لدينا الابتهاج العفوي والسعادة الغامرة وقعا إيجابيا جدا، وكانا بمثابة علامة على احتفالات التتويج في الأقاليم الجديدة. لقد منحتك الحكومة بعض التشجيع والعون، ولكن التنظيم والتحضير من تدبيرك.

وإنني مسرور بالطريقة الناجحة والمنظمة التي أديرت بها كل هذه الأشياء. أقدم لك التهاني، وأشكر أولئك الذين سمح لهم سخاؤهم باقتسام هذه البهجة مع الشعب الفقير.

إن التأسيس لحكم جديد هو عهد جهد نتذكر فيه واجبنا لمساعدة الآخرين وخدمتهم. لا أحد يعمل بكد من أجل الصالح العام لشعبه أكثر من الملكة. ولذا فعلينا أن نعمل جميعنا على اتباع نهجها. ومعظمكم هنا أعضاء في اللجان القروية أو ممثلون قرويون. لقد جرى تعيينكم نزولا عند رغبة الشعب الموجود في مقاطعاتكم، وعليه يجب عليكم مواصلة العمل بفعالية بعيدا عن الأنانية لتحقيق المصلحة العامة للأغلبية. أكثركم سبق له أن عمل ممثلا لقريته أو مدينته لبضع سنوات، فكسب احترام الشعب له وعرفان الجميل.

لقد سبق لنا أن شربنا من خيرات الملكة الجديدة. دعوني الآن أنتهز فرصة هذه المناسبة الكبيرة كي أتمنى لكم جميعا السعادة والازدهار في الأيام المقبلة.

نسخة موجهة إلى الجمهور الصيني:

تهانينا الخالصة بهذه المناسبة العظيمة لتتويج جلالة الملكة إليزابيث الثانية.

إن ٢ يونيو/حزيران ١٩٥٣ هو يوم تتويج جلالة الملكة إليزابيث الثانية. كل الناس تحت الشمس محتفلون وكل ماوراء البحار مبتهجون.

لقد كنا جميعا رعاياها، وكنا نعبر جميعا عن امتناننا العميق لحماية جلالة الملكة وعطفها. وإنا لننحني لها في مراسيم هذا الحفل العظيم، انحناء شجر النخيل للشمس.

إننا مائتا ألف ساكن من الأقاليم الجديدة، نبعث جميعنا - وبكل إخلاص - ابتهاجاتنا إلى قصر المايبل Maple Palace.

إن الله قد وهب جلالة الملكة حكمته، فتفوقت في قدرتها وفضيلتها على كل معاصريها.

لقد نالت إعجاب الرب والعباد لحكمتها وحظها السعيد.

لقد تألق نجمها بذكائها، وألهمت الشعراء ليغنوا. وبلغت فضيلتها حد السماء، وفي التنين اليوم نرى السعادة.

وبسيرها على نهج أسلافها، جلبت الأمن والسلام للأمم. وقد امتدت سيادتها التي أدارتها بالفضيلة والحكمة لتشمل مناطق واسعة من العالم.

وكلما سافرنا عبر الممالك الإمبريالية، أدركنا الصفات الحقيقية للحكيم. إنها مكسوة بالفضيلة والعطف. ومنح الشعب فيها قوة جديدة.

فأولئك الذين قدموا من أجل تقديم الولاء للملكة تسلقوا الجبال وعبروا البحار. وإن ثمانمائة أمة تجمعت داخل الأسوار المتلألئة. ونذر أولئك الذين يتمتعون بسخاء الملكة حكمتهم بكل تفان وإخلاص: لقد أقسم الملايين من الناس أن يظلوا أوفياء للملكة إلى الأبد. ونحن نحدق في باب القصر على بعد آلاف الأميال، يحدونا الأمل في الذهاب إلى هناك. لقد جرت معاملاتها من دون تمييز، مما زاد حبنا عمقاً.

إننا نحرق البخور في منتصف الليل وندعو لجلالة الملكة بوافر الصحة والعافية. وفي طريقنا، نغني أغاني نعبر فيها عن تمنياتنا الخالصة من أجل ازدهار رابطة الشعوب البريطانية.

إن ما يحدث عندما ننتقل من نسخة النص الموجهة إلى الجمهور البريطاني إلى تلك الموجهة إلى الجمهور الصيني هو تشكيل هوية هجينة مكونة من أقاليم هونغ كونغ الجديدة الصينية المستعمرة البريطانية، إذ تتمركز حول الهوية القومية الصينية التقليدية والإخلاص للملك. فمن جهة، إن النص الأصلي «ترجم» إلى «الثقافة المستهدفة» لسكان الأقاليم الجديدة الذين مازالوا يعدون - إلى حد ما - «أكثر الشعوب صينية» في هونغ كونغ. ذلك لأن حياتهم في القرى الجبلية النائية لم تتأثر بإدارة بريطانيا الاستعمارية والمستوطنات الغربية كما هي حال جزيرة هونغ كونغ وكاولون.

لكن شيئا خارقا جدا ضاع في الترجمة. فبينما يقتصر الاحتفال في النسخة الأولى (تلك الموجهة إلى الشعب البريطاني) على «بريطانيا والأراضي البريطانية قاطبة»، يعتبر الاحتفال في النسخة الثانية (تلك الموجهة إلى الشعب الصيني) عاما مفتوحا في وجه «كل الناس تحت الشمس ومن هم وراء البحار». لم يُشر إلى بريطانيا أو الأراضي البريطانية، باستثناء «رابطة الشعوب البريطانية أو الكومنولث» كما لو كان نصا يتحدث عن ملك العالم، أو بالأحرى عن ملكته. وبينما تنطوي النسخة الثانية على حكمة الملكة وفضيلتها، تركز النسخة الأولى ببساطة على عملها الدؤوب باسم شعبها. ولعل النزعة التجريبية البريطانية تظهر هنا: فالفضيلة والحكمة شيئان لا يمكن ملاحظتهما بطريقة مباشرة. ولكن كل فرد من الجمهور البريطاني لا بد أن رأى صورا للأميرة إليزابيث وهي تعمل بإخلاص وتفان في جولتها الأفريقية الرسمية، لتتخلى عنه بعد ذلك عائدة إلى بريطانيا ملكة عقب موت أبيها. كما نلاحظ في الفقرة الأخيرة من النسختين أن البريطانيين يشربون الخمر، ولكن الصينيين يحرقون البخور في الخارج خلال منتصف الليل.

أما «مُثل الحرية والديموقراطية» التي استحضرت في النص الأول، فليس لها أي مقابل في النص الثاني. وبينما يُعترف طوعا بالملكة رئيسة هذه الرابطة ـ وهو استعمال غير طبيعي لكلمة «طوعا» (هل يذكر أي أحد مرشحين آخرين؟) ـ كل الناس في النص الثاني ينحنون لها «انحناء شجر النخيل للشمس». أما الشيء الأقرب إلى الديموقراطية في النص الثاني، فيظهر في الفقرة ماقبل الأخيرة عندما ترى الشعب «يحدوه الأمل في الذهاب» إلى «قصر المابيل» (قصر باكينغهام؟ Buckingham) وفي حلم هذه الرغبة نجد عبارة «لقد جرت معاملاتها من دون تمييز». إن الغموض الذي يكتنف العبارة الأخيرة مناسب جدا، إذ من الصعب تصور أي سكان من الأقاليم الجديدة، أو تصور أي من الرعايا البريطانيين الآخرين فيها ممن وجدوا في القصر ثم جرى التعامل معهم، في الواقع، بطريقة تختلف عن زائر غير مميز.

ومن السمات المثيرة للاهتمام بشكل كبير في النص الموجه إلى الصينيين هو عدم إشارته البتة «للملكة الجديدة» كما هي الحال في النسخة الأخرى. وبغض النظر عن كلمة «تتويج» ـ التي قد يفهمها سكان الأقاليم الجديدة أو قد

لا يفهمونها بسبب ورودها في بداية الحكم لسيادة جديدة - كان الخطاب يدور حول الاستمرارية، ويظهر هذا أكثر في الجملة الآتية: «لقد كنا جميعا رعاياها، وكنا نعبر جميعا عن امتناننا العميق لحماية جلالة الملكة وعطفها». فعبارة Her Majesty وكلمة her في عبارة her subjects تشيران بلا شك، إلى السلطة الملكية the Crown وليس إلى الملك في الفترة الراهنة. لقد كانت الأقاليم الجديدة في تلك المرحلة خاضعة للسلطة الملكية البريطانية لمدة ما يقرب من خمس وخمسين سنة (وهذه الفترة في الواقع، ليست فترة طويلة بمقياس السلالة الحاكمة الصينية)، بينما خضعت لإليزابيث الثانية مدة أشهر فقط. وإذا ما تأملنا الفقرات الموجودة أسفل النص، فسنجد مع ذلك، أن عبارة Her Majesty وكلمتي her وshe قد استخدمتا لتفهم فقط من خلال الإشارة الشخصية إلى إليزابيث الثانية: لنقرأ مثلا، «فتفوقت في قدرتها وفضيلتها على كل معاصريها». ومن ثم، فشخص إليزابيث الثانية جرت المزاوجة بلاغيا بينه وبين استمرار السلطة الملكية بطريقة تمكن من طمس حداثة ملكها. ومما عقد القضية أكثر هي مسألة وجود ملكة اسمها إليزابيث من قبل (التي أصبحت تسمى في ما بعد الأم إليزابيث) على العرش منذ ١٩٣٦. أفلا تكون هي الملكة التي تُوِّجت عقب موت زوجها الملك؟ من المؤكد أن النص الثاني سيزيل الغموض أكثر، إذا كانت هي الملكة المشار إليها، وليس بنتها التي تبلغ من العمر ٢٧ عاما، التي لم تخضع للاختبار.

إن طمس التغيير الذي عرفته سلطة الحكم في النص الهجين يبرز حقيقة أن استمرار حكم ما يعني الاستقرار، وأن نهاية الحكم يمثل في طبيعته فترة أزمة. لقد كشف استطلاع للرأي نظم بالمملكة المتحدة أن العديد ممن قالوا إنهم يدعمون إنهاء نظام الملكية البريطانية، لا يرون أن يحدث ذلك في ظل حكم الملكة الحالية. إنهم يرون بالأحرى أن يحدث ذلك، بعد وفاتها أو بعد تنازلها عن الحكم، ألا يكون هناك أي خليفة يرث حكمها. واقترح آخرون مرة أخرى، إدخال تغييرات في الدستور أو دراسة بروتوكول يعمر طويلا، لكن بعد انتهاء فترة حكم الملكة إليزابيث الثانية (منذ أعوام طويلة، كان يفترض أن عمر الملكة إليزابيث يمثل مرحلة لا يسمح بالشروع فيها بأي تغييرات جوهرية، ولكن بعد موت الملكة العام ٢٠٠٢، لم يخلف إلى حد الآن أي موجة من ردة فعل سياسية). إن تغيير السيادة ـ على الأقل مبدئيا ـ هي لحظة يمكن فيها للعلاقة بين الشعب والملك،

التي بقيت مسألة مركزية بالنسبة إلى الهوية القومية، أن تخضع للتفاوض من دون خوف محتمل من أن هذا السلوك قد يفهم على أنه تقليل من شأن السلطة الملكية الراهنة أو ضرب من ضروب الجحود. فالنص الموجه إلى الجمهور الصيني هو محاولة لتأكيد هوية هجينة في هذه المرحلة الدقيقة من الأزمة. وفي غياب لأي تسجيل لتفاصيل إنتاج هذه الهوية، نجد من يزعم أنها أنشئت من قبل مسؤولين صينيين هونغ كونغيين ذوي شأن عال في الخدمة المدنية، ومن المحتمل أنهم كانوا يعملون بالتعاون مع الموالين للحكم البريطاني. ومن دون شك أنه جرى إقناع هؤلاء بكل صدق أن الحاجة إلى استقرار سياسي في هونغ كونغ في أعقاب ثورة ماو في الصين والحرب الكورية، تقتضي تجاوز أي شيء له علاقة بفضائل الحرية والديموقراطية التي يجري تبنيها في بريطانيا، أو تجاوز شيء يبين بجلاء أنهم كانوا يقومون بحفلة تتويج لامرأة شابة قليلة التجربة نسبيا، ومتفانية في عملها، غير أن حكمتها، وقدرتها، وفضيلتها مازالت في حاجة إلى إثبات.

وظائف الإنجليزية في الحاضر والمستقبل

إن موقف بكين من اللغة في جامعات هونغ كونغ واضح وثابت منذ عقد من الزمن أو يزيد: فهي لا تدعم أي حركة تدعو إلى التدريس بـ«اللغة الأم»، الكانتونية، كما لا تدعم فكرة جعل البوتونغهوا (المندرين) (*) لغة التدريس الرئيسة. فالصين مليئة بالجامعات التي تتبنى اللغة المندرينية في تدريسها. وهي في حاجة - حسب الحكومة الصينية - إلى هونغ كونغ الناطقة بالإنجليزية كي تكون قنطرتها التي تمكنها من التواصل مع العالم.

ولم تكن هذه السياسة لتتعارض مع قيادة هونغ كونغ العليا التي تخرج معظم أفرادها من جامعة هونغ كونغ، وكلهم ثنائيو اللغة، ومستوى لغتهم الإنجليزية جد عال. لكن هذه السياسة لم ترق في الواقع لشريحة عريضة من الطبقة المتزعمة في هونغ كونغ، خاصة من لهم أعمار متقاربة من الزعماء البارزين لأن إنجليزيتهم ببساطة غير جيدة على نحو كاف. أما أولئك الذين تتراوح أعمارهم بين ٤٥ و٥٠، والذين كانوا طلبة خلال أعمال الشغب التي حدثت في الستينيات، وقادوا ما دعاه شيو Choi (١٩٩٠) البحث عن هوية

(*) تشير كلمة مندرين (Mandarin) إلى موظف كبير في الإمبراطورية الصينية القديمة. كما تشير أيضا في السياق الحالي إلى لغة البلاط الصينية (قديما) [المترجم].

ثقافية، في الحركة الطلابية في مطلع السبعينيات. فيوجد العديد من بينهم ممن يحلم منذ ذلك الوقت بهونغ كونغ بلدا مستقلا يتعامل حصريا بلغته الأم، الكانتونية، مستغنيا تماما عن لغة المستعمر. إن العديد منهم يجد صعوبة في قبول فكرة أن هونغ كونغ ليست مستقلة. ومن المهم أن نرى ما سيحدث في غضون السنوات العشر القادمة، عندما يتسلمون القيادة - اللهم إذا كانت سياسة بكين المسيطرة فعليا لمدة طويلة على الأوضاع ستمتد إلى زعماء هونغ كونغ الحاليين، وهذا أمر لا يمكن تصوره.

إن مستقبل الإنجليزية في هونغ كونغ يتوقف على المسار المستقبلي لهوية هونغ كونغ. إذا رأت بكين أن التهديد الرئيس للاستقرار القومي يكمن في الحركات المطالبة باستقلال إقليمي، فلا غرو إذا رأيت جهودا نشطة للترويج لاستخدام البوتونغهوا بدلا من الكانتونية في هونغ كونغ. قد يبدو إمكان إضعاف الكانتونية أمرا غير وارد، خصوصا أن هذه اللغة الآن تعد اللغة الأولى لأكثر من تسعين في المائة من السكان. لكن الأرقام التي أدرجت في (الجدولين ٦-١ و٦-٢) تقترح العكس. فأكثر شعب هونغ كونغ ثنائي اللغة أو ثلاثي اللغة، وهذه هي المرحلة الأولى نحو زوال اللغة. هناك حالات كثيرة في التاريخ تتعلق بشعوب عريضة فقدت لغتها جزئيا أو بشكل كامل لمصلحة لغة أخرى خلال وقت قصير نسبيا - يمكن للمرء أن يأخذ بلاد الغال مثالا على ذلك حيث حدث فيها هذا الأمر عندما كان التعليم، والاتصالات، وفرصة السفر جزءا مما هي الآن. إذا أرادت حكومة بكين وسعت إلى ذلك في الاتجاه الصحيح، فبإمكانها زيادة انتشار البوتونغهوا في هونغ كونغ على حساب الكانتونية (على الرغم من احتجاجات يو، Yau (١٩٩٢)) ويمكن أيضا لشعب هونغ كونغ أن يجد هويته الرئيسة في لغة الصين المشتركة.

لكن إذا أراد شعب هونغ كونغ أن يقوي هويته غير التابعة للصين ويثبتها - هذا بغض النظر عن أي قضية تتعلق بولائهم لحكومة بكين - وإذا أرادوا أن يظهروا فعلا اختلافهم الثقافي والتاريخي عن باقي أرض الصين، وإذا كانت الكانتونية بالخصوص قد طالها قمع من قبيل ما ناقشناه آنفا، فعلى هذا الشعب أن «يتذكر» أن أغلبيته يعرف الإنجليزية أيضا. إن تذكر الإنجليزية، وإن كان لا يشير إلى من لديهم فصاحة لغوية من شعب هونغ كونغ - أي إذا كان تذكرها يقتصر على معرفتها فقط، كما هي الحال أحيانا مع الهويات

الإثنية في الولايات المتحدة - قد يشكل جزءا من هوية هونغ كونغ اللغوية بالنسبة إلى ذلك الشعب الذي يريد تأكيده. ومادام تاريخ شعوب أخرى يعد مرشدها، فإن المرء يمكنه توقع أن تصبح «إنجليزية هونغ كونغ» معترفا بها في الخطاب العام (غير الأكاديمي) عندما تظهر وظيفة هذه الهوية.

ويعزز هذا الإمكان الظهور المتنامي لهوية ما بعد حداثية عالمية، حيث تقوم الإنجليزية فيها بالدور اللغوي المهيمن. كما يعزز هذا الإمكان أيضا التصور الشائع للإنجليزية (ولو أنه غير دقيق) باعتبارها لغة عالمية في الاقتصاد العالمي (انظر لو Lau (١٩٩٧)، ص: ١٢٣-١٢٥).

إن الأنماط المتغيرة في استخدام الإنجليزية في هونغ كونغ يمكن فهمها بشكل جيد ضمن منظور تاريخي يأخذ بعين الاعتبار تطورات مماثلة في أزمنة وأماكن أخرى، بينما يبقى واعيا بتفرد الظروف الخاصة لهونغ كونغ. وإن تصور انحطاط ما في مستويات الإنجليزية الذي يهمن على الخطاب العام، وكذا تصور ظهور إنجليزية هونغ كونغ الذي يهيمن على الخطاب المتخصص للغويين، هما في الواقع وجهان لعملة واحدة، أو هما طريقتان للبحث في الظاهرة نفسها.

ويخشى اللغويون أن يتوصلوا فقط إلى فهم جزئي للحالة اللغوية، إذا هم أقصوا التصور الشعبي برمته لتعارضه مع بياناتنا العلمية. من الأجدر إذن أن نتعامل مع هذا الأمر من خلال «القصص» المتوافرة: فاللغويون لديهم قصة مختلفة بخصوص اللغة في هونغ كونغ عن تلك التي ظهرت في الخطاب العام. وكلاهما يحظى بالتقدير ومختلف كل الاختلاف إلى درجة أن مقارنتهما يبقى أمرا لا طائل من ورائه. ولكن الشيء الأخير على كل حال، الذي نريد قوله بكل تأكيد هو أن القصة في الخطاب العام ليست ذات بال. لكنها في واقع الأمر مهمة جدا، لأنه من خلال هذه القصص يشكل مجتمع ما ذاته ويثبتها، ويحدد المسار الذي يتطور ضمنه، وينشئ هوية ومقاومة، إذا دعت الضرورة.

إن ما أثار حفيظة الشعب بشأن تدهور مستويات الإنجليزية في هونغ كونغ، يرجع من ناحية، إلى نهوض هائل لفرصة اجتماعية تنتج ديموقراطية لغوية تسمح بظهور إنجليزية هونغ كونغية متميزة، كتلك التي سبق لها أن ظهرت في سنغافورة، والهند، وأماكن أخرى متنوعة حول العالم. وفكرة اللغة هذه ليست هي الفكرة التي يحملها شعب هونغ كونغ محمل الجد - على الأقل ليس في الوقت الراهن. لكن أزمة الهوية الثقافية تهدد باستمرار تفاقم

الوضع. إذا قامت بكين بتوظيف ورقة الوحدة الثقافية والاستقرار بشدة، وقامت بقمع الأدب الكانتوني المكتوب بكتابة نابضة بالحياة، في شكل كتب هزلية وصحف شعبية تعتبرها الصين، لا محالة، بذيئة وهدامة. وهكذا، فإن إمكان أن تجد إنجليزية هونغ كونغ عملا وظيفيا مناسبا لها وتصبح موضعا لهوية ثقافية وتعبيرية، لم يعد على مايبدو أمرا يصعب تصديقه.

في الوقت الراهن، وكما أشير إلى ذلك من قبل، إذا ذكر المرء «إنجليزية هونغ كونغ» لدى شعب هونغ كونغ، فإنهم سيظنون أن هذا المرء يستعمل هذا المصطلح بطريقة ازدرائية لكي يشهر بأخطائهم التي لا تنسجم مع الإنجليزية المعيارية. ولكن الوضع يختلف في هونغ كونغ، حيث إن كتبا مثل إنجليزية سنغافورة بإيجاز Singapore English in a Nutshell (براون، ١٩٩٩) تمثل هذه «الإنجليزية الجديدة» في ضوء إيجابي. لكن براون لاحظ في مقدمته، أن المصطلح الإنجليزي العادي للإنجليزية السنغافورية ذاتها هو «سينغليش» Singlish، الذي لا يحمل هذه الدلالات الإيجابية. ومع ذلك، فإن الاعتراف بالتميز اللغوي هو شرط ضروري مسبق لتطوير حس من الهوية المحلية داخل اللغة الإنجليزية ذاتها. تاريخيا، لم يحدث هذا التطور قط إلا بعد عقود من نهاية حكم المستعمر. ولكن لا يمكنني أن أتنبأ بأن هذا الوضع سيتطور في سنغافورا أو سيبدأ في هونغ كونغ. تلك مجازفة لا أقدر على الخوض فيها. ولكن إذا تطورت الشروط لتصب في مصلحة تحديد مكان هوية هونغ كونغ في الإنجليزية، فإن المفتاح الذي سيساعد على حدوث ذلك يتمثل في الثقافة الهجينة للفصل الدراسي. فعلى الرغم من أن ادراكنا للدور الذي تقوم به الهوية اللغوية في تعليم اللغة الثانية لايزال في مراحله المبكرة (انظر نورتون Norton، ٢٠٠٠)، فإن هذا الإدراك يزداد جلاء عندما يعلم الأساتذة أن «الأخطاء» التي يرتكبها الطلبة في إنجليزيتهم الهونغ كونغية (على الأقل تلك التي تحدث بانتظام) هي في الواقع سمات تعبر عن هوية هونغ كونغية متميزة. وحينها تبدأ إنجليزية هونغ كونغ في الظهور بشكل طبيعي، وتتخذ نسخة من إنجليزية معيارية وليس نسخة منحرفة عنها.



7

اللغة في الهويات الإثنية/ العرقية والدينية/ الطائفية

الهويات الإثنية والعرقية والقومية

على الرغم من الصلة المحكمة التي تربط اللغات بالهويات القومية، فهي قوة لا تقل فعالية في تشكيل الهويات التي تتزامن مع القومي والتي غالبا ما تقاومه. وبما أن هذا الفصل يبحث في هويات أخرى من هذا القبيل، فسيكون تركيزنا، بالمفهوم البنائي، على النتاج (أي الهويات بوصفها أسماء أو أصنافا) أقل من تركيزنا على العملية التي أوجدت هذا النتاج. على الرغم من أن الهويات القومية اعتباطية مسبقا في بنائها، إلا أنها، على الأقل، تطور وضعية مؤسساتية، عبر ممارسات ذات علاقة بإصدار جوازات السفر، وسك العملة، وإنتاج طلاسم أخرى تتحقق من خلالها «قومية مبتذلة». ويميل هذا الإجراء إلى وضع ما هو قومي بمعزل عن هويات أخرى، وفي

«يجب أن نتذكر أنه ليس كل مجموعة من الناس تشكل «جماعة ذات ممارسة مشتركة»، ستتصرف بالطريقة نفسها عندما يتعلق الأمر باللغة والهوية»

المؤلف

الوقت ذاته يخلق جوا من الإغراء لمعالجة هويات أخرى كما لو أن وضعيتها هي على المستوى نفسه مع وضعية القومي. إن أبرز مثال على ذلك يكمن في المعالجة الماركسية لهويات «الطبقة الاجتماعية» التي تقوم على تجسيدات خيالية لا سند لها ـ ومن المفارقة أن يكون هذا النوع بالذات من التجسيدات التي يستحضرها اللغويون الماركسيون بسرعة في شجبهم للدارسين «ما بعد البنيويين» الذين يتعاملون معهم باعتبارهم أعداء رئيسيين.

وتستعمل الهوية «الإثنية» أحيانا مرادفا للهوية «القومية» ـ وكان من الشائع جدا سابقا (ومازالت الحال في بعض اللغات)، استعمال الهوية «العرقية» بالطريقة نفسها. ولكن من المفيد جدا التأكيد على الفوارق التي غالبا ما تكرسها المصطلحات المختلفة أو على الأقل تضمّنها، حيث إن:

ـ الهوية الإثنية تركز على سلالة مشتركة، وعلى إرث ثقافي مشترك سببه السلالة المشتركة أكثر من تركيزها على المطامح السياسية لبلوغ استقلال ذاتي.

ـ الهوية القومية تركز على الحدود السياسية والاستقلال الذاتي، الذي غالبا ما يسوغ بحجج تتمحور حول الإرث الثقافي المشترك، حيث العنصر الإثني، مع ذلك، متمدد بشكل لا يمكن تفاديه.

ـ الهوية العرقية، التي تعتبر الآن تصورا طوباويا. عمليا، في الخطاب الأمريكي (وهذا الطابو نفسه يمثل ظاهرة من الهوية في حاجة إلى المساءلة والمناقشة)، والتي تركز على السلالة المشتركة والإرث الثقافي، مثل الهوية الإثنية، لكن على سبيل المثل، تتصور ـ وعلى نطاق أكبر ـ الهوية «السوداء» على أنها تتعارض مع هوية ولوف Wolof.

وهناك ايضا هويات إقليمية ومحلية لن تعالج هنا إذا لم توصف كإثنية أو قومية من طرف المعايير المحددة أعلاه، إلا أنه يمكن لها مع ذلك أن تعمل كبؤر مركزية للهوية والانتماء، إلى جانب المظاهر اللغوية. ففي جماعة مضمة «بالكامبانلسمو» campanilismo، وهي الهوية في مستواها المحلي الضيق جدا، تكتسب الأشكال اللغوية قيمة خاصة لتعذر فهمها من قبل أهالي القرى القريبة جدا. وفي مكان مثل هذا، قلما يكون هناك حضور للهوية القومية، باستثناء فترات الكوارث، مثل تغيير نظام الحكم، والحرب بخاصة [1].

وأحيانا تتعارض الهويات «العرقية» مع الهويات «الإثنية». كما هو موجود مثلا، في الحركات التي تعرف «بالقومية السلافية» pan-Slavism والقومية العربية pan-Arabism التي ظهرت في القرن التاسع عشر وأصبح لها أنصار نشطون إلى غاية القرن العشرين. وقد زعم أنصارها أن الانقسامات الإثنية (التي تتفق أحيانا مع القومية والدينية منها) وجب تجاوزها لمصلحة «العرق» بصفة عامة. إذ يمكن للعرق أن يعود إلى أصله، المعروف بمجده الموحد. بيد أن الأنصار المتطرفين من ذوي الهويات الإثنية المعينة داخل «أعراق» واسعة راوا أن هذا لا يقل خطرا في تهديد مصالحهم عما يمثله الغزو الخارجي أو الاشتراكية العالمية. وقد وضع كوهن (١٩٦٥) مقتطفين اثنين جنبا إلى جنب. أحد هذين المقتطفين للقومي السلافي نكولاي دانليفسكي Nikolai Danilevsky (١٨٢٢-١٨٨٥):

> «يعد الاستقلال السياسي للعرق الأساس الضروري للثقافة. وبناء على ذلك يتعين على كل القوى السلافية أن تتوجه صوب هذا الهدف. وإن الاستقلال ضروري من ناحيتين. أما الأولى، فمن دون الشعور السلافي بالوحدة العرقية باعتبارها متميزة عن الأعراق الأخرى، تصبح الثقافة المستقلة أمرا مستحيلا. ومن ناحية أخرى، من دون تفاعل مثمر بين الشعوب السلافية، متحررا من القوى الخارجية وانقساماتها القومية، فإن التنوع الثقافي وثراءه يصبح مستحيلا». (دانليفسكي، ١٨٦٩، مأخوذة من عمل كوهن، ١٩٦٥، ص: ١٥٤).

وأما المقتطف الثاني، فمأخوذ عن الصحافي التشيكي، كارل هافليتشك بوروفسكي Karel Havlíček Borovský (١٨٢١-١٨٥٦)، المعاصر لدانليفسكي والقريب منه، حيث يبين مع ذلك كيف ينزع أولئك الذين يلتزمون بإثنيات خاصة داخل «العرق» إلى قراءة هذه الأقوال مثل كالمقولة المذكورة أعلاه:

> «لقد أخذ الروسيون [...] بفكرة القومية السلافية. [...] ويظن القوميون السلاف الروسيون أننا والإليريون Illirians (*) راغبون في أن نكون تحت هيمنتهم!! إنهم متيقنون بشكل ثابت

(*) الشعب الإليري هو أول عرق بلقاني إلى جانب الهلينيين (الإغريقيين القدامى). وكان قسم من الإليريين يعتنق الديانة الكاثوليكية، بينما كان القسم الآخر، خاصة الشطر الجنوبي من البلاد، يعتقد بآلهة مختلفة. وقد تبنى الإغريقيون هذه الآلهة، وهي لا تزال تتداول إلى يومنا هذا [المترجم].

انهم سيبسطون سيطرتهم على كل بلاد السلاف في يوم من الأيام!! وهم يتطلعون الآن إلى كرومهم المستقبلية في دالماشيا Dalmatia. وبدأ هؤلاء الرجال النبلاء في كل مكان ينطقون ويكتبون السلافية بدلا من الروسية حتى يستطيعوا فيما بعد أن ينطقوا الروسية من جديد بدلا من السلافية...

وليس السلافيون شعبا واحدا، وإنما هم أربعة شعوب مستقلة غير متصلة فيما بينها شأنها في ذلك شأن أي شعوب أوروبية أخرى. [...] ومن ثم أصبح من المستحيل بالنسبة إلى كل السلافيين استعمال لغة أدبية واحدة، لذا تعتبر كل الجهود التي تصب في هذا الاتجاه، عديمة المعنى ومضرة لأنها مجرد مضيعة للوقت».

(هافليمك، ١٨٤٦، مأخوذة عن كوهن، ١٩٦٥، ص: ١٥٨- ٩)

ويمكن أن نجد فيما بين الأفراد تعايشا متناغما للهويات الإثنية والعرقية، ولو أن الصراع هنا غدا أمرا ممكنا أيضا. وإذا أخذنا المثال المذكور في صفحة ٢٢١ الذي ورد ضمن «الهوية المرقية»، فسيمكن لفرد ما أن تكون له هوية إثنية لوولفي ما، أوهوية عرقية لأسود ما، وهوية قومية لسنغالي. ويمكن له أن ينتقل إلى الولايات المتحدة، ومع مرور الوقت الذي تستغرقه هذه التجربة من التحول، على الأقل في سياقات محددة، تصبح هويته القومية أمريكية، وهويته الإثنية سنغالية - أمريكية (وولفيأمريكي)، وهويته العرقية افريقيةأمريكية أو ربما أفريقيا أسود، إذا هو أراد أن يميز نفسه عن الأفارقةالأمريكيين أصحاب الأرض الأصليين.

وقد نُقل هذا التحول المثير للاهتمام من قبل برتا Perta (٢٠٠٢) بين الجماعات الألبانية Arbëresh التي استقرت في شبه الجزيرة الإيطالية منذ القرن السادس عشر. وخلال تلك الفترة تمسكت بحس قوي من هوية مميزة كألبانيين إثنيين، وقاوم أفراد هذه المجموعات بشدة بناء هوية قومية إيطالية تؤدي إلى خلق الدولة الإيطالية في الستينيات من القرن التاسع عشر، والسير في ركبها. «فالإيطاليون، حسب الألبانيين هم أولئك الناس «الآخرون» المحيطون بهم. فهم ليسوا إيطاليين، ولو أن اللغة الإيطالية (أو هي بمفردها) هي لغتهم المهيمنة بدلا من اللغة الألبانية، كما كانت الحال بشكل متزايد في النصف الثاني من القرن العشرين.

ولكن يبدو أن هذه الحالة خضعت لتحول ملحوظ عقب تدفق المهاجرين الألبان إلى إيطاليا منذ العام ١٩٩٠. فأصبحت سلوكات هؤلاء «الألبان الجدد» مرتبطة (سواء كان هذا حقيقة أم خطأ) لدى الصحافة الشعبية بالجريمة والدعارة. وبدلا من أن تحتوي الجماعات الألبانية القديمة هؤلاء المهجرين بوصفهم جزءا لا يتجزأ منها، نأت بنفسها عن هذا الانتماء. وعلى الرغم من أنها لم تكن لتتكر صلة النسب التي تجمعها معهم على مستوى كبير شبه ـ «عرقي»، فهي تؤكد التمييز الإثني الذي يقوم على أساس «قديم» مقابل آخر «جديد». وأهم من ذلك أنهم دعموا زعمهم هذا، ولأول مرة، بإعلانهم عن هويتهم القومية الإيطالية. فمن ناحية ما، اكتشفوا إيطاليتهم عندما أصبحت ألبانتيهم تمثل مشكلة.

وينقل بيرتا أيضا أنه على الرغم من أن الحكومة الإيطالية قد فتحت الباب أمام تعليم اللغة الألبانية للجماعات الألبانية تماشيا مع روح التوصيات التي صادق عليها الاتحاد الأوروبي العام ١٩٩٩، فإن الجماعات ذاتها، التي كانت ترحب بهذه الخطوة، من دون شك، جيلا من الزمن، أصبحت نظرتها متناقضة حيالها بشكل واضح في أعقاب التحول الحديث لهويتهم الإثنية/القومية.

وتعتبر شبه جزيرة إيبيريا بمنزلة كتاب مدرسي للأشكال الإثنية والهويات القومية:

- «الدولة ـ الأمة» الواضحة، وتتمثل في جمهورية البرتغال ومملكة إسبانيا؛
- «دولة من دون أمة»، مثل إمارة أندورا Principality of Andora.
- «الأمم من دون الدول»، على سبيل المثال، داخل إسبانيا حيث يوجد الشعور القوي في الاختلاف الذي يحمله الكتالونيون Catalans والباسكيون Basques مع الدولة الإسبانية.
- «أمم من دون دول» مع وجود هوية انفصالية أكثر اعتدالا وإن كانت مع ذلك قوية، مثلما هي الحال بالنسبة إلى غاليسيا Galicia.
- مناطق ذات هويات منفصلة، ولكنها حاليا ليست ذات قوة ثقافية شديدة، ومثال ذلك فالنسيا Valencia واندلوسيا Andalucia.

وبتفسيرنا سبب معارضة الهوية الباسكية القوية للهوية الإسبانية «الأمة ـ الدولة»، سيكون من الصعب علينا الا نلجأ إلى حقيقة أن اللغة الباسكية لا تتصل باللهجات الرُّومنية التي يجري تداولها عبر بقية شبه الجزيرة الإيبيرية، وهي حقيقة يكمن وراءها مطالبة الباسكيين تشكيل شعب متميز بأكمله إثنيا. وإلى جانب هذا، هناك حقيقة امتداد اللغة الباسكية للجماعة عبر الحدود القومية الإسبانية ـ الفرنسية. وينطبق الأمر نفسه على اللغة الكاتالونية للجماعة. وعلى الرغم من أن الكاتالونية جزء من العائلة الرُّومنية، فإن تميزها كلغة قائمة بذاتها بدلا من لهجة إسبانية أو محلية Provençal يدين بشيء ما لوضعيتها «الدولية»، وبشيء ما لتقليد دام قرونا طويلة من الكتابة الإبداعية بهذه اللغة التي تضم مؤلفين مشهورين من أمثال مايوركان رامون لال Majorcan Ramon Llull (١٢٣٢ ـ ١٣١٦). وهذه هي «الصناعة الأدبية» التي يصفها كلوص (١٩٧٨) بالأوسبو (انظر ص ٢٠٥ أعلاه). إلا أن العامل الرئيس كان يكمن في عقد العزم التام لدى متكلميها للحصول على اعتراف تام بخصوصية لغتهم.

ويملك الغلنسيون والأندلسيون أيضا الأدب المكتوب على اختلاف أشكاله من قرون قديمة، ولكن لم يقدر لأي أدب تجاوز حدود القومية، او ان تكون له شخصية عالمية تقارن بشخصية لال، أو أن يجري تداوله (التحدث به) من قبل عدد من السكان الذين يملكون استعدادا لنطاق واسع يصرون من خلاله على أن هذا الأدب يمثل لغة مختلفة عن اللغة الإسبانية وليس لهجة من لهجاتها. وتعد الحالة الغاليسية Galician معقدة، لأنها لو كانت لهجة من لهجات أي لغة أخرى، فستكون هذه اللغة برتغالية. وقد استغلت صلتها اللغوية الأقرب إلى البرتغالية منها إلى الإسبانية كثيرا من لدن أولئك الذين يبحثون عن استقلال الغاليسيين عن إسبانيا. أما على مستوى الهوية الإثنية، فقد قاموا أيضا بتشكيل وصف لأصولهم السلتية المفترضة، والعمل على التشبث بها. ويتراوح دليلهم في ذلك انطلاقا من أشياء أركيولوجية (أثرية) صنعها الإنسان إلى نزعة تجاه لون شعر خفيف إلى جانب صلات أخرى مزعومة مع الثقافات السلتية.

وسيصبح واضحا، في الفصل القادم، كيف توزعت السلتية بشكل واسع، بوصفها هوية إثنية تشكلت ونشرت من أجل غايات سياسية. وقد طورت الهويات السلتية داخل كل من الجزر البريطانية: الإيرلندية، والغالية، والاسكتلندية والكورنية

Cornish والمانكسية (Max أكثر المناطق ضعفا)، بعدا إثنيا ولغويا من ناحية وبعدا دينيا طائفيا من ناحية أخرى. وسنرى في قسم لاحق من هذا الفصل كيف أن الهويات الدينية، التي عادة ما تسبق الهويات القومية، يمكن أن يكون لها علامات ومظاهر لغوية خاصة بها، غالبا ما تشمل الحفاظ على لغة أو شكل ما لم يعد يستعمل في سياقات علمانية. وعلى الرغم من نشوء الانقسامات الطائفية حديثا، فإنها ولدت أنماطا لهويتها خاصة بها، تشمل أنماطا لغوية. فعلى سبيل المثل، للغَيْلية الإيرلندية ارتباط قوي بالحزب الجمهوري الإيرلندي منذ أواخر القرن التاسع عشر، وللحزب الجمهوري الإيرلندي ارتباط قوي بالمذهب الكاثوليكي الروماني. وبينما تعمل الغَيْلية الإيرلندية كرمز للهوية القومية الإيرلندية بالنسبة إلى الكاثوليكية الرومانية الإيرلندية في المناطق البروتستانتية لإيرلندا (وبشكل بديهي في شمال إيرلندا)، فهي تعمل في المقابل كرمز من رموز الحزب الجمهوري، وفي بعض السياقات كرمز لمقاتلي الحزب الجمهوري (أوريلي O'Reilly، ١٩٩٩). لكن الغَيْلية الاسكتلندية، في المقابل، ترتبط ارتباطا قويا بكنيسة اسكتلندا الحرة Free Church of Scotland، في حين أن هوية أعضاء كنيسة اسكتلندا (المَشْيخيين Presbyterians) الراسخة مرتبطة أكثر بالاسكتلنديين. وأما بالنسبة إلى حالة لبنان، التي أدت الاختلافات الدينية والطائفية فيه إلى تصور اختلافات إثنية أخرى، فستُبحث بعمق في الفصل التالي. وفي حالات عديدة من فترات مابعد الاستعمار، يمكن للطلاقة في اللغة الاستعمارية السابقة أن تكون مؤشرا يعتمد عليه في التعليم داخل المدارس المسيحية. ولكن لا يعني هذا أن يعتنق فرد ما المسيحية، وإنما يُفسر، على الأقل، بأن آباء الشخص لم يكونوا على صلة قوية بالمعتقدات الدينية لدى السكان الأصليين. ففي كل الحالات التي أشير إليها في هذه الفقرة، يلعب كل من الاختيار اللغوي، والتغيير الرسمي/الاستطرادي/البلاغي جزءا من الهوية اللغوية.

من الجماعات ذات الممارسة المشتركة إلى الخاصية البينية التكوينية المشتركة

إن هذا يؤدي بنا إلى السؤال عن إمكان أن تصبح اللغة «محايدة» ثقافيا. فيجيب فولوشينوف (انظر ص: ٧٧ ـ ٨٠) بعدم حيادها ولو على مستوى العلامة اللغوية الفردية: «حيثما حضرت علامة ما، حضرت معها الأيديولوجية أيضا» (فولوشينوف، ١٩٧٣ [1929] ص: ١٠). ففي السياق

الذي بين أيدينا، نستطيع القول إن الأفراد يستعملون اللغة للإشارة إلى (أو بدقة أكثر خلق) هويتهم الثقافية. ومن ثم جعل هذه اللغة «مشحونة» ثقافيا. ولكن للغة القدرة على أن تستوعب أكثر من ثقافة واحدة. واللغة العربية نفسها، ومع كل ما لها من روابط قوية بالإسلام، استوعبت الثقافات المسيحية منذ قرون. هي قادرة على استيعاب أي عدد من الثقافات. وينطبق الأمر نفسه على أي لغة. ومن هذا المنطلق، فإن اللغة «محايدة» ثقافيا. وحتى إن تطورت اللغة، من الناحية التاريخية، داخل ثقافة معينة، فهي لم تنشر في حد ذاتها تلك الثقافة إلى أناس آخرين ممن يتعلمون اللغة. فلا بد للغة أن تكون جزءا لا يتجزأ داخل الخاصية البيئية التكوينية الثقافية حتى تعمل كأداة نقل تُكتسب فيها اللغة. وبتحول اللغة من خاصية بيئية تكوينية مختلفة، فهي ستخضع لنفسها قالبا يتناسب وهذه الخاصية البيئية التكوينية وليس العكس.

وفي الوقت الذي ابتعد فيه البحث اللغوي الاجتماعي في الهوية عن مفاهيم الطبقة الاجتماعية التي تتناغم مع المفاهيم الماركسية، ظهر تصور الجماعات ذات الممارسة المشتركة (انظر ص ٩٩ أعلاه) إلى الوجود بوصفه دعامات لفهم كيفية تطوير مجموعات من الناس إشاراتها اللغوية الخاصة بها التي تتشكل حول أي مجموعة من المعتقدات المشتركة، وكيفية نشرها والتعرف عليها. وقد حلت هذه المقاربة على نطاق واسع محل المحاولات السابقة لتفسير مفاهيم تتعلق بالهوية الجنسية أو هوية الأجيال في اللغة. ولم تكن كلها مرضية على الإطلاق. فقد كانت الحالة الأكثر صعوبة جدا تتعلق «بلغة النساء» (أعيد تعريفها لاحقا «باللغة الضعيفة» powerless language)، وهو تصور ربما أوجد الفئة الحقيقية التي كان يسعى إلى التعريف بها، وزاد من تفاقم المشاكل الجوهرية التي كانت تتوخى حلها. ومن ناحية أخرى، فإن النظر إلى الجماعات ذات الممارسة المشتركة يمكن أن يساعد في إيجاد ما هو مشترك في إنتاج السمات اللغوية المشتركة بين مجموعات العمال، أوالعلماء، أوالمحامين، أو الأطفال في مدرسة معينة، الأطفال الأسيويين في تلك المدرسة فقط، إلى غير ذلك.

إلا أنه على الرغم من أهميتها في خدمة الغايات الاستجلائية، يجب أن نتذكر أنه ليس كل مجموعة من الناس تشكل «جماعة ذات ممارسة مشتركة» ستتصرف بالطريقة نفسها عندما يتعلق الأمر باللغة والهوية. في

الحقيقة. ليس كل جماعة ذات ممارسة مشتركة سيكون لها تجليات في هوية لغوية ما. وهنا يصبح مفهوم الخاصية البيئية التكوينية مفيدا. فيمكننا أن نتوقع من جماعة ذات ممارسة مشتركة أن تظهر هوية لغوية فقط في تلك الحالات، حيث الممارسات، التي تتشكل حولها الجماعة، تدخل الخاصية البيئية التكوينية لأعضاء الجماعة الفردية. وسيحدث هذا بشكل قوي جدا عندما ينشأ الأفراد وهم يقومون بممارسات كجزء من حيواتهم الروتينية. وعندما تكون الممارسات شيئا يستخدم في وقت لاحق، فلن تصبح بالضرورة جزءا من الخاصية البيئية التكوينية لكل فرد، وإنما فقط لأفراد محددين، وبنسب متفاوتة.

ولقد وجهت انتقادات للمقاربات البنائية للغة والهوية على أساس أنها ساوت بين الهويات «العرضية» casual identities ونوع الهويات التي يتوجه من أجلها الناس إلى الحرب. وفي واقع الأمر، لا يوجد حد فاصل واضح بين أنواع الهوية التي تتناسب مع كون الفرد عضوا في الحزب القومي الاسكتلندي، أو كنيسة اسكتلندا الحرة - اللهم إلا إذا استثنينا الأمر بالنسبة إلى مسرحية هزلية، بحيث يمكن للمرء فيها أن يتخيل عضوا ما يحمل راية جمعية ما في ساحة القتال. وفي حالة ما إذا سوّى علماء الاجتماع وعلماء اللغة الاجتماعيون الذين يدرسون الهوية بين هذه الفوارق، فالحكمة من وراء ذلك الوصول إلى فهمها فهما وافيا في نهاية المطاف. فمازلنا بعيدين جدا عن هذا الفهم، ولكن بحسب رأيي، يمكن أن تذلل هذه الصعوبة في الفهم بواسطة مقاربة لهويات لغوية وأخرى ثقافية متجذرة في مفهوم الخاصية البيئية التكوينية المشتركة إلى جانب تسخير «الجماعات ذات الممارسة المشتركة» كنموذج عام في فهم كيفية ظهور البعد «المشترك» للخاصية البيئية التكوينية وكيف يجري الحفاظ عليها.

القوة الخاصة لمطالب هوية إثنية / عرقية

من أصل نوعين أساسين من الهويات بُحثا في هذا الفصل - أي إثنية/عرقية ودينية/طائفية - يرتبط النوع الأول منهما بشكل مباشر جدا بالهويات القومية التي دار حولها النقاش في الفصلين السابقين. كما يعتبر أيضا، وبشكل بلاغي، النوع الأقوى من الهوية التي يمكن للمرء أن يطالب بها.

ونتيجة لذلك، كثيرا ما تعزز مطالب الهوية القومية، والدينية/الطائفية، بل والطبقة الاجتماعية نفسها، بمطالب تتعلق بالاختلاف الإثني، لتصبح الحدود بينها غير واضحة. (وسيجري تحليل مثال على ذلك في الفصل الثامن)

وعندما ندرس الأسباب الكامنة وراء امتلاك الاختلاف الإثني/العرقي هذه القوة، يجدر بنا أن نتذكر رسالة أبيقور لهورودوتس التي نوقشت في الفصل الثالث (ص ٦٨ ـ ٦٩)، والاعتقاد التقليدي القديم في أن جسد الإنسان ـ المختلف بشكل باد للعيان من إثنية إلى أخرى، بحيث إننا نتصور أنفسنا قادرين على قراءة إثنية شخص آخر من خلال لون بشرته، وشكل جسده، وملامح وجهه، وليس آخرا، صوته ـ يولد لاختلافات في الثقافة واللغة بشكل مباشر. فهذه المعتقدات، بلا شك، سلاح ذوحدين: ففي الوقت الذي يقدم تماسكا وهوية إيجابية للمجموعة الداخلة، فهي في المقابل تتح نوعا من الإفراط في القراءة التي تؤدي إلى نمطية إثنية وإلى التحيز. علاوة على ذلك، جادل يونغ (١٩٩٥) بقوة في ان العرقية والحاجة الملحوظة إلى التمييز العرقي تحركتا بدافع طبيعية الرغبة ذات التقاطع العرقي، وجاذبية كل ماهو غريب، والجاذبية النموذجية للنقائض. فتاريخيا، كان الزواج بشريك لا ينتمي إلى «الجماعة الداخلة» للمرء، (وهو نوع الزواج المعروف باسم «الزواج المختلط» exogamy)، أكثر شيوعا من زواج بين الأقارب endogamy، ولو انه يوجد اختلاف كبير حول كيفية تعريف الجماعة الداخلة. وما دامت العرقية والتمييز العرقي تعلقا بتكريس حدود الجماعة، يبقى هذا التكريس ضروريا، اللهم إلا في وقت تكون فيه الحدود مهددة من الداخل. ولكن تطفو المفارقة هنا على السطح من جديد، ذلك لأن الرغبة ذات التقاطع العرقي تتطلب، في الوقت ذاته، اعترافا بالأصناف العرقية المنفصلة، بما أنها تساهم في طمس هذه الأصناف أو محوها.

ففي بعض الظروف، يمكن أن يكون الحافز لمطابقة إثنية/عرقية قويا جدا إلى درجة أن الأصناف لا تطمس كثيرا أو تمحى بسبب ما تلقاه من دعم وبسبب تناميها وتعقيدها. ويمثل معجم المصطلحات العرقية والإثنية في أمريكا اللاتينية (ستيفانس القاموس: Dictionary of Latin American Racial and Ethnic Terminilogy ستيفانس، ١٩٩٩) تسجيلا حقيقيا منقطع النظير لهذه البلقنة من الهويات العرقية، إذ يضم ٨٢٥ صفحة من

المصطلحات التي من خلالها يصنف الناس أنفسهم وغيرهم من الناس لغايات تتراوح بين ما هو غير رسمي وبين ما هو رسمي، عبر المناطق التي تتحدث الإسبانية، والبرتغالية، والفرنسية، ومناطق أمريكا اللاتينية الناطقة بلغات هجينة. فكلمة شينو chino مثلاً، (التي تعني حرفيا «صيني»)، لها ٣٢ معنى، ويمتد عدد معانيها إلى ٦٨ معنى إذا ما ضمت معان فرعية. ويتبع بعض منها ما يلي:

- هندي (أي أمريند Amerind: الإسبانية الأمريكية العامة).
- هندي غويجيروي «Goajiro (كولومبيا).
- هندي غويجيروي الذي يبدو كصيني (فنزويلا).
- نسل مولاتو Mulato ونسل هندي ما، ٢٥ في المائة من البيض، ٥٠ في المائة من الهنود، ٢٥ في المائة من السود (بيرو).
- نسل سالتاتراس saltatrás وهندي (المكسيك) [سالتاتراس= ابتعد عن «الرجل الأبيض» ٤٢.٧٥ في المائة من البيض، ٥٠ في المائة من الهنود، ٦.٢٥ في المائة من السود].

ويرتبط مصطلحا تشينو Chino وتشاينا china في أقاليم مختلفة بالعبودية المحلية، والطبقة الاجتماعية الدنيا، والحُسن. وثمة عدد من التقسيمات الفرعية لمصطلح شينوز chinos، مثل شينو شولو chino cholo «نسل أسود أوهندي» وشينو بريتو «chino prieto «نسل أسود وتشينو تشولو» بيرو/Peru. فإن هذه المصطلحات تقدم دليلا على حساسية ثقافية شديدة حيال درجات طفيفة من الاختلاف العرقي، الذي يشحن بدلالة رمزية تعمل بمنزلة «نص» يقرأ جذور شخص ما وخلفيته، ليمتد ذلك أيضا إلى شخصيته.

وهذا، مرة أخرى، سلاح ذو حدين للتحيز العرقي من جهة من يعمل ضد الأفراد بشكل غير منصف، ومن جهة أخرى للهوية الإثنية/العرقية، التي توحد الأفراد بكيفية تعمل على إغنائهم بوحدة ثقافية، وتسمح لهم، ربما، بمقاومة الاضطهاد.

وفي هذا المضمار، لاتقتصر أهمية اللغة، على الإطلاق، على الأسماء التي ترتبط بالناس للدلالة على انتمائهم الإثني، ولكن يمكن لهذه الأهمية أن تمتد إلى طريقة كلامهم على العموم. فللطبقة العاملة في الولايات المتحدة، لهجات مختلفة بشكل ملحوظ، ولو ضمن حالات كانوا فيها هم وأسلافهم يقطنون في

المدن نفسها لمدة تزيد عن قرن من الزمن، ويشتغلون جنبا إلى جنب في المصانع نفسها منذ نهاية التمييز العنصري في مكان العمل، منذ ما يقرب من أربعين سنة قد خلت. وفي هذه الفترة نفسها، اندمجت طبقة السود المتوسطة المتنامية، لغويا مع نظيرتها من طبقة البيض. غير أن الطبقات التي توجد في أدنى السلم اجتماعيا، لم تندمج لأسباب تتعلق، ربما، بالإحساس القوي بالتضامن الإثني والتميز الثقافي الذي يتمسكون به. فمن غير المنصف في حق طبقة السود المتوسطة الادعاء بأنها تفتقر إلى تضامن إثني، بدليل أن أصحابها لايتحدثون «إنجليزية السود»، أو أنهم لا يتحدثونها على وجه الحصر. إن التكيف مع النموذج المعياري «لإنجليزية البيض» أمر ضروري لاقتحام بعض ميادين الطبقة المتوسطة، وضروري لا محالة، بالنسبة إلى المرء، في إمكان التحول من مكانته الاجتماعية إلى أخرى من دون أن يعتبر بالضرورة خائنا لإثنيته. ولكن المرء يبقى دائما محط شبهة. ولا تقتصر هذه الحالة مطلقا على الهويات الإثنية والعرقية - بل يتعلق الأمر بأي شخص يتطلع إلى وضعية اجتماعية أكبر داخل مجتمع مقسم إلى طبقات. ولو أن المسألة فعلا محصورة بقوة على ما يبدو، ويمكن فهم صحتها، في حالات يوجد فيها تراث تاريخي من العبودية أو قانون استعماري مشحون بقوة كبيرة من الشعور بالخيانة الطبقية عندما يتبنى سليل المضطهد هوية الأسياد السابقين.

ولاتزال الفئات العرقية مستمرة في ممارسة سيطرتها القوية على أذهاننا ولو في ثقافات بذلت جهودا جبارة لتجاوز تجاهل الحقوق المدنية لأولئك الذين لا يشكلون أغلبية عرقية. وكما سبق أن ذكرنا في الفصل الأول، إن ادعاء المرء تغيير انتمائه الديني قد أصبح أمرا واقعا في العصر الراهن، وإن كان ذلك في ثقافات ليست على استعداد لتقبل مثل هذا التغيير. والأمر ذاته ينطبق على من يدعي تغيير جنوسته، خاصة في مكان يكون فيه الإثبات الجراحي لهذا الادعاء أمرا متاحا بسهولة. لكن في المقابل، ينظر إلى ادعاء المرء تغيير فئته العرقية بارتياب شديد، لأن ذلك يعد محاولة منه لإخفاء هويته الحقيقية. وعلاوة على ذلك، حتى إن كان ما تبذله الحكومات من جهد لفك إرث التمييز العرقي «بتدابير إيجابية» أمرا مبررا في بعض الحالات مثل منح حق الاختيار في الاستئجار، وحق انتقاء الجامعة، وغير ذلك، لأعراق أو إثنيات لم تكن ممثلة بشكل جيد في

السابق في القطاعات ذات الصلة - فإنه يعتمد بوضوح على الإيمان بالحقيقة المادية ودقة التصنيف العرقي الذي لا يقل قوة عن تلك التي أسست لأحكام قبلية سلبية سابقة.

لقد ركز قدر كبير من البحث في اللغة والهوية، خلال العقد الأخير، على ظاهرة تدعى «تداخل الكلام» crossing، إذ بموجب هذا التداخل يتبنى الناس الذين ينتمون إلى مجموعة إثنية ما إشارات هوية لمجموعة أخرى تنتمي إلى وضعية اجتماعية أدنى (وإلا لما أثارت، بلا شك، انتباه علماء أنثروبولوجيا اللغة الذين يدرسونها). فبينما قدر مهم من هذا العمل، (مثل عمل رامبتون Rampton، ١٩٩٥)، يعتبر رائعا لما يقدمه من بيانات ومن طرق مبتكرة في تحليلها، إلا أنه يجسد مفارقة تتصل بتلك التي نوقشت في الفصل السابق. وإن أوصاف «تداخل الكلام» تميل إلى تعزيز آراء محافظة لسلطة فئات من الناس يفترض أن «يلتزموا» بها. وإن الافتراض الذي خلصت إليه - وإن كان متأثرا بخلفيتي الدولية، الإثنية المتداخلة الخاصة بي، وعبر الطائفية - أن «تداخل الكلام» ظاهرة أقل روعة من إدراك أن هناك فئات صارمة جدا لاقتحامها (أي وجود تداخل كلام معها).

وإن إحدى المفارقات الكبرى التي شهدها التاريخ الحديث تتمثل في الرفض المقنع جدا للحقيقة المادية للفئات العرقية التي أنتجها الأنثروبولوجيون والإثنوغرافيون الألمان المحسوبون على الحقبة النازية، الذين صمموا، في الحقيقة، على أن يهبوا تلك الفئات جدية علمية. وفيما يتصل بالموضوع ذاته، يرى هاتون (١٩٩٩)، أن بحثهم أدحض باستمرار الطروحات التي انطلقوا منها. ولم يخفوا النتائج السلبية عن الحزب أو عن مسؤولي الحكومة الذين أسسوا لمهماتهم البحثية، وأخبروهم في المقابل بعدم وجود معايير علمية تميز ماديا السلافي عن الألماني، أو بالأحرى اليهودي عن الألماني. فالفوارق ثقافية في الأساس وليست مادية - وفي ثقافة ألمانية تغذت، منذ مائة وخمسين عاما، من آراء رومانسية لهيردر، وفيخته، وهومبلت، وغيرهم، تعتبر اللغة المكان الطبيعي الذي نعود إليه لتحديد ذلك الجوهر الثقافي.

من ثم نشأت نظريات اللغويين في التطور الإثني/العرقي التاريخي، وانتماء «اللغة الأم»، فشكلت الأساس «العلمي» للسياسة النازية في الإبادة الجماعية. وكانت مسألة الدونية المفترضة التي يوصم بها جبين الشعوب

السلافية جزءا لايتجزأ من البنية اللغوية التي كانت المنتوج والمنتج على حد سواء لقوة فكرية وضيعة. لكن هذا أدى إلى مشكل، كلما تعلقت مسألة الدونية المفترضة باليهود، بما أن اللغة الرئيسة ليهود أوروبا الوسطى هي اللهجة الألمانية. إن المقاربات التي اتخذت للبحث في اليديشية من قبل اللغويين الألمان واليهود خلال الفترة النازية تعتبر معقدة (انظر هاتن، ١٩٩٩، ص: ١٨٨ـ٢٣٢). فقد بنى العديد من الباحثين أفكاره على الملاحظة المنتشرة التي ترى أن اليديشية لغة «مختلطة»، للمجادلة في أن «شكلها الداخلي» ليس ألمانيا في الحقيقة. إلا أن بيتر هينز سيرافيم Peter Heinz Seraphim (١٩٠٢ـ ٧٩)، الذي عرف من قبل هاتون بأنه «استراتيجيا، العالم المهم جدا بالنسبة إلى يهود أوروبا الشرقية في ألمانيا الاشتراكية القومية (المرجع نفسه، ص: ٢٢٣)، طور مع ذلك رأيا أكثر انعزالية، إذ بمقتضاه يشكل اليهود استثناء في عدم امتلاكهم أي «لغة أم» على الإطلاق، ومن ثم عدم توافر أي هوية لغوية حقيقية لهم. وإن لديهم القدرة على أن يتقمصوا الهوية اللغوية لأي بلد يقطنونه. إلا أن هويتهم الحقيقية تتجلى دائما «في رغبتهم الأكيدة في أن يبقوا منعزلين عن الأقوام الآخرين». (المرجع نفسه، ص: ٢٢٩، مستشهدا بسيرافيم، ١٩٣٨، ص: ٣٩٦ـ ٧). ولم يكن لسيرافيم السبق في هذه الفكرة: بل قال الموسيقار ريتشارد فاغنر Wagner في الأساس الشيء نفسه في مقال له عن «اليهودية في الموسيقى» الذي نشره باسم مجهول العام ١٨٥٠.

لقد أنزلنا هنا منزلة نذير الشر باسم الهوية اللغوية الإثنية، الذي لا يمكن وصفه البتة إلى درجة أنه يتعذر على كثير من الناس تأمل الموضوع على الإطلاق [٢]. ومع ذلك، فتحليلنا وفهمنا لما جرى فعله من خلال استخدام علم اللغة لتشكيل هذا الرأي القوي من التمييز العرقي/الإثني هو أملنا الكبير الذي نسعى من ورائه إلى منع حدوث ما وقع مرة أخرى. وأما القسم التالي الذي يتناول «الهوية الدينية/الطائفية»، فتبعث قراءته إلى حد ما على التفاؤل. فحالة الهوية اليهودية التي نوقشت منذ حين، تعد هوية يرتبط فيها الدين والإثنية بشكل وثيق. ولكن لابد من الإشارة إلى أنه على مر القرون الطويلة التي اضطهد فيها اليهود في المملكات المسيحية، لو اعتنق يهودي ما الديانة المسيحية، لنجا بجلده دينيا ودنيويا على حد سواء. وإن المحرقة اليهودية، الهولوكوست، لم تحدث إلا عندما تطور مذهب التمايز

العرقي/الإثني لدى اليهود في شكله القوي من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، وأصبح كما رأينا، يعتمد في نهاية المطاف على الاعتقاد بالهوية اللغوية.

هويات دينية / طائفية

تعنى الهويات الإثنية والدينية بالمكان الذي أتينا منه وبالمكان الذي سنرحل إليه، أي بوجودنا بالكامل، وليست مجرد لحظة من حياتنا. فهذه الهويات، بالنسبة إلى أكثر الناس، هي التي تعطي، أولا وقبل كل شيء، معنى عميقا جدا «للأسماء» التي نُعرف بها أنفسنا باعتبارنا أفرادا أو مجموعات. وهي تزود الحبكة لروايات حياتنا، بشكل منفرد وجماعي، وهي مرتبطة ارتباطا وثيقا بمعتقداتنا الأكثر عمقا حول الحياة، والكون، وكل شيء. وعلاوة على ذلك، ترتبط الهويات الإثنية، والدينية في معظم الثقافات بالإنتاج، باعتبار أنها تحدد للمرء الشخص الذي يمكنه الزواج منه، بقطع النظر عما إذا كان التزاوج بين الأقارب أو الزواج من خارج العشيرة يشكل القاعدة الثقافية. ويمنحهم هذا، بطبيعة الحال، بعدا نُشُوئيا.

لقد كان الدين في أوروبا، منذ ما يربو على ألف سنة، أي مع بداية القرن الرابع الميلادي، يشكل البؤرة الرئيسة لهوية الناس. ومع سقوط روما العام ٤٥٣، انقطع وجود إمبراطورية «غربية» وإمبراطورية «شرقية»، بل أصبحت إمبراطورية واحدة من جديد تقاد من بيزنطة. وأكثر الملوك الجرمان الذين سيطروا فعليا على الأرض في القارة الأوروبية لا يزالون يعتبرون أنفسهم مرتبطين سياسيا بالإمبراطور، ودينيا بالبابا. ولكن الوضع السياسي سيتغير في القرن الثامن مع توحيد شارلمان Charlemagne لإمبراطوريته الرومانية المقدسة، بعد بضعة عقود من بداية تغير الحالة الدينية لما نشأت الهوة بين البابا والإمبراطور، خصوصا مع الإعلان عن مذهب تدنيس الأيقونات ومهاجمة المقدسات الدينية من قبل الإمبراطور، ليو الثالث الإيسوري، في عام ٧٢٥-٧٣٦. وبحلول عيد ميلاد المسيح العام ٨٠٠، تحديدا عندما توج البابا شارلمان إمبراطورا، لم يكن انتقال الولاء كاملا، على رغم أن الانفصام الرسمي بين الكنيسة الرومانية والكنيسة الشرقية (الأرثوذكسية) لم يحدث إلا بعد ٢٥٤ عاما أخرى.

وعلى امتداد هذه القرون الطويلة، إذا ما سئل أي غريب تائه عبر الريف أو عبر قرية ما عن تحديد هويته، ذكر في حالات نادرة هوية «قومية»، ولكنه كان يدعي أنه مسيحي (أو يهودي) من هذه الأبرشية أو تلك (أو المدينة). ولكننا نستثني من ذلك فترات الحرب التي كانت تدور رحاها بين الجيوش المسيحية. وسواء كانت هذه الحروب كبيرة أو صغيرة، فهي كثيرة جدا في أجزاء معينة من أوروبا. وتحديد هوية الغرباء ـ التي كانت تقوم أساسا على نوع اللاتينية التي يتحدثون بها (أو عدم معرفة هذه اللغة على الإطلاق) ـ كان مسألة حياة أو موت. وكان أساس الاختلافات في الهوية الذي أتى لاحقا بين الطوائف المسيحية بعد حركة الإصلاح الديني في نهاية القرن الخامس عشر، كان حاضرا في السابق ليبنى عليه حتى في عصر الكنيسة الموحدة وفي عصر اللاتينية التي كانت لاتزال لغة موحدة رسميا (على رغم أن اختلافات إقليمية ومحلية كانت موجودة من قبل إلى حد ما).

وهكذا، فمن قبيل المفارقة أن يؤدي الدين وظيفة القوة الموحدة لغويا، ولكن في الوقت ذاته يصبح قوة مسببة للخلاف. فقد ربط الدين أوروبا المسيحية باللاتينية، والعالم الإسلامي بالعربية، واليهود بالعبرية. ومع ذلك، فإنه لما قامت المسيحية وبلات الانفصام الغربيالشرقي، أصبح استعمال اللاتينية مقابل الإغريقية رمزها القوي جدا. وقد فرضت الجزر التابعة للمسيحيين داخل الأراضي الأسيوية الغربية، التي كانت تخضع للحكم الإسلامي، هوياتها باللغة السريانية واللغة الكلدية ولغات أخرى. وقد ساعدت الكلمات العبرية الدخيلة على رسم أشكال اللغتين الألمانية والإسبانية التي يستعملها اليهود من المتكلمين الألمان والإسبان الآخرين. أما الانقسامات الطائفية التي عرفها الإسلام، فكانت مرتبطة بالفوارق في اللهجات العربية، كما هي الحال بالنسبة إلى المسيحية. فمن غير المحتمل تماما أن تكون هذه الاصطفافات في الاعتقاد واللغة شيئا عرضيا. وكان مطلوبا من أعضاء الطوائف المختلفة أن تكون لهم القدرة على التعرف بعضهم على بعض وعلى تحديد هوية الطوائف الأخرى. وقد تبنوا طرقا مختلفة للقيام بذلك انطلاقا من الختان، إلى حلي وملابس مميزة، وشعائر من قبيل رمز الصليب أو التوجه في صلواتهم نحو الشرق. فضمن هذا السياق المشحون سيميائيا، يندر جدا أن يُغيب جزء من دور اللغة فيه.

وسيركز الفصل الثامن على اللغة والهوية الدينية في لبنان، حيث تلعب ثنائية اللغة دورا ذا مغزى مهم. ومع ذلك، فإنه في بعض الحالات، تبنى الفوارق الدينية في واقع الأمر داخل نحو اللغة وصرفها، وتبدو الضمائر الشخصية في اللغة موضعا مفضلا لهذا الفرق. والمثال المشهور على ذلك يتجلى في احتفاظ الطوائف المعارضة مثل الكويكرز، (أي أعضاء طائفة الأصدقاء البروتستانتية) بالضمير الشخصي الثاني المألوف thou والأشكال المتصلة به (thee، thy، وغيرها) بعد فترة طويلة من اختفائها من الإنجليزية المنطوقة بصفة عامة. وفي عدد من اللغات الأوروبية، وعلى خلاف إنجليزية من لا ينتمون إلى أعضاء طائفة الأصدقاء البروتستانتية، التي احتفظت بالفرق بين الضمير الرسمي والضمير غير الرسمي، تختلف الطوائف الكاثوليكية الرومانية والبروتستانتية في نوع الضمير الذي يجب استعماله للإشارة إلى الله، وهذا اختيار يرى أنه يملك مضامين لاهوتية عميقة جدا حول علاقة بني البشر بالألوهية.

لكن تأثيره المباشر أكثر يشير إلى هويات الطوائف المختلفة التي تستعمل الأشكال المختلفة وتشير إلى هوية فرد ما بوصفه ينتمي إلى هذه الطائفة أو تلك. وهي في هذا المجال الأخير، تقوم بوظيفة ثنائية: فهي تخبر المجموعة الخارجة بعضوية المرء في الطائفة، وهي تسمح، في ثقافات عديدة، لأعضاء المجموعة الداخلة بتقييم وضعية المرء داخل النسق الديني. ويمكن لهذه العضوية أن تأخذ شكل «عضوية كاملة»، كحال اليهودي الشاب عندما يثبت وضعيته كبالغ mitzvah، انطلاقا من معرفته باليهودية، أو المسلم الشاب من معرفته بعربية القرآن، أوقد تكون مسألة تتعلق بتقوى دينية عميقة، كما جرى قياس ذلك من خلال تكرار الأدعية والابتهالات الخاصة التي يذكر فيها اسم الله (وتجنب الأدعية والابتهالات التي لا تحتوي على الاسم الإلهي)، أو من خلال الصفائية (*) اللغوية العامة، التي تدعو إلى استعمال أي لغة لها ارتباط بالهوية الدينية في شكلها «الأكثر ملاءمة». وهذا مساو دينيا لسلوك الطبقات الدنيا والمتوسطة في القرن التاسع عشر، كما وصف ذلك هوبسبوم وقد ذكر هذا

(*) تستعمل كلمة صفائية للإشارة إلى التطرُّف بصفاء الكلمات واللغة. وتتحدث عن صفائية فنية للإشارة إلى مذهب منبثق من التكعيبية يدعو إلى بساطة في الأشكال الهندسية [المترجم].

سابقا (الفصل الخامس، ص: ١٢١)، حيث كانوا يشيرون إلى هويتهم بوصفها تمثل الأعضاء «الملائمين جداء للأمة عبر الاستعمال المناسب للغة. وستجري مناقشة مثال متطرف عن الصفائية اللغوية المرتبطة بالهوية الدينية في الفصل التالي (٢٠٠-٣)، الذي سيفصل في كيفية بحث علماء الإسلام الأوائل في البرهنة على أن أي كلمة في القرآن تعد «عربية خالصة». وفي اتجاه مشابه، تحاول الطوائف المسيحية البروتستانتية المحافظة جدا، مثل طائفة الأمش Amish وأعضاء الكنيسة المعارضين للعنف Mennonites العيش وفق تعاليم الإنجيل لدرجة تجنب الابتكارات الحديثة، واستعمال، بقدر الإمكان، شكل من أشكال الإنجليزية التي لا تخرج عما هو مستعمل في إنجيل الملك جيمس James. وبين المُعَمِّدين الجنوبيين أيضا، «تتجزء التقوى الاستثنائية من قبل المبشرين خاصة عبر استعمال صيغ إنجيلية قديمة واستشهادات مألوفة مأخوذة من الكتاب المقدس ولو في سياقات علمانية».

ويوجد في مالايالم Malayalam نسق أكثر شمولية يدل على الانتماء الديني، إذ ينطق به جماعات المسيحيين، والهندوس، والمسلمين الذين يعيشون جنبا إلى جنب في الهند الجنوبية. ويلاحظ آشر Asher وكوماري Kumari (١٩٩٧، ص:٤٥١) أن:

> «مصطلحات القرابة الدرافيدية Dravidian معقدة، وربما كانت أعقد في كرالا Kerala من أي مكان آخر، إذ بقطع النظر عن تغيرات اللهجة، توجد مصطلحات تقتصر على إحدى هذه الجماعات الدينية الرئيسة ـ الهندوس، والمسيحيين، والمسلمين ـ أو جماعات أخرى».

والأمثلة التي توردها هذه المصطلحات تضم تلك المبينة في (الجدول ٧-١) (ولكن لا تقتصر عليها).

وبما أن مصطلحات القرابة تستعمل بشكل منتظم مثل مصطلحات الخطاب في اللغة، فهناك ارتباط في هذا الصدد بظواهر الضمير الشخصي التي تم التطرق إليها سلفا. وبما أنه يستحيل التحدث إلى شخص كبير ينتمي إلى عائلة شخص ما من دون استعمال ثابت لمصطلحات الخطاب هذه، فكل محادثة هي مظهر شعبي أو أداء للهوية الدينية بالنسبة إلى متكلم مسلم من مالايالم.

الجدول (١.٧): توزيع مصطلحات القرابة حسب الديانة في مالايالم

	هندوسي	مسيحي	مسلم
الأخ الأكبر	jyeestatti/ceettan	ceettan/muutta aannala	ikka
الأخت الكبرى	jyeestatti/ceeci	ceecci	itta/taatta
الأب	pitaavə/amma	appan	uppa/baappa
الأم	maataavə/amma	ammacci	amma
أخ الأب الأكبر	val(i)yacchan	valyappan/peerappan	muuttaappa
والد الأب	acchaccha	appaappan/valyappan	valyuppa/uppuuppa
والدة الأب	acchamma	ammaamma/valyamma	valyumma
والد الأم	muttacchan/mutta??an	appaappan/valyappan	valyuppa
والدة الأم	ammamma/mutta??i	Ammaamma/valyammacci	ummuumma/valyumma
حفيد	pautran/peeramakan	Koccu moon	moon
حفيدة	pautri/peeramakat	Koccu mooP	mooP

هذه البيانات مأخوذة، بتصرف، عن أشر Asher وكوماري Kumari (١٩٩٧، ص: ٤.٤٥٢)

ومن بين الظواهر الاجتماعية الأكثر تأثيرا في غرب أوروبا، خلال الأربعين سنة الماضية كان سقوط الهويات المسيحية، في مقابل تنام كبير للهويات الدينية في باقي ربوع العالم. ومن بين هذه الهويات الأكثر تأثيرا نهوض «الإسلام السياسي» وانبعاث العبادة المسيحية وكذا هويات في أوروبا الشرقية ودول آسيوية حيث قمعوا ومنعوا منعا تاما حتى سقوط الشيوعية [٣]. وقد حصلت المسيحية أيضا على مكاسب بشكل مطرد في أجزاء من أفريقيا وجنوب شرق آسيا حيث كان الإسلام أو أشكال من البوذية الديانات المهيمنة في السابق، وإن حضورها في حياة الثقافة الأمريكية تنامى ولم يتراجع. ومع

ذلك، فإن المجتمعات الأوروبية الغربية شهدت علمنة كبيرة في غضون الثلث الأخير من القرن العشرين. وفي المملكة المتحدة، حيث إعانات الدولة المالية للكنائس محدود، هجرت أعداد كبيرة من الكنائس المدنية أو اهملت لتستعمل في أغراض أخرى. وأصبح السواد الأعظم من الناس تحت سن الستين متحفظا جدا بشأن إعلانه عن هويته المسيحية، لأنهم يربطون الدين بالصراع، والنزاع، والحرب. وقد ساهمت «الاضطرابات» التي دامت ٣٠ عاما في إيرلندا الشمالية بقسم كبير في هذا الربط. ولكن الشباب عبر أوروبا يظهرون كراهية مماثلة للهويات الدينية التقليدية، مفضلين، بدلا من ذلك، تحديد انتمائهم، وقيمهم الروحية في مكان آخر، في الممارسات الروحية «للعصر الجديد» New Age، أو الموسيقى الشعبية، أو مساع علمانية أخرى، أو ليس في أي مكان بالمرة.

أسماء شخصية باعتبارها نصوصا لهوية إثنية ودينية

لقد أصبح من الواضح مع هويات قومية، وقومية فرعية، وإثنية، وإقليمية أن الاختلاف والمواجهة يقومان بوظيفة مركزية في التذكير بهذه الهويات وتقديم الدعم لها. فالهويات الفردية مختلفة نوعا ما. فهي تبدأ باسم شخصي وبالرغبة في إعطاء معنى لهذا الاسم. وفي الحالة التي تتعلق باسم المرء الخاص، يتألف معناه، من جهة، من وظيفة الإشارة deictic function التي تسخر «للتعريف» بالفرد. ولكن عندما يسأل معظم الناس عن معنى أسمائهم، تراهم قادرين على حل قصص طويلة معقدة يحسون بها بعمق، تهم تاريخهم الشخصي، والناس الذين هم جزء منهم، ومطامح آبائهم، ومطامحهم، (انظر مثالا على ذلك في عمل نكوتو سيماندز Nkweto Simmonds، ١٩٩٦). وعلى هذا المستوى، الذي يعتبر مهما بشكل خاص في ثقافات معينة (وإن كان غير غالب في غيرها من الثقافات)، يصبح معنى اسم المرء مساويا لمعنى حياته.

ولم تستأثر الأسماء بوصفها حاملة للهوية باهتمام اللغويين إلا حديثا، إذ وضعوها منذ زمن طويل في منزلة مهمشة من «مبحث أسماء الأعلام» onomastics ويرجع السبب في ذلك إلى تصور اللغة الذي هيمن على علم اللغة منذ فترة طويلة، والذي يعتبر أي مظهر من اختيار مقصود للفرد جزءا

من اللغة، وليس الكلام. وإن الأسماء تختار من قبل الأفراد ـ الأبوين. ولو أن الناس أصبحوا يختارون أسماء جديدة لأنفسهم بشكل متزايد ليستعملوها في غرف الإنترنت المخصصة للتحادث ككلمات إنترنت مشفرة وما شابه ذلك.

وفي صيف ٢٠٠٠، شرع في بعض الأبحاث طلبة ينتمون إلى مجموعة من دول شرق جنوب آسيا، حيث يتابعون دراستهم لنيل شهادة الدبلوما أو الماجستير بسنغافورا. وقد طلبت منهم أن يتحدثوا عن أسمائهم، بما في ذلك اي مغزى أو قصص يربطونها بها. فلم تكن النتائج مفاجئة فقط من حيث الوفرة، وإنما اظهرت، وبقدر كبير، كيف ان أسماءهم هي بمنزلة نصوص إثنية، ودينية، أو تاريخ عائلي، وهوية شخصية [٤].

فهذه بك سيم Peck Sim، واحدة فقط من أصل اثنين من الصينيين السنغافوريين في الفصل الدراسي ممن لم يتبنوا اسما غربيا (فإعادة تسمية الطلبة هي ممارسة بكل أبعاد هويتها اللغوية المهمة جدا). والواقع أن «بك سيم» هو اسمها المسيحي. وقد ربطت ذلك بقولها:

> «إن بك تعني «خالص»، في حين سيم تعني «القلب». ولم يكن أبي ليشرح لي ابدا لماذا منحني هذا الاسم، باستثناء قوله إنه يريد أن تمنع ابنته أسماء محتشمة. [...] فأي صيني ذي معرفة باللهجات سيملك القدرة على أن يعلن أنني هوكينية Hokkein وانثى. [...]
>
> وعلى الرغم من نيات أبي الحسنة، فقد أثبت اسمي انه مصدر حرج لي. وعلى سبيل المزاح، حرف بعض من أصدقائي واقربائي الحميمين اسمي «بك سيم»، لينطقوه «كك سيم»، وهي كلمة هوكينية تعني «قلِق». وقد أزعجني هذا، لأنه بدا انه تلميح لخوفي الشديد، وكنت بالفعل شخصا قلقا. كنت أقلق كثيرا (ومازلت). كنت أقلق من المشاكل الحقيقية أو المتخيلة التي تهم عملي، وذاتي، وعائلتي. [...].
>
> وعندما انظر إلى الوراء، أدرك أنني لم أحب اسمي يوما على الإطلاق، ففي المدرسة، كنت أتمنى لو أن ابي منحني اسما ذا صوت أجمل مثل مي لينغ Mei Ling و سيو ين Siew Yen [...] لقد كان وراء قراري أن يكون لي اسم غربي أسباب عديدة. وكنت أيضا أجاري أصحاب الموضة من المراهقين والبالغين الذين كانوا

يتبنون أسماء غربية من أجل السعي وراء أسباب الراحة. وعلاوة على ذلك، كنت دائما ميالة إلى المسيحية (آمنت بالله منذ التعليم الابتدائي الثاني)، ومن ثم فإن اسما غربيا سيعرفني لا محالة على أني «مسيحية». وبما أنني أردت أن أكون مختلفة، بحثت عن مساعدة من ابنة عمي التي أتت باسم «فيونا» Viona وفي البداية ابتهجت لهذا الاسم لأنه غير مألوف.

وأصبح «فيونا» هو اسمي المختار حالما تخلصت من مراهقتي المضطربة وانتقلت إلى سن البلوغ. وتورطت في تربية مليئة بالشهوات التي تذهب العقل - كنت مواعدة، وأحضر الحفلات، وأذهب إلى حانات الديسكو وإلى المطاعم لتناول العشاء. لقد أصبح «فيولا» اسما مرادفا لذلك المخلوق المشترك في مكتوني.

وانتهت أزمة هويتي عندما أخذ مسلك حياتي منحى آخر. وسجلت في الجامعة لنيل الدرجة العلمية الجامعية الأولى، وبعد ذلك اعتنقت المسيحية. وخلال التعميد، ولأسباب لا تخضع للتفسير، كنت مترددة في ان أُعَمَّد باسمي الغربي. فلربما أدركت أنه ليس اسما كتابيا (مقدسا)، ومن حيث لا أشعر، ذكرني ذلك الاسم بأيام الطيش والترف. [...] لقد كنت تواقة لأن اغلق هذا الفصل من حياتي إلى الأبد. ولما كنت غير قادرة على أن أفكر في اي اسم انجيلي مناسب، اخترت في النهاية أن أعمد باسمي الصيني. وهكذا اكتملت الدائرة.

أنا الآن فخورة باسمي الصيني واحبه كثيرا، لأني أصبحت بشكل متزايد مهتمة بتأكيد «صينيتي» وأنا فخورة بجذوري الصينية (ولكن لا يشمل هذا كل تقاليدها المتعلقة بعبادة الأوثان، وغيرها) [...]

وأخيرا، أضاف اسمي الصيني لهويتي بعدا جديدا ومهما. وإذا كان اسمي البنيني Pinyin «بي سينغ» Pi Sing، اي «القلب الخالص»، فإنه يفترض علاقة لغوية ودلالة كتابية في سياق «الموعظة على الجبل» Beatitudes (ماتيو ٥:٨) «هنيئا لأنقياء القلوب، لأنهم يشاهدون الله».

وحكى أحد المفحوصين الآخرين قصة، كثيرا ما ستتكرر، عن انفجار شجار حول تسمية طفلة ما بين أجيال إحدى العائلات وتمركز الشجار في هذه الحالة حول الدين والإثنية، حيث عارض الجد الصيني التقليدي أن يمنح الأبوان اسما مسيحيا لهذه الطفلة، فانتهى الأمر إلى أن سميت الطفلة باسمين، أحدهما صيني والآخر مسيحي. ولكن من المفارقة اليوم أن تحدد هويتها الصينية من خلال اسمها الإنجليزي (أو من خلال بتر أشكال منه).

«[..] إن عائلتي تناديني «ني» Nie التي هي المقطع اللفظي الثاني. ويبدو أن هذا الاسم صيني إلى حد ما، في حين يناديني أصدقائي «ون» أو «وني». الاسم الانجليزي، «وني»، اختاره والداي اللذان سمياني في حضرة مدرس في مدرسة الأحد في إحدى الكنائس الميثودية Methodist (*) هنا بسنغافورة. [...]. ولكن جدي والد أبي [...] عارض اسمي الإنجليزي. لقد حل بالصين في الثلاثينيات وكان ممتزا بإرثه. وبسبب اعتراضاته القوية، فإن لي اليوم اسما صينيا، «سيو تشو» Siew Choo وكان كونغ Kung عنيدا ليسمي كل حفيدات عائلته الكبيرات باسم له «جذر» واحد، «تشو»، الذي يعني اللؤلؤ في اللغة الصينية. ومن ثم، فإن قريباتي يدعون «سي تشو» See Choo، «منغ تشو» Ming Choo، و«سوي تشو» Swee Choo ومع ذلك، من الغريب أن يناديني في النهاية باسم «ني» كأي فرد من أفراد العائلة. غير أنه يضيف «آه» Ah قبل الاسم أي «آه ني». [...] أما حاليا، فأنا أدعى أكثر باسمي الإنجليزي، «وين» Win ولكن على مستوى الكتابة، فإن الاسم الذي أستعمله عند التوقيع هو «وني» Wne، فأحافظ بذلك على التوازن بين «ون» و«ني».

[...] وثمة حادثة وقعت في كندا حين كنت أدرس هناك. ففي أثناء يوم التسجيل، ارتبكت لأن المسجل وضع اسمي الأخير في نهاية كل أسمائي. فأدركت أن كل الأسماء الغربية عادة ما تكتب بهذه الطريقة. وعلى كل حال، لقد تعودت على ذلك سريعا. [...]

وهكذا، تتجسد هويتي الحالية في «وني»، ولكن تُنطق «وين». وفي ذلك الاسم المؤلف من ثلاثة حروف توجد الفئتان الرئيستان اللتان تمثلانني. وعلى الرغم من أنها تبدو إنجليزية،

(*) إن كلمة ميثودية Methodism تشير إلى طائفة منشقة من الكنيسة الأنغليكانية [المترجم].

فإن حرف e جزء من صينيتي، ويعتبر اختصارا لـ «ني». ومن ثم، على الرغم من أنني إنجليزية متعلمة جدا (حائزة شهادة في الأدب الإنجليزي)، فأنا صينية أيضا.

وهناك كذلك «تداخل» مشابه في الهوية نقلته امرأة صينية سنغافورية أخرى. ومرة أخرى، وكما في مناقشات سابقة بشأن أسماء القرابة عند مالايالم (ص: ٢٢٧)، فإن عنصرا ثقافيا حاسما يتمثل في تحريم استخدام الاسم الحقيقي لقريب متقدم في السن لدى مخاطبته، وذلك مراعاة للاحترام.

«[...] تناديني ابنة أخي الآن «بيغي» Biggy لتعبر بذلك عن «العمة الكبيرة». [...] ومن ثم، على الرغم من أن كلمة «بيغي» إنجليزية، فهي تذكرني بثقافتي ـ أي العادة التي تقضي بعدم مناداة من يكبرنا سنا باسمه/اسمها. وبالتالي، يعد «بيغي» اسما «صينيا» جدا بالنسبة لي. [...]».

وليست الهويتان المسيحية والصينية وحدهما اللتان تعانيان مثل هذه الصراعات. فهذا أوكتافيانوس من إندونيسيا ينقل لنا أن اسمه غير الطبيعي يمثل إشكالية بالنسبة إليه، لأنه لا يشير إلى هويته المسلمة. بل أبعد من ذلك، فقد أصبح اسما غريبا لاحتوائه على صوت دخيل على لهجة أوكتافيانوس، كما أنه يصطدم بشكل منتظم بالتباين الديني الواضح، وينتابه قلق بشكل جلي بشأن الغموض الذي يلف مسألة الاسم الذي منح له. ويبدو وكأن قصة مقنعة حول السبب الذي أدى إلى اختيار الاسم قد يحل على الأقل بعضا من صراعات الهوية التي يثيرها هذا الاسم.

«[...] لقد بدأت في مساءلة اسمي عندما سألني الأستاذ بالمدرسة الثانوية القديمة التي كنت أدرس بها عن سبب تسميتي أوكتافيانوس Oktavianos. لقد أخبرتني أمي بأنه عندما ولدت، سمتني عمتي بهذا الاسم، وهي الأستاذة بالمدرسة الثانوية الحديثة العهد. وأحيانا، في أغسطس ١٩٩٠، حاولت أن أسألها عن معنى اسمي، فكان الجواب الوحيد الذي حصلت عليه من عمتي، في ذلك الحين، هو أنني ولدت في شهر أكتوبر (تشرين الأول)، لهذا منحت الاسم الذي أحمله. [...]. ومع ذلك، يبدو لي أن السبب كان واهيا لأن أوكْتَ «أوكتاف» يمكن أن تعني ثمانية،

ولهذا يمكن للناس أن تؤول ذلك بأني الطفل الثامن في عائلتي. ولكن في الواقع، أنا لست الطفل الثامن، ولكن الطفل الأكبر [أي الكبير في العائلة برمتها]. وبعد ذلك، سألتها عما إذا كانت تجربتها كأستاذة هي التي ألهمتها أن تسميني على هذا النحو، فابتسمت فقط. ومع ذلك، فإنني آمنت بأن خلفيتها كأستاذة أثرت في اختيارها لاسمي.

وفي بلدتي، كان من ينتمون إلى جيلي يتسمون بأسماء مستمدة من العربية. وسبب هذا هو أن ١٠٠ في المائة منهم كانوا مسلمين. ومن ثم، كان غريبا إلى حد ما لدى الناس أن يتعرفوا عليّ من خلال اسم أوكتافيانوس. وهكذا، لما كان اسمي يضم الصوت v، كان يتعسر على الناس نطقه، فيما يبدو. فكانوا يستبدلون الصوت v بالصوت f، لأن الصوت v غير مألوف في مينانغ وفي اللغة الإندونيسية على السواء.

[...] وعلاوة على ذلك، كنت عادة عندما أقدم نفسي إلى أجانب، وهم يعلمون أن اسمي أوكتافيانوس، لاحظ، وللوهلة الأولى، سوء تأويل بشأني. حيث كانوا يظنون أنني مسيحي، ولست رجلا من مينانغ. فسألوني عن سبب تسميتي بهذا الاسم. فأجبتهم أن هويتي الحقيقية إسلامية - إنني مسلم من بادانغ، وأنني أتكلم لغة منانغكابو. ففوجئوا. [...]».

وأخيرا، هناك مفحوص من كمبوديا يروي قصة مزعجة جدا، إذ تشتبك فيها الإثنية مع اختلاف الطبقة الاجتماعية التي تحوّل إلى رموز تدل على اسمه، فيصبح مصير هذه الإثنية عقوبة الموت خلال فترة الإبادة. كانت عائلة أبيه صينية من حيث الإثنية، وبانتمائه إلى ما كان يرى أنها جماعة تحظى بامتياز اجتماعي في كمبوديا جرى تمييزه من خلال اسمه، الذي لم يكن صينيا صرفا وحسب، ولكنه ضم كلمة كيم Kim «الذهب»، بكل ما يحمل هذا المعدن من دلالات أرستقراطية ورأسمالية. وقصته لم تكن لتحتوي على أقل من ثلاثة تغييرات في الاسم.

«[...] منذ ولادتي، منحني أبي اسما خاصا جدا، «كيم لينغ» KIM LENG. يبدو أن هذا الاسم صيني. وكان جدي من جهة والدي من الصين وجدي من جهة والدتي كمبوديا. لقد سموني

بهـذا الاسم لأن كـيم لينغ يعني التين الذهبي [...]. واسم عائلتي، [...] مشتق من كلمة صينية. ولا أعرف ما تعنيه لأني لم أستطع الاتصال به [أبي]؛ لقد قضى نحبه خلال عصر البول بوت Pol Pot ويرجع سبب تغيير اسم عائلتي إلى أنه عندما دخلت أختي الكبيرة المدرسة، سجل أمين السجل الاسم خطأ. فرافقنا هذا الاسم على هذا النحو إلى يومنا هذا.

وفي العام ١٩٧٥، وقع حادث تراجيدي بمعنى الكلمة حيث حلت الحكومة الجديدة، وأصبحت كمبوديا Kampuchea، التي عرفت على أنها «ديموقراطية» تحت زعامة البول بوت. كان على كل الناس وعلى اختلاف مشاربهم، العمل كعمال، وفلاحين، وعبيد. وقد أثر هذا في اسمي، ذلك أن «كيم لينغ» يوحي للمرء بأنني أنتمي إلى عائلة من طبقة عليا، وكان من المرجح أن تقتل الحكومة كل شخص يثبت انتماؤه للطبقة العليا. وبهذا تغير اسمي ليصبح اا لينغ aa Leng ولم يعد اسمي ينطق بطريقة رقيقة ومحبوبة كما كانت في الماضي.

ومرة أخرى، بعدما تحرر وطننا من نظام البول بوت، عدنا إلى المدينة، فكانت تلك هي الفترة التي بدأت فيها دراستي. وما زالت الحكومة الجديدة صارمة بشأن الأسماء التي تشبه الأسماء الصينية. فلو لم أغير اسمي، لما كان في مقدوري الدخول إلى المدرسة. وبعدها، تغير اسمي بالكامل إلى «تشان ناريث» CHAN NARITH، الاسم الرسمي الذي استعمله إلى يومنا هذا بشكل رسمي. وكان يخيل للمرء أن الجزء الثاني من اسمي الرسمي كمبوديا تماما عند لفظه. [...]».

وبالنظر إلى هذه البراهين، سيكون من الصعب على أي لغوي ذي ميول اجتماعية عدم أخذ الهوية الإثنية/ الدينية بجدية بوصفها موضوعا، أو رفضه القيام بخطوة بعيدا عن الاقصاء التقليدي للأسماء من السؤال اللغوي على أساس أنها تمثل افعالا للإرادة الفردية. فهي على الأقل تمثل نصوصا بالنسبة للتحليل النصي المشكّل لغويا، نصوصا ذات قوة خارقة للعادة بالنسبة إلى الناس الذين يملكونها.

انتشار اللغة وتسوية الهوية

نادرا ما تكون للتقارير الصحافية حول الشؤون اللغوية جوانب مشتركة كبيرة مع الخطابات الأكاديمية التي تعنى باللغة. ولكن في العقد الأخير، اتحد كلاهما لتشكيل توافق حول الانتشار العالمي للغة الإنجليزية، وفقدان التنوع الذي يعتقد أنها تحدثه على صعيدي الهوية اللغوية والثقافية. إن الموضوع هنا يستحق المناقشة، لأن اللغات والهويات التي يعتقد أنها في خطر ليست قومية في معظمها، وإنما هويات توصف بأنها «إثنية» انطلاقا من المعايير التي حُددت في مستهل أحد أقسام هذا الفصل، وهي «دينية» أيضا، لأن انتشار الإنجليزية يرتبط ارتباطا وثيقا «بمدنية» تُرى بشكل واسع أنها تتحاشى المعتقدات التقليدية مفضلة الإيمان بالتكنولوجيا.

ويرتبط انتشار الإنجليزية «بالعولمة»، التي هي نوع من الإمبريالية الاقتصادية التي لا تستلزم التجانس اللغوي فحسب، بل التسوية الثقافية أيضا. وعندما يقول الاقتصادي، ريتشارد ج. هاريس (١٩٩٨) إن «الافتراض العام الذي صدر عن العديد من المراقبين حول الاستعمال العالمي للغة يرى أن الإنجليزية هي في الواقع اللغة المشتركة للاقتصاد العالمي». فهو يشير إلى مراقبين لغويين، وعلماء الإنسانيات، وعلماء الاجتماع، الذين يحتوي عملهم على الملاحظة المباشرة لاستعمال اللغة، إضافة إلى النقاد، والمراسلين الصحافيين، ورجال الأعمال، الذين يستخلصون استنتاجاتهم من التجربة الشخصية، وهي تسجل بشكل أقل انتظاما، وإن لم تكن بالضرورة أقل واقعية.

وتتباين ردة فعل المجموعات المختلفة حيال هذه التطورات. فمن المرجح جدا أن يكون رجال الأعمال ممن يرونها بمنزلة وقائع حياة يحتم على الأنساق التربوية أن تتكيف معها إذا ما أريد لمصالح الطلبة والجماعات العريضة أن تقضى. بينما قد يتمنى علماء الإنسانيات أن يكون فقدان التنوع الثقافي بطيئا، فهم معتادون، مع ذلك، على مفهوم أن الثقافات لم تكن قط ثابتة.

وفي المقابل، ينزع اللغويون أكثر إلى ردود أفعال في غاية السلبية. فكتابات توف شكاتناب ـ كانغاز Tove Skutnabb-Kangas نشرت رسالة مفادها أن «اللغات اليوم قتلت وأن التنوع اللغوي يختفي بشكل أسرع من أي وقت مضى في تاريخ الإنسان» (توف شكاتنابكانغاز، ٢٠٠٠، ص: ix) وقد عرف مرتكب الجريمة

«بالعولمة»، التي سمتها «بالذات القاتلة». وتلقي باللائمة على التعليم أيضا فتقول: «إن المدارس ترتكب كل يوم إبادة لغوية» (المرجع نفسه، ص: x) وإن السياسة التي تحيط بهذه القضية غامضة جدا. فالماركسيون أمثال هولبرو (1999) Holborow يرفضون توف شكاتناب ـ كانغاز وفيليبسون Phillipson باعتبارهما رجعيين في محاولتهما تأييد القوميات اللغوية التي تقف في طريق تضامن الطبقة الاجتماعية. أما بالنسبة إلى الليبراليين مثل ديفس (١٩٩٦)، فإن مفاهيمهم المشتقة من «الهيمنة» التي أتى بها غرامتشي، والتي لا يمكن دحضها، تمثل أقصى يسار الدوغمانية (اليقينية) في أسوأ حالاتها. أما في ما يخص بينيكوك (٢٠٠١)، وديفس، و شكاتناب ـ كانغاز، وفيليبسون، فكلهم ينتمون إلى الفئات الرافضة له، باعتبارهم «حداثيين متحررين» أو «متحررين يخشون المواجهة». وعلى كل حال، فإن الأطروحات التي يؤيدها شكاتناب ـ كانغاز وفيليبسون اقتحمت مجال اللسانيات التطبيقية السائدة عبر أعمال مثل تلك التي جمعت في كتاب غرادول Graddol وماينهوف Meinhof (١٩٩٩)، وحتى النقاد الذين ذكروا اكتفوا فقط باقتراح حلول ذات حجج دامغة على ما يبدو، ولم يدرجوا تقارير غير مسبوقة حول التحول اللغوي.

ولكن في مجال مثل هذا، لا ينفصل الدليل بشكل منظم عن التأويل، ومن الأهمية بمكان أن نتفحص بياناتنا ونخضع تأويلاتنا لها لاستجواب صارم، بما في ذلك اعتبار إمكانية تأويلات أخرى. ويمكن القول بثقة معقولة: إن سيطرة الإنجليزية ـ بوصفها اللغة الثانية المفضلة في الدراسة، والتي ترسخ وجودها من قبل في كل أصقاع العالم خلال القرن العشرين ـ تنامت منذ نهاية الحرب الباردة العام ١٩٨٩ـ٩١. وجاء هذا النمو على حساب اللغات الأوروبية «العالمية»، خاصة الفرنسية، والألمانية، والروسية، في مقابل الإسبانية، والبرتغالية، وإلى حد ما الإيطالية، والهولندية التي ظهرت بشكل لافت للنظر في أجزاء معينة من العالم. وفي التسعينيات، استردت الإنجليزية أيضا بعضا من شعبيتها التي تزايدت عند اليابانيين والعرب منذ ظهور اليابان وبعض من دول الشرق الأوسط المنتجة للبترول كقوة اقتصادية رئيسة في السبعينيات، ولو أن موقع العربية باعتبارها لغة الإسلام يعني أن دراستها باعتبارها لغة ثانية ستتنامى دائما مادام عدد سكان المسلمين في نمو وانتشار.

ومع ذلك، فإن هذه التغييرات، التي نملك بعض الإحصاءات المعتمدة عنها (مثلا تلك التي جمعها كريستال Crystal، ١٩٩٧، ص: ٥٥ ـ ٦٦) ليست مصدر قلق. فالانتشار المثير للقلق للإنجليزية، هو ذلك الذي تستبدل فيه، أو على الأقل تزال فيه اللغات الأم، واللغات القومية، واللغات الأولى تدريجيا (سأستعمل هذه المصطلحات بشكل متبادل)، إضافة إلى الهويات الإثنية، والثقافات المرافقة لها التي تشكل جزءا منها. ومن الصعب جدا أن تفسر بدقة المدى الذي يمكن لهذا أن يحدث لعدد من الأسباب:

١ـ ما نعنيه باللغة الأم أمر غامض. إنها عموما تفهم على أنها اللهجة أو اللغة التي شب المرء على التحدث بها في المنزل. ولكن في الخطاب حول انتشار الإنجليزية، غالبا ما تستعمل ليس للإشارة إلى لهجة المنزل، وإنما إلى لغة أخرى إقليمية أو وطنية تكتسب من المدرسة.

٢ـ إن لاستعمال اللغة الأم، عكس اللغة الثانية، مجاله الرئيس الذي هو المنزل وفضاءات خاصة أخرى، وسياقات من الصعب أن تنفذ إليها ملاحظة موضوعية.

٣ـ عندما يتحدث الناس عن تآكل اللغة، أو انحطاطها، أو فقدانها، فإن البيانات التي يقدمونها تميل إلى التحيز والسطحية بشكل كبير، مثلا أمثلة من كلمات إنجليزية أدرجت بطريقة أخرى ضمن منطوقة للغة الأم. فمن المحتمل أن يكون هذا السلوك من تحول كهذا عاما بين الناس الذين يتكلمون لغتين. ولا يعني هذا بالضرورة أنهم يفتقرون إلى الوعي بتحديد كل لغة على حدة، أويسمحون للغة ما أن تفكك الأخرى.

٤ـ إن أولئك الذين يكتبون عن انتشار الإنجليزية وتأثيراتها في الثقافة والتعليم أخفقوا بشكل مفاجئ في أن يأخذوا دور اللغات الأخرى بعين الاعتبار، سواء اللغات الأوروبية أو اللغات الأصلية الإقليمية والوطنية، التي يمكن أن تكون مسؤولة بقدر جزئي أو كامل عن التأثيرات المشار إليها عن شعب معين.

أما بخصوص النقطة الأولى، فهي تعني ضرورة طرح سؤالين متميزين حول اعتداء الإنجليزية: إلى أي حد تؤثر الإنجليزية في استعمال اللغة الأم بالنسبة إلى اللغات واللهجات، وإلى أي مدى تؤثر في استعمال اللغات الإقليمية والقومية

(ليس «اللغة الأم» في معناها الدقيق) في التعليم؟ إن الفرق مهم، لأن الحقائق في شأن اللغة الأم بالنسبة إلى المرء لا تنقل أوتوماتيكيا إلى لغات إقليمية وقومية، ولو أنه يتم التعامل معها على أنها تنقل بالفعل. وإذا استعملت اللغة الإقليمية أو القومية في تعليم الطلبة الذين لم يشبوا على التحدث بها في المنزل، فإن اعتداء الإنجليزية سيزيح ليس فقط اللغة الأم، بل أيضا اللغة ذاتها التي أزاحت اللغة الأم. وإن مفهوم الإنجليزية، في هذه الحالة، الذي يعتبر «قاتلا» للغات والثقافات قد أضعف إلى حد بعيد ـ وتوجد حالات تجعل فيها الإنجليزية من استعمال اللغة الأم أمرا ممكنا في سلسلة كبيرة من المجالات الوظيفية من خلال إزاحة اللغة القومية التي تعد التهديد المباشر للغة الأم. كما هي الحال، على سبيل المثال، في هونغ كونغ حيث حضور الإنجليزية «كلغة دولية» تعيق أي محاولة لفرض اللغة الصينية الماندرينية في مكان الكانتونية القومية في التعليم، وفي الحكومة، وفي مجالات أخرى من الحياة العامة (انظر الفصل السادس).

ويتصل الفرق الرئيس بين اللغة الأم وأي لغة أخرى بما عرف تقليديا في العصور الحديثة بأنه وظيفتان أساسيتان للغة، وهما التواصل والتمثل. فاللغة هي وسيلتنا لفهم العالم وتمثيله في أذهاننا، وللتواصل مع الآخرين. وعلى الرغم من المناقشات المتكررة حول الوظيفة التي تعد أساسية، مثل نقد فيغوتسكي Vygotsky لبياجيه Piaget أو نقد هايمز Hymes لتشومسكي، فإن قلة قليلة منها شككت في أن تكون هاتان الوظيفتان ذات أهمية أساسية. ومع ذلك، فقد يكون هذا صحيحا بالضرورة بالنسبة إلى لغتنا الأم، أو لغاتنا الأم إذا ما كنا فعلا نتكلم لغتين. فعندما لاندعي امتلاكنا الكفاءة competence بخصوص لغة نتواصل مع ذلك من خلالها، فإننا نتحدث عن محدودية هذه اللغة في أداء الوظيفة التمثلية بالنسبة إلينا.

فمن بين مئات الملايين ممن يتكلمون الإنجليزية كلغة ثانية، كم منهم يستعملون الإنجليزية في الوظائف التواصلية فقط، وكم منهم يستعملونها في الوظائف التمثلية أيضا؟ إن هذا تعقيد آخر يضاف إلى الصعوبات التي ذكرت من قبل في تحديد عمق انتشار اللغة الإنجليزية ونفَسها، بما أنها تعني محاولة الحسم موضوعيا في اللغة التي يفكر من خلالها الشخص عندما يتحدث. إن المرء ليستطيع أن يفكر في اختبارات بخصوص هذا الأمر بسهولة أكثر من شخص يستطيع تجميع الثقة فيدعي أن ما تظهره الاختبارات سيكون صحيحا بشكل متسق لدى المتحدث الذي تم اختياره، ناهيك عن المتحدثين الآخرين.

ومما لاريب فيه، أن الحقيقة المهمة الأخرى التي يجب أن نضعها نصب أعيننا بشأن العلاقة بين اللغة الأم والمتكلم هي أن اللغة الأم أساسية في تشكيل الهوية اللغوية، وأن اللغة الأم في حد ذاتها تأكيد للهوية القومية، والإثنية، والدينية (أو أي اتحاد بين هذه الهويات الثلاث) التي قد يقوم بها المتكلمون ويؤولها المستمعون من دون أي شك. ولكن كلنا نملك طبقات عديدة من الهوية اللغوية كما سبق توضيحه من قبل نظرية التواصل في الهوية (انظر الفصل الرابع أعلاه، ص: ١١٨ ـ ٢١)، ويمكن أيضا للغات الثانية أن تلعب دورا مهما في هوية المرء. ومع ذلك يبقى للغة الأم دور خاص جدا مرتبط بالتمثل، أي بالطريقة التي نفكر بها. ولا يعني هذا أننا نؤكد على وجهة نظر وورفية، على الأقل ليس تأكيدا قويا، وإنما أردنا فقط القول إن لنا ارتباطا وولاء للغات التي نفكر من خلالها، ونصنفها، ونتخيل ونحلم بها.

وثمة حقيقة أخرى أشعر، لسوء الحظ، بأني واثق منها على نحو معقول تتجلى في أن لغات ولهجات «صغيرة» عديدة، (أي أن عدد الناس الذين يتكلمونها قليل نسبيا)، لم تستعمل بشكل فعال من قبل أحفاد مَن يمثلون بشكل نموذجي الجيل الأخير ممن يتكلم لغة واحدة في تلك اللهجات. فالأحفاد عادة ما تجد لديهم معرفة غير فعالة باللغة، ويفهمون أجدادهم على الرغم من توقف استعمالهم الفعال للغة فترة قصيرة واختلاطه بلغتهم الأولى. وهذا في الغالب، ولكن ليس كليا، نتيجة التحول العام الذي عرفه السكان من العالم القروي إلى العالم المدني الذي وقعت فصوله باستمرار في ما يسمى بالعالم «المتطور» على مدى ١٥٠ عاما [٤]، وهو الآن يجاري «التطور» في مكان آخر. ولربما كانت «مجاراة» كلمة خاطئة، بما أن إحداث المراكز المدنية هو في حد ذاته جزء مكمل لمركب العمليات التي عرِّفت «بالتطور».

وهذا هو شكل فقدان اللغة، الذي تعنى به المؤسسة من أجل اللغات المعرضة للانقراض Foundation for Endangered Languages. وفي العام ٢٠٠١، أعلن أعضاؤها عن مؤتمر قادم حول «اللغات المعرضة للانقراض ووسائل الإعلام» يهتم «بتقلص لغات الأقلية في العالم». وقد أشارت المؤسسة إلى أن هذا سيكون أول مؤتمر لها «خارج العالم الناطق بالإنجليزية». غير أنها أعلنت أن «التخاطب في المؤتمر سيكون باللغة الإنجليزية». فبعثت رسالة لرئيس المؤسسة، نيكولاس أوستلير Nicholas Ostler، لأسأل عن احتمال أن

يكون هناك تنافر معرفي بين موضوع المؤتمر وسياسة لغته. فأجابني قائلا: هذا هراء. إن الإنجليزية والفرنسية لا تشكلان أي مشكل على الإطلاق. إنهما لغتان تسهلان سبل التواصل مثل الأمازيغية التي تبتلع كل اللهجات الصغرى. إن هذا الموقف يختلف عن موقف فيليبسون، الذي يتطرق كتابه بشكل دقيق إلى الإمبريالية اللغوية الإنجليزية. وقد اتخذ شكاتاب ـ كانغاز (٢٠٠٠، ص: xi) موقفا أكثر غموضا، القوى المجانسة فيه هي «لغات وثقافات مهيمنة، وقد تكون بشكل دقيق الإنجليزية». على أي حال فالنقاش حول اللغة التي تقود هذا التحول يعمل فقط على حجب الانتباه عن الحاجة إلى التمحص بعناية عبر نتائجها.

ويعتبر فقدان اللغات المحلية الصغرى واللغات القبلية أمرا حقيقيا ومحزنا. إنه يمثل إتلافا ثقافيا ليس بالنسبة إلى ناطقي هذه اللغات ممن هم على قيد الحياة وحسب، بل أيضا إلى سلالتهم التي لم تر النور بعد. من أجل هذا، لا بد من تضافر الجهود القوية لمساعدة هؤلاء الناطقين للحفاظ على لغاتهم، وذلك بخلق موارد تساعد أطفالهم على أن يكونوا ثنائيي اللغة يتكلمون بلغتهم التقليدية وكذا بأي لغة ذات حجم أقوى تهدد وجود هذه اللغة التقليدية، بدلا من أن يكونوا أحاديي اللغة، أي يتكلموا لغة واحدة هي اللغة الأقوى. ولكني لا اتفق مع أن يكون حرمانهم من اختيار التعلم بواسطة اللغة الأقوى حلا مشروعا. ويجادل الذين يؤمنون بالإمبريالية اللغوية في أن الهيمنة الاقتصادية التي تقود هذه الاختيارات لا تجعل منها خيارات على الإطلاق. ومرة أخرى أبدي اعتراضي، بناء على تجربتي مع ثقافات عديدة (بما في ذلك ثقافة عائلتي)، حيث يقوم الأفراد باختيارات مختلفة. فمنهم من يسير في اتجاه المد الاقتصادي وجزره، في حين يسبح آخرون ضده مباشرة، بحيث يستطيع هؤلاء أن يفصحوا عن الأسباب التي جعلتهم يتصرفون على هذا النحو بطريقة تكذب أي اقتراح يقول بعدم ممارستهم لإرادتهم بوعي مقصود لبنيات «القوة» في العالم، وأنهم مجرد بيادق في يد هذه الإرادة ـ إنه اقتراح يجرد الإنسان من الإنسانية، هذا إن وجد اقتراح أصلا.

وأما الحقيقة البَديهيّة الأخرى التي أناقشها، فتتمثل في أن التنوع اللغوي الذي نراه الآن هو تنوع غير مسبوق. وإن الحقيقة التي أصبحت مهمشة في خطاب المجانسة اللغوية لا يفكر أي لغوي في نفيها: فاتساع عدد المكان

الذين ينطقون لغة ما عبر امتصاصهم للناطقين بلغات ولهجات أخرى يطرح تنوعا جديدا وضخما في اللغة. وهذه هي الطريقة التي من خلالها جرى تفتيت اللغات الموحدة تاريخيا. على سبيل المثال، كيف فسحت اللغة اللاتينية الطريق أمام آلاف اللهجات الرومانية التي كانت متداولة على الأقل عبر العقود السابقة من هذا القرن، في الوقت الذي رسمت فيه كتب الخرائط اللغوية الكبيرة لفرنسا، وإيطاليا، وإسبانيا لاحقا.

إن ما نشهده من تأثير، في تقديري، يتجلى في ما يلي: يمكن تصور حالات التحول اللغوي التي تنتج تنوعا لهجاتيا أكبر، خلال حدوثها، على أنها تنتج بدلا من ذلك تنوعا أقل، إذا ما كانت تنتج أيضا فهما بينيا intercomprehension وتواصلية communicability متزايدين [٦].

والآن، كيف يمكن لنا أن نقيس تباين اللهجات من حيث هو أكبر أو أصغر؟ هل كانت أوروبا أكثر تباينا لغويا قبل انتشار اللاتينية وتراجع اللغات الماقبل هندو-أوروبية، واللغات الهندو-أوروبية مما كانت عليه بعد تفتت اللاتينية إلى لهجات رومانية، التي تعكس جزئيا بنية تلك اللغات الأساسية القديمة؟ وكرد فعل مرتجل، يميل اللغوي إلى القول إن الحالة السابقة كانت حالة أكثر تنوعا، لأن اللغات المشمولة أظهرت اختلافا رمزيا/تيبولوجيا typological، بعضها عن بعض. إلا أن درجة الاختلاف الرمزي لا تعني في الواقع الكثير بالنسبة إلى المستخدمين العاديين للغة من أمثال فلاحي العصر الوسيط من بولونيا وفلورانس Florence الذين لم يستطع الواحد منها فهم لهجة الآخر، على الرغم من أن أسلافهم الإتروسكانيين كانوا ربما يفهم بعضهم على نحو كامل منذ قرون قليلة خلت.

إن ما يجب أن نضعه في اعتبارنا كلغويين هو أنه على الرغم من أن انقسام اللاتينية إلى مجموعة من اللهجات بما كان أمرا محتوما، فإن ظهور تفريعات منها بوصفها «لغات» جديدة يمكن تفاديه. لقد كانت أوروبا الناطقة بالرومانية تصور على أنها موحدة لغويا منذ قرون بعدما أصبح تشظي اللهجات كاملا. وإن ما أدى إلى الاعتراف بالاختلاف في اللهجة على أنه اختلاف في اللغة هو التحولات السياسية الثقافية لعصر النهضة، وبالخصوص نهضة النموذج القومي. وقد أذكى هذا التحول حاجة السكان الناطقين بالرومانية إلى التعريف بأنفسهم باعتبارهم شعوبا متميزة.

وفي العام ١٩٠٧، وردا على موجة سابقة من القلق بشأن انتشار الإنجليزية وفقدان التنوع (انظر جوزيف في عمل سيصدر قريبا، d)، أوضح و.ج. كلارك، أحد أنصار اللغة الدولية المبتكرة Esperanto الموقف الذي كان يعارضه:

«إن الوطنيين الأقحاح لا يريدون من يجرد أي إنجليزي من وطنيته لأنه طرف في إدخال لغة محايدة. فالإنجليزية موجهة بوضوح لأن تكون لغة العالم. [...] وتعد مصالح الشعوب الناطقة بالإنجليزية كبيرة جدا، أكبر إلى حد بعيد من أولئك الذين ينتمون إلى أي مجموعة من الأمم التي توحدهم رابطة مشتركة من الكلام».

ويشرح كلارك Clark لماذا يظن ان هذا الرأي الذي يصدر أحكاما خاطئة بإصرار يجانب الصواب:

«ولكن من قبيل ضيق الأفق في التفكير أن نرفض على هذا الأساس الاعتراف بحقيقة ان الناطقين بالإنجليزية يشكلون أقلية صغيرة، وأن الأغلبية تشمل شعوبا عديدة ذات روح عالية مشبعة بحس متطور، بشكل قوي، من القومية، وأنها موجهة لأن تلعب دورا مهما في تاريخ العالم، مقارنة بمعظم الشعوب المتحضرة».

وبعبارة أخرى، إن ثمة عائقا «طبيعيا» أمام بلوغ أي لغة درجة الكونية، في حضور ما دعاه كلارك «الحس المتطور، بشكل قوي، من القومية». ويسترسل في القول ليؤكد أن الإنجليزية تملك الحق الأفضل في المطالبة بأن تصير لغة قومية أو لغة دولية. ولكنه يصر على أن «النقاش بشأن هذه المسألة لا يتعدى كونه اهتماما أكاديميا»، لأنه لا يمكن لأي لغة قومية، ولأسباب سياسية ان تدعي لنفسها هذا الدور (المرجع السابق نفسه، ص: ٣٧ ـ ٨). إن اللغة القومية ـ كما ندعوها الآن ـ ستقف حجر عثرة في وجه انتشار الإنجليزية، على الرغم من الحاجة الملحة للغة دولية تسخر غايات تجارية وسياسية دولية، كما ذهب إلى ذلك كلارك. ومما لاريب فيه على الإطلاق حسب كلارك، ان هذه اللغة لاتحل محل أي لغة قومية في أي من وظائفها الداخلية.

إن كلارك في تقديري على حق من حيث المبدأ. وبهذا التفاؤل الحداثي للقرن العشرين الذي يفيد بأن العقل والمنطق سيتجاوزان حتى الوظائف الإنسانية الأكثر أساسية، إذا ما عملنا بجد في هذا الاتجاه، فإن مناصري

وجود لغة دولية، بمن فيهم لغويون بارزون، يقولون بإمكان تقسيم اللغات بشكل نظيف، ومخطط له بشكل رئيس، لأجل الوظائف المختلفة جدا للتواصل والهوية القومية. فالعديد من الناس يظنون أن امتلاكنا لغة ذات «تواصل خالص» قد يجنب إمكانية حدوث حرب. إن هذا شيء مثالي. إلا أن إحدى الحقائق الرئيسة التي أخفق هذا الطرح في أن يأخذها بعين الاعتبار تتجلى في أن اللغة ترتبط ارتباطا شاملا ومعقدا جدا بالهوية الإنسانية، على كل المستويات بدءا مما هو شخصي إلى ما هو قومي وما هو أبعد من ذلك، إلى درجة أنه لا توجد أي امكانية للفصل بينهما خارج سياقات تافهة. كما يشترك هذا الطرح في الاعتقاد السائد خلال الفترة الممتدة ما بين ١٨٧٠ إلى منتصف القرن العشرين، بأن على كل هوية أن تجد لنفسها تعبيرا قوميا. وبالتأكيد، فالأحداث التي وقعت في مطلع التسعينيات، عندما رأت الدول المستحدثة العام ١٩١٩ انهيار هوياتها القومية لصالح مجموعة من الهويات الإثنية ماقبل العصرية، قد جعلت التمسك بهذا الاعتقاد أمرا مستحيلا تقريبا.

وفيما يتعلق بالعولمة، فهي تعني أشياء مختلفة وكثيرة جدا لدى العديد من الناس لدرجة أنها قد لا تعني أي شيء تماما في نهاية المطاف. فبالنسبة إلى الشباب الفوضويين، يبدو أنها تعني الراسمالية المشتركة. وتعني بالنسبة إلى الفرنسيين هبوط التعريفات، وتوافر الجبنة المستوردة في الأسواق المركزية الفرنسية، وهذه علامة واضحة على الاضمحلال الثقافي. وأما بالنسبة إلى البريطانيين، فتعني القدرة على قضاء عطلة في مكان مشمس، ولكن تتصرف كما لو أنك في بيتك. في حين تعني، بالنسبة إلى رجال الأعمال، القدرة على الاستثمار، والإنتاج والبيع في أي مكان من العالم. ومهما كان المعنى الذي تحمله، فهو ليس جديدا.

ففي وثيقة توجيهية للبنك الدولي (٢٠٠٠)، تشير إلى أن العولمة الحالية تمثل ذروة هذا النشاط حتى في الفترات الحديثة.

> «لقد شهدت العولمة عهدا مزهرا في العصر الحديث حوالي نهاية القرن التاسع عشر، وبخاصة بين الدول المتقدمة اليوم أو الغنية. فحسب العديد من هذه الدول، تعتبر التجارة وتدفقات رأسمال السوق المتصل بالمجموع الإجمالي للإنتاج المحلي GDP قريبة من تلك الموجودة في السنين الأخيرة أو أعلى منها نسبة».

وفي الواقع، تمثل العولمة، إلى حد ما، أنشطة مستمرة مادام استمر ترشيد التجارة عبر البحار النائية والمسالك الأرضية، أي إلى ما بعد التاريخ البشري المسجل.

> «لقد تم ادخار قمة العولمة المبكرة في النصف الأول من القرن العشرين، أي خلال فترة الحمائية المتزايدة، في سياق كفاح قوي وقومي مريرين، وحروب عالمية، وثورات، وتصاعد أيديولوجيات فاشيستية، وانعدام استقرار اقتصادي وسياسي».
> (المرجع السابق نفسه)

وقد بدأ الاقتصاديون عموما يتحدثون عن خروج العالم من فترة استثنائية، وعن تأقلمه مع عودة توصف بأنها حالة سوية في المنظور البعيد، إلا أن الخطاب الثقافي الأوسع «للعولمة» يعد خطابا ذا تحول غير مسبوق، تماما مثل ذلك المتعلق بانتشار الإنجليزية وفقدان التنوع اللغوي والثقافي. وبتفهيمنا «لحتمية» الاتجاهات التي استنفدت أغراضها، لابد من أن يضع المرء نصب عينيه أنها تمزج قدرا ضئيلا من الحقيقة بقدر كبير من الوهم المدعوم بالغش، إذ تشبه في ذلك أسلافها التاريخيين. وعلى الرغم من كل هذا، لم يثبت وجود أي دولة كانت فيها الإنجليزية، يوما ما، اللغة المهيمنة، ولم يلحقها اليوم تقهقر كلغة أم، لتتقاسم ذلك الفضاء سواء مع لغات سكان البلاد الأصليين (كما هو الوضع في كندا، ونيوزيلندا، وأستراليا، وجنوب إفريقيا، واسكتلندا، وبلاد الغال، وإيرلندا)، أو مع لغات استعمارية سابقة أخرى (مثل كندا، وجنوب غرب أمريكا، وإفريقيا الجنوبية)، أو لغات لموجات رئيسة من المهجرين الجدد (ويوجد هذا في كل مكان، وخاصة، إنجلترا، والولايات المتحدة، وكندا، وأستراليا، ونيوزيلندا الجديدة).

وبالنظر إلى التطورات التكنولوجية، فقد بدا التقدم في تكنولوجيا الاتصالات، خلال منتصف التسعينيات، كما لو كان يقود من دون شك إلى حالات تفضل انتشار الإنجليزية على حساب الهويات القومية. غير أن التطورات اللاحقة ابطلت هذا بشكل كامل. ومن المألوف آنذاك أن سهولة الاستفادة العالمية من السي إن إن والبي بي سي وورلد دليل على عولمة أخبار التلفزيون باللغة الإنجليزية. ولكن ضاعت اليوم كل تلك القنوات في شرائط الأخبار المتزايدة باستمرار، وفي قنوات إذاعية أخرى تبث باللغات القومية والإقليمية. كما أن

ضرورة كتابة البريد الإلكتروني بالخط الروماني من دون علامات النبر دليل على أن كل شخص كان سيكتب باللغة الإنجليزية عاجلا. ولكن عدد الخطوط scripts وتدوينات الأحرف التي تستعمل الآن في البريد الإلكتروني يقع في ثلاثة أشكال. ويعني الآن وجود الإنترنت في كل مكان مع الهواتف الخلوية والرسائل النصية (عبر المحمول)، أن شخصا ينتمي إلى قرية صغيرة يمكن له أن يغادرها متوجها إلى العاصمة أو إلى قارة أخرى، ومع ذلك لا يثنيه البعد عن مواصلة استعمال لهجة القرية في معظم تواصله (ها) الاجتماعي بتكلفة معقولة. وقد لا يكون ذلك صحيحا من قبل. إن هذه التطورات التكنولوجية الحديثة تشكل عقبة غير مسبوقة في وجه عملية التجانس اللغوي.

وقد عبر ريتشارد هاريس (١٩٩٨) من جديد عن رأي سائد جدا حين كتب أن «العولمة تتطلب، على أحد المستويات، معايرة اقتصادية، وهذا سيزيد من الحاجة الملحة إلى لغة مشتركة، التي من المرجح جدا أن تكون الإنجليزية.» وربما يكون هذا صحيحا، ولكن مرة أخرى، ما ينطبق على لغة مشتركة قد لا يكون له تأثير على اللغات الأم. وهنا من جديد، نجد للتطورات التكنولوجية الحديثة تأثيرا لا يعمل على انتشار الإنجليزية، بما أن برامج الترجمة الآلية، التي كانت منذ سنتين فقط في وضعية بدائية ميئوس منها، عرفت طفرة ملحوظة من حيث التطور [٢].

ومهما كانت مصادرها، فإن الظهور الملحوظ للثقافة مابعد الحداثية العابرة للقومية، وتقوم على التقدم التكنولوجي العالمي، وترتبط بالإنجليزية أولا، وبلغات أخرى عابرة للقومية ثانيا، كان له تأثير مهم على الهوية في العالم بأسره في مطلع القرن العشرين. وأما بالنسبة إلى الشباب خصوصا، فقد جعلت الهويات القومية جزئيا (وجزئيا فقط) غير ذات صلة. فعلى الإنترنت، نادرا ما يكون البلد الذي ينتمي إليه المرء مهما: فمجرد وجود المرء على الإنترنت يشكل رابطا ثقافيا كبيرا. وإن «صفحته الخاصة» تمثل له موطنه الروحي. ومع ذلك، يريد معظم الناس أن يلتقوا، في نهاية المطاف، بشكل مباشر وشخصي. ويظل الاتصال «الحقيقي» والاتصال «العملي» أمرين مميزين. وليس ثمة إشارة تفيد بتوقف الدور المهم للهويات القومية والإثنية. ولم نسمع عن أي حالة بشأن أناس تخلوا عن لغتهم الأم وتشبثوا بالإنجليزية، باستثناء الجيل الثالث ممن هاجروا إلى الدول الناطقة بالإنجليزية. وكان هذا واقع الحال دائما. ويحدث بشكل عكسي أيضا.

ومنذ أن أعلن مالينوفسكي عن مفهومه، المشاركة الوجدانية phatic communion، أخذنا ما يتوافر على «معنى» في المنطوقات اللغوية وتوسيعها لتتجاوز بذلك حدود المحتوى القضوي، وإدراج كل تلك السمات للمنطوقات فوق حدود المعنى القضوي وتعبيره الذي يستعمله المستمعون لتأويل أشياء عن المتكلم عن جذوره الجغرافية والاجتماعية، ومستواه التعليمي، وجنوسته وجنسه، وذكائه، وجدارته بالحب، وجدارته بالثقة، وغير ذلك. وبالفعل، ثبت، بشكل قوي ومستمر، أن تأويل جدارة المتكلم بالثقة من خلال المحتوى اللاقضوي للمنطوقات يتصل اتصالا مباشرا بتقييم المستمع «لقيمة صدق» القضية ذاتها.

ولقد صرنا ماهرين جدا في محاكمة بعضنا البعض بهذه الطريقة حتى إن مقدار التنوع اللغوي المطلوب يمكن أن يكون صغيرا، إذا ما كنا ننتمي إلى الجماعة اللغوية نفسها. وإني أستطيع أن أميز انطلاقا من كلمة ملفوظة أو كلمتين بين ما إذا كان شخص ما من لوكاس كاونتي Lucas County، أو أوهايو Ohio، أو مونرو كاونتي Monroe County، وأي شخص متاخم للآخر، شريطة أن تكون عملية تنشئتي الاجتماعية مبكرة جدا وعميقة في هذا الاختلاف الخاص. وفي الحالة التي لا ينتمي فيها شخصان إلى الجماعة اللغوية نفسها، فإن الأحكام، مع ذلك، تكون قائمة على مستوى عال من الاختلاف، بحيث تشمل ضوابط واسعة من التنوع. وفي نهاية المطاف، سيتم التأكيد على الهويات القومية، والإثنية، والدينية ذاتها عبر التباين اللغوي. وإذا كان التاريخ قد علمنا أشياء معينة، فله الفضل كله في أن بين لنا أفرادا يريدون هذه الهويات، من أجل معرفة ماهيتهم، وأنهم لن يتخلوا عن إبرازها عن طريق التباين اللغوي، مهما كانت الضغوطات الاقتصادية أو أي ضغوطات أخرى قد تفرض على المرء الإحاطة بلغة عالمية من أجل غايات تواصلية. وإن معرفة الشخص بماهيته تنتمي إلى عالم التمثل وليس إلى عالم التواصل.

وإنني لا أقول إن انتشار الإنجليزية أو فقدان اللغات الصغيرة (التي لا تستبدل بالإنجليزية دائما) أمر خادع، بل ما أود التطرق إليه هو أن هناك أثر من الوهم لا نتصوره، إذ يقضي بإدخال التنوع إلى الإنجليزية ولغات عالمية أخرى ولكنه في الوقت ذاته يبتلع السكان الذين كانوا يتحدثون اللغات الصغيرة سابقا (انظر أيضا موفوين Mufwene (٢٠٠١). ولعل الأسباب الكامنة وراء هذا الوهم تتمثل أولا في صعوبة إبقاء اهتمامنا منصبا على التواصل والتمثل في آن واحد.

ويرجع السبب الثاني إلى أننا لم ندرك الحتمية المفروضة على التحول اللغوي من قبل ذلك الشكل الخاص من التمثل للذات والآخر الذي يتشكل بواسطة الهوية اللغوية. ولم تخضع لغة البشر أبدا لعملية المجانسة، لأنها عاجزة عن بلوغ ذلك. وإن الضرورة الوظيفية كبيرة جدا لأن تكون قادرة على صياغة أحكام حول الناس الذين نصادفهم وحول قيمة صدق ما يقولونه، اللذين نقيمهما، على نطاق واسع، بناء على تأويلنا لهويتهما اللغوية.

وخلاصة القول، توجد قوتان تعملان على منع حدوث عملية التجانس اللغوي: فهناك إملاءات الهوية اللغوية لدى الفرد، التي تتطلب تغييرا وتفضل القدرة على الفهم، وإملاءات الهوية اللغوية القومية/الإثنية/الدينية، حيث الحاجة إلى تأسيس «جماعات متخيلة» والحفاظ عليها، وإلى التمثل الذاتي للمجموعة التي تقوم على اختلاف مؤسس في تاريخ حقيقي أومفترض تفرضه الحاجة إلى الأبستاند (أي التباعد اللغوي) (انظر الفصل السادس، ص: ١٤٤)، أي اختلاف بنيوي ذو نظام يعيق فهما بينيا. وإن ما يشير إليه بينيكوك (١٩٩٨، ٢٠٠١) وكانغاراجاه Canagarajah (١٩٩٩) وغيرهما بوصفه «مقاومة» ضد لغة استعمارية لهو دليل على هذه الحاجة الملحة للتنوع اللغوي.

وثمة قوة ثالثة: فتركيزنا على التواصل باعتباره وظيفة للغة يجعل من وجود لغات متعددة، ومن لهجات اللغة الواحدة «عدم الفهم المتبادل» mutually unintelligible، مشكلا في ما يبدو، أي يشكل عقبة أمام التواصل: ولكن لها أيضا وظيفة إنسانية أساسية جدا. فعندما يدير المرء تجارة ما، لا بد له، بطبيعة الحال، من التواصل مع الشريك التجاري، ولكن لا بد له أيضا من التباحث على انفراد مع الأطراف التي تسهر على مشروعه التجاري، وذلك بتبادل معلومات تبقى في طي الكتمان حتى لا تصل إلى من يُجري التفاوض معهم. ولم تكن المجتمعات الإنسانية لتعرف أي تطور أو حياة من دون هذه الأداة الأساسية من عدم الفهم. ومهما كانت الضغوطات الاجتماعية والاقتصادية التي تدفع باتجاه خلق لغة مشتركة عالمية، فستكون عاجزة عن إزالة هذه الحواجز. إن التنوع اللغوي أمر لا يمكن مقاومته بدرجة تفوق عدم السماح بالمساس «بحق من حقوق الإنسان» ـ هذه مسلمة.

ومع ذلك، توجد مفارقة تتصل بعملية التجانس اللغوي. فعلى الرغم من كوني محقا في أن عملية التجانس أمر مستحيل بتعبير مطلق، يبقى مع ذلك أن الإنجليزية الفصحى/النموذجية أكثر اختلافا عن اللهجة الاسكتلندية من

الإنجليزية الاسكتلندية، أو أن الفرنسية أكثر اختلافا عن البرتونية من الفرنسية الإقليمية لبرطاني Brittany وإن قدرة الإنجليزية الاسكتلندية أو الفرنسية البرطانية على أن تبقى متميزة على المدى الطويل يبطل عملية التجانس مطلقا، ويضعف في الوقت ذاته الباعث النفسي للمتكلمين من التشبث بالغيلية أو البرطانية. وكما أشرت آنفا، إن السبب الأساس وراء إضعاف اللغات مثل الغيلية والبرطانية يعود إلى التحول السكاني العام من العالم القروي إلى العالم الحضري على المدى الطويل، إنه تحول قد أخذ مجراه ولكنه ربما أتى متأخرا بالنسبة إلى الغيلية، التي يعتبر معظم ناطقيها الأصليين تقريبا أحاديي اللغة ومتقدمين في العمر.

وإن المحاولات الرامية للحفاظ على الغيلية تستحق الدعم، عبر أي وسيلة لا تحرم الناطقين بالغيلية من حق اختيار التعليم بالإنجليزية لهم ولأبنائهم، وإلا ستجردهم من حريتهم اللغوية. وسواء ثبت إمكان هذا أم لم يثبت، يجب علينا أيضا كلغويين أن ندرك أن تلك الأقليات اللغوية التي اتجهت نحو تنوع لغوي إقليمي واضح للأغلبية اللغوية (لدواع اقتصادية، وليس بسبب إكراه حكومي مباشر) لم تنبذ التنوع اللغوي جملة وتفصيلا، وإن كان قد جرى التفاهم بهذا الخصوص. ولا يتمثل الأمر في أن لغتهم الخاصة تمثل إخفاقا في الاندماج بشكل كامل. فهي تمثل شكلا من أشكال المقاومة اللغوية.

أما الفصل القادم، فسيبحث بعمق في البنائية المتنامية، والتفكيكية deconstruction، والبنائية المتجددة لهويتين إثنيتين ودينيتين متلازمين، إذ عاش «منجزو» هاتين الهويتين جنبا إلى جنب منذ قرون، تارة بسلام، ولو أن مجموعة ما تسيطر على الأخرى، وتارة أخرى في صراع حيث تحاول كل مجموعة النيل من الأخرى فتقتلها. وإن الهويات التي هي قيد البحث لها مظاهر لغوية واستطرادية متعددة. ولعل إحدى هذه المظاهر التي لن تتناول بالنقاش، نذكر الأسماء، وهو موضوع قد تدارسناه في هذا الفصل.



8

دراسة الحالة ٢: هويات المسيحي والمسلم في لبنان

مقدمة

يتناول هذا الفصل دور اللغة في بناء هوية اللبناني المسيحي، في ظل خلفية الهيمنة الإسلامية التي دامت قرونا عديدة في المنطقة، واعتبار أن القرآن هو «المعيار» المطلق للغة العربية. وبادعاء الجماعات اللبنانية المسيحية الانتماء إلى النسب الفينيقي، فإنهم قد شكلوا تاريخا لأنفسهم سيمنحهم «مصداقية» أكبر في المنطقة من أبناء بلدهم من المسلمين، بينما تدلهم في الوقت ذاته على كيفية الوصول إلى أوروبا. وإن تشكيل هوية «سامية شمالية» North Semitic توحد الفينيقية مع الآرامية والسريانية [١]، التي هي لغة المارونيين الطقوسية، يربطها بعربية «السامية الجنوبية»، ويميزها عنها. وفي الآونة الأخيرة، كان هناك عامل لا يقل أهمية، تجسد في دور ثنائية العربية ـ الفرنسية باعتبارها

«لقد نسوا كلهم أشياء كثيرة»
المؤلف

علامة موسومة للهوية بالنسبة إلى المسيحيين. ومع ذلك، فإنه منذ نهاية الحرب الأهلية التي وضعت أوزارها العام ١٩٩٠، ألغى تنفيذ ثلاثية اللغة العربية - الإنجليزية - الفرنسية في المنهج الدراسي القومي لدى جميع اللبنانيين قدرة اللغة الثانية على تعريف الجماعة المسيحية بهذه الطريقة. وقد نقلت نتائج بحث مبتكر بخصوص تأثيرات هذا التغيير على المدركات الحسية للهوية «العربية» و«اللبنانية» في البلاد.

ويمتزج مع هذا التقرير عمل إرنست رينان، المختص الكبير في السامية، واللغوي، والمؤرخ، والفيلسوف الفرنسي خلال منتصف القرن التاسع عشر، والذي كان مسؤولا على نطاق واسع عن صنع آراء الشرق الأوسط الاستشراقية الحديثة والترويج لها، والتي تدخل بشكل مباشر في فترة حاسمة في التاريخ اللبناني. وإن آراء رينان المعروفة جدا حول القومية (انظر أيضا ما ورد سابقا في الفصل الخامس، ص: ١٥٦ - ٩) تتعارض مع تصريحاته بشأن اللغات السامية والهوية القومية، وكذا تصرفاته في لبنان. وثمة فجوة في فكر رينان فيما يتصل «بالتجريد»، الذي يشكل مصطلحا رئيسا في تحليله اللغوي الإثنوغرافي والسياسي على حد سواء. وقد اكتشف رينان الفرق الجوهري بين الشعوب السامية والشعوب الهندو - أوروبية في افتقار اللغات السامية إلى مصطلحات مجردة تؤثر - في تقديره - في طريقة تفكيرهم. وفي الوقت ذاته، يزعم بشكل مثير للاهتمام، أن طريقة تفكيره حول القومية تشكل خطوة نحو الأمام، لأنها تتعدى حدود التجريدات. وسوف نبحث كيف أن هذا التوتر ظهر داخل عمله بطريقة مهمة نوعا ما، نظريا وسياسيا على حد سواء.

أي لغة يجري التخاطب بها في لبنان؟

في ١٤ أغسطس، ٢٠٠٢، سجلت حوارا قصيرا (بالإنجليزية) بين ماليزية - صينية عاشت في اسكتلندا لفترة تزيد على الثلاثين عاما (W1). ولبنانية عمرها أربع وعشرون سنة وهي تقوم بأول مغامرة لها خارج بلدها الأصلي (W2). ومن أجل إذابة الجليد بينهما، بادرت W1 بالسؤال عما اعتبرته سؤالا بديهيا (كما ستخبرني لاحقا).

W1: أي لغة يتم التخاطب بها في لبنان؟

W2: الفرنسية

(وقفة)

W1: أحقا ما تقولين؟ أليست العربية؟

W2: يتحدث المسلمون باللغة العربية طوال الوقت. لا شيء غير العربية.

و أما أبوها - الذي يبلغ من العمر أربعة وخمسين عاما، والذي كان يرافقها في هذه الرحلة (وكان نفسه خارج لبنان منذ مدة قصيرة فقط في مناسبتين سابقتين)، والذي كان أيضا طرفا في هذا الحوار - فقد أومأ برأسه موافقا على ما قالته ابنته من دون أن يضيف أي شيء.

إن ما لم تدركه W1 هو مدى تأويل سؤالها الحميد والواضح ظاهريا، على أنه تحد بشأن مسألة حساسة جدا تهم الهوية اللغوية والدينية - الإثنية. وأنا واثق من أن W2 لم تسئ فهم السؤال بما أن ردها كان يتماشى مع أفكار عديدة صرحت بها إلي. على الرغم من أنها مفاجئة. إنها بالخصوص مفاجئة، لأنه عندما زرت W2 وعائلتها في منزلهم بلبنان في شهري فبراير ومارس من العام ١٩٩٨، كان موقفهم تجاه العربية والفرنسية مختلفا بشكل واضح.

وبعدئذ، صار أكثر حديثنا بالفرنسية لسبب بسيط، هو أن هذه اللغة تشكل اللغة المشتركة بالنسبة إلينا، والتي تمكننا من التواصل بنجاح. وقد تعرضت إلى انتقاد كبير من قبلهم لأني لا أجيد الحديث بالعربية، بما أن لي، حسب رأيهم، وراي سليل لجدين لبنانيين (أحدهما عم أب W2)، واجب بنوة وثقافة لمعرفة ما وصفوه مرارا وتكرارا بـ «اللغة اللبنانية». وخلال أربع سنوات قضيتها في العمل على تحسين عربيتي، وهي اللغة التي ترعرعت معها، تمكنت من أن أبلغ مستوى معقولا لأتحاور بها، اكتشفت الآن فقط، في ظل جو ديني - سياسي متغير، أنهم يفضلون التحدث بالفرنسية.

خلفية تاريخية

سأحاول أن أفسر التحول في نهاية هذا القسم. ولكن، لابد في البداية من خلفية تاريخية. فالأرض التي شكلت الدولة اللبنانية الحديثة كانت جزءا من الإمبراطوريات الإسكندرية، والرومانية، والبيزنطية. وأصبحت تحت

الحكم العربي في القرن السابع بعد الميلاد، وظلت خاضعة لسيطرته إلى حدود القرن الثالث عشر، دون احتساب بعض فترات الغزو البيزنطي المتجدد، وبعض المدن التي كانت في قبضة الصليبيين. وقد حكمها المماليك حتى ١٥١٦م، عندما أصبحت جزءا من الإمبراطورية العثمانية، وظلت على هذا الحال إلى أن تفككت أوصال هذه الإمبراطورية عقب الحرب العالمية الأولى التي ناصرت فيها ألمانيا. وكان جبل لبنان طوال الفترة العثمانية تقريبا، منطقة شبه مستقلة، يسيطر عليها المارونيون، وهي طائفة مسيحية اعترفت بقدامة الفاتيكان وسيادته منذ ١١٨٢ (دون التخلي طبعا عن طقوسها الدينية الخاصة بها)، وهي فترة دامت قرونا أطول من أي طائفة كاثوليكية وازنة في لبنان (إغريقية، وأرمينية، وسريانية، وكلدية، التي انشقت كلها عن الطائفة الأرثوذكسية أو طائفة أخرى غير كاثوليكية بين القرنين السادس والثامن عشر). وكان العامل الأساس الذي استمدت منه المارونية قوتها داخل جبل لبنان هو وجودها تحت حماية الفرنسيين. وقد أسست الدولة اللبنانية تحت الانتداب الفرنسي العام ١٩٢٠، وأصبحت جمهورية مستقلة العام ١٩٤٣ بعدما تحررت من الحكم الفرنسي الفيشي من قبل القوات البريطانية والقوات الفرنسية الحرة.

ومع كامل احترامي لشخص ابنة عمي W2، فإن العربية تعدّ اللغة الأم لأكثر السكان اللبنانيين الأصليين تقريبا. وإنها تشكل القوة الأساسية المترابطة للوحدة القومية حتى بالنسبة إلى أولئك الذين يحددون، في الوقت ذاته، هويتهم بالدرجة الأولى من خلال اختلافهم مع لبنانيين آخرين، حينما تكون الوحدة القومية المسألة التي يريدون التأكيد عليها. وأولا وقبل كل شيء، تعد هذه الاختلافات في مجملها دينية وطائفية، ولكن تظهر في انقسامات ثقافية أخرى، بما في ذلك اختلافات تتعلق بمعرفة ثنائي اللغة واللغتين اللتين ينطقهما. وكانت هذه الاختلافات المهمة كافية كي تحول W2 سؤال W1 تلقائيا على أساس ثنائي اللغة، لأن سؤال W1 يتضمن أمرا منذرا بالخطر يفيد بأن للبنان لغة واحدة فقط، وبصفة عامة أكثر، أن الأمم واللغات توجد بشكل متطابق. وإذا كانت للبنان لغة واحدة، فستكون اللغة العربية لا محالة. وإذا كان لا بد أن نخصص «ملكية» العربية لأمة ما، فسيؤكد العديد من الناس أنها «أمة الإسلام». هؤلاء الناس الذين

كانوا مسؤولين عن انتشار العربية انطلاقا من الجزء الجنوبي من العالم الناطق بالسامية إلى المناطق الشمالية كلبنان. وبدلا من تأييد أي من هذه المضامين، اكتفت W2 بتحويل ساحات العراك؛ لأنها عندما ستأتي على موضوع ثنائية اللغة، يمكن لمسيحيي لبنان، خاصة المارونيين منها، أن يؤكدوا على امتياز ما.

وقد سبق خلال الحقبة العثمانية أن فرقت أشكال مختلفة من ثنائية اللغة مجموعات من الناس. فالأشخاص الذين يتحدثون اللغتين العربية والتركية التي تعتبر اللغة الإدارية للدولة العثمانية كونوا طبقة من المسؤولين الحكوميين والموظفين الذين تجاوزوا الانقسامات الدينية. ومن ناحية أخرى، لم يكن أحد ثنائي العربية ولغات الحاميين الأوروبيين الغربيين، خاصة الفرنسية، من غير المسيحيين، باستثناء حالات نادرة. وقد أصبحت ثنائية العربية - الفرنسية سمة موسومة مهمة لهوية بعض الطوائف المسيحية (ولكن ليس عمومهم)، خاصة المارونيين. ومما زاد علاقتهم بالعربية تعقيدا مسألة وجود لغة سامية أخرى «السريانية لغة طقوسهم الدينية»، مما يعني أن وظيفة العربية في حياة المارونيين الثقافية أكثر اختلافا من حيث الأساس مقارنة بالطوائف المسلمة. ومع ذلك، فالله هو الرب المعبود عند المسيحيين والمسلمين على حد سواء باللغة العربية، وعيسى يعتبره المسيحيون ابن الرب، والمسلمون يعتبرونه أحد انبيائهم العظام، وأمه مريم المبجلة يعتبرها المسيحيون والمسلمون، المرأة الأكثر قداسة.

توزيع اللغات بحسب الديانة

لقد مر توزيع اللغات - في العصور الحديثة، باستثناء العربية - في لبنان عبر ثلاث مراحل. فمن الفترة العثمانية إلى الحرب العالمية الأولى، كان من المحتمل جدا أن يكون من يملك دراية بالفرنسية (أو الإيطالية، على رغم أنها تراجعت إلى حد بعيد، مع نهاية القرن التاسع عشر) مسيحيا مثقفا، وبشكل أدق، مارونيا أو كاثوليكيا رومانيا. وكان من المرجح أن يكون من له دراية بالإنجليزية مسلما مثقفا (مع احتمال أن يكون درزيا) أو مسيحيا أرثوذكسيا (وربما يونانيا). أما بالنسبة إلى اللغة التركية، فكانت معرفتها منتشرة، خصوصا بين الرجال.

الجدول (٨ ـ ١): ثنائية اللغة حسب الديانة والجنس والعمر (٪)

	ثنائية العربية ـ الفرنسية	ثنائية العربية ـ الإنجليزية	ثلاثية العربية ـ الفرنسية ـ الإنجليزية	أحادية اللغة العربية	أمي
الرجال					
مسيحي	٣١	٣	٥	٤٨	٣٣
مسلم	١٧	٣	٢	٣٩	٣٩
النساء					
مسيحية	٢٤	١	٢	٢٨	٤٥
مسلمة	٧	٢	٠	٢٢	٦٩
فتيان					
مسيحي	٢٧	٣	٦	٣٢	٣٣
مسلم	٣٢	٥	١	٣٤	٢٨
فتيات					
مسيحية	٣٩	١	٢	٢٩	٢٩
مسلمة	٢٨	١	٠	٣٧	٣٣

مأخوذ عن عبو (Abou) (١٩٦٢، ص، ١١١).

وخلال الانتداب الفرنسي والفترة التي تلته، انتشرت المعرفة بالفرنسية عبر الديانات والطوائف. ومع ذلك، من المرجح إحصائيا أن يكون الشخص الذي له اطلاع أكثر بالفرنسية مسيحيا وليس مسلما، ولكن ليس بهامش كبير. والأمر ذاته ينطبق على الدروز والأرثوذكسيين الإغريق الذين يشكلون أغلبية السكان المتحدثين

بالإنجليزية. ففي ١٩٦٢، توصل عبو إلى التوزيع المبين في (الجدول ٨ ـ ١). وإن استخدام عبو لكلمة «أمي» كفئة منفصلة يقترح كيف أن قوة التعدد اللغوي في لبنان، هي فعل تربوي بصفة خاصة. ويمكن رؤية انتشار التعليم عبر السكان مع الزمن من خلال مقارنة الأرقام التي تختص بالرجال والنساء من ناحية، والفتيان والفتيات من ناحية أخرى. وقد تضاعفت تقريبا معرفة الفرنسية بين جيل الشباب، إذ تضاعفت بالنسبة إلى الفتيات المسلمات أربع مرات. وقد تقلصت الأمية بحدة بالنسبة إلى كل مجموعة، باستثناء المسيحيين الرجال، الذين سبق لثلاثة أرباع منهم من جيل البالغين أن كانوا متعلمين. وإن قدوم الإنجليزية، وإن كان بطيئا، يمكن رؤيته بمقارنتنا، مرة أخرى، بالأجيال. (وللاستزادة أكثر حول ثنائية اللغة في لبنان، انظر عبو، ١٩٧٨؛ غونيير Guenier، ١٩٩٤؛ بشور Pecheur، ١٩٩٢، سريج Srage، ١٩٨٨، وللاطلاع على دراسة مبكرة حول ثنائية اللغة في «العالم العربي» بصفة عامة، انظر نخلة (Nakhla، ١٩٢٥).

البناء المشترك للهوية الدينية والإثنية: المارونيون والفينيقيون

سيقدم قسم من هذا الفصل لاحقا بعض البيانات الحديثة جدا بالنسبة إلى توزيع اللغات حسب الديانة في لبنان. وقبل هذا أريد أن أبحث بتفصيل في مظهر من مظاهر السياق الثقافي المسيحي، ومظهر من مظاهر السياق الثقافي الإسلامي، حيث إن كلا منهما ساهم في بناء الفرق الإثني، واللغوي، والديني، حيث الوحدة واضحة بكل تجلياتها [٢].

منذ قرون والسكان المسيحيون في لبنان، وسوريا، وفلسطين، والأردن، والعراق يشكلون تقريبا جزيرة في بحر الإسلام المترامي الأطراف. وفي الواقع، كانوا بمنزلة شبه جزيرة، وكانت لبنان الرابط الأساس للعالم المسيحي بالغرب. ولعل من غير المفاجئ، في هذه الظروف، أن يتوجه الجهد الثقافي المهم نحو خلق مصداقية ثقافية متأصلة في فكرة أنهم لو كانوا فعلا يشكلون جزيرة، لما نشأوا من البحر، بل لكانوا هناك قبل وجود البحر. ومن المساهمات المهمة في هذا الجهد، نذكر كتاب «تاريخ المارونيين» History of the Maronites (١٩٨٤) للأب بطرس ضو Boutros Dau. ويدعى جزؤه الأول «الأسلاف الفينيقيون للمارونيين»، وعنون فصله الأول «أصل الفينيقيين ـ شعب عمر ثلاثة ملايين سنة». وتقسم ثلاثة ملايين سنة من تاريخ المارونيين إلى سبع حقب. وأما الأولى فهي:

١ ـ حقبة ماقبل التاريخ، وتمتد من ثلاثة ملايين سنة إلى الألفية السادسة [بالنص الحرفي] قبل الميلاد. ومن هذه الحقبة عثر على:

أ ـ أحافير السمك التي ناهز عمرها ٧٥ مليون عام بساحل العالمة وجبيل.

ب ـ وسائل من العصر الحجري في الماقبية [وثمانية مواقع أخرى].

جـ ـ [...] هيكل عظمي مطمور في وفاء صخري بقصر عاقل فوق أنطلياس على بعد ستة أميال شمال بيروت [...] لطفل يناهز الثامنة من عمره يعود إلى ٢٥ إلى ٣٠ الف سنة مضت [...]». (ضو، ١٩٨٤، ص: ١١ ـ ١٢).

وكيف يثبت هذا الدليل أن المارونيين «شعب عمره ثلاثة ملايين سنة» ـ اي ان عمره أقدم بعشر مرات أو عشرين من عمر النوع البشري الحديث العاقل (Homo sapiens)، تبقى مسألة من دون تفسير. وستقدم الفقرة القادمة معلومات أكثر عن الهيكل العظمي المشار إليه في (ت)، على الرغم من أنها ستتطرق إليه من دون التذكير بأنه قد أشير إليه في ما سبق:

«لقد اكتشف هيكل عظمي في أنطلياس لطفل لبناني قديم ونموذجي إلى حد ما، وذي مظهر متوسطي يرجع تاريخه إلى ٣٠ الف سنة خلت. ويبرهن هذا الاكتشاف على أنه منذ ٣٠ ألف سنة على الأقل، كان الشعب اللبناني من نوع متوسطي حقيقي، مستقل ومختلف تماما عن النوع العربي. ونظرا إلى ذلك، فهذا يتعارض مع كل الاعتقادات القائلة إن الشعب اللبناني عربي». (المرجع السابق ذاته، ص: ١٢).

وثمة هفوة مهمة: «تتعارض مع كل الاعتقادات» عندما يكون المرء قد توقع «كل دليل». وتستمر الحقب التاريخية إلى الحقبة الثامنة، «الحقبة الفينيقية الإغريقية الرومانية (٣٣٢ ق.م ـ ٤٠٠ ميلادية)»، إذ خلالها

«[...] ولد المسيح، واعتنقت مدن الساحل الفينيقي المسيحية بشكل تدريجي. واستمر الجبل [جبل لبنان] في الوثنية إلى أن تمسح على يد حواريي القديس هارون خلال القرن الخامس إلى القرن السابع» (المرجع السابق ذاته، ص: ١٦).

وينقلنا هذا في نهاية المطاف إلى:

٩. ـ الحقبة الفينيقية المارونية (٤٠٠ ميلادية ـ الوقت الراهن): بقي السكان إثنيا وقوميا على حالهم كما كانوا من قبل، لكن تغيرت الديانة. وبحضور الديانة، استبدل باسم فينيقي ماروني؛ وأما سياسيا، فصار الجبل مركز الثقل عوض المدن الساحلية، وحل اسم لبنان محل فينيقيا» (المرجع السابق ذاته).

وبتعبير آخر، إن لبنان يساوي «ماروني» ويساوي «فينيقي». وقد بدا الآن يتضح جليا سبب أهمية الحديث عن الفينيقيين أكثر وأكثر على امتداد فترة ما قبل التاريخ. وإذا سبقت المسيحية المارونية الإسلام بحوالي قرنين من الزمن، فهذا لا يمنحها كثيرا من ناحية الأولوية التاريخية. ومن ناحية أخرى، إذا سبق للمارونيين أن وجدوا في لبنان أكثر من ثلاثة ملايين سنة قبل ميلاد النبي محمد، فإن ادعاءهم بكونهم الشعب اللبناني الحقيقي حجة لا يتطرق إليها الشك أو التفنيد.

إن القصص الثقافية بشأن الفينيقيين ثقافية بشكل واضح في المقام الأول، وإثنية في المقام الثاني. فعلى الرغم من ملاحظة الأب تغوين حول «هيكل عظمي ذي مظهر متوسطي»، لا يوجد أي تمييز أنثروبولوجي مادي موثوق به، بحيث يسمح بإدراج الشعب اللبناني، أو فقط الموارنة بوضوح ضمن فئة «متوسطية» بدلا من فئة عربية. وأما بالنسبة إلى الفينيقيين، فكل الدلائل الأركيولوجية تفيد بأنهم كانوا قوما ساميا. وبعبارة أخرى، كانوا ينتمون بالضبط إلى الأصول الإثنية والثقافية ذاتها التي كان ينتمي إليها العرب.

البناء المشترك للهوية الدينية والإثنية: الموارنة والفينيقيون

يقف الأب ضو على طول الخط المبجل مع الناس الذين يكرسون جهودهم الرامية إلى نقض أكاديمي للوحدة الإثنية والثقافية الظاهرة. وإن كثيرا من الثقافة الإسلامية الكلاسيكية تسعى إلى تعزيز الإيمان بفكرة أن الجزيرة العربية في زمن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) كانت معزولة عن باقي العالم السامي، غير أن الأمر لم يكن كذلك بكل صراحة. فدراسة جيفري العام ١٩٣٨، للمصطلحات الدخيلة في القرآن قضت قدرا كبيرا من الوقت في فرز علم أصول الكلام ذات الدافع الأيديولوجي لتخلص إلى ادعاء أن

لاوجود في القرآن لأي كلمة ذات أصل غير عربي. وحتى عندما كان مصدر الدخيل جنسا من صنف العبرية بشكل وثيق جدا، مادام أنه مشحون بدلالة دينية يهودية أو مسيحية، اعتبره الدارسون غير ذي صلة.

وفي الأمثلة الآتية، قمت بنقل كتابي إلى مخطوطات أجنبية، وحذفت التفاصيل المتعلقة بذكر الدارسين المعنيين وبتحديد الآراء التي كان يتمسك بها كل واحد منهم على حدة (يمكن الحصول على المعلومات كاملة بمتابعة النصوص المستشهد بها). بداية، هناك كلمات في العربية مقتبسة من الإغريقية، وهي لغة مرتبطة حصريا بالمسيحية:

- إبليس: «تعمد المراجع المسلمة إلى اشتقاق الاسم من بلس (يئس). وقد سمي بهذا الاسم لأن الله أياسه من كل خير. ومع ذلك، أدرك فقهاء اللغة الأكثر فطنة استحالة هذا الأمر [...]. فإن هذه الكلمة، هي تحريف للكلمة الإغريقية «diábolos» وقد اعترف بذلك أكثر الدارسين الغربيين» (جيفري، ١٩٣٨، ص: ٤٧).
- بروج: «لقد أخذ علماء فقه اللغة هذه الكلمة من بَرَجَ ([...]، ولا شك في أن بروج تمثل الكلمة الإغريقية púrgus والكلمة اليونانية، burgus، التي تستعمل للإشارة إلى الأبراج الموجودة على حائط المدينة [...]» المرجع السابق ذاته، ص: ٧٩).
- قَلَمٌ: إن المراجع الأصلية تأخذ هذه الكلمة من «قَلَمَ» ([...]، لكن تعد هذه فقط إيتيمولوجيا شعبية. لأن أصل الكلمة مأخوذ من كلمة kálamos الإغريقية «قصب»، وبعدها «قلم»، ولو أنها أتت عبر شكل سامي. (المرجع السابق ذاته، ص: ٢٤٣).

وفي الواقع، إن اسم الروم الذي منح للبيزنطيين الإغريق أنفسهم، خضع لهذه العملية التأويلية ذاتها: «إن عددا لا يستهان به من المراجع القديمة اعتبرته كلمة عربية اشتقت من «رام» (رغب بشغف). وسمي القوم بهذا الاسم، بسبب شغفهم بالاستيلاء على القسطنطينية ([...] وقد منحها بعضهم نسبا ساميا [...]. ولكن الأصل النهائي، بالطبع، يرجع إلى الكلمة اللاتينية Roma التي هي Rome في الإغريقية، إذ أصبحت متداولة عندما أصبحت he Neà' Rome [...] يطلق عليها اسم قسطنطينية بعدما صارت عاصمة الإمبراطورية». (المرجع السابق ذاته، ص: ١٤٦ ـ ٧).

وإذا ما انتقلنا إلى اللغات السامية، فسنجد أن الدارسين قد أخضعوا اسم «إسرائيل» - البطريرك وأسلافه - إلى بهلوانيات إيتيمولوجية لا تقل دهشة: لقد سمحت بعض التفسيرات إلى أن اشتقاقه من sri «السفر ليلا»، لأنه عندما فر يعقوب من إيسو Esau، سافر ليلا ([...]) وقد اقر الاسم، مع ذلك، على نحو عام جدا على أنه دخيل» (المرجع السابق ذاته، ص: ٦١). كما يشير جيفري إلى أن غياب صوت مزماري في مستهل الكلمة يعني أن الكلمة ليست مقتبسة احتمالا من العبرية مباشرة، ولكنها أتت من أصل مسيحي، بما أن الأشكال الإغريقية، والسريانية، والإثيوبية للاسم تفتقر كلها إلى حرف شديد أو صوت انفجاري (stop).

ومن الاقتباسات العبرية التي رفضها الملفقون على القرآن تشمل التالي:

- أحبار، جمع حِبر أو حَبر أي «عالم يهودي في القانون»: «إن الملفقين يدركون أنها كانت لقبا يهوديا واستشهدوا على ذلك باستخدام تعبير كعب الأحبار، معتنق الديانة اليهودية المعروف جدا. ومع ذلك، اعتبرت عموما كلمة عربية أصيلة مشتقة من حَبر «ترك ندبا» (جرح). وسمي الكهنة بهذا الاسم للأثر العميق الذي تخلفه تعاليمهم على حياة طلابهم». (المرجع السابق، ص: ٤٩ - ٥٠).
- أسباط: «القبائل» (أي القبائل الإثنا عشر لإسرائيل : «يشتق فقهاء اللغة هذه الكلمة من سبط «نبات الشوك». ومن هذا الباب، يعتبر تفسيرهم مهما، وإن لم نقل مقنعا ([...]). وبعضهم، مع ذلك، شعروا بالصعوبة، وأجبر أبو الليث على قبول هذه الكلمة على أنها عبرية دخيلة». (المرجع السابق، ص: ٥٧). واستمر جيفري في القول ليلاحظ أن الكلمة قد تكون مستعارة من السريانية.
- التوراة: «لقد أقرت بعض المراجع القديمة أن هذه الكلمة عبرية [...]. لكن البعض يرغب في أن يجعلها كلمة عربية مشتقة من ورَّى [«اخفى، اخفى سرا»] (المرجع السابق، ص: ٩٦)

وفي الأخير، احتفظت بالحالتين الأكثر أهمية بلا شك، بما أنهما لا يتألفان إلا من أسماء الله والنبي. وفيما يخص كلمة الله، يكتب جيفري ما يلي:

«يستنتج المرء [...] أن بعض المراجع من المسلمين الأوائل اعتبروا أن الكلمة كانت من أصل سرياني أو عبري. إلا أن الأغلبية ادعت أنها كانت عربية، ولو أنهم قدموا نظريات مختلفة حول اشتقاقها. ولكن بعضهم كان يظن أن لا اشتقاق لها [...]، بينما يشتقها أهل البصرة من كلمة الله (al lâh)، معتبرين الله (lâh) مصدرا للايه (lyh) («عال) او «محجوب». وقد كانت الأصول المقترحة [...] أكثر تنوعا، فقد أخذها بعضهم من أَلَهَ (يعبد)، والبعض الآخر من أَلِهَ (يرتبك)، والفريق الآخر من أله عليا (اللجوء من أجل الحماية) ومنهم من أخذها من كلمة وَلِهَ (يرتبك). لكن الدارسين الغربيين يجمعون، إلى حد ما، على ضرورة أن يكون مصدر الكلمة موجودا في إحدى الديانات القديمة جدا». (المرجع السابق، ص: ٦٦)

غير أن عيسى هي الكلمة التي تمثل أكبر إشكالية، ذلك بانها شكل لم يكن موجودا في العربية قبل ظهور القرآن (المرجع السابق، ص: ٢٢٠)، ويصعب اشتقاقه من أصله العبري إذا ما اعتمدنا التوافقات الصوتية القياسية. ويكتب جيفري: «إن مراجع إسلامية عديدة تعتبر الكلمة عربية، إذ يشتقونها من عيصْ «اللون الأبيض الكامد»، ومن ذلك عياسو «بياض محمر» (المرجع السابق نفسه) ومن هنا نرى أن النزوع إلى إثبات أصل عربي خالص لكل اسم، حتى عندما تعرف هذه الاسماء في لغتها الخاصة بقربها من الشكل العربي على نحو معقول، هو دليل على سلطة الأيديولوجيا على الملاحظة التجريبية، هذا إن كان هذا الدليل ضروريا أصلا.

تحولات حديثة في أنماط اللغة/الهوية اللبنانية

بعد بداية الحرب الأهلية في منتصف السبعينيات، بدأت وضعية الفرنسية، التي كانت قوية ومتنامية في العام ١٩٦٢ (انظر الجدول ٨ ـ ١)، في التدهور الحاد. وثمة شيء مثل التوزيع القديم للعهد العثماني أعاد تأسيس كيانه ليصبح، وكما هو مبين في جدول ٨ ـ ٢، فإن نصف الفرنكفونيين اللبنانيين تقريبا مارونيون. وقد كان تدهور الفرنسية موازيا لانتعاش الإنجليزية وتناميها. وإن البيانات الحديثة غير متاحة بخصوص

معرفة اللبنانيين بالإنجليزية، ولكن يمكن استخلاصها من دراسة عبو وآخرين من شركائه (١٩٩٦) التي أنجزوها حول جماعة الفرنكفونية. فعندما سئل عن اللغات التي تشكل أكبر نفع لمستقبل لبنان، إلى جانب العربية، أجاب ٦١,٥ في المائة من الفرنكفونيين أن الإنجليزية ستكون مفيدة جدا، في حين ٣١,٨ في المائة فقط ممن قالوا إن الفرنسية هي الأفيد، ومجرد ٣,١ في المائة قالوا إن الإنجليزية والفرنسية على حد سواء تمثلان اللغتين الأكثر نفعا (عبو وآخرون، ١٩٩٦، ص: ٩٩). ومن المدهش أكثر، أن يميل المارونيون الفرانكفونيون أكثر من المسلمين الفرانكفونيين إلى اعتبار الإنجليزية اللغة التي تنفع مستقبل لبنان أكثر من الفرنسية.

وإن اثنين من أصل ثلاثة مارونيين فرنكفونيين عنيا بالإنجليزية باعتبارها اللغة الأكثر أهمية بالنسبة إلى مستقبل البلاد (المرجع السابق، ص: ١٠٠). وتبعا لهذه البيانات، يبدو واضحا أن هناك إعادة تخطيط لغوي أساسي آخر جار الآن.

الجدول (٨-٢): توزيع الفرنكفونية وفق الديانة

الجماعة الدينية	الفرنكفونيون
سني	٪١٠,٥
شيعي	٪١٢,١
درزي	٪٢,٩
ماروني	٪٤٩,٢
أرثوذكسي إغريقي	٪١٢,٧
كاثوليكي إغريقي	٪٩,٦
آخرون	٪٢,٩
المجموع	٪١٠٠,٠
عدد من عينة	٦,٧٠٢

المصدر: عبو وآخرون (١٩٩٦، ص: ٦٨)

وقد بدأت القيام بدراسة بحثية العام ١٩٩٨، إذ نشرت نتائجها في كتاب غالب وجوزيف (٢٠٠٠). وكانت تستهدف البالغين (ممن تفوق أعمارهم السابعة عشرة) من المقيمين في منطقة بيروت الكبرى. وقد تدربت طالبة جامعية على استجلاب الأداة البحثية وإدارتها. ثم حددت مناطق مختلفة من العاصمة لجمع المعطيات. وطلب من الطالبة أن تنتقي بشكل عشوائي بالغين مارين من منطقتها، وأن تطلب منهم المشاركة في الدراسة. ويقدر الوقت المطلوب لتعبئة الاستمارة بخمس عشرة دقيقة لكل واحد منهم. وقد جمع بحثنا بين الاستبيان والمقابلة الشخصية. وقد اشتملت المتغيرات الرئيسة المستقلة التي فحصناها على: العمر، والجنس، والانتماء الديني، ونوع المدارس والجامعات التي يجري التردد إليها، ومستوى التعليم المحصل عليه، والمهنة أو الوظيفة، والبلد الأصلي، ومنطقة الإقامة داخل بيروت. وتضم المتغيرات التي يركز عليها القائم على البحث الوقت الذي جرى قضاؤه في الخارج (وأين جرت تمضيته)، والاحتكاك مع الأشخاص بالخارج، إلى غير ذلك.

وجرت تعبئة الاستمارات في منطقة بيروت الكبرى من قبل ٢٨١ مشاركا، قسموا تقسيما فرعيا، كما هو مبين في (الجدول ٨ ـ ٣). فعند تحليلنا للغة الأجنبية الأولى حسب الديانة، كما يوضح ذلك (الجدول ٨ ـ ٤)، لا نجد أي اختلافات تذكر بين المسلمين والمسيحيين. ومع ذلك، عندما يتعلق الأمر بالمواقف، تبدأ الفوارق في الظهور. وعلى الرغم من وصف المستجيبين للإنجليزية بأنها اللغة العالمية المهمة، عندما نأخذ حاجيات اللبنانيين بعين الاعتبار، فإننا نجد إجابة محدودة بدرجة كبيرة. وردا على السؤال: في تقديرك، ما أهم لغة ثانية بالنسبة إلى لبنان حاليا، الإنجليزية أم الفرنسية؟»، أظهرت الإجابات أن كلتي اللغتين الإنجليزية والفرنسية مهمة ومع ذلك، بالنسبة إلى أولئك الذين اختاروا مجرد لغة واحدة في إجابتهم، اعتبروا الإنجليزية اللغة الأهم، كما يبين ذلك الجدول ٨ ـ ٥. وتختلف هذه الأرقام من تلك التي وردت عند عبو وآخرين (١٩٩٦، ص: ٩٩). الجدول ٨ ـ ٦ يظهر هذا التباين. وأما تفسيري لهذا التباين، فهو أن مفحوصي عبو لم يتصوروا، لسبب ما، أن «كليهما معا» (أي الإنجليزية والفرنسية) اختيار صحيح. كما جرى الوصول إلى نتائج مهمة من خلال السؤال: «هل تربط الإنجليزية والفرنسية بمجموعات دينية في لبنان؟، فإذا كان الأمر كذلك، ما هذه المجموعات؟»،

فأظهرت النتائج ان من اصل ٢٨١ جوابا، أقل من ٥٠ في المائة ربطوا الفرنسية بالمسيحية، في حين لم ترتبط الأغلبية الساحقة الإنجليزية بأي ديانة (انظر الجدولين ٨ ـ ٧ و٨ ـ ٨). وهكذا، يستمر اتجاه يربط الفرنسية بالمسيحية. والمذهل حسب ما يبدو، أن تكون هذه النزعة أشد بين المسلمين أكثر من المسيحيين أنفسهم. ويحدث هذا على الرغم من أن المجموعتين نقلتا الفرنسية بوصفها لغتهما الأولى بنسب متقاربة.

جدول (٨ ـ ٣): المشاركون حسب الجنوسة والديانة

الديانة	الذكور	الإناث	المجموع
مسلمون	٥٥	١٠١	١٥٦
مسيحيون	٣٨	٧٢	١١٠
ما من إجابة	٦	٩	١٥
المجموع	٩٩	١٨٢	٢٨١

المصدر: غالب وجوزيف (٢٠٠٠)

الجدول (٨ ـ ٤): اللغة الأجنبية الأولى للمشاركين حسب الديانة

اللغة الأجنبية الأولى للمشاركين	مسلمون	مسيحيون	المجموع
إنجليزية	٩١ [٥٨.٣٪]	٦٠ [٥٤.٥٪]	١٥١ [٥٣.٧٪]
فرنسية	٥٩ [٣٧.٨٪]	٤٣ [٣٩.١٪]	١٠٢ [٣٦.٣٪]
إنجليزية وفرنسية	٢ [١.٣٪]	٣ [٢.٧٪]	٥ [١.٨٪]
أخرى	٤ [٢.٦٪]	٤ [٣.٦٪]	٨ [٢.٨٪]
ما من إجابة	١٥٦	١١٠	١٥ [٥.٣٪]
المجموع			٢٨١

المصدر: غالب وجوزيف (٢٠٠٠)

الجدول (٨ ـ ٥): اللغة الأجنبية الأكثر اهمية بالنسبة إلى البنات حسب الديانة

ديانة المشاركين	إنجليزية	فرنسية	كلاهما معا	ولا واحدة منهما	المجموع
مسلمون	٧٧ (٤٩,٧٪)	١٤ (٩,٠٪)	٥٨ (٣٧,٤٪)	٦ (٣,٩٪)	١٥٥
مسيحيون	٣٧ (٣٣,٦٪)	١٠ (٩,٠٪)	٦١ (٥٥,٥٪)	٢ (١,٨٪)	١١٠
ما من إجابة					١٦
المجموع	١١٤	٢٤	١١٩	٨	٢٨١
النسبة المئوية (٢٦٥/)	٤٣,٠	٩,١	٤٤,٩	٣,٠	١٠٠

المصدر: غالب وجوزيف (٢٠٠٠)

الجدول (٨ ـ ٦): مقارنة أرقام اللغة الأجنبية الأكثر اهمية بالنسبة إلى لبنان (٪)

	الإنجليزية	الفرنسية	هما معا
عبو وآخرون	٦١,٥	٣١,٨	٢,١
غالب ـ جوزيف	٤٣,٠	٩,١	٤٤,٩

الجدول (٨ ـ ٧): بأي ديانة ترتبط الإنجليزية

	ديانة المستجيب	
ترتبط الإنجليزية ب:	مسلم (١٥٥/)	مسيحي (١١٠/)
مسيحيون	٢ [١,٣%]	٧ [٦,٤%]
مسلمون	١٨ [١١,٦%]	٧ [٦,٤%]
كلاهما معا	٢٥ [١٦,١%]	٩ [٨,٢%]
ولا واحدة منهما	١٠٧ [٦٩,٠%]	٨٥ [٧٧,٣%]
ما من إجابة		٢١

المصدر: غالب وجوزيف (٢٠٠٠)

الجدول (٨ ـ ٨): بأي ديانة ترتبط الفرنسية

	ديانة المستجيب	
ترتبط الفرنسية بـ:	مسلم (/١٥٥)	مسيحي (/١١٠)
مسيحيون	٧٢ [%٤٢.١]	٤٣ [%٣٩.١]
مسلمون	١ [%٠.٦]	٠
كلاهما معا	١ [%٠.٦]	٠
ولا واحدة منهما	٨١ [%٥٢.٥]	٦٣ [%٥٧.٣]
ما من إجابة		١٩

المصدر: غالب وجوزيف (٢٠٠٠)

وإن ما يقترحه هذا هو أن الأنماط الثقافية القديمة صعبة الزوال. ومنذ ١٩٩٧، أصبح كل التعليم اللبناني من الابتدائي إلى ما فوق ثلاثي اللغة، هذا بالتزامن مع السياسة التعليمية التي طورت بشكل خاص لسد الفجوة اللغوية. ولكن، ليس ثمة مؤشر يضمن فاعلية هذا المسمى، إلا إذا أراد المسيحيون والمسلمون أن يحصل تقارب بين جماعاتهم. وإلا، فإن هناك وسائل استطرادية يمكن دائما إعادة استكشافها قصد إعادة تأسيس تفردهم المفترض.

تطورات أكثر حداثة

وكما أشرنا في صفحة ١٩٦، لاحظت تغييرا واضحا في المواقف حيال ثنائية اللغة بين أقربائي في لبنان بين عامي ١٩٩٨ و٢٠٠٢ [٣]. لقد استغرق الأمر قدرا كبيرا من الملاحظة والتفاعل الكلامي لتحديد ما تغير، بحيث إن W2 ووالدها، اللذين شعرا قبل أربع سنوات أن العربية كانت لغتهما، يصران الآن بقوة على ثنائيتهما اللغوية: عربية ـ فرنسية. وعند إعادة النظر في تاريخ الأحداث، سنجد أن لبنان كان العام ١٩٩٨ في قمة استقراره الحديث.

فتوقفت الأعمال العدائية المفتوحة بين المسيحيين والمسلمين. واقترب الاقتصاد من مستواه العادي، والمشاريع الأساسية لإعادة البناء على أشدها. وباعتراف الجميع، عانى لبنان من أمرين: الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان، والوجود السوري.

وعلى الرغم من أن الاحتلال الإسرائيلي استشاط غضب المسلمين أكثر من غيرهم، إلا أنهم كوفئوا عن طريق التحكم الفعلي بزمام الأمور للقومية المسلمة. وفي الواقع، كان وجود الجنود الإسرائيليين في جنوب لبنان السبب الرئيس وراء وجود سورية في لبنان. ولم يكن المسيحيون راضين عن الاحتلال الإسرائيلي البتة، غير أنه لم يكن لهشكل بالنسبة إليهم القدر نفسه من التهديد الذي كان يشكله الوجود السوري. وما قلب الميزان بالنسبة إلى المسيحيين هو أنه لما انسحبت إسرائيل من جنوب لبنان في مايو ٢٠٠٠، لم تسحب سورية جنودها آنذاك من باقي ربوع البلاد، وفي غياب أي معارضة دولية مهمة، أصبح وجود سورية في لبنان تسوية دائمة بشكل واضح، وعندما تعثر الاقتصاد الدولي المزدهر في التسعينيات، توقف اقتصاد لبنان عن النماء. ولم يعد الوضع القائم على أحسن حال، ومن أجل هذا، كان الجواب، في صيف ٢٠٠٢، عن السؤال: «ما لغة التخاطب في لبنان؟» «الفرنسية». ولم يلق جوابا مختلفا يدمج لبنان في بقية الشرق الأوسط والعالم العربي، بترحاب W2. على الرغم من أن هذا الجواب قد يكون بديهيا. وإن الجواب الذي يؤكد تفرد لبنان داخل الشرق الأوسط والعالم العربي، يصبح الرد المباشر، على الرغم من أنه قد يبدو غير بديهي.

رينان و«إرث الذاكرات»

إن الذاكرات المشتركة والإرادة المشتركة تساوي الروح المشتركة التي تكون الأمة. هذا هو مفهوم رينان الذكي حول الفكرة الكلاسيكية العامة لمفهوم الأمة لدى أوروبا الغربية، التي أسست في سياق الحروب ضد الأعداء الخارجيين. ولكن عندما جرى تبني هذه الفكرة في حالات كانت فيها الذاكرات في معارك كبيرة مع الأعداء الخارجيين - أي عندما كان ما يتذكره المسيحيون بالأساس معارك ضد المسلمين والعكس بالعكس - أصبحت الذاكرات المشتركة ذاتها ساحة قتال نصية textual.

واصبح تصور اللغة ذاته جبهة رئيسة في المعركة، لفرضها الرمزي جزئيا، ولأن اللغة تفهم جزئيا على أنها الناقلة التي سيجري فيها تشكيل نص الذاكرة ونقله. ففي الحالة الكلاسيكية من تأسيس قومية أوروبية حديثة، أخذت «حرب اللغة» شكل «قضية لغوية» questione della lingua وهو مصطلح إيطالي جرى استقراؤه وتعميمه، ذلك لأن الصراع الأول والمهم جدا من هذا النوع حدث في إيطاليا، إذ سبق له أن بدأ في مطلع القرن الرابع عشر (انظر جوزيف، ١٩٨٧، والفصل الخامس أعلاه). وقد فجرت مناقشات مماثلة حول اللهجة الخاصة التي يمكن أن تشكل القاعدة الأساس للغة القومية ثورة عارمة خلال عصر النهضة في فرنسا، وفي شبه جزيرة أيبيريا، وألمانيا، والدول الإسكندنافية، وجزر بريطانيا، ولاحقا في دول البلقان، وبولندا، وتركيا، والهند، وغيرها من الأماكن الأخرى. وقد تشتد حدة هذه الثورة إذا ما كان موقع الذات المشتركة في خطر.

ولكن الاهتمام بقضية اللغة في مفهومها الكلاسيكي لم يكن متوافرا في لبنان، بل كان الاهتمام منصبا فقط على قضية اللغة الثانية وبالتأكيد، إن المادة الخام لمناقشة لغوية ذات طابع كلاسيكي موجودة في الاختلافات الواسعة من لغة القرآن العربية إلى العامية العربية اللبنانية. فإذا تطور مفهوم من مفاهيم «العربية اللبنانية» بوصفها لغة منفصلة بشكل طبيعي، فإن أشكالا مختلفة منها، والتي تقوم على لهجات القرى والمدن المسيحية والمسلمة تكون قد تطورت ودعمت. ومما لا شك فيه أن الفوارق الصغيرة جدا ذاتها يمكن اغتنامها والنفخ فيها، كما حدث في التاريخ الحديث مع اللغة الرومانية المعيارية، عندما كانت القوى التالية للسوفييت في سدة الحكم، جعل من أشكال السلافية المختلفة في اللغة أشكالا معيارية. وعندما كانت القوى ذات الطابع الغربي في السلطة، كانت تُفضِّل الأشكال المختلفة الرومانية. ومن هنا، كانت تهجئة اسم اللغة في حد ذاتها تتأرجح بين رومان Român ورومين Romîn، حيث إن â وî يشيران إلى الصامت المؤخر back المرتفع high غير المضموم unrounded نفسه، لكن مع اعتبار Român تهجئة تعمل على تأكيد التقاربات الرومانية للغة، وبذلك تكريس «الروح» الغربية بدلا من «الروح» الشرقية للأمة.

وإن ما تعنيه «اللغة» العربية بقي،على نحو مدهش جدا، أمرا غير مثير للخلاف. إن هذه مسألة تختلف عن «كلام» أفراد معينين، الذي يفسر بسهولة من قبل الآخرين، ليضع المتحدث في قرية أوجهة معينة، وديانة وطائفة، وفي مستوى تعليمي محدد، إلى غير ذلك. وثمة متغير لغوي رئيس في هذا الصدد ـ ليس في لبنان وحسب، وإنما في أكثر الدول الناطقة بالعربية ـ هو لفظ أو حذف الصوت /q/، الذي يتهجى بحرف القاف (انظر مثلا، الور، ١٩٩٩، بن رباح، ١٩٩٤، ساويعي، ١٩٨٧). ومع ذلك، فالكل يعتبر التخلي عن حرف القاف في الكتابة خطأ، وليس على وجه الإطلاق سمة مميزة لشكل مميز للعربية الفصحى/النموذجية. وبذلك، فإن ساحة القتال اللغوية في لبنان تنحصر أساسا في اللغات المنطوقة، واللغات القديمة، واللغات الأجنبية، التي لا تملك تماما قوة «اللغة» ـ النموذج المكتوب حاليا ـ لتجسيد روح الأمة.

وتصير الأشياء أكثر تعقيدا إذا كانت اللغة تملك اسما لشعب مرتبط بشكل وثيق بدين أحد الطرفين الرئيسين في المعركة. فالعربية تقترح العرب بشكل واضح، وهم أغلبية مسلمة (ولكن ليس حصريا على الإطلاق). ويستلزم هذا التساؤل عن كيف حصل أن صار مسيحيو لبنان ناطقين بالعربية، وهم يدعون لأنفسهم حضورا تاريخيا ـ ثقافيا أقدم من أبناء بلدهم من المسلمين. وقد يبدو الأمر طبيعيا تماما بالنسبة إلى مراقب حديث لو أنهم استمروا في التحدث بعضهم إلى بعض، وليس إلى الرب فحسب، بالآرامية. ولاتزال هذه اللغة، في حقيقة الأمر، متداولة بين جماعات قليلة منفصلة، مثل تلك الموجودة في سورية، وليس في لبنان. إن السيناريو الأكثر ترجيحا هو أنهم فقدوا الاستخدام العامي للآرامية خلال فترة أربعة أجيال على الأقل (وهذه أقصر مدة يحدث خلالها «موت اللغة» ـ استعارة مبالغة)، حيث أصبح فيها التعامل مع العرب، من أبناء البلد، ليس فقط ممكنا، ولكنه مفيد أيضا، وليس فحسب في مدلوله الاسترزاقي ولكن في مدلوله الشامل والجيد جدا الذي يفيد بأن تقاسم اللغة كان جزءا من بناء مجتمع موحد. وإن مسألة أن العربية كانت لمدة ألف سنة، ابتداء من القرن السابع إلى القرن السادس عشر، اللغة الأكثر امتيازا وثقافة في العلم والتعلم، زاد احتمالا من جاذبيتها عند المسيحيين المشرقيين Levantine.

ويساعد، من ناحية، على شرح سبب اكتسابهم اللغة. ولكن لم تشرح، مع ذلك، سبب فقدانهم ثنائية الآرامية ـ العربية، التي كان عليهم أن يتمسكوا بها خلال فترة انتقالية دامت بضعة أجيال.

ويتألف جواب المسيحي اللبناني عن المأزق الذي طرحته السلسلة المترابطة «عربية ـ عرب ـ إسلام» إلى حد ما من استراتيجية ثنائية متناقضة. فمن ناحية، يرفضون أن تنتمي اللغة العربية والهوية العربية إلى الإسلام أكثر منهم. ومن ناحية أخرى يرفضون أن يكونوا عربا. ويزعمون أنهم يتحدرون من أسلاف سبقوا قدوم العرب، وهو أمر قد يكون صحيحا، ولكن منطقيا، لا يغير هذا من الأمر شيئا، إلا إذا لم يتزوج القادمون الجدد من المسلمين العرب الأواخر من السكان المسيحيين الأوائل الذين كانوا موجودين قبل العرب. وهناك توثيق كاف من حقب متعددة تدل على حدوث مثل هذه الحالات من الزواج المختلط. ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل تعداه ليشمل اعتناق عدد كبير من الأفراد المسيحيين، والعائلات، والعشائر الإسلام، اي من «المرتدين»، بتعبير إسباني مسيحي (انظر بن ناصر وبن ناصر، ١٩٨٩). وإن الواقع التاريخي في لبنان الذي لا يمكن الخوض فيه، يفيد بأنه لو رجع المرء بضعة قرون فقط إلى الخلف وليس الفية إلى الوراء لوجد أن اي مسيحي لبناني أو مسلم تجمعهما أسرة القرابة. وبالطبع، إن قدوم عدد هائل من الفلسطينيين بعد احتلال فلسطين تستر عليه هذه الحقيقة، باعتبار أنهم لم يكونوا جزءا من هذا التاريخ الطويل من التحول والتزاوج، مما سيظهرهم بمظهر الدخيل على المجتمع بشكل باد للعيان. ولكن يكاد يكون من غير الضروري الإشارة إلى أن القرابة السامية لم يكن لها أي اعتبار في الحروب الدينية المشرقية الضروس.

وتمثل لبنان حالة يشكل فيها «الإرث الفني للذاكرات»، الذي قال به رينان، عقبة للوطنية، كما تشكل بالقدر نفسه قوة دفع إيجابية. فيستحيل أن «ينسى» هذا الإرث بشكل مؤقت، غير أن رفضه أمر ليس مستحيلا، وبالتالي رفض فكرة أن يكون المسيحيون اللبنانيون «عربا»، ولا التذكر الإبداعي مستحيلا، وذلك من خلال تطوير أساطير عن الأسلاف الفينيقيين. وأما في ما يخص «الاتفاقية الراهنة» لرينان، فهي أيضا غير واضحة جدا. إنها أيضا نص، كيف يتسنى للمرء عموما تحديد «الإرادة المشتركة»؟ ففي لبنان الحديث، هناك

«رغبة محدودة في أن يعيش المسيحيون والمسلمون معا»، ولكن في الوقت ذاته يوجد عمليا إمكان ضئيل أن يعيش الطرفان بشكل مستقل، بوصفهما أمتين منفصلتين. وقد بدا في التسعينيات، أن إعادة توزيع السلطة أضعف حدة التوتر الذي جعل موضوع عيشهم جنبا إلى جنب صعبا جدا، مثلما كانت الحال عليه في العقدين الماضيين. ولوأن في منتصف العام ٢٠٠٠، أوضح الانسحاب الإسرائيلي المفاجئ من جنوب لبنان لأي شخص كان يشك فيه، كيف كان دائما هذا الحد من التوتر هشا. عمليا، كل أمة موجودة على سطح الأرض تحدد «الإرادة المشتركة» بداية عبر دستور مكتوب (أو أحيانا غير مكتوب، كما هو الشأن في المملكة المتحدة) من قبل النخبة، وتعلن عنه السلطات العليا. وفي الدول الديموقراطية، يجري تفنيده (بدرجة محددة) عن طريق استفتاء عام أو عبر عملية انتخاب المسؤولين. وفي لبنان كان النص المتعلق «بالإرادة المشتركة»، أي دستور ١٩٢٦، يفسر عرفيا بشكل يخول للمارونيين فيه أن يكونوا دائما القوة الرئيسة. وكي نبقي على الإرادة المشتركة دون تغيير، لم يجر أي إحصاء منذ عقود بهذا الخصوص، إلى أن أصبحت الفجوة أخيرا بين «الإرادة المشتركة» النصية والإرادة الظاهرة لمن هم في السلطة واسعة جدا. وإن «الخيال» ، الذي هو الدستور مرتبط في النهاية بهذا المعنى بوضعية العالم، فينبغي أن يكون خيالا شبه واقعي، وليس وهما. ولكن رينان (١٨٨٢، ص:٢٧) نفسه لم يكن مثاليا جدا في ظنه أن «وجود أمة ما هو - واستسمحكم هذا المجاز - استفتاء عام يومي [...]» [٤]. وإلا لما ادرج ذلك الاعتذار. ولم يعتذر مع ذلك عن التأكيد الآتي: «لقد خلصنا السياسة من التجريدات الميتافيزيقية واللاهوتية. وماذا بقي بعد ذلك؟ لقد بقي الإنسان ورغباته وحاجاته» (رينان، ١٨٨٢، ص: ٢٨) [٥].

إن النظر إلى الخلف في مرحلة سابقة وفحص ما كان فعلا يعتبره الناس «ميتافيزيقا» و«مجردا» ، وما كان يعتبره الناس نقيض ذلك مهم دائما. وإن مسألة أن يكون رينان قد دعا الأمة «روحا، مبدأ روحيا»، وبعدها يدعي أنه تخلص مما هو ميتافيزيقي، يشكل أمرا مذهلا بالنسبة إلى القارئ في العصر الراهن. وعندما ادعى عدم بحثه في التجريدات، وإنما في «الإنسان»، كان ذلك أمرا مفاجئا مرة أخرى لأنه ادرك أن «الإنسان» بالفعل تجريد من أصله. إن «الإنسان» ليس مجردا إذا كان إنسانا محددا («إنسانا أعرفه») هو

المقصود، ولكن إذا كان جنسا عاما، فإنه يمثل أيضا تجريدا لفئة ما (إن وطن الإنسان هويته)، كما أن «حاجات الإنسان» هي حاجات مجردة لفئة مجردة، مثلما هي الحال بالنسبة إلى الرغبات، التي هي علاوة على ذلك ميتافيزيقية، بما أنها ليست - من المفترض - رغبة مادية في ذهن رينان.

وإن الأمة لا يمكن لها أن تتخلص من المجرد أو الميتافيزيقي بشكل واضح. وهذا هو فحوى وصف أندرسون لها باعتبارها «جماعة متخيلة»، والأمر نفسه ينطبق على «اللغة». فالمسألة لا تتعلق بالطريقة التي يتحدث بها «إنسان ما»، وإنما بالطريقة التي يتحدث بها «الإنسان» بشكل خاص ضمن جماعة معينة. وكما هو الشأن بالنسبة إلى «الإنسان» نفسه، إنه لم يتجرد من الطريقة التي يتحدث بها عامة الناس، ولكن من ائتلاف القوي والمثالي. وإن مدى استقلالية المثالي عن القوي شكل موضوع نقاش، لفترة طويلة، خاصة في الماركسية وبعدها، مرورا بألتوسير إلى فوكو وهابيرماس.

وتقترح حالة لبنان أنه حيثما تعلق الأمر باللغة، كانت المواءمة بين المثالية والقوة أمرا غير عرضي بكل تأكيد، ولكنها تخضع لكل تغيير أساسي يمكن تخيله وتغييرات لا يمكن تخيلها بشكل صريح.

وثمة صدى آخر أحدثه ما ورد في نص رينان المقتبس. ففي عمله السابق حول أصل اللغة، أشار إلى اللغات السامية بوصفها «لغات مادية تماما، حيث يجهل فيها التجريد وتستحيل فيها الميتافيزيقية» (رينان، ١٨٥٨، ص: ١٩٠) [٦] ويدعي (على نحو غير مقنع) أن هذه هي الحالة المثالية التي توصل إليها في تحليله للقومية. فمن الممكن أنه كان يستخدم مصطلحي تجريد وميتافيزيقيا باتساق، ولكننا الآن في مرحلة جد متطورة كي نفهمهما. ومن الممكن أيضا أنهما يفيدان شيئا بالنسبة إليه لدى مناقشته السامية، وشيئا آخر لدى مناقشته نفسه.

ربط الهويات الإثنية الغامضة: السلتيون والفينيقيون

تعتبر الجزر البريطانية مكانا آخر حيث التخيلات اللغوية توجد بشكل قوي جدا. ففي اسكتلندا، حيث أقيم، تعتبر الغيْلية (السلتية) «اللغة الحقيقية» لهذا المكان أولا وقبل كل شيء، ثم اللغة الاسكتلندية، على الرغم من علاقتها بالإنجليزية. وإن الباعث السياسي لهذا الاعتقاد واضح. فإذا

كانت اسكتلندا مكانا سلتيا في الأساس، تماما مثلما لبنان فينيقية، فسيكون واضحا من هم الاسكتلنديون الحقيقيون ومن هم دون ذلك، وبذلك معرفة من هم الحكام الشرعيون. وقد بقيت اللغة الحقيقية القديمة لاسكتلندا حية في عدد محدود من النقوش ضمن مخطوط عرف بالبكتية Pictish. ولا شيء، يعرف عن الناس الذين كتبوا هذه النقوش. وفي الواقع، منذ زمن طويل والنقاش يدور حول اللغة ذاتها، بما أن بعض النقوش لم يستطع أحد حل شفرتها، لكن من الواضح أنها لا تنتمي إلى لغة هندية - أوروبية، بينما ينتمي الآخرون إلى لهجة سلتية فرعية لفصيلة الهندو - أوروبية. وهناك احتمال واحد يتمثل في أن الكتابة البكتية سبق لها أن كانت تستخدم إبان قدوم السلتيين، وجرى تبنيها كي تستخدم في لغتهم. إن السلتيين الذين نحن بصدد الحديث عنهم هم الذين سكنوا بريطانيا برمتها، ومنطقة آيل أوف مان Isle of Man قبل مجيء الرومانيين، وهم الذين كانوا يتحدثون إحدى لهجات اللغة السلتية p-Celtic التي كان يشار إليها بأنها بريطانية أو بريثونية Brythonic، وهي كلمة غالية تعني بريطانية. وكانت لغتهم منذ ذلك الوقت منشقة بشكل مميز عن اللغة السلتية. وإن اللغة «البريطانية» السلتية هي الشكل الوحيد للسلتية التي يجري التخاطب بها عبر الأراضي الاسكتلندية كلها، والأراضي المنخفضة والأراضي المرتفعة، وكذا بريطانيا بأكملها. وقد بقيت حية إلى يومنا هذا متجسدة في اللغة الغالية، والبريطانية، شمال - غرب فرنسا، نتيجة لهجرة متأخرة.

وطوال الفترة التي بدأ فيها القديس هارون سعيه إلى دعوة اللبنانيين إلى اعتناق المسيحية، بدأ ناطقو السلتية من الإيرلنديين في التوجه نحو اسكتلندا. وقد استمر هذا التدفق خلال القرون التالية تماما في اللحظة التي بدأت فيها القبائل الجرمانية تحركها نحو إنجلترا ونحو الأعلى باتجاه جنوب شرق اسكتلندا، ويحوزتهم اللهجات التي ستتطور إلى الإنجليزية والاسكتلندية. إن لهجاتهم الجرمانية هي التي حلت محل اللغة السلتية البريطانية من الأراضي المنخفضة لاسكتلندا. وإن اللغة السلتية الإيرلندية لم تصل قط إلى الجنوب. ولكن أصبح وجودها، مع ذلك، ثابتا جدا في الأراضي المرتفعة حيث أصبحت تعرف بالإيرس Erse، أو الإيرلندية، وأصبح من يتقن هذه اللغة ينظر إلى إيرلندا باعتبارها معيارا لغويا.

ولم تبدأ أي حركة تميز بين اللغة الإيرلندية للأراضي المنخفضة والإيرلندية، أي الغيلية، إلا في القرن السابع عشر، إذ جرى التأسيس لنظام هجائي مختلف عن ذلك الذي تتبناه الإيرلندية. وفي الواقع، عندما ترسخ مفهوم استقلال الغيبية اللغوية خلال القرون المتعاقبة، كانت تتغير التهجئات لا لسبب، وإنما لتمييزها عن معيار الإيرلندية. وتنشط هنا قوتان ثقافيتان. بالنسبة إلى الأولى فهي تتمثل في «القومية»، إذ أصبحت «القومية» الاسكتلندية قضية تطرح لأول مرة إبان فترة اتحاد التيجان العام ١٦٠٣ . فقضية الاستقلال الاسكتلندي كانت، بطبيعة الحال، قائمة منذ قرون، ولكن هذه الخطوات الأولى نحو التصور الحديث «للأمة» بوصفها مجموعة أصيلة وحقيقية وقائمة بذاتها تملك حقا طبيعيا في حكم ذاتي هو ما كان شيئا جديدا. وفي اسكتلندا كما في أماكن أخرى من أوروبا، كانت تتطور تخيلات لغوية بوصفها جزءا لا يتجزأ من التصور الجديد. وبما أن الهوية الاسكتلندية كانت تعرَّف أساسا بأنها غير إنجليزية، فإن اللغة المعروفة بالإيرس قدمت رمزا أكثر قوة من تلك المعروفة بالاسكتلندية، فقط لأن اللغة الاسكتلندية قريبة من الإنجليزية بشكل يمكن إدراكه. ولكن كان اسم Erse إلى جانب المعايير الأدبية الإيرلندية يفيد ضمنا التمييز دون ولاء لاسكتلندا. ومن هنا جاءت جاذبية الاسم الجديد، غيلية، ليؤسس للتخيل الضروري للغة اسكتلندية أصيلة على الرغم من أن هذا كان قبل أن يبدأ الناس بشكل مقصود في تمثلها باتباع معايير متميزة عن الإيرلندية. وبخصوص القوة الثقافية الثانية النشطة، فتتمثل في الدين، فقد كانت اسكتلندا متطرفة في كاثوليكيتها وبروتستانتيتها مقارنة بإنجلترا، وكانت الإيرلندية بطبيعة الحال مرتبطة بشكل فريد تقريبا بالكاثوليكية. ومع وجود الكنيسة البروتستانتية لاسكتلندا ككنيسة راسخة، وطوائف معارضة محصنين بين المزارعين الصغار وممثلين آخرين للسلتية الاسكتلندية الأكثر «أصالة»، كانت الدعوة إلى تمييز الغيلية عن الإيرلندية كبيرة جدا. أما الكاثوليكيون الاسكتلنديون الذين كانوا من المتوقع أن يقاوموا هذا السعي، فقد كانوا ممزقين، في حالات متعددة، بين جدول الأعمال الديني والقومي.

وأما في ما يختص برومانسيي نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، فقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك في تأصيل الفوارق الثقافية والإثنية بين «الأعراق» السلتية والجرمانية. ويتضح هنا من جديد أن المضمون

الإيجابي للتخيلات السلتية كان دائما أقل أهمية من شخصيتهم السلبية التي تعارض كل ما هو إنجليزي. ومن ثم، لا يمكن لنا أن نتجاهل حقيقة أن السلتيين والجرمانيين، مثل المسيحيين والمسلمين في الشرق الأوسط، لم يكونوا قط منعزلين ثقافيا بعضهم عن بعض، سواء في جزر بريطانيا، أو في أوطانهم الأصلية ذاتها الخاصة بهم حول بلجيكا وشمال ألمانيا، اللتين كانتا متداخلتين في ما بينهما. ومع ذلك، فقد كان يُتشبث بأي شيء يدعو إلى التفرد السلتي.

وقد ربط كرولي (١٩٩٦ه) جزءا مما كان يعد - في واقع الأمر - حركة ثقافية ضخمة جدا في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر للتأسيس باعتقاد يقر بأن السلتية كانت لغة آدم وأن العبرية واللغات السامية الأخرى تنحدر منها. وكتب ويليام شو (١٧٤٩ - ١٨٣١) وهو اسكتلندي الأصل، أن «الغيلية»، كما تهجّاها، «هي لغة يافث Japhet، التي كانت متداولة قبل الطوفان، ومن المحتمل أن تكون كلام الجنة» (شو، ١٧٨٠). بينما كان تشارلز فالنسي Charles Vallancey (١٧٢١ - ١٨١٢) مترددا في أن يخطو خطوة بعيدة بهذا الخصوص، ولكنه ظن أن الإيرلندية القديمة «من المرجح أن تكون مستعمرة قدمت من آسيا، لأن تسع كلمات من أصل عشر من هذه اللغة هي كلدية وعربية خالصة» (فالنسي، ١٨٠٢، ص:١٤). وليس هذا كله بوهم، حيث إنه كانت هناك قوات خضر منتشرة في مناطق تصل حتى تركيا الوسطى. ومما سبق، وبالإضافة إلى حقيقة أن لا العربية ولا السلتية تحتويان على الحرف الساكن p تم استقراء نتائج أبعد من أن تكون الدراسات الحديثة على استعداد للقبول بصحتها. وخشية أن يحسب أي شخص أن هذه المعتقدات ماتت وانقضى أمرها منذ زمن بعيد، بدأ كتيب المقرر التعليمي الصيفي للعام ١٩٩٩ الذي أقره مركز التعليم المستمر التابع لجامعة إدنبرة، جدولته بالنسبة إلى الغيلية الاسكتلندية بالفقرة التالية:

«وها هي فرصة عزيزة جدا لدراسة هذه اللغة السلتية، التي يشار إليها أحيانا بلغة جنة عدن. فبعد مرور ٢٠٠٠ عام تقريبا على تداولها، تتمتع الآن هذه اللغة برواج قوي». [هكذا وردت أحرف الطباعة المائلة في النص الأصلي]

وفي أسفل الصفحة، توجد قصيدة بالغيلية تدعوها لغة آدم.

وقد صنف فالنسي (١٧٧٢، ص: vii) الإيرلندية في عمل سابق له مع «اللغة البونية (القرطاجية) للقرطاجيين» (انظر أيضا فالنسي، ١٧٨٧). وتعتبر البونية Punic الشكل الروماني «للفينيقية». وأصبحت الوحدة الثقافية والعرقية السلتية ـ الفينيقية مفهوما مشتركا يصادفه المرء إلى يومنا هذا في إيرلندا ولبنان، وكذا في الإقليم الشمالي ـ الغربي الإسباني لغاليسيا، من قبل غاليسيين لهم تخيلاتهم الثقافية السلتية الخاصة التي ترتبط بقوميتهم التي تحمل كراهية إسبانية. وتتجلى الفائدة الكبيرة لكل من السلتيين والفينيقيين في تشكيل نصوص من الهوية القومية في أنهم لم يتركوا إلا النزر اليسير في شكل تسجيلات يمكن للمؤرخين المحدثين تفسيرها. إنهم شعوب شكلت أولا وقبل كل شيء من طرازات مشتركة اكتشفت بين الصنعات التي أنتجتها براعة الإنسان اليدوية، والتي نُبشت نبشا على امتداد مساحة واسعة من العالم. كما أنها شكلت نتيجة رغبة أكيدة تنمو في نفوس الشعوب المهمشة في العالم الحديث، لأن تأسيس أولوية سلفية لنفسها لا يمكن تفنيدها أو التعارض معها.

اللغة والتجريد وهوية رينان

لقد اقترحت، على الأقل من وجهة نظر معاصرة، أن هناك فجوة في تفكير رينان في ما يختص «بالتجريد»، الذي يعد مصطلحا رئيسا بالنسبة إليه في تحليله اللغوي ـ الإثنوغرافي والسياسي على السواء. فمن جهة، يمثل اختلاف الشعوب السامية عن الشعب الهندو ـ أوروبي في افتقار لغاتهم إلى المصطلحات المجردة المفترضة، التي تجعلهم حسب ظن رينان عاجزين عن التفكير المجرد. وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن يمثل سمة سلبية بشكل تام في الإطار الرومانسي الذي ورثه رينان عن هيردر Herder، فإنه مسألة مركزية في تجريد الشعوب السامية من نزعتها الإنسانية، التي استكشفها الكثيرون في عمله. ومن ناحية أخرى، يدعي رينان أن مزية تحليله للقومية يتجلى في تقويضه للتجريدات وإعادة الطابع الإنساني للقومية من خلال إعادتها إلى ما بعد الإرادة الإنسانية ورغبتها. ومهما يكن أي فهم في الفترة الراهنة للتجريد، فإنه يظل بعيدا جدا عن بلوغ هذا الهدف ليبقى تصور رينان الحقيقي «للإنسان» تجريدا مجردا من الطابع الإنساني.

إن النصوص المذكورة آنفا المشكِّلة للهويات المارونية والإسلامية هي جزء من خلق التخيلات الثقافية والتشبث بها، والتي هي تجريدات شكلت جزئيا انطلاقا من ملاحظة عامة، وجزئيا كذلك من رغبة مثالية تتحدى الملاحظة. ويمكن لهذه الرغبة المثالية ذاتها أن تفرض تأويلا على الوقائع التي يمكن ملاحظتها، مما يصعب دعمها بشكل موضوعي، كما هي الحال بالنسبة إلى هيكل طفل الأب ضو. وعندما تطبق عملية التجريد على الناس، فإنها تجردهم دائما من طابعهم الإنساني بشكل تلقائي. وأما في سياق الشعوب ذات المعتقدات المتعارضة، والموارد الاقتصادية والسلطة السياسية المريضة الموزعة بشكل غير عادل، فيوجد خطر دائم يجرد العدو من إنسانيته ليضعه في مقام الحيوان أو بشيئه. وهذا خطر جرى النفخ فيه بواسطة التجريد اللغوي والثقافي لهذا النوع. فقد قلصت الحرب باعتبارها مشكلا أخلاقيا من مستوى جريمة القتل العمد إلى ذبح الحيوانات أو إزالة النفايات.

ومن بين الأوصاف المهمة المتعددة لخطابات التهميش قدرتها على تمكين الناس الذين ليسوا مهمشين بالضرورة، وهذا ما حدث بالتأكيد في بريطانيا بعد ١٩٩٧، حيث كانت أكثر الشخصيات القوية في حكومة بلير «الإنجليزية» اسكتلندية، وحيث جرى مع ذلك تبرير أيلولة السلطة المركزية لاسكتلندا في خطاب التهميش الاسكتلندي والسلتي في واقع الأمر. وثمة تشابهات هنا بين الاسكتلنديين وموارنة لبنان، الذين يحصلون تقليديا على النصيب الأكبر من السلطة، ومع ذلك، يعتبر تصور المارونيين لأنفسهم، بوصفهم شعبا مهمشا تحت الحصار، أمرا واقعا وليس وهما إذا ما وضع في السياق الشرق أوسطي الأوسع وانتشار الإسلام في الأراضي المسيحية سابقا انطلاقا من القرن السابع إلى العهد الراهن. ويعاب على الاسكتلنديين أن هويتهم القومية تقوم على لغتين حيتين تلغي إحداهما مطالب المتعصبين للأخرى. وكان المارونيون محظوظين أن بنوا هويتهم بالكاد على لغة حية، ولغة كلاسيكية، السريانية - وحتى الفيلية تعتبر صحية بالمقارنة مع الآرامية الحديثة. ويستفيد كل شعب على حدة أيضا من لغة كانت قائمة خلال

حقبة ما قبل التاريخ، ويتعلق الأمر بالبيكتية والفينيقية، وهذا دليل هزيل جدا لا يسمح بمرونة لامحدودة في خلق التخيلات الثقافية والتحكم فيها.

إن بعض الناس جعلوا التهميش حجر الزاوية لهويتهم الشخصية. وكان من هؤلاء إرنست رينان الذي كتب ـ في نهاية القرن التاسع عشر هو وكُتاب سيرته والملقون عليها ـ الكثير عن أصوله البريتانية و«روحه السلتية»:

> «ولد إرنست رينان في مدينة «تريغييه» Tréguier، في الساحل الشمالي [الفرنسي] في ٢٨ فبراير العام ١٨٢٣. وتكون بذلك المرة الثالثة خلال ستين عاما التي تنجب فيها بريتاني رجلاً سيأخذ على عاتقه تحويل النزعة الدينية في عصره وتجديدها.
>
> ولم تكن شاتوبريان Chateaubriand ولاموني Lamennais حتما في عنفوانهما عندما توجه الشاب رينان إلى المدرسة لأول مرة في تريغييه. وبداخله، وداخلهم، العنصر العرقي القوي [...] المتصلب كصَوّان بريتاني تحت رحمة الزهور المهملة.
>
> [...] وينظر السحرة السلتيون إلى العالم عبر سديم خاص بهم، معتم ومبهر في الوقت ذاته، مليء بالنظرات الغامضة والغشاوات اللامعة، كالجو المتقلب لمستنقعاتها (دارميستتر، ١٨٩٨، ص: ٣ ـ ٤).
>
> إن القوة الخارقة للمثالية، ورقة الشعور التي لا تنضب، والتي تشكل الجوهر العميق للسلت، تفرض عليه [كبريتاني] صورة من الكهانة، ولباقة خالصة، يطابقها في قلبه باستمرار مع آدم الثائر القديم» (المرجع السابق ذاته، ص: ٧).

إن الإشارة إلى «آدم الثائر» في الفقرة الأخيرة تستحضر فكرة جنة عدن بوصفها جنة السلتيين، وأن التمرد ليس أمرا يتعلق فقط بآدم وحواء، بل كذلك يتعلق برينان في صراعاته الدائمة مع المسيحية والمؤسسة الكاثوليكية الفرنسية. إنه الكاهن الذي أصبح يقود شعلة العداء للنفوذ الإكليركي في السياسة، فلم يسمح له أن يرأس مجمع

اللغات العبرية السيرو - كلدية بكلية فرنسا الذي كان المرشح الواضح لهذا المنصب عندما شغر بدءا من العام ١٨٥٧ إلى ١٨٦٢، في وقت لم يكن بإمكان الحكومة تأخير تعيينه. وبعد ذلك بخمسة شهور من شغله أخيرا لهذا المنصب، طرد منه رسميا. ولكن عزته وعناده البريتاني الصلب جعلاه يرفض القبول بهذا الطرد.

وفي العام ١٨٦٠، وفي محاولة من نابوليون الثالث ليطفئ نار غضب رينان، الذي كان في السابعة والثلاثين، وأحد أكثر علماء فرنسا احتراما وأكبر قوة في الفكر السياسي الليبرالي، عرض عليه الذهاب في مهمة أثرية إلى الشام Levant - خاصة إلى «فينيقيا». فقبل رينان العرض بسرعة وقرر الذهاب بصحبة أخته الكبيرة المخلصة هينرييت Henriette.

> «ولم تكن ترتيبات سفرهما مكتملة عندما أجهز الدروز على مسيحيي جبل لبنان، فذبحوهم في معركة مقدسة [...]. فقرر نابليون على الفور حماية المارونيين البائسين. وكان المركب الذي يحمل رينان وأخته إلى بيروت من بين المراكب التي نقلت فرقة عسكرية فرنسية إلى سورية. ويبدو أن رينان المنهمك في نهايات العلم، قبل بالمسألة برمتها - مذابح، والعجز التركي، وذهاب الجيش الفرنسي إلى سورية، إلى غير ذلك - باعتبارها متحدة بشكل محظوظ، يصب في مصالح علم الأثر: «لقد كان حضور جنودنا على جناح السرعة عنصرا إيجابيا جدا في تخطيطي. وبذلك، كان كشفي عن الآثار مبسطا على نحو فريد، لقد أنجز من قبل الجنود. ومن ثم، أخذت مهمتي لفينيقيا ذلك المكان في البعثة السورية، الذي كان دائما يحبه الجيش الفرنسي، المنشغل بالأشياء الذهنية النبيلة، التي كانت تربطه بالعلم في مغامراته البعيدة».

وغافلا تماما عن صراع الأمة المعقد الذي يجري من حوله، كرس رينان، منظر القومية في المستقبل، جهوده للكشف عن القبور الفينيقية وشحنها في سفن متجهة نحو فرنسا.

ولم يكن بإمكان رينان أن يحمل عطفا للمارونيين ، الذين جلبوا لأنفسهم ألفا وثلاثمائة عام من البؤس، نتيجة لعنادهم المتصلب الشبيه بالصوان (ولربما كانوا سلتيين إذن) الذي نبذ المسيحية وراء ظهره، وهذا بالضبط ما لم يرفض رينان القيام به في أهم أزمة مر بها في حياته. وخلال فترة إقامته بلبنان، كتب ما سيصبح العمل الأكثر جذبا للقراء المعنون: «حياة المسيح» فلقد اعتبر هذا الكتاب، ومن دون أدنى شك، مدنسا للمقدسات. وكان ينظر إليه في وقته على انه كتاب مخز، بسبب إنكاره للمعجزات التي انجزها حسبما روي في العهد الجديد. وتسود هنا السخرية، فالجنود الفرنسيون الذين أرسلوا إلى لبنان قصد حماية الموارنة من الاضطهاد الديني بسبب إيمانهم بالمسيحية، جُندوا من قبل رينان للكشف عن قبور الفينيقيين القديمة، وهم الأسلاف الذين تستمد منهم الهوية المارونية جذورها، ثم نقل تلك القبور إلى أوروبا. وهكذا يقضي رينان أيامه، ويخصص لياليه لكتابة عمل سيوجه ضربة موجعة ضد المسيحية التقليدية في أوروبا ذاتها، بينما سيساعد رينان على السير قدما نحو شهرة شخصية واسعة وتفوق كبير باعتباره مفكرا ليبراليا وسياسيا مزعوما.

ولكن المهانة التي لحقت رينان على التو كانت مبتذلة ومَكدومة جدا حتى انه قد تساءل عما إن كان ذلك انتقاما من صنع معجزات المسيح الخارقة. وقبل مغادرته فينيقيا، أصاب رينان وأخته المحبوبة، وصديقة الروح هينرييت، داء الملاريا [٧]. وفي الوقت الذي تخلص فيـــه رينان من الداء، تمكن من هينرييت، فوافتها المنية على إثره. ولم يكلف نفسه أن ينقل جثمانها مع القبور الفينيقية التي كان بصدد إرسالها إلى فرنسا، وهي التي ربما ذكر اسمها كأخت له، مقرا بالجميل، بوصفها مؤلفا اشترك في كتابة «حياة المسيح»، حيث كانت فيه:

> «هينرييت المؤتمنة على أسراره على الدوام، إذ كلما كتبت صفحة، نقلتها بكل نزاهة. [...] «سأحب هذا الكتاب»، كما قالت، لأننا انجزناه معا. [...] (دارمستتر Darmesteter) (١٨٩٨، ص: ١٤٠)

فقد ترك جثمانها مع المارونيين الأغنياء حيث توفيت في منزلهم ليدفن في مدفن (تحت كنيسة) عائلتهم. وفي السنين الأخيرة، حاول رينان أن ينقل شهرته إلى السلطة السياسية، لكن جمهور الناخبين

تصدى له مرارا وتكرارا . ويتم تذكره بالأساس، في الوقت الحاضر، على انه أحد الأبطال الثلاثة المدشنين للاستشراق، إلى جانب سيلفيستر دو ساتشي Silvestere de Sacy وادوارد ويليام لين Edward William Lane (سعيد، ١٩٧٨، ص: ١٢٢).

وفي ضوء خطابه المؤثر عن القومية العام ١٨٨٢، أمكن لنا أن نتساءل عن ماهية الذاكرات، والرغبات، والقضايا المنسية التي تشكل هوية، أو لنستخدم تعبيره، «روح» إرنست رينان. وإن ذكرى الاختلاف البريتاني ـ السلتي أجاز له أن ينكر (أي ينسى) أنه فرنسي، وأنه من المخلصين للإرث الكاثوليكي. ولا ننسى أن السلتيين، وإلى عهد غير بعيد جدا، من حقبة ما قبل التاريخ، كانوا وثنيين. ومع ذلك، لم يكن رينان، السلتي السامي الأول في عصره، ليعتنق مفهوم الوحدة السلتية ـ السامية. وكان من الملائم أن يصرف النظر عنها (أي ينساها)، وإلا ربما شكك الناس في موضوعيته العلمية المفترضة التي يتباهى بها في أبحاثه السامية. ففي مناسبة واحدة سافر فيها بالفعل إلى أرض شعبها سام، كان من المناسب بالنسبة إليه أن يتجاهل (أي ينسى) وجودهم و ينقب عن قبور أجدادهم. ومن اجل أن ينسى احتمال انتماء هؤلاء الأسلاف إلى المكان الذي قد يكونون دفنوا فيه، والذي سيُنسَجون فيه بعمق إلى نص الذاكرة المشتركة التي تؤسس للأمة، بدلا من فرنسا. وإن كان في ذلك إنصاف، ترك رينان جثمان أخته في مكانهم. وقد كانت محاولته نسيان المارونيين متزامنة مع محاولته نسيان مسيحيته. وفي ١٨٨٢، أي في العام الذي انتخب بالذات لرئاسة الجمعية الأسيوية Société Asiatique، نسي في خطابه حول القومية أن أمم أوروبا الغربية لم يكونوا هم وحدهم الأمم آنذاك، وأن القوميات ليست عموما هي المواقع الأكثر أهمية للهوية كما علمته بالضرورة الصراعات التي شهدها بأم عينيه في لبنان. لقد نسوا كلهم أشياء كثيرة.

ومهما قيل أيضا عن إرنست رينان، فإن الرجل كان يدرك ما يقول، لدى تحدثه عن أهمية النسيان في صياغة هوية ما. غير ان هويته كانت شخصية معقدة تستحق شيئا افضل من ذم سعيد لها أو إنعاشات أندرسون التدريجية. ولم يكن العيب القاتل في الإطار الاستشراقي الذي كان يعمل رينان وفقه

بالقدر الذي يتخيل فيه الشرقي بوصفه الآخر. أي الصورة المكسية للذات الأوروبية ـ ولعل هذه عملية لا محيد عنها. كما تلمح إلى ذلك الدراسات «الاستشراقية» الحديثة. وبتعبير أدق. إنه الإطار الاستشراقي الذي يجرد الآخر من إنسانيته. ولعل هذا أمر لا محيد عنه أيضا. وكدليل على ذلك، دعنا نتأمل معالجة رينان نفسه من قبل سعيد (إدوارد) مثلا. فلا توجد أي محاولة نقيس الرجل من خلالها. لقد جرت حيونة «رينان» إلى مجموعة أفكار، أو بشكل أدق إلى مجموعة نصوص، وهي أشياء لم يكتبها رينان ذاته بشكل كامل. بل هي مجرد تأويلات سعيد لما كتبه.

ويمكن القول إن كل ما يمكن معرفته عن الرجل بعد وفاته، هي نصوص لا تزال على قيد الحياة، تلك التي كتبها بقلمه، وتلك التي كتبت عنه، بما فيها نصوص «كتبت» في الذاكرة الحية. وبإمكاننا المضي قدما، فنتساءل عما إذا كان في استطاعتنا معرفة أي شيء عن شخص حي بعيدا عن النصوص التي يقدمها لنا قصد التأويل، بما في ذلك اللغة ذاتها التي يستخدمها، والتي من خلالها نشكل الهوية التي نعزوها إليه.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن فهم الناس للآخرين، وهو ضرورة للعيش معهم في أمن وسلام. هو مسألة إدارة وتأويل نصي، كما هي الحال بالنسبة إلى الحرب. ومع احترامي لشخص سعيد، أشدد على أن معالجته لرينان أعادت إنتاج العمليات النصية بالذات التي كانت وراء الاستشراق نفسه، ووراء النصوص التي أسست لهويات متحاربة كتلك التي تنسب إلى الأب ضو. فإن ثمة أدلة كافية تبين مساهمة كتابات رينان في تطوير التمييز العنصري الأوروبي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (انظر عمل جوزيف حول هذه الفكرة، سينشر قريبا) تغنينا عن تقييمه وافيا، مع الأخذ بعين الاعتبار السياقات التي كان يكتب وفقها، وتأثيره في السياسة الليبيرالية عموما والسياسة تجاه الشرق الأوسط خصوصا، ومساهماته العلمية الحقيقية للغويات السامية (والتي لا أظن أنها كانت تقيم بشكل مستقل في يوم من الأيام). وكانت الحصيلة استبعاد أن يكون لدينا رينان قديس. وإنما رينان شرير. ولكن إذا كان في الوقت ذاته رينان إنسانا. فسنكون قد كسبنا فهما أكثر اكتمالا حول الأشياء التي حولته إلى شخص نبغضه. وبذلك، سنكون قد طبقنا تلك الأنسنة humanisarion التي سبب غيابها أن صارت اللغة مختصرة في أشكال مجردة من الطابع الإنساني.

نظرة معلوف الطوباوية المعادية للهوية

ولد أمين معلوف في لبنان العام ١٩٤٩، داخل أسرة مَلْكية (من طائفة الكاثوليك الإغريق)، ولكنه عُمد كبروتستانتي، بسبب التأثير السائد في أسرة أبيه آنذاك. ولتثبيت التوازن، أصرت أمه على تعليمه في مدرسة فرنسية ذات توجه يسوعي. وعندما غادر لبنان في العام ١٩٧٦، بعد اندلاع الحرب الأهلية، هاجر إلى باريس مفضلا العيش فيها إلى يومنا هذا. ويكتب معلوف رواياته، وأعماله التاريخية وأخرى غير الخيالية باللغة الفرنسية بدلا من أن يكتبها بلغته الأم.

ويدرك معلوف الحاجة القوية والكلية للهوية، إذ ينظر إليها بمنزلة مناعة تنمو في وجه «العولمة» الملحوظة. ويجادل في أنه على الرغم من أن الدين أصبح الملاذ الرئيس للهوية في العالم العربي عقب انهيار القومية العربية (بعد ناصر) والبديل الماركسي، فليس ثمة أمر حتمي يبقي الوضع على حاله. بل العكس، سيكون من المرغوب فيه جدا بالنسبة إليه ألا يبقى كذلك، لأن مزج البعد الروحي للدين، الذي يلبي حاجة إنسانية أساسية، والذي لابد أن يكون متصفا بالعمومية، بقدر لا يستهان به من الحاجة الأساسية إلى الهوية التي توصف بالتخصيصية particularism - وإن كانت موزعة بين كل الأشخاص - ينتج خليطا قويا بشكل مفرط، يمهد فيه العقل الطريق بسهولة جدا للانفعال القاتل والمبيد.

وبخلاف رينان، لم ير معلوف نفسه «دخيلا» على الثقافة الفرنسية. وهو يدرك أن كثيرا من أبناء جلدته يعتبرونه قريبا له: ولكن أيضا، إذا ما صادف شخصين، أحدهما من إثنية فرنسية، والثاني مسلم من شمال أفريقيا، يتقاتلان بحد السكين، وأدرك الفرنسي أصوله، فسيستجد به لما يجمعهما من أرضية مشتركة تهم الدين، والمواطنة، واللغة، وأمورا ثقافية أخرى. فالمسلم يجادل في أن العربية التي يشترك فيها مع معلوف، إضافة إلى غربتهما السامية المشتركة في فرنسا، يمثلان رابطة أكثر عمقا.

ويعترف معلوف بأن كليهما على حق، وإن عجزه عن أن يقنع الطرفين بإلقاء سلاحهما، سيؤازر، لا محالة، الطرف الذي يبدو أضعف في هذه المعركة.

وإن صهر الهويات التخصيصية، في رأي معلوف، في الأفراد أنفسهم يخفف من متناقضاتهم. وهذا ما وقع مع بعض من شخصياته البارزة جدا، خاصة في روايته «ليون الأفريقي»، التي تقوم على شخصية حقيقية من القرن السادس عشر. وقد ولد حسن الوزان في غرناطة، وفر إلى المغرب غداة إعادة غزو غرناطة، وأصبح سفيرا، وألقي القبض عليه من قبل قراصنة صقليين، لدى عودته من الحج من مكة. فقدمه القراصنة هدية للبابا ليو العاشر الذي تبناه. وكجان ليون دو ميديسيس Jean-Léon de Médicis. فقد كتب كتاب «وصف أفريقيا» الهائل الذي أصبح المرشد النموذجي للقارة إلى العصور الحديثة. وقد اعتنق المسيحية، ولكنه في أواخر عمره استأنف التزامه بالإسلام. ففي رواية معلوف، يقول ليون المسن لولده ما يلي:

«لقد كنت في روما، «ابن الأفريقي»، وفي أفريقيا، ستكون ابن الرومي». فحيثما كنت، سيريد بعض الناس أن يحدقوا في جلدك، وفي صلواتك. احترس، يا بني، من أن تطفئ غرائزهم؛ واحترس من أن تكشف سرك في حضرتهما سواء أكان من تتعامل معه مسلما أم يهوديا أم مسيحيا، فسيتعين عليهم أن يقبلوك كما أنت أو يخسروك. وعندما يتضح لديك ضيق في الروح الإنسانية، قل لنفسك إن أرض الله واسعة، سعة يديه وقلبه. فلا تتردد لحظة في أن تبعد نفسك عن كل شيء، فتشق طريقك إلى ماوراء كل بحر، وكل حدود، وكل وطن، وكل اعتقاد». (معلوف، ١٩٨٦، ص: ٣٤٩، ترجمة الكاتب من الفرنسية إلى الإنجليزية).

إن استعداده هذا لأن ينأى بنفسه عن أي شكل من أشكال الهوية القومية أو الدينية أمر أساس بالنسبة إلى شخصية ليون. فلا أحد مسؤول عن معتقدات المرء وانتماءاته سوى المرء نفسه والله. فالهوية وفق هذا المفهوم، عميقة ولا تتغير، ولكنها غير معروفة لدى أي شخص آخر. فنحن نشكل هويات زملائنا من بني البشر؛ إنها سبب الضيق والاضطراب، ولا بد لنا من أن نتخلص منها.

ويسهب معلوف القول فيعتبر هذه المسألة حالة نفسية بالنسبة إلى شخص يتحدر من جذور مختلطة.

«إن الإنسان الذي ولد من أم صربية وأب كرواتي، واستطاع أن يتقبل هذا الانتماء المزدوج، لن يشارك أبدا في أي شكل من أشكال «التطهير» العرقي. وإن الإنسان الذي تعود أصول أمه إلى الهوتو، وأصول أبيه إلى التوتسي، إذا ما استطاع تقبل هذين الرافدين، اللذين أتيا به إلى هذا الوجود، فلن يكون طرفا أبدا في مجزرة أو إبادة جماعية. فلا الصبي الفرنسي ـ الجزائري، ولا الشاب ذو الأصول الألمانية والتركية المختلطة التي أشرت إليها سابقا، سيقفان بجانب الأشخاص المتعصبين، لو هما تمكنا من العيش في أمان ضمن سياق هوياتهم الخاصة المعقدة.

[...] نحن لا نتعامل مع حفنة من الناس المهمشين، بل هناك الآلاف، والملايين من أمثال هؤلاء الرجال والنساء، وسيتضاعف عددهم أكثر». (معلوف، ٢٠٠٠ [١٩٩٨]، ص: ٢٠ ـ ١)

إن هذه الرؤية أخاذة، على الأقل سطحيا، بسبب حيادها، ووجاهتها السياسية. ولكن الكثير هنا يتوقف على تقبل الفرد للإرث المزدوج، واعترف معلوف نفسه بذلك الخطر الذي تطرحه.

«فمن ناحية أخرى، لعل اولئك الذين لا يستطيعون تقبل تنوعهم الخاص كانوا من بين أشد الناس قسوة من أولئك الذين يجسدون ذلك الجزء من ذواتهم والذين يرغبون أن يروه نسيا منسيا. ويحتوي التاريخ على أمثلة عديدة على هذا الكره للذات». (المرجع السابق نفسه، ص: ٣١).

ومع ذلك، يتصور في نهاية كتابه أن كل هذه الفوارق، امّحت وتلاشت:

«إنني أحلم باليوم الذي أستطيع فيه ان ادعو كل الشرق الأوسط وطني، كما أفعل الآن مع لبنان، وفرنسا، وأوروبا: اليوم الذي أستطيع فيه أن أدعو كل أبنائه، المسلمين، واليهود، والمسيحيين، على اختلاف طوائفهم الدينية واختلاف أصولهم، أبناء بلدي. فحسب رأيي الخاص، الذي هو دائما تخميني ومستبق للأحداث، إن هذا اليوم رأى النور من فترة. ولكن اريده أن يحدث يوما ما على أرض الواقع، ولكل شخص». (المرجع السابق نفسه، ص: ١٣٢)

هذه رؤية رائعة، مرة أخرى. ولكن سبيفاك Spivak (٢٠٠٠ [١٩٩٣]، ص: ٢٩٧)، يرى أن «محاولة فهم ذواتنا هو ما ينتج الهوية». إن الهوية هي التي تعطي معنى، أو حبكة، لحياتنا. وتشمل الحبكات دائما موهبة وبحثا، كما يتبناها التقليد من برويبPropp إلى غريماس Greimas. وتتضمن الأبحاث وجود قوات معادية تقف في طريق بلوغ المرء لهدفه. وأما المواهب، فتتضمن وجود حام ما، أي حام يحميها، مرة أخرى، من قوى معادية. فمن السهل بالنسبة إلى شخص مثلي أو مثل معلوف، ممن هم بعيدون عن المشاجرة والإثارة، أن يتحمل العبء ويعلن عن أن البحث الحقيقي يكمن في البحث عن السلام والأخوة. ولا أحد يملك الحجة على هذا من دون أن يدين نفسه على تعصبها. وليست رؤية معلوف طوباوية في مجملها، بل تتحقق إذا ما وقف مسيحيو الشرق الأوسط، ويهوده، ومسلموه في صف واحد ضد عدو مشترك يبغضونه أكثر مما يبغض بعضهم بعضا. وقد عملت الامبراطورية العثمانية على هذا النحو بالضبط.

وعلى الرغم من علاتها، خاصة ما يتعلق بتاريخها الأخير، فيجب علينا ألا ننسى أن كل تلك الأماكن الساخنة الحالية من البوسنة وكوسوفو إلى فلسطين وإسرائيل، والعراق وليبيا كانت تحت سيطرة السلطان، علما بأن هذه الدول كانت تملك أساسا القوة الداخلية نفسها عند شنها الحرب بعضها ضد البعض الأخر، باستثناء قوة إسرائيل الحديثة التي لا تضاهيها قوة. وكما أوضح الوجود الأمريكي في العراق العام ٢٠٠٣، لو تدخلت قوة غربية أو مجموعة من القوى، من أجل «إيجاد الحلول للأزمة»، وكلها نية للقيام بذلك على شكل منصف، من دون أن تفضل مجموعة إثنية على الآخرين (وما نخال هذا إلا ممكنا حتى اللحظة)، لجنبوا أنفسهم غضب المنطقة الشديد، ولوحدوا الشعب على اختلاف هوياته. وبذلك، تتحقق رؤية معلوف. وبتعبير رينان، نسي الشعب الشرق أوسطي عداواته بعضه تجاه بعض فقط لتشكيل وحدة ضد العدو المشترك، الذي قد يشمل، مع الأسف، معلوف وشخصي.

وإن ما يعتبر خطرا بالفعل، حسب رأيي، هو الأمل في حلول مطلقة، بما فيها حلول معلوف. والرهيب في الأمر أن لرؤيته الطوباوية للسلام شيئا مشتركا أساسا مع سوء الرؤيا الطوباوية لأولئك الإسرائيليين المتشددين الذين يخلقون الوطنية عبر قوة قاهرة، وأولئك الراديكاليين الذين ينتظرون اليوم الذي يرون فيه الإسرائيليين ملقين في البحر. بينما تحركهم معتقدات دينية، يحرك معلوف اعتقاد بالكمال المطلق للإنسان الذي من المرجح أن يكون قد بلغه عبر تعليمه الفرنسي. وهذا هو الإرث العقلاني نفسه الذي دفع برينان لأن يرفض العقيدة الأرثوذكسية، ولو أنه حدد هذا الرفض في عدم فرنسيته، وتصرفه السلتي مع الروابط السامية المفترضة.



الخاتمة

الهوية ودراسة اللغة

لقد حاول هذا الكتاب تقديم نظرة شاملة عن كيفية تشكل الهويات القومية، والإثنية، والدينية عبر اللغة، وكيفية تشكل اللغات عبرها. وحاول أن يبين كيف أن هذا الفهم للغة أصبح جزءا من علم اللغة الحديث، كما دافع عن أهمية الهوية اللغوية ضمن فهم علمي للغة. ولا يحتاج المرء إلى أن ينظر بعيدا كي يجد الموقف المتعارض. ويتساءل كثير من اللغويين، خصوصا أولئك الذين يؤمنون «باستقلالية» العقل اللغوي، عما إن كان للغة في علاقتها بالهوية، أي صلة بها، في نطاق ما يدرسونه، بوصفها نسقا شكليا من التمثل والتواصل. ولكن، أي دراسة لغوية تحتاج إلى أخذ الهوية بعين الاعتبار، إذا أرادت أن تكون دراسة تامة وغنية، وذات مدلول. لأن الهوية ذاتها لا يكتمل مدلولها إلا في جوهر اللغة، وفي كيفية الوظيفة التي تؤديها هذه اللغة، وفي الطرق والأسباب التي عملت على ظهورها إلى الوجود وتطورها، وفي كيفية تعلمها واستخدامها كل يوم من قبل كل مستخدم لغة في كل وقت وحين.

«تتجلى أهمية البحث في اللغة والهوية، على نطاق واسع، في مساهمته في إعادة «أنسنة» علم اللغة»

المؤلف

ولما كان المتكلمون والكتاب يدركون هذا بشكل متأصل، نجد أن كلا من الشكل والمضمون للإنتاج اللغوي مشكل، وكثيرا ما تحركهما إملاءات الهوية. كما أن الفهم والتأويل مشكلان أيضا، وكثيرا ما يحركهما إدراك الهوية. فلقد تشكلت الهويات الحقيقية للغات التي نستخدمها بهذه الطريقة. وإن التحديد التاريخي «للغة ما»، مثل الصينية، أو الإنجليزية، أو الكويتشوة Quechua [1] كان دائما يرتبط ارتباطا وثيقا بالتأسيس لهوية دينية، أو إثنية، أوقومية. وقد بسط أندرسون Anderson (١٩٩١) فكرة أن اللغة هي الأساس الذي يقوم عليه تخيل الأمة. وبينما يمتدح عمله على تنبيهه المفرط على صلة اللغة-الأمة، تقترح دراسة تاريخ اللغات ذاتها ألا أحد يشكل أساسا لمبنى الآخر، بل إنهما، بدلا من ذلك، يشبهان مبنيين توأمين، بنيا بطريقة يتحمل فيها كل مبنى وزن الآخر (مجاز لا أستطيع أن أضمن قابلية تطبيقه). ولكن لا يمكن أن نلقي باللائمة على أندرسون، في وقت نرى فيه اللغويين أنفسهم، الذين عجزوا عن أن يتصالحوا مفاهيميا مع «لغة ما» بهذا المفهوم العادي، يفضلون إنكار وجودها جملة وتفصيلا، أو ينزلونها منزلة دنيا من عالم النسيان الذي يعتبر غير حقيقي بما فيه الكفاية كي يستحق بحثا علميا أو دعما.

وإن «اللغة» من منطلق ما يقوله شخص معين أو يكتبه، من وجهة نظر تهم الشكل والمضمون على حد سواء، مسألة مركزية بالنسبة إلى الهوية الفردية. إنها تدون الشخص ضمن هويات قومية، وأخرى مشتركة تتضمن تعيين «منزلة» الشخص داخل الهوية. إنها لا تشكل نصا مما يقوله الشخص، بل تشكل نصا من الشخص ذاته، إذ من خلال ذلك سيقرأ الآخرون هوية الشخص ويؤولونها بطرق أكثر غنى وتعقيدا. وإن ما ينتجونه من إفراط في القراءة، سيكون، في واقع الأمر، أغنى مما يتحمل النص ذاته.

ويتصل مصطلح «اللغة المعيارية» بكل هذه الوظائف، ولو أنها تتصل بشكل واضح أكثر بالهوية القومية، بما أن تفسير«لغة ما» قوميا يغطي دائما قدرا كبيرا من التغير في اللهجات. وفي بعض الحالات، مثل تلك المتعلقة بـ «اللغة الصينية»، تختلف اللهجات التي تندرج داخلها بعضها عن بعض، مثلما تختلف الإنجليزية عن السويدية. ويتطلب إدراك تخيل اللغة المعيارية ومن ثم الحفاظ عليه، تأسيسا للمؤسسات، على نطاق واسع، وذلك من خلال المدارس، والتحرير، والقواميس، وكتب الصرف والنحو، والنصوص المعتد بها. ونظم

الفحص والتوظيف: وأما على المستوى الضيق، فلا بد من اعتماد الجوائز، والتصحيحات، والتوبيخات، والمكافآت والعقوبات. ومن المهام الملقاة على عاتق بعض هذه المؤسسات ترسيخ الأمة بطرق واضحة و«عادية»، خصوصا عبر المدارس، والنصوص المعتد بها ذات الاهتمام بالتاريخ القومي، والتربية المدنية، والأدب، وحتى البلاغة والنحو، اللذين يستعملونهما. ويوجد من وراء المؤسسات ذات النطاق الواسع قوى محركة عادة ما تتضمن واجبا نحو الأمة، وواجبا دينيا، أو هما معا. وبينما يمكن لهذه القوى ذاتها أن تقف خلف المؤسسات ذات المستوى الضيق، فإنها التحقت هناك بعناصر قوية ذات دافع شخصي. وإن إحدى الوظائف الرئيسة للغة المعيارية تتجلى في تثبيت تسلسل هرمي لقياس الأفراد؛ وأما الوظيفة الأخرى، فتتمثل في محاولتها ضبط عناصر الهوية الفردية المتاحة للتأويل (إفراط التأويل) في اللغة.

وكما نوقش ذلك في فصول سابقة، فبقدرما تشمل الهوية التصنيف، فإنها تعتبر نوعا من التمثل، وبقدرما تشمل تفاعلا لغويا بين الناس، فإنها تعتبر نوعا من التواصل. ومما لا ريب فيه، فإن وجود إمكان تفتيت الهوية إلى أجزاء، بحيث يمكن لكل جزء أن يصنف بوصفه تواصلا أو تمثلا (أوتمثلا ذاتيا). ومع ذلك، يجب القول، على الأقل، إنه عند تأويلك لماهيتك، تحتل هويتك مكانة ممتازة فوق العادة بين تمثلاتك اللغوية للعالم بالنسبة إلى ذاتك؛ وإن تأويل الناس الآخرين لهويتك لهم مكانة ممتازة بالنسبة إليك إلى حد كبير ضمن تمثلاتهم للعالم بالنسبة إلى ذواتهم. ومما لاجدال فيه أن التمثل الذاتي لهوية المرء هو المركز المنظم لتمثلاته للعالم المشكل لها. وفي التواصل، وعلى نحو مماثل، يُشكِّل تأويلنا لما يقال لنا ويكتب وينظم وفق تأويلنا لهوية أولئك الذين نتواصل معهم.

وسواء قلنا إن الهوية أمر أساس بالنسبة إلى الغايتين التقليديتين للغة، أو إنها تشكل في حد ذاتها غاية ثالثة تنضوي تحت الغايتين الأخريين، فهذا لن يغير من واقع الأمر شيئا، لكن المهم أن نفهم أنه إذا اقتصر استخدام الناس للغة تحليلها على كيفية تشكيل المعنى وتمثيله في صوت، أو نقله من شخص إلى آخر، أو حتى اقتران الاثنين معا، فإن ثمة شيئا حيويا سيزول: الناس أنفسهم، الذين كانوا حاضرين دائما، قبل هذه الإزالة، في ما يقولون عبر الهوية التي تمكن استعادتها في (أو على الأقل يمكن تأويلها من خلال) صوتهم، الذي يتجلى في ما يتلفظون به، أو يكتبونه أو يومئون إليه. فلا بد من تفسير واف للمعنى اللغوي يتضمن

كيفية ظهور هوية المتكلمين بوضوح وتأويلها. ولا بد له أن يدرك أن المتكلمين أنفسهم هم جزء من المعنى، ممثلين داخل التمثل. كما تدعو الضرورة إلى تفسير مفصل للتواصل اللغوي لا تكون نقطة انطلاقه رسالة ما، بل مرة أخرى المتكلمون أنفسهم وتأويلهم بعضهم لبعض، الذي يحدد تأويلهم لما قيل، بشكل تفاعلي.

ومن هذا المنطلق، تتجلى أهمية البحث في اللغة والهوية، على نطاق واسع ، في مساهمته في إعادة «أنسنة» علم اللغة. وقد بدأ هذا المشروع من «الأنسنة» بصورة متقطعة، منذ الثلث الأول من القرن التاسع عشر، وليس بعيد الفترة التي بدأت فيها دراسة اللغة واللغات تنفصل عن دراسة النصوص الواقعية، وعن أي تفكير في دور الإرادة (انظر جوزف، b٢٠٠٢، ص: ٤٧). وخلال القرنين التاسع عشر والعشرين، طغى باطراد على المحاولات الداعية إلى إعادة تدوين البشر داخل اللغة، كما درس ذلك اللغويون، الدافع إلى إزالتهم مرة أخرى على أساس أنهم يعقدون الأشياء إلى درجة يجعلون فيها الوصول إلى النتائج العلمية أمرا مستحيلا. وسيكون من المستغرب أن يرى العلم أن الطريقة الوحيدة، العليمة لدراسة الحمية، مثلا، تجري بإزالة كل من الطعام وآكليه من أجل تحديد مبادئ وثوابت مجردة ذات علاقة بالحمية. وقد يكون هذا تمرينا فكريا مهما، ولكن لا أحد سيرى بجدية إمكان أن تكون هذه هي طريقة الدراسة العلمية الوحيدة، وأنه لا توجد أي دراسة لما يأكله في الواقع أناس حقيقيون، وتأثير ذلك الأكل في حياتهم. ومنذ زمن واللغويون يندبون، بحزن وأسى، تقلص فرعهم المعرفي، فعزوا ذلك إلى قوى خارجية متعددة، وأخفقوا في أن يأخذوا بعين الاعتبار مدى إمكان تحميل مسؤولية هذا المشكل للإصرار المحرك أيديولوجيا، الذي يشدد على أن اللغويات التي تجرد الإنسان من إنسانيته هي وحدها التي يمكن أن تحظى بالعلمية. وإن العلم الحقيقي لا يتطلب، ولم يكن دائما يتطلب، الدقة في المنهجية فقط، ولكن أيضا يتطلب رؤية واضحة. ولا يمكن لأي منهما القيام بذاته. وإن مستقبل علم اللغة يعتمد على قدرتنا على أن نعيد ابتكار الدقة والصرامة بطريقة تسمح بتحقيق جميع التطبيقات العلمية الممكنة لهذا الحقل المعرفي.





الهوامش

(١)

(١) لقد أصبحت هذه الفقرة بمنزلة دافع قوي رئيس بالنسبة إلى هودسن Hodson (1939)، وتأتي ضمن مقال يضم أول ظهور معروف لكلمة socio-linguistics علم اللغة الإجتماعي (انظر هايمز Hymes، ١٩٧٩؛ جوزيف، ٢٠٠٢، 2002 a، ص: ١٠٨).

(٢)

(١) وللتعرف على تاريخ أكثر اكتمالا لهذه التطورات، انظر نيرليخ (Nerlich) وكلاركي(Clarke) (1996).

(٢) وتنحصر حجية تايلور نفسه في التواصل. كما يرفض أي فكرة تأخذ بالتمثل في لغة الحيوان باعتباره شكلا من أشكال الأنثروبومورفية. ويبقى العائق الأساسي متمثلا في الإصرار على الوضعية المهمة غير العادلة للذات اللغوية العملية.

(٣) لقد تم تقديم آراء مماثلة بشكل رائع من قبل توماس رايد (Thomas Reid) (1710-96)، وهو المؤسس للمدرسة الفلسفية «للتفكير السليم» الاسكتلندي. وقد أشار إلى هذه «المفاتيح الدقيقة» بوصفها «علامات طبيعية» (انظر رايد، ١٧٦٤، ١٧٨٥).

(٣)

(١) ومن أجل تفاسير وافية لنسق سوسير، انظر جوزيف (١٩٩٩) و(عمل جوزيف القادم: b). وللاطلاع على نتيجة بنيويته انظر جوزيف (٢٠٠١). كما يمكن أن يوجد تفسير أكثر اكتمالا حول اللغة والسياسة في القرن العشرين في عمل جوزيف (٢٠٠٤).

(٢) الجديرة ملاحظته أن شعب كوبنهاغن (Copenhagen) كان في عام ١٩٢٥ أكبر مما هو عليه اليوم، بسبب عملية توسيع المدن (suburbanization) منذ الخمسينيات. ومع ذلك، فإن آراء يسبورسن، في حقيقة الأمر، حول التمدن (urbanization) وتأثيراته اللغوية جرى تطويرها مسبقا في كتاباته التي أنجزت في التسعينيات من القرن التاسع عشر.

(٣) هناك كتابات أخرى لسابير حول موضوع اللغة والشخصية تضم «سابير، ١٩٢٧ و١٩٩٤».

(٤) غالبا ما يضع المؤرخون لعلم اللغة عبارة «فرضية سابير - وورف» بين «علامات اقتباس مفزعة»، لأنه لا سابير ولا وورف نطقا بها على أنها فرضية. وبحسب كل واحد منهما، فإنها قدمت مجموعة أفكار أكثر تعقيدا إما من الراي «القوي» المصادف بشكل طبيعي وإما من الراي «الضعيف» الذي تشكله (للاستزادة، انظر جوزيف، ٢٠٠٢، ص: ٧١ - ٢). ولكن، من الآن فصاعدا، سأحذف علامات الاقتباس المفزعة متنصلا منها.

(٥) انظر وورف (١٩٥٦)؛ جوزيف وآخرين (٢٠٠١، الفصل الرابع). ولفحص واف لفكر وورف ومقالاته النقدية التي وجهت ضد تحليله للهوبي (Hopi) ونتائجه التي استخلصها منها، انظر لي (Lee) (١٩٩٥).

(٦) ومع ذلك، فإن تحليلات فورث السيستيمية المعقدة للغة تشترك في بعض السمات مع البنيوية المعاصرة (انظر فورث، ١٩٥٠، ١٩٥١؛ جوزيف، ٢٠٠٢ b، ص: ٥٨).

(٧) ومع ذلك، إن بعض الماركسيين إلى يومنا هذا، من أمثال هولبورو (Holborow) (١٩٩٩)، يصرون على أن البنيوية أومابعد البنيوية هي النقيض المباشر لمذهبهم لأنها تجعل الحقيقة في اللغة بدلا من الصراع الطبقي بشكل فريد.

(٤)

(١) لقد أوضحت الأعمال الأولى لبرنشتاين الأشخاص الذين اتخذهم أسلافا له: «من الواضح لدى كل طالب سوسيوجيا اللغة، مقدار ما تدين به لإدوارد سابير وأتباعه الذين عبّدوا الطريق نحو دراسة علمية للمؤسسة الاجتماعية للغة» (برنشتاين، ١٩٥٩، ص: ٣٢٢). وإن عمله الأول (برنشتاين، ١٩٥٨)، في هذا السياق، يعد وورف «التابع» الرئيس لسابير الذي كان مبعث إلهام بالنسبة إلى برنشتاين.

(٢) لمزيد من الأفكار النقدية حول دراسات لامبورت الأولى، انظر إدواردز (١٩٩٩).

(٣) للاطلاع على العلاقة المعقدة بين البنيوية الفرنسية والماركسية، انظر جوزيف (٢٠٠١).

(٤) هذا مظهر من إرث ماركس الرومانسي ـ قارن ملاحظات حول الرأي الرومانسي حول «العبقرية» في ص ٤٤.

(٥) إن habitus هو في الواقع مصطلح مبجل جدا، إذ يستعمل بكثرة في فلسفة القرون الوسطى ليحمل معنى يشبه إلى حد كبير المعنى الذي أحياه بورديو.

(٥)

(١) بينما يمكن أن تكون الشروط الحالية على الأرض قد تناولته في بعض الأماكن في أوقات معينة، يبقى من الصعب الاعتقاد أن تكون اي أمة انغلقت على نفسها بالكامل في وجه أي دخيل لمدة طويلة. وإن انتشار الديانات ومفاهيم ثقافية أخرى وإنتاجات اصطناعية توحي بفرضية انه إذا كانت أي جماعة في مأمن من أي اتصال وتأثير خارجيين، فمن الممكن أن يكون ذلك فقط لفترات قصيرة نسبيا من رد فعل قوي ضد تهديد متزايد لغزو أو تسلل. وفي النهاية، إذا كان التهديد قويا بما فيه الكفاية ليثير رد الفعل القوي هذا، فمن المحتمل ان يكون قد حدث على الأقل جزئيا.

(2) [V]ulgarem locutionem appellamus eam quam infants assuefiunt ab adsistentibus, cum primitus distinguere voces incipient; vel quod brevius dici potest, vulgarem locutionem asserimus, quam sine omni regula, nutricem imitantes, accipimus.

(3) Est et inde alia locution secundaria nobis, quam Romani gramaticam vocaverunt. Hunc quidem secundariam Greci habent et alii, sed non omnes. Ad habitum vero huius pauci perveniunt, quia non nisi per spatium temporis et studii assiduitatem regulamur et doctrinamur in illa.

(4) Harum quoque duarum nobilior est vulgaris: tum quia prima fuit humano generi usitata; tum quia totus orbis ipsa perfruitur, licet in diversas prolationes et vocabula sit divisa: tum quia naturalis est nobis, cum illa potius artificialis existat.

(5) Postquam venati saltus et pascua sumus Ytalie nec pantheram quam sequimur adinvenimus, ut ipsam reperire possimus, rationabilius investigemus de illa, ut solerti studio redolentem ubique et necubi apparentem nostris penitus irretiamus tendiculis.

(6) [U]numquodque mensurabile fit secundum quod in genere est, illo quod simplicissimum est in ipso genere. Quapropter in actionibus nostris, quantumcunque dividantur in species, hoc signum inveniri oportet quo et ipse mensurentur.

(7) Que quidem nobilissima sunt earum que latinorum sunt actiones, hec nullius civitatis Ytalie propria sunt et in omnibus comunia sunt: inter que nunc potest illud discerni vulgare quod superius venabamur, quod in qualibet redolet civitate nec cubat in ulla [...].

(8) [S]iempre la lengua fue companera del imperio, i de tal manera lo siguio que junta mente començaron, crecieron i florecieron, i despues junta fue la caida de entrambos.

(9) I, por que mi pensamiento i gana siempre fue engrandecer las cosas de nuestra nacion i dar alos ombres de mi lengua obras en que mejor puedan emplear su ocio, que agora lo gastan leiendo novelas o istorias embueltas en mil mentiras i errores, acorde ante todas las otras cosas reduzir en estenderse en toda la duracion delos tiepos que estan por venir, como vemos que se a hecho enla lengua griega i latina, las cuales, por aver estado debaxo de arte, aunque sobre ellas an pasado muchos siglos, toda via quedan en una uniformidad.

(10) [D]espues que Vuestra Alteza metiesse debaxo de su iugo muchos pueblos barbaros i naciones de peregrinas lenguas, i conel vencimiento aquellos ternian necessidad de recebir las leies quel vencedor pone al vencido i con ellas nuestra lengua, entonces por esta mi Arte podrian venir enel conocimiento della, como agora nos otros deprendemos el arte dela gramatica latina para deprender el latin.

(11) Marcio [P]ues tenemos ya que el fundamento de la lengua castellana es la latina, resta que nos digáis de dónde vino y tuvo principio que en Espana se hablassen las otras quatro maneras de lenguas que oy se hablan, como son la catalana, la valenciana, la portuguesa y la vizcaína.

Valdés [D]os cosas suelen principalmente causar en una provincia diversidades de lenguas. La una es no estar debaxo de un principe, rey o senor, de donde proçede que tantas diferençias ay de lenguas quanta diversidad de senores; la otra es que, como siempre se pegan algo una [s] provinçias comarcanas a otras, acontece que cada parte de una provincia, tomando algo de sus comarcanas, su poco a poco se va diferençiando de las otras, y esto no solamente en el hablar, pero aun también en el conversar y en las costumbres. Espana, como sabéis, ha estado debaxo de muchos

senores [...]. La qual diversidad de senorios, pienso yo que en alguna manera aya causado la diferencia delas lenguas, bien que cualquiera dellas se conforma más con la lengua castellana que con ninguna otra, porque, aunque cada una della ha tomado de sus comarcanos, como Catalona ha tomado de Francia y de Italia, y Valencia que ha tomado de Catalu?a, todav?a veréis que principalmente tiran al latin que es, como tengo dicho, el fundamento de la lengúa castellana [...].

(١٢) إن القشتالية والبرتغالية كانتا في الواقع لغتين متشابهتين أكثر على فالديس مما هما عليه اليوم في شكلهما الكتابي خاصة. ومع ذلك، ففالديس يبالغ في تأكيد تشابههما.

(13) Le temps viendra peut-être, et je l'espère moyennant la bonne destinée française, que ce noble et puissant Royaume obtiendra à son tour les rênes de la monarchie et que notre langue (si avec François n'est du tout ensevelie la langue française) qui commence encore à jeter ses racines, sortira de terre et s'élèvera en telle hauteur et grosseur qu'elle se pourra égaler aux mêmes Grecs et Romains [...].

(14) [N]otre langue française n'est si pauvre qu'elle ne puisse rendre fidèlement ce qu'elle emprunte des autres, si infertile qu'elle ne puisse produire de soi quelque fruit de bonne invention au moyen de l'industrie et diligence des cultivateurs d'icelle si quelques-uns se trouvent tant amis de leur pays et d'eux-mêmes qu'ils s'y veuillent employer.

(15) [N]e les [traducteurs] doit retarder s'ils rencontrent quelquefois des mots qui ne peuvent être reçus en la famille française, vu que les Latins ne se sont point efforcés de traduire tous les vocables grecs, comme rhétorique, musique, arithmétique, géométrie, philosophie [...] et généralement la plus grande part des termes usités aux sciences naturelle et mathématiques. Ces mots-là donc seront en notre langue comme étrangers en une cité [...]. Donc la philosophie semée par Aristote et Platon au fertile champ attique était replantée en notre plaine française, ce ne serait la jeter entre les ronces et épines où elle devînt stérile, mais ce serait la faire de lointaine prochaine, et d'étrangère citadine de notre république.

(١٦) يستخدم دو بولاي بشكل واضح «جمهورية» في معناها العام «لنظام الحكم» polity بدلا من المعنى الأكثر تحديدا الذي يقارنه بالملكية أو حكم الأقلية oligarchy.

(١٧) يحاول أن يبرهن غيلنير على أن القومية من الأفضل أن تفهم باعتبارها نتيجة لطريقة متفاوتة انتشر فيها التحديث، ليحدث فيها تحولات اجتماعية واقتصادية هائلة، ويلحق خللا في أساليب حياة الناس ويشجعهم، من ثم، على الحركة من الريف إلى المدن. وإن القرية التقليدية والهياكل القبلية، التي كان يقوم عليها التنظيم الاجتماعي لم تعد فعالة، وعليه، لا بد من استبدالها. وإن الشيء المتاح الذي يجب أن يحل محلها في السياق المدني يتمثل في اللغة والثقافة التي تنبني على اللغة، خاصة الثقافة المطبوعة. إن التعليم الحديث الممول من قبل الدولة نشأ

حول الكلمة المطبوعة، وعمل بمنزلة مؤسسة قصد خلق تسلسلات اجتماعية تقوم على معرفة القراءة والكتابة ومعايير اللغة. ولكن التسلسلات الاجتماعية الجديدة سببت توترات جديدة، بما أن الشعب كان يتصارع من أجل استرداد امتيازات قديمة في ظل النظام الجديد. وقد كان للتحالفات الإثنية دور مهم في هذا الصراع، إذ تطور الشعور الإثني من خلال هذه الحركات القومية، «ليخلق» أمما لم يكن لها وجود في السابق.

وفي عمل لاحق، سيميد غيلنير (١٩٧٣، ١٩٨٣) صياغة هذه النظرية حتى تأخذ في الحسبان بعض الحقائق التي لم تستطع تفسيرها. ومنها تلك التي تتعلق بالدور المركزي التي خصت به اللغة: ويؤدي هذا بالمرء إلى الاعتقاد أن القوميات لم تكن لتنشأ في غياب لغة قومية معترف بها، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك. مثلا في العالم الناطق بالعربية وأمريكا اللاتينية الناطقة بالإسبانية (إضافة إلى العالم الناطق بالإنجليزية حيث تكون التنوعات اللغوية الفرعية الأمريكية والكندية المنفصلة معترفا بها، ولكن ليس بوصفها لغات مختلفة). وعلاوة على ذلك، تشكلت أمم مستقرة حول تعدد اللغات، كما هي الحال بالنسبة إلى سويسرا. ومن ثم، حول غيلنير تركيزه بعيدا عن اللغة أكثر من أي وقت مضى، لينصب اهتمامه على البنية المؤسساتية للنظام التعليمي العمومي ودوره في تحديد ثقافة ما وترسيخها والتي تعتبر القومية داخلها، بوصفها مبدأ سياسيا، جزءا لا يتجزأ. كما تمارس (أي القومية) فيها بطرق واسعة ومتعددة.

(18) L'existence d'une nation est (pardonnez-moi cette métaphore) un plébiscite de tous les jours.

(19) L'esprit de chaque peuple et sa langue sont dans la plus étroite connexité [...].

(٢٠) هذه الجمل مقتبسة عن رينان (١٨٨٢، ص: ٩) وغيلنير (١٩٦٤، ص: ١٦٩). ويمكن لاقتباس رينان أن يترجم على هذا النحو: «إن جوهر أمة ما يكمن في أن كل الأفراد لديهم أشياء كثيرة مشتركة، وأنهم في الوقت ذاته كلهم نسوا أشياء كثيرة».

(٢١) يؤكد أنطوني سميث Anthony smith بالخصوص مقدار مجهود تشكيل القومية الذي يهدف إلى الوصول إلى الماضي من أجل مصلحة «الإثنية الرمزية» (انظر مثلا سميث، ١٩٩٨، الفصل الثامن).

(٦)

(١) ولكن بشكل نسبي، لأنه تستخدم أنساق مختلفة لكتابة الصينية. فقد تبنت جمهورية الصين الشعبية رموزا «مبسطة»، في حين تستعمل هونغ كونغ رموزا تقليدية مثلا. علاوة على ذلك، يمكن للقراء الصينيين في أغلب الأحيان من خلال النص (سواء كان مطبوعا أو مكتوبا باليد) الإعلان عن أصل المنطقة التي ينتمي إليها مؤلفه.

(٢) جرى غزو هونغ كونغ والاستيلاء عليها من قبل القوات اليابانية في ديسمبر العام ١٩٤١، وفي نهاية الحرب العالمية الثانية، كان على السلطة ـ وبمقتضى قانون دولي ـ أن تسلمها لقوة حليفة قريبة منها جغرافيا. وكانت في هذه الحالة، حكومة كيومنتانغ الصينية. ولكن عمليا أعيدت إلى السيادة البريطانية.

(٣) ولا بد هنا من إضافة أن مفهوم «التقدم» في التغير اللغوي قد عمر طويلا (انظر مثلا يسبرسن، ١٨٩٤) (وانظر إيتشزون (١٩٨١) (١٩٨١) أيضا).

(٤) تثير البيانات بعض المشاكل التي تبدأ بكيفية التوفيق بينها وبين إحصائيات الحكومة التي تشير إلى أن معظم الفليبينيين الذين يعملون خدما في المنازل، يشكلون أكثر من ١ في المائة من سكان ١٩٩٢. ويفترض أن هؤلاء الخدم يتكلمون اللغات المحلية ويفهمونها، هذه اللغات التي كان لا بد أن تصنف باعتبارها لغة «الغير» على الطاولة. ومع ذلك، فإن الأرقام تظهر الأنماط نفسها التي وصفها تسو Tsou (١٩٩٦) والمسألة الثانية تبين أن التراجع في نسبة ناطقي الكانتونية من الفترة الممتدة من عام ١٩٨٢ إلى ١٩٩٢ هو ٧ ٪. ولم يكن ١ في المائة. ويعزى هذا الفرق إلى أنه جرى تقديم الصينية، في التقرير الثاني، ضمن قائمة الخيارات . فاختيرت من ٧ ٪ من المستجوبين، في حين أن مستجوبي العام ١٩٨٢ يفترض أنهم اختاروا «الكانتونية». وفي الأخير، كون البيانات صادرة من تقرير ذاتي وليست صادرة عن ملاحظة «موضوعية»، هو مشكل محتمل. ولكن تعتبر هذه هي الطريقة الوحيدة التي تمكننا من المقارنة عبر العقود الستة الماضية، بما أن كل بيانات ما قبل ١٩٨٢ هي بيانات اختلفت طبيعتها من كونها تبني على تقرير ذاتي إلى كونها تعتمد الإحصاء الرسمي. وفيما يختص بقضايا اللغة والهوية التي ترتبط ارتباطا وثيقا باستخدام اللغة في هونغ كونغ، فإن انطباعات الشعب الذاتية عن قدراتهم اللغوية التي يتعاملون بها مهمة مثل أي تقييم خارجي على الأقل.

(٥) من المؤكد أن إنجليزية هونغ كونغ المنطوقة تظهر أيضا سمات فونولوجية متعددة تميزها عن الإنجليزية المعيارية، لكن لم تناقش هنا. ويمكن أن نجد تقريرا مفصلا عن هذه السمات في عمل جيبونز Gibbons (١٩٧٩، ص: ٨-١٨).

(٦) تعتبر الكانتونية «لغة نغمية» tone language. أي أن منحنى التنغيم لطبقة الصوت pitch contour في كلمة ما، يسهم في التمييز بين معنى وآخر. وفي الصفحات التالية يشار إلى التنغيمات على هذا النحو: (â) هادر بعد صعود high falling، (á) (صاعد مرتفع) (high rising)، (a) (مستوى مرتفع)، àh (انحدار واطئ) low falling، áh (صاعد واطئ) low rising، ah (مستوى واطئ) low level وإن مضاعفة الحرف الصامت vowel دليل على طوله.

(٧) بخصوص الإنجليزية المعيارية في (a) و(b)، فأنا أتبنى ملاحظة بيكر Baker (١٩٩٥)، لأنها مفيدة لهذا النوع من البحث، ولا تلزم أي أحد بنظرية تركيبية خاصة.

(٧)

(١) ومنذ هوميروس، ظلت تقارير/ روايات الحرب تعمل بمنزلة مواقع سردية قوية للهوية القومية.

(٢) على الرغم من أن قراء من الشباب قد لا يشعرون تماما بقربهم من الفترة التي حدثت فيها هذه الأحداث، فقد كانت إحدى منشوراتي الأولى استعراضا (جوزيف، ١٩٨٠) لكتاب هانز كلوس (Heinz Kloss) (١٩٧٨) (١٩٠٤-٨٧) الذي

جرى الوقوف عند دوره وتوثيقه كلغوي نازي من قبل هتن (Hutton)، وذلك بإفراد فصل كامل له في كتابه الذي نشر العام ١٩٩٩. وإن الاختلافات المفاهيمية لكلوس، التي نوقشت واحدة منها في القسم الأول من هذا الفصل لاتزال تستأثر باهتمام واسع، ولا يجب التخلص منها بسبب السياق الذي تشكلت فيه. فهي على العكس من ذلك تماما، مفهدة في توضيح الخانمة المركزية المربكة لهتن، وهي أن علم اللغة في عصر النازية لم يكن شاذا أو «مفتقرا إلى العلمية» بحسب معايير العصر الراهن، وإنما كان امتدادا للعمل الذي قام به اللغويون منذ القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا.

(٣) إن نهوض هوية الإسلام السياسي وضع حدا لأخر جهود الوحدة العربية التي أشير إليها في قسم سابق، وهي حركة كانت تبحث في توحيد العرب بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية.

(٤) وفي ما يلي أزلت كل إشارات تتعلق بالألقاب العائلية للمفحوصين، واكتفيت بمناقشة الأسماء الشخصية التي أوردوها.

(٥) لقد حدث هذا في الواقع، منذ نهاية العصور الوسطى، وازدادت سرعته بشكل ملحوظ خلال فترة الثورة الصناعية.

(٦) وكمثال على ذلك، يتورط هاريس في النص الذي ورد سابقا في صفحة ١٨٢، في «افتراض ان [...] الإنجليزية هي في الواقع اللغة المشتركة للاقتصاد العالمي» حتى يبدو أنه غافل تماما عن حضور عبارة لاتينية وأخرى إيطالية في هذه الجملة بالذات. وبالطبع، إن حضورهما لايجعل الجملة غير إنجليزية، وإنما يتيح لصوت هاريس أن يؤول بوصفه صوتا لكاتب أكاديمي ـ ومن ثم فهو شخص مدرك لما يقول بوضوح.

(٧) في تقديري الشخصي، لا يمكن ابدا أن يحل أي جهاز محل المترجمين من البشر، ولكن عملهم اضحى أكثر دقة ونجاعة بفضل مشروع حوسبة الترجمة، الذي خفض من تكاليف التعامل التجاري بلغات متعددة.

(٨)

(١) لقد أصبحت السريانية، وهي لهجة شرقية من لهجات الآرامية، لغة ادبية مهمة منذ قرن بعد ميلاد المسيح، ومع مجيء الإسلام، تخلت عن معظم وظائفها للعربية، باستثناء الوظائف الطقوسية المسيحية.

(٢) ومن أجل نظرة عامة حول اللغة والهوية الإثنية في العالم الناطق بالعربية، انظر هولت (Holt) ١٩٩٦.

(٣) لا بد من الإشارة إلى أني لم ألتق بهم قبل ١٩٩٨: إذ هاجر جدي في ١٨٩٨، وفقدت العائلتان الاتصال في ما بينهما بعد وفاته في ١٩٦٣.

(٤) انظر ص: ٢٦٨، رقم الهامش ١٨.

(٥) النص الفرنسي الأصلي الذي ورد في هذا الكتاب مترجما من قبل الكاتب:

Nous avons chassé de la politique les abstractions métaphysiques et théologiques. Que reste-t-il, après cela? Il reste l'homme, ses désirs, ses besoins.

(٦) النص الفرنسي الأصلي الذي ورد في هذا الكتاب مترجما من قبل الكاتب:
[...] ces langues toutes physiques, auxquelles l'abstraction est inconnue et la métaphysique impossible.

(٧) وقبل سقوط رينان مضى عليه مباشرة. «كان له الوقت أن يلاحظ الفلاحين المارين وهم يمرون بالقرب من نافذته في طريقهم إلى الكنيسة، وفي هذا البلد الأجنبي الذي يعتبر نصف بلده متوحشا. ملأه المشهد المألوف بشعور من الدمار المطبق والعجز اللذين أشار إليهما منذ ذلك الحين» (دارمستتر (Darmesteter) (١٨٩٨)، ص: ١٤٢). ولتقديم نظرة حول الفترة القصيرة التي فصلت رحلة رينان عن الوقت الراهن، أود أن أشير إلى إمكان أن يكون أب جدي، يوسف (١٨٤٨ - ١٩٤١)، أحد أولاد الفلاحين المارين من نافذة رينان في التاسع عشر من سبتمبر، ١٨٦١. وقد بقي حيا في ذاكرة أفراد عائلتي الذين بدت عليهم علامات الشيخوخة وهم لايزالون في الستينيات من عمرهم. وأنهم، في الحقيقة، يتذكرون في الأساس عندما كانوا يشاهدونه وهو يغدو ويروح يوميا إلى الكنيسة.

(٨) النص الفرنسي الأصلي الذي ورد في هذا الكتاب مترجما من قبل الكاتب:
"à Rome, tu étais "le fils de l'Africain"; en Afrique, tu seras "le fils du" Roumi". Où que tu sois, certains voudront fouiller ta peau et tes prières. Garde-toi de flatter leurs instincts, mon fils, garde-toi de ployer sous la multitude! Musulman, juif ou chrétien, ils devront te prendre comme tu es, ou te perdre. Lorsque l'esprit des hommes te paraîtera, dis-toi que la terre de Dieu est vaste, et vaste Ses mains et Son c ur. N'hésite jamais à t'éloigner, au-delà de toutes les mers, au-delà de toutes les frontière, de toutes les patries, de toutes les croyances".

(الخاتمة)

(١) لغة هندية تُتداول بشكل واسع في بيرو (Peru) بأمريكا الجنوبية، والمناطق المجاورة.



هذا الكتاب

يبحث كتاب «اللغة والهوية» في موضوع العلاقة المعقدة بين الهوية القومية، والإثنية، والدينية لجماعات كلامية داخل المجتمع وطبيعة اللغة التي يتحدثون بها. ويشدد كاتبه على ضرورة أن تشكل الهوية الجزء الأهم في أي دراسة أكاديمية ميدانية تجرى حول اللغة إذا ما أريد للنظرية اللغوية أن تتطور، وتُعاد إليها نزعتها الإنسانية. وإذ يتبنى الكاتب هذا الطرح الاجتماعي الأيديولوجي لدراسة اللغة، يوضح في المقابل عجز اللسانيات البنيوية او اللسانيات «المستقلة بذاتها» أن تقدم تفسيرات وتأويلات للأنماط اللسانية المستعملة داخل مجتمعات يغلب عليها الطابع الإثني/العرقي، والديني/الطائفي. يجب أن ينصب الاهتمام، وفقا للكاتب، على الظروف التي وجدت فيها اللغة، وعلى الأسباب التي عملت على تطويرها وسبل تلقينها واستعمالها. لأن هذا سيساعدنا على استيعاب الخلفيات التاريخية لهوية لغة ما مثل اللغة الصينية، أو اللغة الإنجليزية، أو اللغة العربية.

إن الكتاب ـ بحق ـ مساهمة متفردة في تطوير النظرية اللغوية، خصوصا تلك المتعلقة بعلم اللغة الاجتماعي (Sociolinguistics)، وتحليل الخطاب (Discourse Analysis).

ISBN 978-99906-0-218-0
رقم الايداع (٢٠٠٧/٠٢٩)